

UNIVERSAL
LIBRARY

OU_190498

UNIVERSAL
LIBRARY

OUT-2272-19-11-79-10,000

OSMANIA UNIVERSITY LIBRARY

Call No. ^ع ۸۹۲۵۷۳

Accession No. ^د A-194

Author ^{ب ک}

Title ^{بیریا الفیلوف الحندی}
^{ناب کلمه دمنه مترجمه عبدالرشید کالمقفع}

This book should be returned on or before the date last marked below.

وزارة المعارف العمومية

كتاب كليلة ودمنة

تأليف
بيدبا الفيلسوف الهندي

ترجمه الى العربية في صدر الدولة العباسية
عبد الله بن المقفع

فروت وزادة المعارف العمومية بتاريخ ٤ من ربيع الأول
سنة ١٣٢٠ (١٠ من يونيو سنة ١٩٠٢ رقم ٨٩٦)
طبع هذا الكتاب على نفقتها وتدرسه بالمدارس الأميرية

القاهرة
طبع بالطبعة الأميرية بمولاي

١٩٣٧

فهرس كتاب كلىة ودمنة

صفحة

خطبة الكتاب	١
باب مقدمة الكتاب	٩
» بعثه برزويه إلى بلاد الهند	٤٢
» عرض الكتاب — ترجمة عبد الله بن المقفع	٥٨
» برزويه — ترجمة بزرجمهر بن البختگان	٧٤
» الأسد والثور — وهو أول الكتاب	٩١
» الفحص عن أمر دمنة	١٥٤
» الحمامة المطوقة	١٧٧
» البوم والغربان	٢٠٠
» القرد والغليم	٢٣٢
» الناسك وابن عرس	٢٤٠
» الجرذ والسنور	٢٤٤
» ابن الملك والطائر فترة	٢٥٣
» الأسد والشغبر الناسك وهو ابن آوى	٢٦٢
» ايلاذ وبلاد وايراخت	٢٧٤
» اللبؤة والإسوار والشغبر	٢٩٤
» الناسك والضيف	٢٩٩
» السائح والصائغ	٣٠١
» ابن الملك وأصحابه	٣٠٨
» الحمامة والثعلب ومالك الحزين	٣١٧

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ . وَخَصَّهُ دُونَ
الْمَخْلُوقَاتِ بِشَرَفِ التَّكْرِيمِ . وَوَهَبَ لَهُ عَقْلاً يَتَدَبَّرُ بِهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضِ مِنْ آيَاتٍ ، لِيَسْئَلَ بِإِرْشَادِهِ أَوْضَحَ الْمَحَجَّاتِ ، وَيَمْحُو
بِنُورِهِ ظُلُمَاتِ الرَّيْبِ وَالْإِلْبَاسِ ، قَائِلاً : وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ
نَضَرِبُهَا لِلنَّاسِ . وَالصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَلَى مَنْ بَيْنَ مَعَالِمِ الْعِرْفَانِ ،
الْمُخْتَصِّ بِجَوَامِعِ الْكَلِمِ فِي غَايَةِ الْبَيَانِ ، سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ الْمُبْعُوثِ
رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ . وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِينَ . (أَمَّا بَعْدُ) فَإِنَّ اتَّخَفَ
الْعَوَارِفِ ، وَالْطُفَّ الْمَعَارِفِ ، عِلْمٌ يَتَوَصَّلُ بِهِ إِلَى صَدَقِ
الْفِرَاسَةِ ، وَيُسْتَنْبِطُ مِنْهُ حُسْنَ السِّيَاسَةِ . وَمِنْ أَحْسَنِ مَا لَاحَ
عَلَى صَفَحَاتِ ذَلِكَ الْوَجْهِ وَجَنَّةً ، كِتَابُ "كَلِيلَةِ وَدِمْنَةِ" ،
مِنَ الْكُتُبِ الَّتِي تُرْجِمَتْ فِي صَدْرِ الدَّوْلَةِ الْعَبَّاسِيَّةِ مِنَ اللُّغَةِ
الْأَنْجَمِيَّةِ إِلَى اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ ، لِأَنَّهُ فِي ضُرُوبِ السِّيَاسَةِ أَكْبَرُ آيَةٍ ،
وَفِي جَوَامِعِ الْحِكْمِ وَالْآدَابِ مِنْ أَبْلَغِ غَايَةٍ . حَرَى بِأَنْ يُكْتَبَ
بَسَوَادِ الْمِنْسِكِ عَلَى بَيَاضِ الْكَافُورِ ، وَحَقِيقُ بِأَنْ يُعَلَّقَ بِخِيُوطِ

النُّورِ عَلَى نُحُورِ الْحُورِ . وَلِذَلِكَ عَكَفَ عَلَى الْإِعْتِنَاءِ بِهِ أَصْنَافُ
النَّاسِ ، فَتَرَجَمُوهُ مِنَ الْعَرَبِيَّةِ إِلَى لُغَاتِهِمْ مِنْ سَائِرِ الْأَجْنَاسِ .
ثُمَّ آغْتَالَتْ نُسخُهُ بِالْعَرَبِيَّةِ أَيْدِي الدُّهُورِ وَالْأَعْصَارِ ، وَطَارَ بِهَا
مِنْ رِيَّاحِ الْحَوَادِثِ إِعْصَارٌ . فَقَبِضَ اللَّهُ صَاحِبَ الْفُتُوحِ السَّنِيَّةِ ،
وَالْهِمَّةِ الْعَلِيَّةِ الْعُلُويَّةِ ؛ حَامِيَ ذِمَارِ الْمُسْلِمِينَ وَالْإِسْلَامِ ،
مَادَّ سُرَادِقِ الْعَدْلِ عَلَى كَافَّةِ الْأَنَامِ ؛ قَاهِرَ الطُّغَاةِ وَالْجَبَابِرَةِ ،
وَمُرْغِمَ أُنُوفِ الْمُتَمَرِّدَةِ الْفَاجِرَةِ ؛ أَمِيرَ أُمَرَاءِ الْمُؤْمِنِينَ ،
وَسَيْفَ اللَّهِ الْمَسْلُوعِ عَلَى أَعْنَاقِ الْمُعْتَدِينَ ؛ الْحَاجَّ مُحَمَّدَ عَلِيَّ بَاشَا ،
لَا زَالَتْ بِذُبَابِ سَيْفِهِ مُهْجُ الْعِدَا تَتَلَاشَى ؛ وَلَا بَرَحَتْ أَلْوِيَّتُهُ
بِالنَّصْرِ مَنْشُورَةً ، وَعَسَاكَرُهُ فِي كُلِّ وَجْهَةٍ مُظْفَرَةٌ مَنْصُورَةٌ ؛
فَاعْمَلْ فِي خِدْمَةِ الشَّرِيعَةِ الْغُرَّاءَ ، وَسَلُوكِ الْمَحَجَّةِ الْوَاضِحَةِ الْبَيْضَاءِ ،
كُلًّا مِنْ حَدِّ السَّيْفِ وَسِنَانِ الْقَلَمِ ، حَتَّى بَحَرَ بِمُتُونِ الصِّفَائِحِ
وَالصَّحَائِفِ يَنْبَاعِ النَّصْرِ وَالْحِكْمِ ؛ وَتَصَدَّى لِإِخْيَاءِ رَمِيمِ
الْمَكْرُمَاتِ الدَّوَارِسِ ، وَانْتَدَبَ لِإِعَادَةِ دَارِسِ الْعُلُومِ بِإِنْشَاءِ
الْمَدَارِسِ ؛ جَامِعًا بَيْنَ دَانِي الشَّرَفِ وَقَاصِيهِ ، حَقِيقًا بِمَا
قُلْتُ فِيهِ :

مَاذَا أَقُولُ وَكَيْفَ الْقَوْلُ فِي مَلِكٍ قَدْ فَاقَ كُلَّ مُلُوكِ الْأَعْصِرِ الْأَوَّلِ
 مُحَمَّدٌ أَنْتَ إِنْ أَحْمَدَكَ مُبْتَهَلًا وَإِنْ طَلَبْتُ لَكَ الْعَلِيَّا فَأَنْتَ عَلَيَّ
 قَدْ أَعْجَزَ الْبُلْغَاءَ اللَّسَنُ مَنْقَبَةٌ ^(١) عَنْهَا رَوَّايَيْنِ صِدْقُ الْقَوْلِ وَالْعَمَلِ
 وَمَا تَقَرُّ سَيْوْفٌ فِي مَمَالِكِهَا حَتَّى تَقْلُقَ دَهْرًا قَبْلَ فِي الْقُلُوبِ
 مِثْلُ الْمَلِكِ بَغَى أَمْرًا فَقَرَبَهُ ^(٢) طُولُ الرِّمَاحِ وَأَيْدِي الْخَيْلِ وَالْإِبِلِ
 وَعَزَمَهُ بَعَثَهَا هَمَّةٌ زَحَلٌ ^(٣) مِنْ تَحْتِهَا بِمَكَانِ التُّرْبِ مِنْ زُحَلٍ
 عَلَى الْفُرَاتِ أَعَاصِيرُ ^(٤) وَفِي حَلَبٍ تَوْحُشٌ لِمَلَقَى النَّصْرِ مُقْتَبِلِ
 تَتَلَوُ أَسْنَتَهُ الْكُتُبَ الَّتِي نَفَذَتْ ^(٥) وَيَجْعَلُ الْخَيْلَ أَبَدًا مِنَ الرُّسُلِ
 يَلْقَى الْمُلُوكَ فَلَا يَلْقَى سِوَى جَزْرِ ^(٦) وَمَا أَعْدُوا فَلَا يَلْقَى سِوَى نَفْلِ ^(٧)
 الْفَاعِلُ الْفِعْلَ لَمْ يَفْعَلْ لَشِدَّتِهِ ^(٨) وَالْقَائِلُ الْقَوْلَ لَمْ يُتْرَكْ وَلَمْ يَقُلْ
 وَالْبَاعِثُ الْجَيْشَ قَدْ غَالَتْ عَجَاجَتُهُ ^(٩) ضَوْءُ النَّهَارِ فَصَارَ الظُّهْرُ كَالطُّفْلِ
 الْجَوَاضِقُ مَا لَأَقَاهُ سَاطِعُهَا ^(١٠) وَمُقَلَّةُ الشَّمْسِ فِيهِ أَحْيَرُ الْمُقَلِّ

(١) أى الفصحاء لسن كفرح فهو لسن وألس . (٢) زحل مبتدأ وخبره بمكان والجملة صفة لهمة والمعنى همة دونها زحل . (٣) فى العراق فتن لا يحد ناراها سوى جيشك الجرار وسيفك البتار وفي حلب همجية لا يشلم حدها غير مستأنف ماضى عزمك وسنان رمحك . (٤) الجزر : جمع جرور وهو البعير . (٥) النفل : الغنيمة . (٦) غال : كاغثال أهلك ، والمراد تجب . (٧) المعجاجة : الغبار . (٨) الطفل بالتحريك : دق الشمس للغروب .

يَنَالُ أَبْعَدَ مِنْهَا وَهِيَ نَازِرَةٌ فَمَا تُقَابِلُهُ إِلَّا عَلَى وَجَلٍ
 قَدْ عَرَضَ السَّيْفُ دُونَ النَّازِلَاتِ بِهِ وَظَاهَرَ الْحَزَمَ بَيْنَ النَّفْسِ وَالْغِيَلِ
 وَوَكَّلَ الطَّعْنَ بِالْأَسْرَارِ فَانْكَشَفَتْ لَهُ صَمَائِرُ أَهْلِ السَّهْلِ وَالْجَبَلِ
 هُوَ الشُّجَاعُ يَعُدُّ الْبُخْلَ مِنْ جُبْنٍ وَهُوَ الْجَوَادُ يَعُدُّ الْجُبْنَ مِنْ بَخْلٍ
 يَعُودُ مِنْ كُلِّ فَتْحٍ غَيْرِ مُفْتَخِرٍ وَقَدْ أَعَدَّ إِلَيْهِ غَيْرَ مُحْتَفِلٍ
 وَلَا يُجِيرُ عَلَيْهِ الدَّهْرُ بُغْيَتَهُ وَلَا تُحَصِّنُ دِرْعٌ مُهْجَةَ الْبَطْلِ
 إِذَا خَلَعَتْ عَلَى عَرِضٍ لَهُ حُلًّا وَجَدَتْهَا مِنْهُ فِي أَهْبَى مِنَ الْحُلِّ
 يَذِي الْغَبَاوَةَ مِنْ إِنْسَادِهَا ضَرُّرٌ كَمَا تَضُرُّ رِيَّاحُ الْوَرْدِ بِالْجُعَلِ
 لَقَدْ رَأَتْ كُلُّ عَيْنٍ مِنْهُ مَالِهَا وَجَرَبَتْ خَيْرَ سَيْفٍ خَيْرَ الدُّوَلِ
 فَمَا تُكْشِفُكَ الْأَعْدَاءُ عَنْ مَلِكٍ مِنَ الْحُرُوبِ وَلَا الْآرَاءُ عَنْ زَلَلٍ
 وَكَمَرِ رِجَالٍ بِلَا أَرْضٍ لِكَثْرَتِهِمْ تَرَكْتَ جَمْعَهُمْ أَرْضًا بِلَا رَجُلٍ
 مَا زَالَ طَرَفُكَ يَجْرِي فِي دِمَائِهِمْ حَتَّى مَشَى بِكَ مَشَى الشَّارِبِ الثَّمَلِ
 يَأْمَنُ يَسِيرُ وَحُكْمُ النَّاطِرِينَ لَهُ فِيمَا يَرَاهُ وَحُكْمُ الْقَلْبِ فِي الْجَذَلِ
 إِنَّ السَّعَادَةَ فِيمَا أَنْتَ فَاعِلُهُ وَفَقْتُ مُرْتَحِلًا أَوْ غَيْرَ مُرْتَحِلِ

أَجْرَ الْحَيَادِ عَلَى مَا كُنْتَ مُجْرِيَهَا وَخُذْ بِنَفْسِكَ فِي أَخْلَاقِكَ الْأَوَّلِ
يَنْظُرُونَ مِنْ مُقَلِّ أَذَى أَجْتَهَبَهَا ^(١) قَرَعُ الْفَوَارِسِ بِالْعَسَالَةِ الذُّبُلِ
فَلَا هَجَمْتَ بِهَا إِلَّا عَلَى ظَفِرٍ وَلَا وَصَلْتَ بِهَا إِلَّا إِلَى أَمَلٍ ^(٢)

وَمِنْ جُمْلَةٍ مَا جَعَلَهُ لِلدِّينِ وَالْدُنْيَا زِينَةً وَعَيْدًا ، وَلِأَرْبَابِ
الْحُرُوبِ وَالْمَحَارِبِ مَوْسِمًا سَعِيدًا ، دَارُ الطَّبَاعَةِ الَّتِي أَنْشَأَهَا
بِبِلَاقٍ : إِذْ لَمْ يَكُنْ مِثْلُهَا فِي سَائِرِ الْأَقْطَارِ وَالْآفَاقِ . لِأَنَّ
الْكَتُبَ تُطْبَعُ فِيهَا مِنْ سَائِرِ الْعُلُومِ ، بِكُلِّ لُغَةٍ وَبِكُلِّ رَسْمٍ مَعَ
تَلَوْنِ الْمِدَادِ كَمَا هُوَ مَعْلُومٌ . فَصَادَفَ سَعْدُهُ الْمُقْتَرِنُ مِنَ اللَّهِ
بِالْمِنَّةِ ، وَجُودَ نُسْخَةٍ مَطْبُوعَةٍ بِالْعَرَبِيِّ فِي غَيْرِ بِلَادِ الْعَرَبِ مِنْ
كِتَابِ كُلَيْلَةِ وَدَمْنَةٍ . وَهِيَ الَّتِي تَرَجَمَهَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الْمُقَفِّعِ
الْكَاتِبُ الْمَشْهُورُ ، فِي أَيَّامِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ أَبِي جَعْفَرِ الْمَنْصُورِ .
وَكَانَتْ تَرَجَمَتُهَا مِنَ اللُّغَةِ الْبَهْلَوِيَّةِ ^(٣) إِلَى الْعَرَبِيَّةِ ، وَاتَّفَقَ النَّاسُ عَلَى
صِحَّةِ تِلْكَ النُّسْخَةِ : لِشُهْرَةِ مُصَحِّحِهَا بِالْأَلْمَعِيَّةِ . إِذْ قَالَ

(١) أحجة : جمع حجاج ومن معانيه عظم ينبت عليه الحاجب وهو المراد هنا . (٢) هذه القصيدة
جميعها ما عدا الأبيات الثلاثة الأولى مأخوذة من قصيدة لأبي الطيب في مديح سيف الدولة .
(٣) الفارسية القديمة .

فِي دِيْبَاجَتِهَا : ”اجْتَمَعَ عِنْدِي مِنْ كِتَابِ كَلِيلَةِ نُسْخٍ شَتَّى مُتَّفِقَةٍ
السِّيَاقِ وَالْإِنْتِظَامِ ، مُخْتَلِفَةِ الْعِبَارَةِ وَالْأَلْفَافِ . وَكَانَ مِنْ عَدَدِهَا
نُسْخَةٌ قَدِيمَةُ الْعَهْدِ ، عَجِيبَةُ الْخَطِّ ، غَيْرَ أَنَّهُ كَانَ يُوجَدُ فِيهَا مَعَ
جَوْدَتِهَا بَعْضُ الْغَلَطَاتِ . وَقَدْ ذَهَبَ مِنْهَا أَيْضًا بِتَضْرِيْفِ
الشُّهُورِ وَالْأَيَّامِ ، أَوْرَاقٌ جُعِلَتْ عِوَضًا عَنْهَا أَوْرَاقٌ غَيْرُهَا
جَدِيدَةُ الْعَهْدِ ، رَدِيئَةُ الْخَطِّ لَيْسَتْ عَلَى هَيْئَةِ الْبَاقِي . وَالنُّسْخَةُ
الْمَذْكُورَةُ هِيَ الَّتِي آخَرْتُهَا حَتَّى تَكُونَ هِيَ الْأَصْلَ الْمُعْتَمَدَ عَلَيْهِ
عِنْدَ طَبْعِ هَذَا الْكِتَابِ . غَيْرَ أَنِّي كَلَّمَا عَثَرْتُ فِيهَا عَلَى غَلْطَةٍ ،
أَوْ مَا أَشْتَبَهَ عَلَى الْقَارِئِ فَهَمُّهُ ، قَابَلْتُهَا بِمَا عِنْدِي مِنَ النَّسْخِ
غَيْرِهَا ، وَاثْبَتْتُ مَا رَأَيْتُ لَفْظُهُ أَفْصَحَ ، وَمَعْنَاهُ أَوْصَحَ “ انْتَهَى
كَلَامُهُ . ثُمَّ إِنَّ تِلْكَ النُّسْخَةَ الْمَطْبُوعَةَ عُرِضَتْ هِيَ وَغَيْرُهَا عَلَى
شَيْخِ مَشَائِخِ الْإِسْلَامِ ، وَقُدْوَةِ عُمَدِ الْأَنْامِ ، مَوْلَانَا الشَّيْخِ حَسَنِ
الْعَطَّارِ أَدَامَ اللَّهُ عُمُومَ فَضْلِهِ مَا دَامَ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ . فَقَالَ : يَصِحُّ
أَلَّا يُوجَدَ لَهَا فِي الصُّحَّةِ مِثَالٌ : لِشُهْرَةِ مُصَحِّحِهَا بِالضَّبْطِ
وَسَعَةِ الْإِطْلَافِ عَلَى الْأَقْوَالِ . وَحِينَئِذٍ اتَّفَقَتْ الْأَرَاءُ عَلَى أَنَّ

يَكُونُ الْمُعَوَّلُ فِي طَبْعِ ذَلِكَ الْكِتَابِ عَلَيْهَا ، وَمُتَمَتِّهِ اخْتِلَافِ
النُّسخِ وَوَفَاقِهَا إِلَيْهَا . فَبَادَرْتُ إِشَارَةَ الْأَمْرِ بِصَرِيحِ الْإِمْتِثَالِ ،
وَسَرَّخْتُ فِي رِيَاضِ تِلْكَ النُّسخِ سَائِمَ الطَّرْفِ وَالْبَالِ .
فَوَجَدْتُ الْمُطْبُوعَةَ أَفْصَحَهَا عِبَارَةً ، وَأَوْضَحَهَا إِشَارَةً ؛ وَأَصَحَّهَا
مَعْنًى ، وَأَحْكَمَهَا مَبْنًى ؛ غَيْرَ أَنَّ فِيهَا لُفِظَاتٍ حَادَثَتْ عَنْ
سَنَنِ الْعَرَبِيَّةِ وَبَعْضَ مَعَانٍ مَالَتْ بِهِ الرِّكَائِكَةُ عَنْ أَنْ يُفْهَمَ
بِطَرِيقَةٍ مَرْضِيَّةٍ . فَقَرَيْتُ أَضْيَافَ الْمَعَانِي بِأَيِّ لَفْظٍ تَسْتَهِيهِ .
وَصَاحِبُ الْبَيْتِ أَدْرَى بِالَّذِي فِيهِ . خُصُوصًا مَعَ وُجُودِ الْمَوَادِّ
الَّتِي تَكْشِفُ عَنْ وُجُوهِ الصُّحَّةِ نِقَابَ الْإِشْتِبَاهِ . وَمَنْ كَانَ
ذَا مُكْنَةً فَلْيَنْفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ ؛ مُسْتَعِينًا عَلَى ذَلِكَ بِمَا لَدَى
مِنَ النُّسخِ الَّتِي بِخَطِّ الْقَلَمِ ، مُعَوَّلًا عَلَى عِنَايَةِ مَنْ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ
مَا لَمْ يَعْلَمْ . حَتَّى أَثْمَرْتُ بِإِشَاعَةِ ذَلِكَ الْكِتَابِ مَعَ غَايَةِ
التَّحْرِيرِ ، حَدِيقَةً تِلْكَ الْمُطْبَعَةِ الْمَشْرِقَةِ بِطَوَالِجِ التَّنْوِيرِ ؛ عَلَى
يَدِ مُصَحِّحٍ مَا يَبْهَا مِنَ الْكُتُبِ الْعَرَبِيَّةِ ، الْمُسْتَعِيدِّ مِنْ مَوْلَاهُ

الْإِعَانَةَ وَالْمَعِيَّةَ ؛ رَاجِيَ مَنْ لِلْفَضْلِ يُؤْتِي ، عَبْدَ الرَّحْمَنِ الصَّفِيِّ ؛
غَفَرَ اللَّهُ ذُنُوبَهُ ، وَسَتَرَ فِي الدَّارَيْنِ عَيْبَهُ ؛ مَعَ سَائِرِ الْمُسْلِمِينَ .
بِجُرْمَةِ طُهُ وَيُس . عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ . وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ
الْكَرَامِ .

بَابُ مُقَدِّمَةِ الْكِتَابِ

قَدَّمَهَا بَهْنُودُ بْنُ سَحْوَانَ وَيُعْرَفُ بِعَلِيِّ بْنِ الشَّاهِ الْفَارِسِيِّ .
 ذَكَرَ فِيهَا السَّبَبَ الَّذِي مِنْ أَجْلِهِ عَمِلَ بَيْدَبَا الْفِيلَسُوفُ الْهِنْدِيُّ
 رَأْسُ الْبَرَاهِمَةِ لِدَبْشَلِيمَ مَلِكِ الْهِنْدِ كِتَابَهُ الَّذِي سَمَّاهُ كُلَيْلَةً وَدِمْنَةً ؛
 وَجَعَلَهُ عَلَى أَلْسِنِ الْبَهَائِمِ وَالطَّيْرِ صِيَانَةً لِعَرْضِهِ فِيهِ مِنَ الْعَوَامِّ ،
 وَضَنَّا بِمَا ضَمَّنَهُ عَنِ الطَّغَامِ ؛ وَتَنْزِيهَاً لِلْحِكْمَةِ وَفُنُونِهَا ، وَحَاسِنِهَا
 وَعُيُونِهَا ؛ إِذْ هِيَ لِلْفِيلَسُوفِ مَنُذُوحَةٌ ، وَلِخَاطِرِهِ مَفْتُوحَةٌ ؛
 وَلَمُحِبِّهَا تَنْقِيفٌ ، وَلِطَالِبِهَا تَشْرِيفٌ . وَذَكَرَ السَّبَبَ الَّذِي مِنْ
 أَجْلِهِ أَنْفَذَ كِسْرَى أَنْوَشِرَوَانُ بْنُ قُبَادَ بْنِ فَيْرُوزَ مَلِكُ الْفُرْسِ
 بَرْزَوِيَهُ رَأْسَ الْأَطْبَاءِ إِلَى بِلَادِ الْهِنْدِ لِأَجْلِ كِتَابِ كُلَيْلَةٍ وَدِمْنَةٍ ؛
 وَمَا كَانَ مِنْ تَلَطُّفٍ بَرْزَوِيَهُ عِنْدَ دُخُولِهِ إِلَى الْهِنْدِ ؛ حَتَّى حَضَرَ
 إِلَيْهِ الرَّجُلُ الَّذِي اسْتَنْسَخَهُ لَهُ سِرًّا مِنْ خِزَانَةِ الْمَلِكِ لَيْلًا ، مَعَ
 مَا وَجَدَ مِنْ كُتُبِ عُلَمَاءِ الْهِنْدِ . وَقَدْ ذَكَرَ الَّذِي كَانَ مِنْ بَعْثَةِ
 بَرْزَوِيهِ إِلَى مَمْلَكَةِ الْهِنْدِ لِأَجْلِ نَقْلِ هَذَا الْكِتَابِ ؛ وَذَكَرَ فِيهَا

مَا يَلْزَمُ مُطَالَعَهُ مِنْ إِتْقَانِ قِرَاءَتِهِ وَالْقِيَامِ بِدِرَاسَتِهِ وَالنَّظَرِ إِلَى
بَاطِنِ كَلَامِهِ ؛ وَأَنَّهُ إِنْ لَمْ يَكُنْ كَذَلِكَ لَمْ يَحْصُلْ عَلَى الْغَايَةِ مِنْهُ .
وَذَكَرَ فِيهَا حُضُورَ بَرَزَوِيهِ وَقِرَاءَةَ الْكِتَابِ جَهْرًا . وَقَدْ ذَكَرَ
السَّبَبَ الَّذِي مِنْ أَجْلِهِ وَضَعَ بُرْزُ جَمِهرُ بَابًا مُفْرَدًا يُسَمَّى بَابَ
بَرَزَوِيهِ الْمُتَطَبِّبِ ، وَذَكَرَ فِيهِ شَأْنَ بَرَزَوِيهِ مِنْ أَوَّلِ أَمْرِهِ وَأَنَّ
مَوْلَاهُ إِلَى أَنْ بَلَغَ التَّأْدِيبَ ، وَأَحَبَّ الْحِكْمَةَ ^(١) وَأَعْتَبَرَنِي أَقْسَامِهَا .
وَجَعَلَهُ قَبْلَ بَابِ الْأَسَدِ وَالثَّوْرِ الَّذِي هُوَ أَوَّلُ الْكِتَابِ .

قَالَ عَلِيُّ بْنُ الشَّاهِ الْفَارِسِيُّ : كَانَ السَّبَبُ الَّذِي مِنْ أَجْلِهِ وَضَعَ
بَيْدَبَا الْفِيلْسُوفُ لِدَبْشَلِيمَ مَلِكِ الْهِنْدِ كِتَابَ كُلَيْلَةَ وَدِمْنَةَ ، أَنَّ
الْإِسْكَندَرَ ذَا الْقَرْنَيْنِ الرُّومِيَّ لَمَّا فَرَّغَ مِنْ أَمْرِ الْمُلُوكِ الَّذِينَ كَانُوا
بِنَاحِيَةِ الْمَغْرِبِ ، سَارَ يُرِيدُ مُلُوكَ الْمَشْرِقِ مِنَ الْفُرْسِ وَغَيْرِهِمْ ؛
فَلَمْ يَزَلْ يُحَارِبُ مِنْ نَازَعِهِ وَيُوَاقِعُ مِنْ وَاقِعِهِ ، وَيُسَالِمُ مَنْ وَادَعَهُ
مِنْ مُلُوكِ الْفُرْسِ ، وَهُمْ الطَّبَقَةُ الْأُولَى ، حَتَّى ظَهَرَ عَلَيْهِمْ وَقْهَرٌ

(١) اعتبر : نظر .

مِنْ نَاوَاهُ وَتَغَلَّبَ عَلَى مَنْ حَارَبَهُ ؛ فَتَفَرَّقُوا طَرِائِقَ^(١) وَتَمَزَّقُوا
 حَزَائِقَ^(٢) . فَتَوَجَّهَ بِالْجُنُودِ نَحْوَ بِلَادِ الصِّينِ ؛ فَبَدَأَ فِي طَرِيقِهِ بِمَلِكِ
 الْهِنْدِ لِيَدْعُوهُ إِلَى طَاعَتِهِ وَالْدُخُولِ فِي مِلَّتِهِ وَوِلَايَتِهِ . وَكَانَ عَلَى
 الْهِنْدِ فِي ذَلِكَ الزَّمَانِ مَلِكٌ ذُو سَطْوَةٍ وَبَأْسٍ وَقُوَّةٍ وَمِرَاسٍ ، يُقَالُ
 لَهُ فُورٌ . فَلَمَّا بَلَغَهُ إِقْبَالُ ذِي الْقَرْنَيْنِ نَحْوَهُ تَاهَبَ لِمُحَارَبَتِهِ ،
 وَاسْتَعَدَّ لِمُجَادَبَتِهِ ؛ وَضَمَّ إِلَيْهِ أَطْرَافَهُ ، وَجَدَّ فِي التَّأَلُّبِ^(٣) عَلَيْهِ ؛
 وَجَمَعَ لَهُ الْعُدَّةَ فِي أَسْرَعِ مُدَّةٍ مِنَ الْفِيلَةِ الْمُعَدَّةِ لِلْحُرُوبِ ، وَالسَّبَاعِ
 الْمُضَرَّةِ بِالْوُثُوبِ^(٤) ؛ مَعَ الْخَيُْولِ الْمُسْرَجَةِ وَالسُّيُوفِ الْقَوَاطِيعِ ،
 وَالْحِرَابِ اللَّوَامِجِ^(٤) . فَلَمَّا قَرُبَ ذُو الْقَرْنَيْنِ مِنْ فُورِ الْهِنْدِيِّ
 وَبَلَغَهُ مَا قَدْ أَعَدَّ لَهُ مِنَ الْخَيْلِ الَّتِي كَانَتْهَا قِطْعُ اللَّيْلِ مِمَّا لَمْ يَلْقَهُ
 بِمِثْلِهِ أَحَدٌ مِنَ الْمُلُوكِ الَّذِينَ كَانُوا فِي الْأَقَالِيمِ ، تَخَوَّفَ ذُو الْقَرْنَيْنِ
 مِنْ تَقْصِيرِ يَقَعُ بِهِ إِنْ عَجَلَ الْمُبَارَزَةَ . وَكَانَ ذُو الْقَرْنَيْنِ رَجُلًا
 ذَا حَيْلٍ وَمَكَايِدَ ، مَعَ حُسْنِ تَدْبِيرٍ وَتَجْرِبَةٍ ، فَرَأَى إِعْمَالَ الْحَيْلَةِ
 وَالتَّمْهَلِ ، وَاحْتَفَرَ خَنْدَقًا عَلَى عَسْكَرِهِ ؛ وَأَقَامَ بِمَكَانِهِ لَاسْتِنْبَاطِ

(١) طرائق : أى فرقا . (٢) حزائق : أى قطعا . (٣) التألب : التجمع . (٤) جمع : حربة .

الحيلة والتدبير لأمره؛ وكيف ينبغي له أن يقدم على الإيقاع به .
فأستدعى بالمنجمين ، وأمرهم بالاختيار ليوم موافق تكون له
فيه سعادة لمحاربة ملك الهند والنصرة عليه . فاشتغلوا بذلك .
وكان ذوالقرنين لا يمر بمدينة إلا أخذ الصناع المشهورين من صناعاتها
بالحدق من كل صنف . فأنجحت له همته ودلته فطنته أن يتقدم
إلى الصناع الذين معه في أن يصنعوا خيلاً من نحاس مجوفة ،
عليها تماثيل من الرجال ، على بكر تجرى ، إذا دفعت مرت
سراعاً . وأمر إذا فرغوا منها أن تحشى أجوافها بالنفط والكبريت ،
وتلبس وتقدم أمام الصف في القلب . ووقت ما يلتقي الجمعان
تضرم فيها النيران . فإن الفيلة إذا لقت خراطينها على الفرسان
وهي حامية ، ولت هاربة . وأوعز إلى الصناع بالتشهير والانكاش^(١)
والفراغ منها . فحدوا في ذلك وعجلوا . وقرب أيضاً وقت اختيار
المنجمين . فأعاد ذوالقرنين رسله إلى فور بما يدعو إليه من
طاعته والإذعان لدولته . فأجاب جواب مصر على مخالفته ، مقيم

عَلَى مُحَارَبَتِهِ . فَلَمَّا رَأَى ذُو الْقَرْنَيْنِ عَزِيمَتَهُ سَارَ إِلَيْهِ بِأَهْبَتِهِ ؛
وَقَدَّمَ فُورَ الْفِيلَةِ أَمَامَهُ ، وَدَفَعَتِ الرِّجَالُ تِلْكَ الْخَيْلَ وَتَمَائِيلَ
الْفُرْسَانِ ؛ فَاقْبَلَتِ الْفِيلَةُ نَحْوَهَا ، وَلَقَّتْ خَرَاطِيمَهَا عَلَيْهَا . فَلَمَّا
أَحْسَتْ بِالْحَرَارَةِ أَلْقَتْ مَنْ كَانَ عَلَيْهَا ، وَدَاسَتْهُمْ تَحْتَ أَرْجُلِهَا ،
وَمَضَتْ مَهْزُومَةً هَارِبَةً ، لَا تَلْوِي عَلَى شَيْءٍ وَلَا تَمُرُّ بِأَحَدٍ إِلَّا
وَطِئَتْهُ . وَتَقَطَّعَ فُورٌ وَجَعُهُ ؛ وَتَبِعَهُمْ أَصْحَابُ الْإِسْكَانْدَرِ ؛
وَأَتَّخَنُوا فِيهِمُ الْجَرَاحَ . وَصَاحَ الْإِسْكَانْدَرُ : يَا مَلِكَ الْهِنْدِ أَبْرُزْ إِلَيْنَا ،
وَأَبْقِ عَلَى عُدَّتِكَ وَعِيَالِكَ ، وَلَا تَحْمِلْهُمْ عَلَى الْفَنَاءِ . فَإِنَّهُ لَيْسَ مِنَ
الْمُرُوءَةِ أَنْ يَرْمِيَ الْمَلِكُ بَعْدَتَهُ فِي الْمَهَالِكِ الْمُتَلَفَةِ وَالْمَوَاضِعِ الْمُجْبِحَةِ ،
بَلْ يَقِيهِمْ بِمَا لَهُ وَيَدْفَعُ عَنْهُمْ بِنَفْسِهِ . فَأَبْرُزَ إِلَى وَدَعِ الْجُنْدَ ، فَأَيْنَا
قَهْرَ صَاحِبِهِ فَهُوَ الْأَسْعَدُ . فَلَمَّا سَمِعَ فُورٌ مِنْ ذِي الْقَرْنَيْنِ
ذَلِكَ الْكَلَامَ دَعَتْهُ نَفْسُهُ لِمُلَاقَاتِهِ طَمَعًا فِيهِ ؛ وَظَنَّ ذَلِكَ فُرْصَةً .
فَبَرَزَ إِلَيْهِ الْإِسْكَانْدَرُ فَتَجَاوَلَا عَلَى ظَهْرَيِ فَرَسَيْهِمَا سَاعَاتٍ مِنْ

النَّهَارِ لَيْسَ يَلْقَى أَحَدُهُمَا مِنْ صَاحِبِهِ فُرْصَةً ؛ وَلَمْ يَزَالَا يَتَعَارَكَانِ .
فَلَمَّا أَغْيَا الإسْكَندَرُ أَمْرُهُ وَلَمْ يَجِدْ لَهُ فُرْصَةً وَلَا حِيلَةً أَوْقَعَ
ذُو الْقَرْنَيْنِ فِي عَسْكَرِهِ صَنِحَةً عَظِيمَةً ارْتَجَّتْ لَهَا الْأَرْضُ
وَالْعَسَاكِرُ ؛ فَالْتَفَتَ فُورٌ عِنْدَ مَا سَمِعَ الزَّعَقَةَ ، وَظَنَّمَا مَكِيدَةً
فِي عَسْكَرِهِ ؛ فَعَاجَلَهُ ذُو الْقَرْنَيْنِ بِضَرْبَةٍ أَمَلَتْهُ عَنْ سَرَجِهِ ، وَتَبِعَهُ
بِأُخْرَى ؛ فَوَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ . فَلَمَّا رَأَتْ الْهِنْدُ مَا نَزَلَ بِهِمْ ، وَمَا
صَارَ إِلَيْهِ مَلِكُهُمْ ؛ حَمَلُوا عَلَى الإسْكَندَرِ فَقَاتَلُوهُ قِتَالًا أَحْبَبُوا مَعَهُ
الْمَوْتَ . فَوَعَدَهُمْ مِنْ نَفْسِهِ الْإِحْسَانَ ، وَمَنَحَهُ اللَّهُ أَتْكَافَهُمْ ؛
فَاسْتَوَلَى عَلَى بِلَادِهِمْ ، وَمَلَكَ عَلَيْهِمْ رَجُلًا مِنْ ثِقَاتِهِ . وَأَقَامَ بِالْهِنْدِ
حَتَّى اسْتَوْثِقَ مِمَّا^(١) أَرَادَ مِنْ أَمْرِهِمْ وَاتَّفَاقِ كَلِمَتِهِمْ ؛ ثُمَّ أَنْصَرَفَ
عَنِ الْهِنْدِ وَخَلَّفَ ذَلِكَ الرَّجُلَ عَلَيْهِمْ . وَمَضَى مُتَوَجِّهًا نَحْوَ مَا قَصَدَ
لَهُ . فَلَمَّا بَعُدَ ذُو الْقَرْنَيْنِ عَنِ الْهِنْدِ بِجُيُوشِهِ ، تَغَيَّرَتِ الْهِنْدُ عَمَّا
كَانُوا عَلَيْهِ مِنْ طَاعَةِ الرَّجُلِ الَّذِي خَلَفَهُ عَلَيْهِمْ ؛ وَقَالُوا لَيْسَ

(١) استوثق هنا : أخذ الثقة مما أراد والذي في صفحة ١٥ استوسق الأمر من الوسق .

يَصْلُحُ لِلسِّيَاسَةِ وَلَا تَرْضَى الْخَاصَّةُ وَالْعَامَّةُ أَنْ يَمْلِكُوا عَلَيْهِمْ رَجُلًا
لَيْسَ هُوَ مِنْهُمْ وَلَا مِنْ أَهْلِ بَيْوتِهِمْ . فَإِنَّهُ لَا يَزَالُ يَسْتَذِلُّهُمْ
وَيَسْتَقِلُّهُمْ . وَاجْتَمَعُوا يَمْلِكُونَ عَلَيْهِمْ رَجُلًا مِنْ أَوْلَادِ مُلُوكِهِمْ ؛
فَمَلَكُوا عَلَيْهِمْ مَلِكًا يُقَالُ لَهُ دَبْشَلِيمُ ؛ وَخَلَعُوا الرَّجُلَ الَّذِي كَانَ
خَلَفَهُ عَلَيْهِمُ الْإِسْكَندَرُ . فَلَمَّا اسْتَوْسَقَ لَهُ الْأَمْرُ ^(١) ، وَاسْتَقَرَّ لَهُ
الْمُلْكُ ، طَغَى وَبَغَى وَتَجَبَّرَ وَتَكَبَّرَ ؛ وَجَعَلَ يَغْزُو مَنْ حَوْلَهُ مِنَ
الْمُلُوكِ . وَكَانَ مَعَ ذَلِكَ مُؤَيَّدًا مُظَفَّرًا مَنْصُورًا . فَهَبَتْهُ الرَّعِيَّةُ .
فَلَمَّا رَأَى مَا هُوَ عَلَيْهِ مِنَ الْمُلْكِ وَالسَّطْوَةِ ، عَثَ بِالرَّعِيَّةِ وَاسْتَصْغَرَ
أَمْرَهُمْ وَأَسَاءَ السَّيْرَةَ فِيهِمْ . وَكَانَ لَا تَرْتَقِي حَالُهُ إِلَّا ازْدَادَ عُتُوًّا .
فَكَثَّ عَلَى ذَلِكَ بُرْهَةٌ مِنْ دَهْرِهِ . وَكَانَ فِي زَمَانِهِ رَجُلٌ فِيلَسُوفٌ
مِنَ الْبَرَاهِمَةِ ، فَاضِلٌ حَكِيمٌ ، يُعْرَفُ بِفَضْلِهِ ، وَيُرْجَعُ فِي الْأُمُورِ
إِلَى قَوْلِهِ ، يُقَالُ لَهُ بَيْدَبَا . فَلَمَّا رَأَى الْمَلِكُ وَمَا هُوَ عَلَيْهِ مِنَ الظُّلْمِ
لِلرَّعِيَّةِ ، فَكَّرَ فِي وَجْهِ الْحِيلَةِ فِي صَرْفِهِ عَمَّا هُوَ عَلَيْهِ ، وَرَدَّهُ إِلَى
الْعَدَبِ وَالْإِنْصَافِ ؛ فَجَمَعَ لِدَلِكِ تَلَامِيذَهُ ، وَقَالَ : اتَّعَلُمُونَ
مَا أُرِيدُ أَنْ أَشَاوِرَكُمْ فِيهِ ؟ اَعْلَمُوا أَنِّي أَطَلْتُ الْفِكْرَةَ فِي دَبْشَلِيمِ

وَمَا هُوَ عَلَيْهِ مِنَ الْخُرُوجِ عَنِ الْعَدْلِ وَلُزُومِ الشَّرِّ وَرَدَاءَةِ السَّيْرِ
 وَسُوءِ الْعِشْرَةِ مَعَ الرَّعِيَّةِ ؛ وَنَحْنُ مَا نَرُوضُ أَنْفُسَنَا لِمِثْلِ هَذِهِ
 الْأُمُورِ إِذَا ظَهَرَتْ مِنَ الْمُلُوكِ ، إِلَّا لِنَرُدَّهُمْ إِلَى فِعْلِ الْخَيْرِ وَلُزُومِ
 الْعَدْلِ . وَمَتَى أَغْفَلْنَا ذَلِكَ وَأَهْمَلْنَاهُ لَزِمَ وَقُوعُ الْمَكْرُوهِ بِنَا ، وَبُلُوعُ
 الْمَحْذُورَاتِ إِلَيْنَا ؛ إِذْ كُنَّا فِي أَنْفُسِ الْجَهْلَالِ أَجْهَلُ مِنْهُمْ ؛ وَفِي
 الْعُيُونِ عِنْدَهُمْ أَقَلُّ مِنْهُمْ . وَلَيْسَ الرَّأْيُ عِنْدِي الْجَلَاءُ عَنِ الْوَطَنِ .
 وَلَا يَسْعُنِي فِي حِكْمَتِنَا إِبْقَاؤُهُ عَلَى مَا هُوَ عَلَيْهِ مِنْ سُوءِ السَّيْرِ وَقُبْحِ
 الطَّرِيقَةِ . وَلَا يُمَكِّنُنَا مُجَاهَدَتُهُ بِغَيْرِ السِّتْنَا . وَلَوْ ذَهَبْنَا إِلَى أَنْ
 نَسْتَعِينَ بِغَيْرِنَا لَمْ تَهَيِّأْ لَنَا مُعَانَدَتَهُ . وَإِنْ أَحَسَّ مِنَّا بِمُخَالَفَتِهِ
 وَإِنْكَارِنَا سُوءَ سِيرَتِهِ كَانَ فِي ذَلِكَ بَوَارُنَا . وَقَدْ تَعْلَمُونَ أَنَّ مُجَاوَرَةَ
 السُّبُعِ وَالْكَلْبِ وَالْحَيَّةِ وَالثَّوْرِ عَلَى طِيبِ الْوَطَنِ وَنَضَارَةِ الْعَيْشِ
 لَغَدْرٌ بِالنَّفْسِ . وَإِنَّ الْفَيْلَسُوفَ لِحَقِيقٌ أَنْ تَكُونَ هِمَّتُهُ مَضْرُوفَةً
 إِلَى مَا يُحْصَنُ بِهِ نَفْسُهُ مِنْ نَوَازِلِ الْمَكْرُوهِ وَلَوَاحِقِ الْمَحْذُورِ ؛
 وَيَدْفَعُ الْخَوْفُ لَاسْتِجْلَابِ الْحُبُوبِ . وَلَقَدْ كُنْتُ أَسْمَعُ أَنَّ
 فَيْلَسُوفًا كَتَبَ لِتَلْمِيذِهِ يَقُولُ : إِنَّ مُجَاوِرَ رَجَالِ السُّوءِ وَمُصَاحِبَهُمْ

كَرَاكِبِ الْبَحْرِ : إِنْ سَلِمَ مِنَ الْغَرَقِ لَمْ يَسْلَمْ مِنَ الْمَخَافِ . فَإِذَا
هُوَ أَوْرَدَ نَفْسَهُ مَوَارِدَ الْهَلَكَاتِ وَمَصَادِرَ الْمَخُوفَاتِ ، عُدَّ مِنَ الْحَمِيرِ
الَّتِي لَا نَفْسَ لَهَا . لِأَنَّ الْحَيَوَانَ الْبَيْمِيَّةَ^(١) قَدْ خُصَّتْ فِي طَبَائِعِهَا
بِمَعْرِفَةِ مَا تَكْتَسِبُ بِهِ النَّفْعَ وَتَتَوَقَّى الْمَكْرُوهَ : وَذَلِكَ أَنَّهَا لَمْ نَرَهَا
تُورِدُ أَنْفُسَهَا مَوْرِدًا فِيهِ هَلَكْتُهَا . وَأَنَّهَا مَتَى أَشْرَفَتْ عَلَى مَوْرِدٍ
مُهِلِكٍ لَهَا ، مَالَتْ بِطَبَائِعِهَا الَّتِي رُكِبَتْ فِيهَا - شَحًّا بِأَنْفُسِهَا وَصِيَانَةً
لَهَا - إِلَى الثُّغُورِ وَالتَّبَاعِدِ عَنْهُ . وَقَدْ جَمَعْتُمْ لِهَذَا الْأَمْرِ : لِأَنَّكُمْ
أُسْرَتِي وَمَكَانُ سِرِّي وَمَوْضِعُ مَعْرِفَتِي ، وَبِكُمْ أَعْتَصِدُ ، وَعَلَيْكُمْ
أَعْتَمِدُ . فَإِنَّ الْوَحِيدَ فِي نَفْسِهِ وَالْمُنْفَرِدَ بِرَأْيِهِ حَيْثُ كَانَ فَهُوَ ضَائِعٌ
وَلَا نَاصِرَ لَهُ . عَلَى أَنَّ الْعَاقِلَ قَدْ يَبْلُغُ بِحِيلَتِهِ مَا لَا يَبْلُغُ بِالْخَلِيلِ
وَالْجُنُودِ . وَالْمِثْلُ فِي ذَلِكَ أَنَّ قُنْبُرَةً^(٢) اتَّخَذَتْ أُدْحِيَّةً^(٣) وَبَاضَتْ فِيهَا
عَلَى طَرِيقِ الْفِيلِ ، وَكَانَ لِلْفِيلِ مَشْرَبٌ يَتَرَدَّدُ إِلَيْهِ . فَمَرَّ ذَاتَ
يَوْمٍ عَلَى عَادَتِهِ لِيَرِدَ مَوْرِدَهُ فَوَطِئَ عَشَّ الْقُنْبُرَةِ ، وَهَشَمَ بَيْضَهَا
وَقَتَلَ فِرَاحَهَا . فَلَمَّا نَظَرَتْ مَاسَاءَهَا ، عَلِمَتْ أَنَّ الَّذِي نَالَهَا مِنْ

(١) الحيوان : الحياة . قال تعالى : وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ .

(٢) الأضغ فيها قُبْرَةٌ وهي طائر . (٣) محلا تبيض فيه .

الْفِيلِ لَا مِنْ غَيْرِهِ . فَطَارَتْ فَوَقَّعَتْ عَلَى رَأْسِهِ بَاكِئَةً ، ثُمَّ قَالَتْ :
 أَيُّهَا الْمَلِكُ لِمَ هَشَمْتَ بَيْضِي وَقَتَلْتَ فِرَاحِي ، وَأَنَا فِي جِوَارِكَ ؟
 أَفَعَلْتَ هَذَا اسْتِصْغَارًا مِنْكَ لِأَمْرِي وَاحْتِقَارًا لِسَانِي ؟ قَالَ :
 هُوَ الَّذِي حَمَلَنِي عَلَى ذَلِكَ . فَتَرَكْتُهُ وَأَنْصَرَفْتُ إِلَى جَمَاعَةِ الطَّيْرِ ،
 فَشَكْتُ إِلَيْهَا مَا نَالَهَا مِنَ الْفِيلِ . فَقُلْنَ لَهَا وَمَا عَسَى أَنْ نَبْلُغَ مِنْهُ
 وَنَحْنُ طُيُورٌ ؟ فَقَالَتْ لِلْعَقَاقِ وَالْغُرَبَانِ : ^(١) أَحَبُّ مِنْكُنَّ أَنْ تَصْرَنَ
 مَعِيَ إِلَيْهِ فَتَنْقُصَ عَيْنِيهِ ، فَإِنِّي أَحْتَالُ لَهُ بَعْدَ ذَلِكَ بِحِيلَةٍ أُخْرَى .
 فَأَجَبْنَهَا إِلَى ذَلِكَ ، وَذَهَبْنَ إِلَى الْفِيلِ ، وَلَمْ يَزَلْنَ يَنْقُرْنَ عَيْنِيهِ
 حَتَّى ذَهَبَ بِهِمَا . وَبَقِيَ لَا يَهْتَدِي إِلَى طَرِيقِ مَطْعَمِهِ وَمَشْرَبِهِ
 إِلَّا مَا يَلْقُمُهُ مِنْ مَوْضِعِهِ . فَلَمَّا عَلِمَتْ ذَلِكَ مِنْهُ ، جَاءَتْ إِلَى
 غَدِيرٍ فِيهِ ضَفَادِعٌ كَثِيرَةٌ ، فَشَكَّتْ إِلَيْهَا مَا نَالَهَا مِنَ الْفِيلِ . قَالَتْ
 الضَّفَادِعُ : مَا حِيلَتُنَا نَحْنُ فِي عِظَمِ الْفِيلِ ؟ وَأَيْنَ نَبْلُغُ مِنْهُ ؟ قَالَتْ :
 أَحَبُّ مِنْكُنَّ أَنْ تَصْرَنَ مَعِيَ إِلَى وَهْدَةٍ قَرِيبَةٍ مِنْهُ ، فَتَنْقُصَ فِيهَا ،
 وَتَبْضُجْنَ . فَإِنَّهُ إِذَا سَمِعَ أَصْوَاتَكُنَّ لَمْ يَسْكُ فِي الْمَاءِ فَيَهْوِي

(١) جمع عَقَق وهو طير أبيض بسواد وبياض . (٢) أرض منخفضة .

فِيهَا . فَأَجْبَنَهَا إِلَى ذَلِكَ ؛ وَاجْتَمَعْنَ فِي الْهَآوِيَةِ ، فَسَمِعَ الْفِيلُ
نَقِيقَ الضَّفَادِعِ ، وَقَدْ أَجْهَدَهُ الْعَطَشُ ، فَأَقْبَلَ حَتَّى وَقَعَ
فِي الْوَهْدَةِ ، فَأَرْتَطَمَ فِيهَا . وَجَاءَتِ الْقُبْرَةُ تُرْفِرُ عَلَى رَأْسِهِ ؛
وَقَالَتْ : أَيُّهَا الطَّاعِي الْمَغْتَرُّ بِقُوَّتِهِ الْمُحْتَقِرُ لِأَمْرِي ، كَيْفَ رَأَيْتَ
عِظَمَ حِيلَتِي مَعَ صِغَرِ جُثَّتِي عِنْدَ عِظَمِ جُثَّتِكَ وَصِغَرِ هِمَّتِكَ ؟
فَلْيُشِرْ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْكُمْ بِمَا يَسْنَحُ لَهُ مِنَ الرَّأْيِ . قَالُوا
بِاجْتِمَاعِهِمْ : أَيُّهَا الْفَيْلَسُوفُ الْفَاضِلُ ، وَالْحَكِيمُ الْعَادِلُ ، أَنْتَ
الْمُقَدَّمُ فِينَا ، وَالْفَاضِلُ عَلَيْنَا ، وَمَا عَسَى أَنْ يَكُونَ مَبْلَغُ رَأْيِنَا عِنْدَ
رَأْيِكَ ، وَفَهْمِنَا عِنْدَ فَهْمِكَ ؟ غَيْرَ أَنَّنا نَعْلَمُ أَنَّ السَّبَاحَةَ فِي الْمَاءِ
مَعَ التَّمْسَاحِ تَغْرِيرٌ ؛ وَالذَّنْبُ فِيهِ لِمَنْ دَخَلَ عَلَيْهِ فِي مَوْضِعِهِ .
وَالَّذِي يَسْتَخْرِجُ السَّمَّ مِنْ نَابِ الْحَيَّةِ فَيَبْتَلِعُهُ لِيَجْرِبَهُ جَانٍ عَلَى
نَفْسِهِ ؛ فَلَيْسَ الذَّنْبُ لِحَيَّةٍ . وَمَنْ دَخَلَ عَلَى الْأَسَدِ فِي غَابَتِهِ ،
لَمْ يَأْمَنْ مِنْ وَثْبَتِهِ . وَهَذَا الْمَلِكُ لَمْ تُفْرِغْهُ النَّوَائِبُ ، وَلَمْ تُؤَدِّهِ

التَّجَارِبُ . وَلَسْنَا نَأْمَنُ عَلَيْكَ وَلَا عَلَى أَنْفُسِنَا سَطَوَتُهُ وَإِنَّا نَخَافُ
عَلَيْكَ مِنْ سَوْرَتِهِ وَمُبَادَرَتِهِ بِسُوءٍ إِذَا لَقِيْتَهُ بِغَيْرِ مَا يُحِبُّ . فَقَالَ^(١)
الْحَكِيمُ بَيْدَبَا : لَعَمْرِي لَقَدْ قُلْتُمْ فَأَحْسَنْتُمْ ، لَكِنَّ ذَا الرَّأْيِ
الْحَازِمَ لَا يَدْعُ أَنْ يُشَاوَرَ مَنْ هُوَ دُونُهُ أَوْ فَوْقَهُ فِي الْمَنْزِلَةِ .
وَالرَّأْيُ الْفَرْدُ لَا يُكْتَفَى بِهِ فِي الْخَاصَّةِ وَلَا يُنْتَفَعُ بِهِ فِي الْعَامَّةِ .
وَقَدْ صَحَّتْ عَزِيمَتِي عَلَى لِقَاءِ دَبْشَلِيمَ . وَقَدْ سَمِعْتُ مَقَالَتَكُمْ ؛
وَتَبَيَّنَ لِي نَصِيحَتُكُمْ وَالْإِشْفَاقُ عَلَيَّ وَعَلَيْكُمْ . غَيْرَ أَنِّي قَدْ رَأَيْتُ
رَأْيًا وَعَزَمْتُ عَزْمًا ؛ وَسَتَعْرِفُونَ حَدِيثِي عِنْدَ الْمَلِكِ وَمَجَاوِزِي إِيَّاهُ
فَإِذَا اتَّصَلَ بِكُمْ خُرُوجِي مِنْ عِنْدِهِ فَاجْتَمِعُوا إِلَيَّ . وَصَرَفَهُمْ
وَهُمْ يَدْعُونَ لَهُ بِالسَّلَامَةِ .

ثُمَّ إِنَّ بَيْدَبَا اخْتَارَ يَوْمًا لِلدُّخُولِ عَلَى الْمَلِكِ ؛ حَتَّى إِذَا كَانَ
ذَلِكَ الْوَقْتُ اتَّقَى عَلَيْهِ مُسُوْحَهُ وَهِيَ لِبَاسُ الْبَرَاهِمَةِ ؛ وَقَصَدَ بَابَ^(٢)
الْمَلِكِ ، وَسَأَلَ عَنْ صَاحِبِ إِذْنِهِ وَأُرْشِدَ إِلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَيْهِ ؛

(١) سَطَوَتُهُ وَاعْتَدَاتُهُ . (٢) جَمْعُ مَسْحٍ وَهُوَ الْكِسَاءُ مِنَ الشَّعْرِ .

وَأَعْلَمَهُ وَقَالَ لَهُ : إِنِّي رَجُلٌ قَصَدْتُ الْمَلِكَ فِي نَصِيحَةٍ . فَدَخَلَ
الْأَذْنَ عَلَى الْمَلِكِ فِي وَقْتِهِ ، وَقَالَ : يَا بَابَ رَجُلٍ مِنَ الْبَرَاهِمَةِ يُقَالُ لَهُ^(١)
بَيْدَبَا ، ذَكَرْتُ أَنَّ مَعَهُ لِلْمَلِكِ نَصِيحَةً . فَأَذِنَ لَهُ ، فَدَخَلَ وَوَقَفَ
بَيْنَ يَدَيْهِ وَكَفَّرَ وَسَجَدَ لَهُ وَاسْتَوَى قَائِمًا وَسَكَتَ . وَفَكَرَ دَبْشَلِيمُ^(٢)
فِي سُكُوتِهِ ، وَقَالَ : إِنَّ هَذَا لَمْ يَقْصِدْنَا إِلَّا لِأَمْرَيْنِ : إِمَّا
لِالْتِمَاسِ شَيْءٍ مِنَّا يُضْلِحُ بِهِ حَالَهُ ، وَإِمَّا لِأَمْرِ لِحَقِّهِ فَلَمْ تَكُنْ
لَهُ بِهَ طَاقَةً . ثُمَّ قَالَ : إِنْ كَانَ لِلْمُلُوكِ فَضْلٌ فِي مَمْلَكَتِهَا فَإِنَّ
لِلْحُكَمَاءِ فَضْلًا فِي حِكْمَتِهَا أَعْظَمَ : لِأَنَّ الْحُكَمَاءَ أَغْنِيَاءُ عَنِ الْمُلُوكِ
بِالْعِلْمِ وَلَيْسَ الْمُلُوكُ بِأَغْنِيَاءَ عَنِ الْحُكَمَاءِ بِالْمَالِ . وَقَدْ وَجَدْتُ
الْعِلْمَ وَالْحَيَاءَ الْفَيْنِ مُتَالِفَيْنِ لَا يَفْتَرِقَانِ : مَتَى فَقَدَ أَحَدُهُمَا
لَمْ يُوجَدْ الْآخَرُ ؛ كَأَمَّا تَصَافِيَيْنِ إِنْ عُدِمَ مِنْهُمَا أَحَدٌ لَمْ يَطْبِ صَاحِبُهُ
نَفْسًا بِالْبَقَاءِ بَعْدَهُ تَأْسُفًا عَلَيْهِ . وَمَنْ لَمْ يَسْتَحْيِ مِنَ الْحُكَمَاءِ
وَيُكْرِمُهُمْ ، وَيَعْرِفَ فَضْلَهُمْ عَلَى غَيْرِهِمْ ، وَيَصُونَهُمْ عَنِ

(١) الحاجب . (٢) عظم والكفر من معانيه تعظيم الفارسي للملكة والتكفير من معانيه

إيماء الذي برأسه .

المَوَاقِفِ الْوَاهِنَةِ ، وَيُنَزِّهَهُمْ عَنِ الْمَوَاطِنِ الرَّذَلَةِ كَانَ مِمَّنْ حُرِمَ
عَقْلُهُ ، وَخَسِرَ دُنْيَاهُ ، وَظَلَمَ الْحُكَمَاءَ حُقُوقَهُمْ ، وَعُدَّ مِنَ
الْجُهَالِ . ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ إِلَى بَيْدَبَا ، وَقَالَ لَهُ : نَظَرْتُ إِلَيْكَ
يَا بَيْدَبَا سَاكِنًا لَا تَعْرِضُ حَاجَتَكَ ، وَلَا تَذْكُرُ بُغْيَتَكَ ، فَقُلْتُ :
إِنَّ الَّذِي أَسْكَنَهُ هَيْبَةُ سَاوَرْتَهُ أَوْ حَيْرَةُ أَدْرَكَتَهُ ، وَتَأَمَّلْتُ عِنْدَ
ذَلِكَ مِنْ طُولِ وَقُوفِكَ ، وَقُلْتُ : لَمْ يَكُنْ لِبَيْدَبَا أَنْ يَطْرُقَنَا عَلَى
غَيْرِ عَادَةٍ إِلَّا لِأَمْرِ حَرَكَةٍ لَذَلِكَ ، فَإِنَّهُ مِنْ أَفْضَلِ أَهْلِ زَمَانِهِ .
فَهَلَّا نَسْأَلُهُ عَنْ سَبَبِ دُخُولِهِ ! فَإِنْ يَكُنْ مِنْ ضَمِيمِ نَالِهِ ، كُنْتُ
أَوَّلَى مَنْ أَخَذَ بِيَدِهِ وَسَارَعَ فِي تَشْرِيفِهِ ، وَتَقَدَّمَ فِي الْبُلُوغِ إِلَى
مُرَادِهِ وَإِعْزَازِهِ ، وَإِنْ كَانَتْ بُغْيَتُهُ غَرَضًا مِنْ أَغْرَاضِ الدُّنْيَا
أَمَرْتُ بِإِرْضَائِهِ مِنْ ذَلِكَ فِيمَا أَحَبَّ ، وَإِنْ يَكُنْ مِنْ أَمْرِ
الْمُلْكِ ، وَمِمَّا لَا يَنْبَغِي لِلْمُلُوكِ أَنْ يَبْذُلُوهُ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَلَا يَنْقَادُوا
إِلَيْهِ نَظَرْتُ فِي قَدْرِ عَقُوبَتِهِ ، عَلَى أَنَّ مِثْلَهُ لَمْ يَكُنْ لِيَجْتَرِئَ عَلَى
إِدْخَالِ نَفْسِهِ فِي بَابِ مَسْأَلَةِ الْمُلُوكِ ، وَإِنْ كَانَ شَيْئًا مِنْ أُمُورِ
الرَّعِيَّةِ يَقْصُدُ فِيهِ أُنًى أَصْرِفُ عِنَايَتِي إِلَيْهِمْ ، نَظَرْتُ مَا هُوَ ،

فَإِنَّ الْحُكَمَاءَ لَا يُشِيرُونَ إِلَّا بِالْخَيْرِ ، وَالْجُهَالُ يُشِيرُونَ بِضَدِّهِ .
وَأَنَا قَدْ فَسَحْتُ لَكَ فِي الْكَلَامِ . فَلَمَّا سَمِعَ بَيْدَبَا ذَلِكَ مِنَ
الْمَلِكِ أَفْرَخَ رُوعَهُ ^(١) ، وَسَرَى عَنْهُ مَا كَانَ وَقَعَ فِي نَفْسِهِ مِنْ خَوْفِهِ
وَكَفَّرَ لَهُ وَسَجَدَ ، ثُمَّ قَامَ بَيْنَ يَدَيْهِ وَقَالَ : أَوَّلَ مَا أَقُولُ أَسْأَلُ
اللَّهَ تَعَالَى بَقَاءَ الْمَلِكِ عَلَى الْأَبَدِ ، وَدَوَامَ مُلْكِهِ عَلَى الْأَمَدِ : لِأَنَّ
الْمَلِكَ قَدْ مَنَحَنِي فِي مَقَامِي هَذَا مَحَلًّا جَعَلَهُ شَرَفًا لِي عَلَى جَمِيعِ
مَنْ بَعْدِي مِنَ الْعُلَمَاءِ ، وَذِكْرًا بَاقِيًا عَلَى الدَّهْرِ عِنْدَ الْحُكَمَاءِ .
ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَى الْمَلِكِ بِوَجْهِهِ ، مُسْتَبْشِرًا بِهِ فَرَحًا بِمَا بَدَأَ لَهُ مِنْهُ ،
وَقَالَ : قَدْ عَظَفَ الْمَلِكُ عَلَى بِكْرَمِهِ وَإِحْسَانِهِ . وَالْأَمْرُ الَّذِي
دَعَانِي إِلَى الدُّخُولِ عَلَى الْمَلِكِ ، وَحَمَلَنِي عَلَى الْخَطَا طَرَةً لِكَلَامِهِ ،
وَالْأَقْدَامَ عَلَيْهِ ، نَصِيحَةً أَخْتَصَصْتُهُ بِهَا دُونَ غَيْرِهِ . وَسَيَعْلَمُ
مَنْ يَتَّصِلُ بِهِ ذَلِكَ أَنِّي لَمْ أَقْصُرْ عَنْ غَايَةِ فِيمَا يَجِبُ لِلْمَوْلَى عَلَى
الْحُكَمَاءِ . فَإِنْ فَسَحَ فِي كَلَامِي وَوَعَاهُ عَنِّي ، فَهُوَ حَقِيقٌ بِذَلِكَ

(١) يُقَالُ : أَفْرَخَ رُوعَهُ وَرُوعَهُ . أَيْ ذَهَبَ فَرَعُهُ وَخَوْفُهُ . وَقَالَ أَبُو الْهَيْثَمِ إِنَّمَا هُوَ :

أَفْرَخَ رُوعَهُ وَمَعْنَاهُ نَجَحَ الرُّوعُ وَالْفَرْعُ مِنْ رُوعِهِ وَهُوَ الْقَلْبُ . (٢) زَالَ عَنْهُ .

وَمَا يَرَاهُ ، وَإِنْ هُوَ الْقَاهُ ، فَقَدْ بَلَغْتُ مَا يَلْزُمُنِي وَخَرَجْتُ مِنْ
لَوْحٍ يَلْحَقُنِي . قَالَ الْمَلِكُ يَا بَيْدَبَا تَكَلِّمُ كَيْفَ شِئْتَ : فَإِنِّي مُضْغٍ
إِلَيْكَ ، وَمُقْبِلٌ عَلَيْكَ ، وَسَامِعٌ مِنْكَ ، حَتَّى أَسْتَفْرِغَ مَا عِنْدَكَ
إِلَى آخِرِهِ ، وَأَجَازِيكَ عَلَى ذَلِكَ بِمَا أَنْتَ أَهْلُهُ . قَالَ بَيْدَبَا :
إِنِّي وَجَدْتُ الْأُمُورَ الَّتِي أَخْتَصَّ بِهَا الْإِنْسَانُ مِنْ بَيْنِ سَائِرِ
الْحَيَوَانَ أَرْبَعَةَ أَشْيَاءَ ، وَهِيَ جُمَاعٌ مَا فِي الْعَالَمِ ^(١) ، وَهِيَ الْحِكْمَةُ
وَالْعِفَّةُ وَالْعَقْلُ وَالْعَدْلُ . وَالْعِلْمُ وَالْأَدَبُ وَالرَّوْيَةُ دَاخِلَةٌ فِي بَابِ
الْحِكْمَةِ . وَالْحِلْمُ وَالصَّبْرُ وَالْوَقَارُ دَاخِلَةٌ فِي بَابِ الْعَقْلِ . وَالْحَيَاءُ
وَالكِرْمُ وَالصِّيَانَةُ وَالْأَنَفَةُ دَاخِلَةٌ فِي بَابِ الْعِفَّةِ . وَالصَّدْقُ
وَالْإِحْسَانُ وَالْمُرَاقَبَةُ وَحُسْنُ الْخُلُقِ دَاخِلَةٌ فِي بَابِ الْعَدْلِ .
وَهَذِهِ هِيَ الْحَاسِنُ ، وَأَضْدَادُهَا هِيَ الْمَسَاوِي . فَتَى كَلَّمْتُ هَذِهِ
فِي وَاحِدٍ لَمْ تُخْرِجْهُ الزِّيَادَةُ فِي نِعْمَةٍ إِلَى سُوءِ الْحِظِّ مِنْ دُنْيَاهُ
وَلَا إِلَى نَقْصٍ فِي عُقْبَاهُ ، وَلَمْ يَتَأَسَفْ عَلَى مَا لَمْ يُعِنِ التَّوْفِيقُ
بِبَقَائِهِ ، وَلَمْ يُخْزِنُهُ مَا تَجَرَّى بِهِ الْمَقَادِيرُ فِي مُلْكِهِ ، وَلَمْ يَدْهَشْ

عِنْدَ مَكْرُوهِه . فَالْحِكْمَةُ كَنْزٌ لَا يَفْنَى عَلَى انْفِاقٍ ، وَذَخِيرَةٌ
لَا يَبْصُرُهَا إِلَّا الْمَلَأَقُ ، وَحِلَّةٌ لَا تَخْلُقُ جِدَّتُهَا ، وَلَذَّةٌ لَا تُصْرَمُ^(١)
مُدَّتُهَا . وَلَئِنْ كُنْتُ عِنْدَ مَقَامِي بَيْنَ يَدَيِ الْمَلِكِ امْسَكْتُ عَنْ
ابْتِدَائِهِ بِالْكَلَامِ ، إِنَّ ذَلِكَ لَمْ يَكُنْ مِنِّي إِلَّا لِهَيْبَتِهِ وَالْإِجْلَالِ لَهُ .
وَلَعَمْرِي إِنَّ الْمُلُوكَ لِأَهْلٌ أَنْ يُهَابُوا ، لَا سِيمَا مَنْ هُوَ فِي الْمَنْزِلَةِ
الَّتِي جَلَّ فِيهَا الْمَلِكُ عَنْ مَنَازِلِ الْمُلُوكِ قَبْلَهُ . وَقَدْ قَالَتِ الْعُلَمَاءُ :
الزَّمِ السُّكُوتَ ، فَإِنَّ فِيهِ سَلَامَةً ، وَتَجَنَّبِ الْكَلَامَ الْفَارِغَ ، فَإِنَّ
عَاقِبَتَهُ النَّدَامَةُ . وَحَكَى أَنَّ أَرْبَعَةً مِنَ الْعُلَمَاءِ صَمَّهُمْ مَجْلِسُ
مَلِكٍ ، فَقَالَ لَهُمْ : لِيَتَكَلَّمُ كُلُّ بِكَلَامٍ يَكُونُ أَصْلًا لِلدَّيْبِ .
فَقَالَ أَحَدُهُمْ : أَفْضَلُ خَلَّةِ الْعِلْمِ السُّكُوتُ . وَقَالَ الثَّانِي : إِنَّ
مِنْ أَنْفَعِ الْأَشْيَاءِ لِلْإِنْسَانِ أَنْ يُعْرِفَ قَدْرَ مَنْزِلَتِهِ مِنْ عَقْلِهِ .
وَقَالَ الثَّالِثُ : أَنْفَعُ الْأَشْيَاءِ لِلْإِنْسَانِ أَلَّا يَتَكَلَّمَ بِمَا لَا يَعْنِيهِ .
وَقَالَ الرَّابِعُ : أَرْوَحُ الْأُمُورِ عَلَى الْإِنْسَانِ التَّسْلِيمُ لِلْمَقَادِيرِ .

(١) لَمَّا الصَّوَابُ "لَا يَبْصُرُهَا إِلَّا الْمَلَأَقُ" . (٢) لَا تَبِلُ . (٣) لَا تَقْطَعُ .

وَأَجْتَمَعَ فِي بَعْضِ الزَّمَانِ مُلُوكُ الْأَقَالِيمِ مِنَ الصِّينِ وَالْهِنْدِ
وَفَارِسَ وَالرُّومِ ، وَقَالُوا يَذْبَنِي أَنْ يَتَكَلَّمَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنَّا بِكَلِمَةٍ
تُدَوِّنُ عَنْهُ عَلَى غَايِرِ الدَّهْرِ . فَقَالَ مَلِكُ الصِّينِ : أَنَا عَلَى مَا لَمْ
أَقُلْ أَقْدَرُ مِنْ عَلَى رَدِّ مَا قُلْتُ . وَقَالَ مَلِكُ الْهِنْدِ : عَجِبْتُ
لِمَنْ يَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ فَإِنْ كَانَتْ لَهُ لَمْ تَنْفَعُهُ ، وَإِنْ كَانَتْ عَلَيْهِ
أَوْبَقَتْهُ .^(١) وَقَالَ مَلِكُ فَارِسَ : أَنَا إِذَا تَكَلَّمْتُ بِالْكَلِمَةِ مَلَكَتْنِي ،
وَإِذَا لَمْ أَتَكَلَّمْ بِهَا مَلَكَتْهَا . وَقَالَ مَلِكُ الرُّومِ : مَا نَدِمْتُ عَلَى
مَا لَمْ أَتَكَلَّمْ بِهِ قَطُّ ، وَلَقَدْ نَدِمْتُ عَلَى مَا تَكَلَّمْتُ بِهِ كَثِيرًا .
وَالسُّكُوتُ عِنْدَ الْمُلُوكِ أَحْسَنُ مِنَ الْهَذَرِ الَّذِي لَا يُرْجَعُ مِنْهُ إِلَى
نَفْعٍ . وَأَفْضَلُ^(٢) مَا اسْتَظَلَّ بِهِ الْإِنْسَانُ لِسَانَهُ . غَيْرَ أَنَّ الْمَلِكَ ،
أَطَالَ اللَّهُ مَدَّتَهُ ، لَمَّا فَسَحَ لِي فِي الْكَلَامِ وَأَوْسَعَ لِي فِيهِ ؛
كَانَ أَوَّلَى مَا أَبْدَأُ بِهِ مِنَ الْأُمُورِ الَّتِي هِيَ غَرَضِي أَنْ يَكُونَ ثَمَرَةُ
ذَلِكَ لَهُ دُونِي ؛ وَأَنْ أُخْتَصَّ بِالْفَائِدَةِ قَبْلِي . عَلَى أَنَّ الْعُقْبَى
هِيَ مَا أَقْصِدُ فِي كَلَامِي لَهُ ؛ وَإِنَّمَا نَفْعُهُ وَشَرْفُهُ رَاجِعٌ إِلَيْهِ ؛
وَأَكُونُ أَنَا قَدْ قَضَيْتُ فَرَضًا وَجَبَ عَلَى فَا قَوْلُ :

(١) أهلكته . (٢) وفي نسخة وأعضل ما ضلَّ به الإنسان لسانه .

أَيُّهَا الْمَلِكُ إِنَّكَ فِي مَنَازِلِ آبَائِكَ وَأَجْدَادِكَ مِنَ الْجَبَابِرَةِ الَّذِينَ
 اسَّسُوا الْمُلْكَ قَبْلَكَ ، وَشَيَّدُوهُ دُونَكَ ، وَبَنَوْا الْقِلَاعَ وَالْحِصُونَ ،
 وَمَهَّدُوا الْبِلَادَ ، وَقَادُوا الْجَيُوشَ ؛ وَاسْتَجَاشُوا الْعُدَّةَ ^(١) ، وَطَالَتْ
 لَهُمُ الْمُدَّةُ ؛ وَاسْتَكْثَرُوا مِنَ السَّلَاحِ وَالْكِرَاعِ ^(٢) ؛ وَعَاشُوا الدَّهُورَ ،
 فِي الْغِبْطَةِ وَالسَّرُورِ ؛ فَلَمْ يَمْنَعَهُمْ ذَلِكَ مِنْ اخْتِسَابِ جَمِيلِ الذَّكْرِ ،
 وَلَا قَطْعَهُمْ عَنِ اغْتِنَامِ الشُّكْرِ ؛ وَلَا اسْتِعْمَالَ الْإِحْسَانِ إِلَى مَنْ خَوْلُوهُ ،
 وَالْإِرْفَاقِ بَيْنَ وَلُوهُ ، وَحُسْنِ السَّيْرِ فِيمَا تَقَلَّدُوهُ ؛ مَعَ عَظَمِ
 مَا كَانُوا فِيهِ مِنْ لُحْرَةِ الْمُلْكِ ، وَسَكْرَةِ الْاِقْتِدَارِ . وَإِنَّكَ أَيُّهَا الْمَلِكُ
 السَّعِيدُ جَدُّهُ ، الطَّالِعُ كَوْكَبُ سَعِيدِهِ ، قَدْ وَرَثْتَ أَرْضَهُمْ
 وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَمَنَازِلَهُمُ الَّتِي كَانَتْ عُدَّتُهُمْ ؛ فَأَقَمْتَ فِيهَا خُولَتَ
 مِنَ الْمُلْكِ وَوَرِثْتَ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْجُنُودِ ؛ فَلَمْ تَقُمْ فِي ذَلِكَ بِحَقِّ
 مَا يَجِبُ عَلَيْكَ ؛ بَلْ طَغَيْتَ وَبَغَيْتَ وَعَتَوْتَ وَعَلَوْتَ عَلَى الرَّعِيَّةِ ،
 وَأَسَأْتَ السَّيْرَةَ ، وَعَظُمَتْ مِنْكَ الْبِلَدِيَّةُ . وَكَانَ الْأَوَّلَى وَالْأَشْبَهَ

(١) استجاش الجيش : جمعه . (٢) الكراع : اسم لجمع الخيل وقبل الخيل والسلاح .

(٣) عروده .

بِكَ أَنْ تَسْلُكَ سَبِيلَ أَسْلَافِكَ ، وَتَتَّبِعَ آثَارَ الْمُلُوكِ قَبْلَكَ ،
وَتَقْفُو مُحَاسِنَ مَا أَبْقَوْهُ لَكَ ، وَتُقْلِعَ عَمَّا عَارُهُ لَا زِمَ لَكَ ،
وَشَيْنُهُ وَاقِعٌ بِكَ ، تُحْسِنُ النَّظَرَ بِرَعِيَّتِكَ ، وَتُسَنِّهُمُ سُنَنَ
الْخَيْرِ الَّذِي يَبْقَى بَعْدَكَ ذِكْرُهُ ، وَيُعْقِبُكَ الْجَمِيلُ فَخْرُهُ ؛ وَيَكُونُ
ذَلِكَ أَبْقَى عَلَى السَّلَامَةِ وَأَدْوَمَ عَلَى الْإِسْتِقَامَةِ . فَإِنَّ الْجَاهِلَ
الْمُغْتَرَّ مِنَ اسْتَعْمَلَ فِي أُمُورِهِ الْبَطَرَ وَالْأُمْنِيَّةَ ، وَالْحَازِمَ اللَّيْبَ مِنْ
سَاسِ الْمُلِكِ بِالْمُدَارَاةِ وَالرَّفْقِ ؛ فَاَنْظُرَايَهَا الْمَلِكُ مَا أَلْقَيْتُ إِلَيْكَ ،
وَلَا يَثْقُلَنَّ ذَلِكَ عَلَيْكَ : فَلَمْ أَتَكَلَّمْ بِهَذَا ابْتِغَاءَ عَرَضٍ تُجَازِينِي
بِهِ ، وَلَا اِتِّمَاسَ مَعْرُوفٍ تُكَافِئُنِي فِيهِ ؛ وَلَكِنِّي أَتَيْتُكَ نَاصِحًا
مُشَفِّقًا عَلَيْكَ .

فَلَمَّا فَرَغَ بَيْدَبَا مِنْ مَقَالَتِهِ ، وَقَضَى مُنَاصَحَتَهُ ، أَوْغَرَ صَدْرَ
الْمَلِكِ فَأَغْلَظَ لَهُ فِي الْجَوَابِ اسْتِصْغَارًا لِأَمْرِهِ ؛ وَقَالَ : لَقَدْ
تَكَلَّمْتَ بِكَلَامٍ مَا كُنْتُ أَظُنُّ أَنَّ أَحَدًا مِنْ أَهْلِ مَمْلَكَتِي
يَسْتَقْبِلُنِي بِمِثْلِهِ ، وَلَا يُقَدِّمُ عَلَيَّ مَا أَقْدَمْتَ عَلَيْهِ . فَكَيْفَ أَنْتَ

مَعَ صِغَرِ شَأْنِكَ ، وَضَعْفِ مُتَنِّكَ وَجَعْرِ قُوَّتِكَ ^(١) ؟ وَلَقَدْ أَكْثَرْتَ
 إِعْجَابِي مِنْ إِقْدَامِكَ عَلَيَّ ، وَتَسَلُّطِكَ بِلِسَانِكَ فِيمَا جَاوَزْتَ فِيهِ
 حَدَّكَ . وَمَا أَجْدُ شَيْئًا فِي تَأْدِيبِ غَيْرِكَ أَبْلَغَ مِنَ التَّنْكِيلِ بِكَ .
 فَذَلِكَ عِبْرَةٌ وَمَوْعِظَةٌ لِمَنْ عَسَاهُ أَنْ يَبْلُغَ وَيَرْوُمَ مَا رُمْتَ أَنْتَ
 مِنْ الْمُلُوكِ إِذَا أَوْسَعُوا لَهُمْ فِي مَجَالِسِهِمْ . ثُمَّ أَمَرَ بِهِ أَنْ يُقْتَلَ
 وَيُضَلَبَ . فَلَمَّا مَضَوْا بِهِ فِيمَا أَمَرَ ، فَكَّرَ فِيمَا أَمَرَ بِهِ فَأَعْجَمَ عَنْهُ ،
 ثُمَّ أَمَرَ بِحَبْسِهِ وَتَقْيِيدِهِ . فَلَمَّا حُبِسَ أَنْفَذَ فِي طَلَبِ تَلَامِيذِهِ
 وَمَنْ كَانَ يَجْتَمِعُ إِلَيْهِ فَهَرَبُوا فِي الْبِلَادِ وَاعْتَصَمُوا بِحِزَائِرِ الْبَحَارِ ؛
 فَكَثَّ بَيْدَبَا فِي مَحْبِسِهِ أَيَّامًا لَا يَسْأَلُ الْمَلِكُ عَنْهُ ، وَلَا يَلْتَفِتُ
 إِلَيْهِ ؛ وَلَا يَحْسُرُ أَحَدٌ أَنْ يَذْكُرَهُ عِنْدَهُ ؛ حَتَّى إِذَا كَانَ لَيْلَةً مِنْ
 اللَّيَالِي سَهَدَ الْمَلِكُ سُهْدًا شَدِيدًا ^(٢) ؛ فَطَالَ سُهْدُهُ ، وَمَدَّ إِلَى الْفَلَكَ
 بَصَرَهُ ؛ وَتَفَكَّرَ فِي ثَقَلِ الْفَلَكَ وَحَرَكَاتِ الْكَوَاكِبِ ^(٣) ، فَأَغْرَقَ
 الْفِكْرَ فِيهِ ؛ فَسَلَكَ بِهِ إِلَى اسْتِنْبَاطِ شَيْءٍ عَرَضَ لَهُ مِنْ أُمُورِ
 الْفَلَكَ ، وَالْمَسْأَلَةِ عَنْهُ . فَذَكَرَ عِنْدَ ذَلِكَ بَيْدَبَا ، وَتَفَكَّرَ فِيمَا كَلَّمَهُ بِهِ ؛

(١) قوتك . (٢) أرق أرقا شديدا . (٣) استدارة مظهر النجوم .

فَارْعَوَى^(١) لِدَٰلِكَ . وَقَالَ فِي نَفْسِهِ : لَقَدْ أَسَأْتُ فِيمَا صَنَعْتُ
 بِهَذَا الْفِيلْسُوفِ ، وَضَيَعْتُ وَاجِبَ حَقِّهِ ، وَحَمَلَنِي عَلَى ذَٰلِكَ
 سُرْعَةُ الْغَضَبِ . وَقَدْ قَالَتِ الْعُلَمَاءُ : أَرْبَعَةٌ لَا يَنْبَغِي أَنْ تَكُونَ
 فِي الْمُلُوكِ : الْغَضَبُ فَإِنَّهُ أَجْدَرُ الْأَشْيَاءِ مَقْتًا ، وَالْبُخْلُ فَإِنَّ
 صَاحِبَهُ لَيْسَ بِمَعْذُورٍ مَعَ ذَاتِ يَدِهِ ، وَالْكَذِبُ فَإِنَّهُ لَيْسَ لِأَحَدٍ
 أَنْ يُجَاوِرَهُ ، وَالْعُنْفُ فِي الْمَحَاوَرَةِ فَإِنَّ السَّفَهَ لَيْسَ مِنْ شَائِبِهَا .
 وَإِنِّي أَتَى إِلَى رَجُلٍ نَصَحَ لِي ، وَلَمْ يَكُنْ مُبْلَغًا ، فَعَامَلْتُهُ بِضِدِّ
 مَا يَسْتَحِقُّ ، وَكَافَأْتُهُ بِخِلَافِ مَا يَسْتَوْجِبُ . وَمَا كَانَ هَذَا جَزَاءَهُ
 مِنِّي ، بَلْ كَانَ الْوَاجِبَ أَنْ أَسْمَعَ كَلَامَهُ ، وَأَتَقَادَ لِمَا يُشِيرُ بِهِ .
 ثُمَّ أَنْفَذَ فِي سَاعَتِهِ مَنْ يَأْتِيهِ بِهِ . فَلَمَّا مَثَلَ بَيْنَ يَدَيْهِ قَالَ لَهُ :
 يَا بَيْدَبَا أَلَسْتَ الَّذِي قَصَدْتَ إِلَى تَقْصِيرِ هِمَّتِي ، وَعَجَزْتَ رَأْيِي
 فِي سِيرَتِي بِمَا تَكَلَّمْتَ بِهِ آنِفًا ؟ قَالَ لَهُ بَيْدَبَا : أَيُّهَا الْمَلِكُ النَّاصِحُ
 الشَّفِيقُ ، وَالصَّادِقُ الرَّفِيقُ ، إِنَّمَا نَبَأْتُكَ بِمَا فِيهِ صَلَاحٌ لَكَ
 وَلِرَعِيَّتِكَ ، وَدَوَامُ مُلْكِكَ لَكَ ، قَالَ لَهُ الْمَلِكُ : يَا بَيْدَبَا أَعِذْ عَلَيَّ

(١) - ارعوى اِرْعَوْا : نزع عن الجهل ورجع عنه .

كَلَامَكَ كُلَّهُ ، وَلَا تَدْعُ مِنْهُ حَرْفًا إِلَّا جِثَّتْ بِهِ . فَجَعَلَ بَيْدَبَا
 يَنْثُرُ كَلَامَهُ ، وَالْمَلِكُ مُضْجِعٌ إِلَيْهِ . وَجَعَلَ دَبْنَسْلِيمُ كُلَّمَا سَمِعَ مِنْهُ
 شَيْئًا يَنْكُتُ الْأَرْضَ بِشَيْءٍ كَانَ فِي يَدِهِ . ثُمَّ رَفَعَ طَرَفَهُ إِلَى
 بَيْدَبَا ، وَأَمَرَهُ بِالْجُلُوسِ . وَقَالَ لَهُ : يَا بَيْدَبَا ، إِنِّي قَدْ اسْتَعْذَبْتُ
 كَلَامَكَ وَحَسَنَ مَوْقِعَهُ مِنْ قَلْبِي . وَأَنَا نَاطِرٌ فِي الَّذِي أَشْرْتَ
 بِهِ ، وَعَامِلٌ بِمَا أَمَرْتَ . ثُمَّ أَمَرَ بِقُبُودِهِ فُحِّلَتْ . وَالتَقَى عَلَيْهِ
 مِنْ لِبَاسِهِ ، وَتَلَقَّاهُ بِالْقَبُولِ . فَقَالَ بَيْدَبَا : يَا أَيُّهَا الْمَلِكُ ، إِنَّ
 فِي دُونِ مَا كَلَّمْتُكَ بِهِ نُهْيَةً لِمِثْلِكَ . قَالَ : صَدَقْتَ أَيُّهَا الْحَكِيمُ
 الْفَاضِلُ . وَقَدْ وَلَّيْتُكَ مِنْ مَجْلِسِي هَذَا إِلَى جَمِيعِ أَقَاصِي
 مَمْلَكَتِي . فَقَالَ لَهُ : أَيُّهَا الْمَلِكُ أَعْفِنِي مِنْ هَذَا الْأَمْرِ : فَإِنِّي
 غَيْرُ مُضْطَلَعٍ بِتَقْوِيمِهِ إِلَّا بِكَ . فَأَعْفَاهُ مِنْ ذَلِكَ . فَلَمَّا انْصَرَفَ ،
 عَلِمَ أَنَّ الَّذِي فَعَلَهُ لَيْسَ بِرَأْيٍ ، فَبَعَثَ فَرَدَّهُ . وَقَالَ : إِنِّي
 فَكَّرْتُ فِي إِعْفَائِكَ مِمَّا عَرَضَتْهُ عَلَيْكَ فَوَجَدْتُهُ لَا يَقُومُ إِلَّا
 بِكَ ، وَلَا يَنْهَضُ بِهِ غَيْرُكَ ، وَلَا يَضْطَلَعُ بِهِ سِوَاكَ . فَلَا
 تُخَالِفْنِي فِيهِ . فَأَجَابَهُ بَيْدَبَا إِلَى ذَلِكَ .

وَكَانَ عَادَةً مُلُوكَ ذَلِكَ الزَّمَانِ إِذَا اسْتَوَزَرُوا وَزِيرًا أَنْ يَعْقِدُوا عَلَى
رَأْسِهِ تَاجًا ، وَيُرْكَبَ فِي أَهْلِ الْمَمْلَكَةِ ، وَيُطَافَ بِهِ فِي الْمَدِينَةِ .
فَأَمَرَ الْمَلِكُ أَنْ يُفْعَلَ بِبَيْدَبَا ذَلِكَ . فَوُضِعَ التَّاجُ عَلَى رَأْسِهِ ،
وَرَكِبَ فِي الْمَدِينَةِ وَرَجَعَ بِمَجْلَسٍ بِمَجْلَسِ الْعَدْلِ وَالْإِنْصَافِ :
يَأْخُذُ لِلدَّنِيِّ مِنَ الشَّرِيفِ ، وَيُسَاوِي بَيْنَ الْقَوِيِّ وَالضَّعِيفِ ؛
وَرَدَّ الْمَظْلَمَ ، وَوَضَعَ سَنَنَ الْعَدْلِ ، وَأَكْثَرَ مِنَ الْعَطَاءِ وَالْبَذْلِ .
وَاتَّصَلَ الْخَبِيرُ بِتَلَامِيذِهِ بِجَاءِ وَهُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ ، فَرَحِينِ بِمَا جَدَّدَ
اللَّهُ لَهُ مِنْ جَدِيدٍ رَأَى الْمَلِكُ فِي بَيْدَبَا ، وَشَكَرُوا اللَّهُ تَعَالَى عَلَى
تَوْفِيقِ بَيْدَبَا فِي إِزَالَةِ دَبْشَلِيمَ عَمَّا كَانَ عَلَيْهِ مِنْ سُوءِ السَّيَرَةِ ،
وَاتَّخَذُوا ذَلِكَ الْيَوْمَ عِيدًا يُعِيدُونَ فِيهِ فَهُوَ إِلَى الْيَوْمِ عِيدٌ عِنْدَهُمْ
فِي بِلَادِ الْهِنْدِ .

ثُمَّ إِنَّ بَيْدَبَا لَمَّا أَخْلَى فِكْرَهُ مِنْ اشْتِغَالِهِ بِدَبْشَلِيمَ ، تَفَرَّغَ
لِوَضْعِ كُتُبِ السِّيَاسَةِ وَنَشِطَ لَهَا ، فَعَمِلَ كُتُبًا كَثِيرَةً ، فِيهَا
دَقَائِقُ الْحِيلِ . وَمَضَى الْمَلِكُ عَلَى مَا رَسَمَ لَهُ بَيْدَبَا مِنْ حُسْنِ

السيرة والعدل في الرعية . فرغبت إليه الملوك الذين كانوا
 في نواحيه ، وأنقادت له الأمور على استوائها . وفرحت به
 رعيته وأهل مملكته . ثم إنَّ بيدبا جمع تلاميذه فأحسن صلتهم ،
 ووعدهم وعداً جميلاً . وقال لهم : لست أشك أنه وقع في نفوسكم
 وقت دخولي على الملك أن قلتم : إنَّ بيدبا قد ضاعت حكمته ،
 وبطلت فكرته : إذ عزم على الدخول على هذا الجبار الطاغى .
 فقد علمتم نتيجة رأيي وصحة فكري . وإني لم آتِه جهلاً به :
 لأنني كنت أسمع من الحكماء قبلي تقول : إنَّ الملوك لها
 سورة^(١) كسورة الشراب : فالملوك لا تفيق من السورة إلا بمواعظ
 العلماء وأدب الحكماء . والواجب على الملوك أن يتعظوا
 بمواعظ العلماء . والواجب على العلماء تقويم الملوك بالسنتها ،
 وتأديبها بحكمتها ، وإظهار النجاة البينة اللازمة لهم : ليرتدعوا
 عما هم عليه من الإغوجاج والخروج عن العدل . فوجدت
 ما قالت العلماء فرضاً واجباً على الحكماء لملوكهم ليوقظوهم

مِنْ رَقَدَتِهِمْ ؛ كَالطَّبِيبِ الَّذِي يَجِبُ عَلَيْهِ فِي صِنَاعَتِهِ حِفْظُ
الْأَجْسَادِ عَلَى صِحَّتِهَا أَوْ رَدُّهَا إِلَى الصَّحَّةِ . فَكِرِهْتُ أَنْ يَمُوتَ
أَوْ أَمُوتَ وَمَا يَبْقَى عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ يَقُولُ : إِنَّهُ كَانَ بَيْدَبَا
الْفَيْلَسُوفِ فِي زَمَانِ دَبْشَلِيمَ الطَّاغِي فَلَمْ يَرُدَّهُ عَمَّا كَانَ عَلَيْهِ .
فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ : إِنَّهُ لَمْ يُمْكِنْهُ كَلَامُهُ خَوْفًا عَلَى نَفْسِهِ ، قَالُوا : كَانَ
الْهَرَبُ مِنْهُ وَمِنْ جَوَارِهِ أَوْلَى بِهِ ؛ وَالْإِزْعَاجُ عَنِ الْوَطَنِ شَدِيدٌ ؛
فَرَأَيْتُ أَنْ أَجُودَ بِحَيَاتِي ؛ فَأَكُونُ قَدْ أَتَيْتُ فِيمَا بَيْنِي وَبَيْنَ
الْحُكَمَاءِ بَعْدَى عُذْرًا . فَحَمَلْتُهَا عَلَى التَّغْرِيرِ أَوْ الظَّفَرِ بِمَا^(١)
أُرِيدُهُ . وَكَانَ مِنْ ذَلِكَ مَا أَنْتُمْ مُعَايِنُوهُ : فَإِنَّهُ يُقَالُ فِي بَعْضِ
الْأَمْثَالِ : إِنَّهُ لَمْ يَبْلُغْ أَحَدٌ مَرْتَبَةً إِلَّا بِإِحْدَى ثَلَاثٍ : إِمَّا بِمَشَقَّةٍ
تَنَالَهُ فِي نَفْسِهِ ، وَإِمَّا بِوَضِيعَةٍ فِي مَالِهِ أَوْ وَكْسٍ فِي دِينِهِ . وَمَنْ^(٢)
لَمْ يَرْكَبِ الْأَهْوَالَ لَمْ يَنْلِ الرِّغَائِبَ . وَإِنَّ الْمَلِكَ دَبْشَلِيمَ قَدْ
بَسَطَ لِسَانِي فِي أَنْ أَضَعَ كِتَابًا فِيهِ ضُرُوبُ الْحِكْمَةِ . فَلْيَضَعْ كُلُّ
وَاحِدٍ مِنْكُمْ شَيْئًا فِي أَيِّ فَنٍّ شَاءَ ؛ وَلْيَعْرِضْهُ عَلَى لِنَظَرِ مِقْدَارِ

(١) التعريض للهلاك . (٢) أى أن يكون صاحب عقيدة صحيحة يتمسك بها مع أنه يؤذى
ويعتقص في سبيلها ، فإذا ناله وكس بسبب ذلك فإنه لا بد أن يعرف الناس قدره بعد حين .

عَقْلِهِ، وَأَيْنَ بَلَغَ مِنَ الْحِكْمَةِ فَهَمُّهُ . قَالُوا : أَيُّهَا الْحَكِيمُ الْفَاضِلُ ،
وَاللَّيِّبُ الْعَاقِلُ ، وَالَّذِي وَهَبَ لَكَ مَا مَنَحَكَ مِنَ الْحِكْمَةِ وَالْعَقْلِ
وَالْأَدَبِ وَالْفَضِيلَةِ ، مَا خَطَرَ هَذَا بِقُلُوبِنَا سَاعَةً قَطُّ . وَأَنْتَ
رَبِّنَا وَفَاضِلُنَا ، وَبِكَ شَرَفْنَا ، وَعَلَى يَدِكَ انْتِعَاشُنَا . وَلَكِنْ
سَنَجْهَدُ أَنْفُسَنَا فِيمَا أَمَرْتَ . وَمَكَثَ الْمَلِكُ عَلَى ذَلِكَ مِنْ حُسْنِ
السَّيْرِ زَمَانًا يَتَوَلَّى ذَلِكَ لَهُ بَيْدَبَا وَيُقَوْمُ بِهِ .

ثُمَّ إِنَّ الْمَلِكَ دَبْشَلِيمَ لَمَّا اسْتَقَرَّ لَهُ الْمُلْكُ ، وَسَقَطَ عَنْهُ النَّظَرُ
فِي أُمُورِ الْأَعْدَاءِ بِمَا قَدْ كَفَاهُ ذَلِكَ بَيْدَبَا ، صَرَفَ هِمَّتَهُ إِلَى
النَّظَرِ فِي الْكُتُبِ الَّتِي وَضَعَتْهَا فَلَاسِفَةُ الْهِنْدِ لِأَبَائِهِ وَأَجْدَادِهِ ؛
فَوَقَعَ فِي نَفْسِهِ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَيْضًا كِتَابٌ مَشْرُوحٌ يُنَسَبُ إِلَيْهِ
وَتَذَكُّرُ فِيهِ أَيَّامُهُ كَمَا ذَكَرَ آبَاؤُهُ وَأَجْدَادُهُ مِنْ قَبْلِهِ . فَلَمَّا عَزَمَ
عَلَى ذَلِكَ ، عَلِمَ أَنَّهُ لَا يَقُومُ ذَلِكَ إِلَّا بِبَيْدَبَا : فَدَعَاهُ وَخَلَا بِهِ ؛
وَقَالَ لَهُ : يَا بَيْدَبَا ، إِنَّكَ حَكِيمُ الْهِنْدِ وَفِيلَسُوفُهَا . وَإِنِّي فَكَّرْتُ
وَنَظَرْتُ فِي خَزَائِنِ الْحِكْمَةِ الَّتِي كَانَتْ لِلْمُلُوكِ قَبْلِي ؛ فَلَمْ أَرِ فِيهِمْ
أَحَدًا إِلَّا وَقَدْ وَضَعَ كِتَابًا يَذْكُرُ فِيهِ أَيَّامَهُ وَسِيرَتَهُ ، وَيُنَبِّئُ عَنْ

أَدَبِهِ وَأَهْلٍ مَمْلَكَتِهِ ؛ فَمِنْهُ مَا وَضَعْتُهُ الْمُلُوكُ لِأَنْفُسِهَا ، وَذَلِكَ
لِفَضْلِ حِكْمَةٍ فِيهَا ؛ وَمِنْهُ مَا وَضَعْتُهُ حُكْمًا وَهًا . وَأَخَافُ أَنَّ
يَلْحَقَنِي مَا لَحِقَ أَوْلَئِكَ مِمَّا لَا حِيلَةَ لِي فِيهِ ، وَلَا يُوجَدُ فِي خَزَائِنِي
كِتَابٌ أَذْكُرُ بِهِ بَعْدِي ، وَأَنْسَبُ إِلَيْهِ كَمَا ذَكَرَ مَنْ كَانَ قَبْلِي
بِكُتُبِهِمْ . وَقَدْ أَحْبَبْتُ أَنْ تَضَعَ لِي كِتَابًا بَلِيغًا تَسْتَفْرِغُ فِيهِ عَقْلَكَ
يَكُونُ ظَاهِرُهُ سِيَاسَةَ الْعَامَّةِ وَتَأْدِيبُهَا ، وَبَاطِنُهُ أَخْلَاقَ الْمُلُوكِ
وَسِيَاسَتَهَا لِلرَّعِيَّةِ عَلَى طَاعَةِ الْمَلِكِ وَخِدْمَتِهِ ؛ فَيَسْقُطُ بِذَلِكَ
عَنِّي وَعَنْهُمْ كَثِيرٌ مِمَّا نَحْتَاجُ إِلَيْهِ فِي مُعَانَاةِ الْمَلِكِ . وَأُرِيدُ أَنْ
يَبْقَى لِي هَذَا الْكِتَابُ بَعْدِي ذِكْرًا عَلَى غَايِرِ الدُّهُورِ . فَلَمَّا سَمِعَ
بَيْدَبَا كَلَامَهُ نَحَرَ لَهُ سَاجِدًا ، وَرَفَعَ رَأْسَهُ وَقَالَ : أَيُّهَا الْمَلِكُ
السَّعِيدُ جَدُّهُ ، عَلَا نَجْمُكَ ، وَغَابَ نَحْسُكَ ، وَدَامَتْ أَيَّامُكَ ؛
إِنَّ الَّذِي قَدْ طُبِعَ عَلَيْهِ الْمَلِكُ مِنْ جَوْدَةِ الْقَرِيحَةِ وَوُفُورِ الْعَقْلِ
حَرَكَهُ لِعَالِي الْأُمُورِ ؛ وَسَمَتْ بِهِ نَفْسُهُ وَهَمَّتُهُ إِلَى أَشْرَفِ الْمَرَاتِبِ
مَنْزِلَةً ، وَأَبْعَدَهَا غَايَةً ؛ وَأَدَامَ اللَّهُ سَعَادَةَ الْمَلِكِ وَأَعَانَهُ عَلَى

مَا عَزَمَ مِنْ ذَلِكَ ، وَأَعَانَنِي عَلَى بُلُوغِ مُرَادِهِ . فَلْيَأْمُرِ الْمَلِكُ
بِمَا شَاءَ مِنْ ذَلِكَ : فَإِنِّي صَائِرٌ إِلَى غَرَضِهِ ، مُجْتَهِدٌ فِيهِ بِرَأْيِي .
قَالَ لَهُ الْمَلِكُ : يَا بَيْدَبَا لَمْ تَزَلْ مَوْصُوفًا بِحُسْنِ الرَّأْيِ وَطَاعَةِ
الْمُلُوكِ فِي أُمُورِهِمْ . وَقَدْ اخْتَبَرْتُ مِنْكَ ذَلِكَ ، وَاخْتَرْتُ أَنْ
تَضَعَ هَذَا الْكِتَابَ ، وَتُعْمَلَ فِيهِ فِكْرُكَ ، وَتُجْهَدَ فِيهِ نَفْسُكَ ،
بِغَايَةِ مَا تَجِدُ إِلَيْهِ السَّبِيلَ . وَلَيْسَ كُنْ مُشْتَمِلًا عَلَى الْجِدِّ وَالْهَزْلِ
وَاللَّهْوِ وَالْحِكْمَةِ وَالْفَلَسَفَةِ . فَكَفَّرَ لَهُ بَيْدَبَا وَسَجَدَ ، وَقَالَ : قَدْ
أَجَبْتُ الْمَلِكَ أَدَامَ اللَّهِ أَيَّامَهُ إِلَى مَا أَمَرَنِي بِهِ ، وَجَعَلْتُ بَيْنِي
وَبَيْنَهُ أَجَلًا . قَالَ : وَكَمْ هُوَ الْأَجَلُ ؟ قَالَ : سَنَةٌ . قَالَ :
قَدْ أَجَلْتُكَ ؛ وَأَمَرَ لَهُ بِجَائِزَةِ سَنِيَّةٍ تُعِينُهُ عَلَى عَمَلِ الْكِتَابِ
فَبَقِيَ بَيْدَبَا مُفَكِّرًا فِي الْأَخْذِ فِيهِ ، وَفِي أَى صُورَةٍ يَتَدَيُّ بِهَا
فِيهِ وَفِي وَضْعِهِ .

ثُمَّ إِنَّ بَيْدَبَا جَمَعَ تَلَامِيذَهُ وَقَالَ لَهُمْ : إِنَّ الْمَلِكَ قَدْ نَدَبَنِي لِأَمْرِ
فِيهِ نَخْرِي وَنَفْخَرُكُمْ وَنَفْخَرُ بِلَادَكُمْ ، وَقَدْ جَمَعْتُكُمْ لِهَذَا الْأَمْرِ .
ثُمَّ وَصَفَ لَهُمْ مَا سَأَلَ الْمَلِكُ مِنْ أَمْرِ الْكِتَابِ ، وَالْغَرَضَ الَّذِي

قَصَدَ فِيهِ ، فَلَمْ يَقَعْ لَهُمُ الْفِكْرُ فِيهِ . فَلَمَّا لَمْ يَجِدْ عِنْدَهُمْ مَا يُرِيدُهُ
فَكَرَّ بِفَضْلِ حِكْمَتِهِ ، وَعَلِمَ أَنَّ ذَلِكَ أَمْرٌ إِنَّمَا يَتِمُّ بِاسْتِفْرَاحِ
الْعَقْلِ وَإِعْمَالِ الْفِكْرِ ؛ وَقَالَ : أَرَى السَّفِينَةَ لَا تَجْرِي فِي الْبَحْرِ
إِلَّا بِالْمَلَّاحِينَ : لِأَنَّهُمْ يُعَدِّلُونَهَا ؛ وَإِنَّمَا تَسْلُكُ الْجَلَّةُ بِمُدْبِرِهَا
الَّذِي تَفَرَّدَ بِإِمْرَتِهَا ؛ وَمَتَى شُخِنَتْ بِالرُّكَّابِ الْكَثِيرِينَ وَكَثُرَ
مَلَّا حُوهَا لَمْ يُؤْمَنْ عَلَيْهَا مِنَ الْغَرَقِ . وَلَمْ يَزَلْ يُفَكِّرُ فِيمَا يَعْمَلُهُ
فِي بَابِ الْكِتَابِ حَتَّى وَضَعَهُ عَلَى الْإِنْفِرَادِ بِنَفْسِهِ ، مَعَ رَجُلٍ مِنْ
تَلَامِيذِهِ كَانَ يَثِقُ بِهِ ؛ فَخَلَّاهُ بِهِ مُنْفَرِدًا مَعَهُ ، بَعْدَ أَنْ أَعَدَّ مِنَ الْوَرَقِ
الَّذِي كَانَتْ تَكْتُبُ فِيهِ الْهِنْدُ شَيْئًا ، وَمِنْ الْقُوْتِ مَا يَقُومُ بِهِ
وَيَتَلَبَّزُهُ تِلْكَ الْمُدَّةَ . وَجَلَسَا فِي مَقْصُورَةٍ ، وَرَدَّا عَلَيْهِمَا الْبَابَ
ثُمَّ بَدَأَ فِي نَظْمِ الْكِتَابِ وَتَصْنِيفِهِ ؛ وَلَمْ يَزَلْ هُوَ يُمْلِي وَتِلْمِيذُهُ
يَكْتُبُ ، وَيَرْجِعُ هُوَ فِيهِ ؛ حَتَّى اسْتَقَرَّ الْكِتَابُ عَلَى غَايَةِ الْإِتْقَانِ
وَالْإِحْكَامِ . وَرَتَّبَ فِيهِ أَرْبَعَةَ عَشَرَ بَابًا ؛ كُلُّ بَابٍ مِنْهَا قَائِمٌ
بِنَفْسِهِ . وَفِي كُلِّ بَابٍ مَسْأَلَةٌ وَالْجَوَابُ عَنْهَا ؛ لِيَكُونَ لِمَنْ نَظَرَ

فِيهِ حَظٌّ مِنَ الْهُدَايَةِ . وَضَمَّنَ تِلْكَ الْأَبْوَابَ كِتَابًا وَاحِدًا ،
وَسَمَّاهُ كِتَابَ كَلِيلَةِ وَدَمْنَةَ . ثُمَّ جَعَلَ كَلَامَهُ عَلَى أَلْسِنِ الْبَهَائِمِ
وَالسَّبَاعِ وَالطَّيْرِ : لِيَكُونَ ظَاهِرُهُ لِهَوَا الْغَوَاصِّ وَالْعَوَامِّ ، وَبَاطِنُهُ
رِيَاضَةً لِعُقُولِ الْخَاصَّةِ . وَضَمَّنَهُ أَيْضًا مَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ الْإِنْسَانُ مِنْ
سِيَاسَةِ نَفْسِهِ وَأَهْلِهِ وَخَاصَّتِهِ ، وَجَمِيعَ مَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ مِنْ أَمْرِ
دِينِهِ وَدُنْيَاهُ ، وَآخِرَتِهِ وَأَوَّلَاهُ ، وَيُخَضُّهُ عَلَى حُسْنِ طَاعَتِهِ لِلْمُلُوكِ
وَيُجَنِّبُهُ مَا تَكُونُ مُجَانِبَتُهُ خَيْرًا لَهُ . ثُمَّ جَعَلَهُ بَاطِنًا وَظَاهِرًا كَرَسَمِ
سَائِرِ الْكُتُبِ الَّتِي بِرَسْمِ الْحِكْمَةِ : فَصَارَ الْحَيَوَانُ لِهَوَا ، وَمَا يَنْطِقُ
بِهِ حِكْمَةً وَأَدَبًا . فَلَمَّا ابْتَدَأَ بَيْدَبَا بِذَلِكَ جَعَلَ أَوَّلَ الْكِتَابِ
وَصَفَ الصَّدِيقِ ، وَكَيْفَ يَكُونُ الصَّدِيقَانِ ، وَكَيْفَ تُقَطَّعُ
الْمُودَّةُ الثَّابِتَةُ بَيْنَهُمَا بِحِيلَةٍ ذِي النَّمِيمَةِ . وَأَمَرَ تَلْمِيذَهُ أَنْ يَكْتُبَ
عَلَى لِسَانِ بَيْدَبَا مِثْلَ مَا كَانَ الْمَلِكُ شَرْطُهُ فِي أَنْ جَعَلَهُ لِهَوَا
وَحِكْمَةً . فَذَكَرَ بَيْدَبَا أَنَّ الْحِكْمَةَ مَتَى دَخَلَهَا كَلَامُ النَّقْلَةِ أَفْسَدَهَا
وَجُهَلَتْ حِكْمَتُهَا . فَلَمْ يَزَلْ هُوَ وَتَلْمِيذُهُ يُعْمِلَانِ الْفِكْرَ فِيمَا
سَأَلَهُ الْمَلِكُ ، حَتَّى فَتَقَ لَهُمَا الْعَقْلُ أَنَّ يَكُونُ كَلَامُهُمَا عَلَى لِسَانِ

بِهِمَتَيْنِ . فَوَقَعَ لهُمَا مَوْضِعُ اللَّهْوِ وَاهْزَلِ بِكَلَامِ الْبَهَائِمِ . وَكَانَتْ
 الْحِكْمَةُ مَا نَطَقَا بِهِ . فَأَصْغَتِ الْحُكَمَاءُ إِلَى حِكْمِهِ وَتَرَكُوا الْبَهَائِمَ
 وَاللَّهْوَ ، وَعَلِمُوا أَنَّهَا السَّبَبُ فِي الَّذِي وَضَعَ لَهُمْ . وَمَالَتْ إِلَيْهِ
 الْجُهَالُ عَجَبًا مِنْ مُحَاوَرَةِ بِهِمَتَيْنِ ، وَلَمْ يَشْكُوا فِي ذَلِكَ ، وَاتَّخَذُوهُ
 لَهْوًا ، وَتَرَكُوا مَعْنَى الْكَلَامِ أَنْ يَفْهَمُوهُ ، وَلَمْ يَعْلَمُوا الْغَرَضَ
 الَّذِي وَضَعَ لَهُ ، لِأَنَّ الْفَيْلَسُوفَ إِثْمًا كَانَ غَرَضُهُ فِي الْبَابِ
 الْأَوَّلِ أَنْ يُخْبِرَ عَنْ تَوَاصُلِ الْإِخْوَانِ كَيْفَ تَتَأَكَّدُ الْمَوَدَّةُ بَيْنَهُمْ
 عَلَى التَّحْقِظِ مِنْ أَهْلِ السَّعَايَةِ^(١) وَالتَّحَرُّزِ مِمَّنْ يُوقِعُ الْعَدَاوَةَ بَيْنَ
 الْمُتَحَابِّينَ : لِيَجْرَّ بِذَلِكَ نَفْعًا إِلَى نَفْسِهِ . فَلَمْ يَزَلْ بَيِّدًا وَتَلِيذُهُ
 فِي الْمَقْصُورَةِ ، حَتَّى اسْتَمْتَمَ عَمَلُ الْكِتَابِ فِي مُدَّةِ سَنَةٍ . فَلَمَّا
 تَمَّ الْحَوْلُ أَنْفَذَ إِلَيْهِ الْمَلِكُ أَنْ قَدْ جَاءَ الْوَعْدُ فَإِذَا صَنَعْتَ ؟
 فَأَنْفَذَ إِلَيْهِ بَيِّدًا : إِنِّي عَلَى مَا وَعَدْتُ الْمَلِكَ . فَلْيَأْمُرْنِي بِجَمَلِهِ ،
 بَعْدَ أَنْ يَجْمَعَ أَهْلَ الْمَمْلَكَةِ لِنُكُونِ قِرَاءَتِي هَذَا الْكِتَابَ بِحَضْرَتِهِمْ ،
 فَلَمَّا رَجَعَ الرَّسُولُ إِلَى الْمَلِكِ سَرَّ ذَلِكَ ، وَوَعَدَهُ يَوْمًا يَجْمَعُ فِيهِ

(١) السَّعَايَةُ : الْوَشَايَةُ وَالنَّيْمَةُ .

أَهْلَ الْمَمْلَكَةِ . ثُمَّ نَادَى فِي أَقَاصِي بِلَادِ الْهِنْدِ لِيَحْضُرُوا قِرَاءَةَ
الْكِتَابِ . فَلَمَّا كَانَ ذَلِكَ الْيَوْمُ ، أَمَرَ الْمَلِكُ أَنْ يُنْصَبَ لِبَيْدَبَا
سَرِيرٌ مِثْلُ سَرِيرِهِ ؛ وَكَرَاسِيٌّ لِأَبْنَاءِ الْمُلُوكِ وَالْعُلَمَاءِ . وَأَنْفَذَ
فَأَحْضَرَهُ . فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَامَ فَلَبِسَ الثِّيَابَ الَّتِي كَانَ يَلْبَسُهَا
إِذَا دَخَلَ عَلَى الْمُلُوكِ وَهِيَ الْمُسَوَّحُ السُّودُ ، وَحَمَلَ الْكِتَابَ
تَلْمِيذُهُ . فَلَمَّا دَخَلَ عَلَى الْمَلِكِ وَثَبَ الْخَلَاءُ ثِقًا بِأَجْمَعِهِمْ ، وَقَامَ
الْمَلِكُ شَاكِراً . فَلَمَّا قُرِبَ مِنَ الْمَلِكِ كَفَّرَ لَهُ وَسَجَدَ ، وَلَمْ يَرْفَعْ
رَأْسَهُ . فَقَالَ لَهُ الْمَلِكُ : يَا بَيْدَبَا أَرْفَعْ رَأْسَكَ ، فَإِنَّ هَذَا يَوْمُ
هِنَاءٍ وَفَرَجٍ وَسُرُورٍ ، وَأَمْرُهُ أَنْ يَجْلِسَ . لَحِينَ جَلَسَ لِقِرَاءَةِ
الْكِتَابِ ، سَأَلَهُ عَنْ مَعْنَى كُلِّ بَابٍ مِنْ أَبْوَابِهِ ، وَإِلَى أَيِّ شَيْءٍ
قَصَدَ فِيهِ . فَأَخْبَرَهُ بِغَرَضِهِ فِيهِ ، وَفِي كُلِّ بَابٍ . فَازْدَادَ الْمَلِكُ
مِنْهُ تَعَجُّبًا وَسُرُورًا . فَقَالَ لَهُ : يَا بَيْدَبَا مَا عَدَوْتَ الَّذِي فِي
نَفْسِي ؛ وَهَذَا الَّذِي كُنْتُ أَطْلُبُ ؛ فَاطْلُبْ مَا شِئْتَ وَتَحَكَّمْ .
فَدَعَا لَهُ بَيْدَبَا بِالسَّعَادَةِ وَطُولِ الْجَدِّ . وَقَالَ : أَيُّهَا الْمَلِكُ أَمَّا
الْمَالُ فَلَا حَاجَةَ لِي فِيهِ ، وَأَمَّا الْكُسُوفُ فَلَا إِخْتَارَ عَلَيَّ لِبَاسِي

هَذَا شَيْئًا ، وَلَسْتُ أُخْلِي الْمَلِكَ مِنْ حَاجَةٍ . قَالَ الْمَلِكُ : يَا بَيْدَبَا
مَا حَاجَتُكَ ؟ فَكُلُّ حَاجَةٍ لَكَ قَبْلَنَا مَقْضِيَّةٌ . قَالَ : يَا أَمْرُ الْمَلِكِ
أَنْ يُدَوَّنَ كِتَابِي هَذَا كَمَا دَوَّنَ آبَاؤُهُ وَأَجْدَادُهُ كِتَابَهُمْ ، وَيَأْمُرُ
بِالْحَافِظَةِ عَلَيْهِ : فَإِنِّي أَخَافُ أَنْ يُخْرَجَ مِنْ بِلَادِ الْهِنْدِ ، فَيَتَنَاوَلَهُ
أَهْلُ فَارِسَ إِذَا عَلِمُوا بِهِ ، فَالْمَلِكُ يَا أَمْرُ أَلَّا يُخْرَجَ مِنْ بَيْتِ
الْحِكْمَةِ . ثُمَّ دَعَا الْمَلِكُ بِتَلَامِيذِهِ وَأَحْسَنَ لَهُمُ الْجَوَائِزَ . ثُمَّ إِنَّهُ
لَمَّا مَلَكَ كَسْرَى أَنْوَشِرَوَانَ وَكَانَ مُسْتَأْثَرًا بِالْكَتُبِ وَالْعِلْمِ وَالْأَدَبِ
وَالنَّظَرِ فِي أَخْبَارِ الْأَوَائِلِ وَقَعَ لَهُ خَبَرُ الْكِتَابِ ، فَلَمْ يَقَرَّرْ قَرَارُهُ
حَتَّى بَعَثَ بَرَزَوِيَةَ الطَّيِّبَ وَتَلَطَّفَ حَتَّى أَخْرَجَهُ مِنْ بِلَادِ الْهِنْدِ
فَأَقْرَهُ فِي خَزَائِنِ فَارِسَ .

بَابُ بَعْثَةِ بَرَزَوِيَةَ إِلَى بِلَادِ الْهِنْدِ

أَمَّا بَعْدُ فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى خَلَقَ الْخَلْقَ بِرَحْمَتِهِ ، وَمَنْ عَلَى عِبَادِهِ
بِفَضْلِهِ وَكَرَمِهِ وَرَزَقَهُمْ مَا يَقْدِرُونَ بِهِ عَلَى إِصْلَاحِ مَعَايِشِهِمْ
فِي الدُّنْيَا ، وَيُذَرِّكُونَهُ بِهِ اسْتِنْقَازَ أَرْوَاحِهِمْ مِنَ الْعَذَابِ
فِي الْآخِرَةِ ، وَأَفْضَلَ مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى وَمَنْ بِهِ عَلَيْهِمُ الْعَقْلُ

الَّذِي هُوَ الدَّعَامَةُ لِجَمِيعِ الْأَشْيَاءِ ، وَالَّذِي لَا يَقْدِرُ أَحَدٌ فِي الدُّنْيَا عَلَى إِصْلَاحِ مَعِيشَتِهِ وَلَا إِحْرَازِ نَفْعٍ وَلَا دَفْعِ ضَرَرٍ إِلَّا بِهِ .
وَكَذَلِكَ طَالِبُ الْآخِرَةِ الْمُجْتَهِدُ فِي الْعَمَلِ الْمُنْجِي بِهِ رُوحَهُ لَا يَقْدِرُ عَلَى إِتْمَامِ عَمَلِهِ وَإِكْمَالِهِ إِلَّا بِالْعَقْلِ الَّذِي هُوَ سَبَبُ كُلِّ خَيْرٍ وَمِفْتَاحُ كُلِّ سَعَادَةٍ . فَلَيْسَ لِأَحَدٍ غِنَى عَنِ الْعَقْلِ . وَالْعَقْلُ مُكْتَسَبٌ بِالتَّجَارِبِ وَالْأَدَبِ . وَلَهُ غَرِيزَةٌ مَكْنُونَةٌ فِي الْإِنْسَانِ كَامِنَةٌ كَالنَّارِ فِي الْحَجَرِ لَا تَظْهَرُ وَلَا يَرَى ضَوْؤُهَا حَتَّى يَقْدَحَهَا قَادِحٌ مِنَ النَّاسِ ؛ فَإِذَا قُدِحَتْ ظَهَرَتْ طَبِيعَتُهَا . وَكَذَلِكَ الْعَقْلُ كَامِنٌ فِي الْإِنْسَانِ لَا يَظْهَرُ حَتَّى يُظْهِرَهُ الْأَدَبُ وَتَقْوِيهِ التَّجَارِبُ . وَمَنْ رَزَقَ الْعَقْلَ وَمَنْ بِهِ عَلَيْهِ وَأَعْيَنَ عَلَى صِدْقِ قَرِيحَتِهِ بِالْأَدَبِ حَرَصَ عَلَى طَلَبِ سَعْدِ جَدِّهِ ، وَأَدْرَكَ فِي الدُّنْيَا أَمَلَهُ ، وَحَازَ فِي الْآخِرَةِ ثَوَابَ الصَّالِحِينَ . وَقَدْ رَزَقَ اللَّهُ الْمَلِكَ السَّعِيدَ أُنُوشِرَوَانَ مِنَ الْعَقْلِ أَفْضَلَهُ ، وَمِنَ الْعِلْمِ أَجْزَلَهُ ؛ وَمِنَ الْمَعْرِفَةِ بِالْأُمُورِ أَصُوبَهَا ، وَمِنَ الْأَفْعَالِ أَسَدَّهَا ، وَمِنَ الْبَحْثِ عَنِ الْأُصُولِ وَالْفُرُوعِ أَنْفَعَهُ ؛ وَبَلَغَهُ مِنْ فُنُونِ اخْتِلَافِ الْعِلْمِ ،

وَبُلُوغَ مَنْزِلَةِ الْفَلَسَفَةِ ، مَا لَمْ يَبْلُغُهُ مَلِكٌ قَطُّ مِنَ الْمُلُوكِ قَبْلَهُ ،
حَتَّى كَانَ فِيهَا طَلَبَ وَبَحْثَ عَنْهُ مِنَ الْعِلْمِ أَنْ يَبْلُغَهُ عَنْ كِتَابِ
بَاهِنْدِ ، عَلِمَ أَنَّهُ أَصْلُ كُلِّ أَدَبٍ وَرَأْسُ كُلِّ عِلْمٍ ، وَالِدَلِيلُ عَلَى
كُلِّ مَنْفَعَةٍ ، وَمِفْتَاحُ عَمَلِ الْآخِرَةِ وَعِلْمُهَا ، وَمَعْرِفَةُ النَّجَاةِ مِنْ
هَوْلِهَا ، فَأَمَرَ الْمَلِكُ وَزِيرَهُ بِرُجْمِهِ أَنْ يَبْحَثَ لَهُ عَنْ رَجُلٍ أَدِيبٍ
عَاقِلٍ مِنْ أَهْلِ مَمْلَكَتِهِ ، بِصِيرٍ بِلِسَانِ الْفَارِسِيَّةِ ، مَاهِرٍ فِي كَلَامِ
الْهِنْدِ ، وَيَكُونُ بَلِيغًا بِاللِّسَانَيْنِ جَمِيعًا ، حَرِيصًا عَلَى طَلَبِ الْعِلْمِ
مُجْتَهِدًا فِي اسْتِعْمَالِ الْأَدَبِ ، مُبَادِرًا فِي طَلَبِ الْعِلْمِ ، وَالْبَحْثِ
عَنْ كُتُبِ الْفَلَسَفَةِ . فَأَتَاهُ بِرَجُلٍ أَدِيبٍ كَامِلِ الْعَقْلِ وَالْأَدَبِ ،
مَعْرُوفٍ بِصِنَاعَةِ الطَّبِّ ، مَاهِرٍ فِي الْفَارِسِيَّةِ وَالْهِنْدِيَّةِ يُقَالُ لَهُ
بِرَزَوِيهِ ، فَلَمَّا دَخَلَ عَلَيْهِ كَفَّرَ وَسَجَدَ بَيْنَ يَدَيْهِ . فَقَالَ لَهُ الْمَلِكُ :
يَا بِرَزَوِيهِ : إِنِّي قَدْ اخْتَرْتُكَ لِمَا بَلَغَنِي مِنْ فَضْلِكَ وَعِلْمِكَ وَعَقْلِكَ ،
وَحَرِصْتُكَ عَلَى طَلَبِ الْعِلْمِ حَيْثُ كَانَ . وَقَدْ بَلَغَنِي عَنْ كِتَابِ
بَاهِنْدِ مَخْزُونٍ فِي خَزَائِنِهِمْ ، وَقَصَّ عَلَيْهِ مَا بَلَغَهُ عَنْهُ . وَقَالَ لَهُ :
تَجَهَّزْ فَإِنِّي مَرَحُّكَ إِلَى أَرْضِ الْهِنْدِ ، فَتَلَطَّفَ بِعَقْلِكَ وَحُسْنِ

أَدَبِكَ وَنَاقِدِ رَأْيِكَ ، لِاسْتِخْرَاجِ هَذَا الْكِتَابِ مِنْ خَزَائِنِهِمْ وَمِنْ قَبْلِ عُلَمَائِهِمْ ؛ فَتَسْتَفِيدَ بِذَلِكَ وَتُفِيدَنَا . وَمَا قَدَرْتَ عَلَيْهِ مِنْ كُتُبِ الْهِنْدِ مِمَّا لَيْسَ فِي خَزَائِنِنَا مِنْهُ شَيْءٌ فَأَحْمِلْهُ مَعَكَ ، وَخُذْ مَعَكَ مِنَ الْمَالِ مَا تَحْتَاجُ إِلَيْهِ ، وَجَعَلْ ذَلِكَ ، وَلَا تُقْصِرْ فِي طَلَبِ الْعُلُومِ وَإِنْ أَكْثَرْتَ فِيهِ النَّفَقَةَ ، فَإِنَّ جَمِيعَ مَا فِي خَزَائِنِي مَبْدُولٌ لَكَ فِي طَلَبِ الْعُلُومِ . وَأَمَرَ بِإِحْضَارِ الْمُنْجِمِينَ ؛ فَاخْتَارُوا لَهُ يَوْمًا يَسِيرُ فِيهِ ، وَسَاعَةً صَالِحَةً يَخْرُجُ فِيهَا . وَحَمَلَ مَعَهُ مِنَ الْمَالِ عِشْرِينَ جِرَابًا ؛ كُلُّ جِرَابٍ فِيهِ عَشْرَةُ آلَافِ دِينَارٍ . فَلَمَّا قَدِمَ بَرَزَوِيهِ بِلَادَ الْهِنْدِ طَافَ بِبَابِ الْمَلِكِ وَمَجَالِسِ السُّوقَةِ ^(١) ، وَسَأَلَ عَنْ خَوَاصِّ الْمَلِكِ وَالْأَشْرَافِ وَالْعُلَمَاءِ وَالْفَلَاحَةِ ؛ فَجَعَلَ يَغْشَاهُمْ فِي مَنَازِلِهِمْ ، وَيَتَلَقَّاهُمْ بِالتَّحِيَّةِ ، وَيُخَبِّرُهُمْ بِأَنَّهُ رَجُلٌ غَرِيبٌ قَدِمَ بِلَادَهُمْ لِيُطَلِّبَ الْعُلُومَ وَالْأَدَبَ ، وَأَنَّهُ مُحْتَاجٌ إِلَى مُعَاوَنَتِهِمْ فِي ذَلِكَ . فَلَمْ يَزَلْ كَذَلِكَ زَمَانًا طَوِيلًا يَتَادَّبُ عَنْ عُلَمَاءِ الْهِنْدِ بِمَا هُوَ عَالِمٌ بِجَمِيعِهِ ؛ وَكَأَنَّهُ لَا يَعْلَمُ مِنْهُ

شَيْئًا ، وَهُوَ فِيمَا بَيْنَ ذَلِكَ يَسْتَرْبُغِيتهُ وَحَاجَتَهُ . وَاتَّخَذَ فِي تِلْكَ
الْحَالَةِ لِطُولِ مُقَامِهِ أَصْدِقَاءَ كَثِيرَةً مِنَ الْأَشْرَافِ وَالْعُلَمَاءِ
وَالْفَلَاسِفَةِ وَالسُّوقَةِ وَمِنْ أَهْلِ كُلِّ طَبَقَةٍ وَصِنَاعَةٍ ، وَكَانَ قَدْ
اتَّخَذَ مِنْ بَيْنِ أَصْدِقَائِهِ رَجُلًا وَاحِدًا قَدْ اتَّخَذَهُ لِسِرِّهِ وَمَا يُحِبُّ
مُشَاوَرَتَهُ فِيهِ ، لِلَّذِي ظَهَرَ لَهُ مِنْ فَضْلِهِ وَأَدَبِهِ ، وَاسْتَبَانَ لَهُ مِنْ
صَحَّةِ إِخَانِهِ ، وَكَانَ يُشَاوِرُهُ فِي الْأُمُورِ ، وَيَرْتَاحُ إِلَيْهِ فِي جَمِيعِ
مَا أَمَّهُ . إِلَّا أَنَّهُ كَانَ يَكْتُمُ مِنْهُ الْأَمْرَ الَّذِي قَدِمَ مِنْ أَجْلِهِ لِكَيْ
يَبْلُوهُ وَيَجْهَرُهُ ، وَيَنْظُرَ هَلْ هُوَ أَهْلٌ أَنْ يُطْلِعَهُ عَلَى سِرِّهِ . فَقَالَ
لَهُ يَوْمًا وَهُمَا جَالِسَانِ : يَا أَخِي مَا أُرِيدُ أَنْ أَكْتُمَكَ مِنْ أَمْرٍ
فَوْقَ الَّذِي كَتَمْتُكَ . فَأَعْلَمَ أَنِّي لِأَمْرٍ قَدِمْتُ ، وَهُوَ غَيْرُ الَّذِي
يُظْهَرُ مِنِّي ، وَالْعَاقِلُ يَكْتَفِي مِنَ الرَّجُلِ بِالْعَلَامَاتِ مِنْ نَظَرِهِ ،
حَتَّى يَعْلَمَ سِرَّ نَفْسِهِ وَمَا يُضْمِرُهُ قَلْبُهُ . قَالَ لَهُ الْهِنْدِيُّ : إِنْ
وَإِنْ لَمْ أَكُنْ بَدَأْتُكَ وَأَخْبَرْتُكَ بِمَا جِئْتُ لَهُ ، وَإِيَّاهُ تُرِيدُ ،
وَأَنَّكَ تَكْتُمُ أَمْرًا تَطْلُبُهُ ، وَتُظْهِرُ غَيْرَهُ ، مَا خَفِيَ عَلَى ذَلِكَ مِنْكَ .
وَلَكِنِّي لِرَغْبَتِي فِي إِخَائِكَ ، كَرِهْتُ أَنْ أُوَاجِهَكَ بِهِ . وَإِنَّهُ قَدْ

اسْتَبَانَ مَا تُخْفِيهِ مِنِّي . فَأَمَّا إِذْ قَدْ أَظْهَرْتَ ذَلِكَ ، وَأَفْصَحْتَ
 بِهِ وَبِالْكَلَامِ فِيهِ ، فَلِإِنِّي مُخْبِرُكَ عَنْ نَفْسِكَ ، وَمُظْهِرُكَ لِكَسْرِيَّتِكَ ،
 وَمُعْلِيكَ بِحَالِكَ الَّتِي قَدِمْتَ لَهَا ، فَإِنَّكَ قَدِمْتَ بِلَادَنَا لِتَسْلُبَنَا
 كُنُوزَنَا النَّفِيسَةَ ، فَتَذْهَبَ بِهَا إِلَى بِلَادِكَ ، وَتُسَرِّبَهَا مِلْكَكَ .
 وَكَانَ قُدُومُكَ بِالْمَكْرِ وَالْخَدِيعَةِ . وَلَكِنِّي لَمَّا رَأَيْتُ صَبْرَكَ ،
 وَمُوَظَبَتَكَ عَلَى طَلَبِ حَاجَتِكَ ، وَالتَّحْفِظَ مِنْ أَنْ يَسْقُطَ مِنْكَ
 الْكَلَامُ ، مَعَ طُولِ مُكْنِكَ عِنْدَنَا ، بِشَيْءٍ يُسْتَدَلُّ بِهِ عَلَى سِرِّيَّتِكَ
 وَأُمُورِكَ ، أَزْدَدْتُ رَغْبَةً فِي إِخَائِكَ ، وَثِقَةً بِعَقْلِكَ ، فَأُخْبِيتُ
 مَوَدَّتَكَ . فَلِإِنِّي لَمْ أَرِ فِي الرُّجَالِ رَجُلًا هُوَ أَرْضَنُ مِنْكَ عَقْلًا ،
 وَلَا أَحْسَنُ أَدَبًا ، وَلَا أَصْبِرُ عَلَى طَلَبِ الْعِلْمِ وَلَا أَكْتُمُ لِسِرِّهِ
 مِنْكَ ، وَلَا سِيَّيَا فِي بِلَادِ غُرَبَةٍ ، وَمَمْلَكَةٍ غَيْرِ مَمْلَكَتِكَ ، عِنْدَ
 قَوْمٍ لَا تَعْرِفُ سُنَّتَهُمْ . وَإِنَّ عَقْلَ الرَّجُلِ لَيَبِينُ فِي ثَمَانِي خِصَالٍ :
 الْأَوَّلَى الرِّفْقُ . وَالثَّانِيَةُ أَنْ يَعْرِفَ الرَّجُلُ نَفْسَهُ فَيَحْفَظَهَا .
 وَالثَّلَاثَةُ طَاعَةُ الْمُلُوكِ ، وَالتَّحَرُّى لِمَا يُرْضِيهِمْ . وَالرَّابِعَةُ مَعْرِفَةُ

الرَّجُلِ مَوْضِعَ سِرِّهِ ، وَكَيْفَ يَنْبَغِي أَنْ يُطْلَعَ عَلَيْهِ صَدِيقُهُ .
 وَالْخَامِسَةُ أَنْ يَكُونَ عَلَى أَبْوَابِ الْمُلُوكِ أَدِيبًا مَلِيقَ اللِّسَانِ ^(١) .
 وَالسَّادِسَةُ أَنْ يَكُونَ لِسِرِّهِ وَسِرِّ غَيْرِهِ حَافِظًا . وَالسَّابِعَةُ أَنْ يَكُونَ
 عَلَى لِسَانِهِ قَادِرًا ، فَلَا يَتَكَلَّمُ إِلَّا بِمَا يَأْمَنُ تَبِعَتُهُ . وَالثَّامِنَةُ
 إِنْ كَانَ بِالْمُخْضِلِ لَا يَتَكَلَّمُ إِلَّا بِمَا يُسْأَلُ عَنْهُ . فَمَنْ اجْتَمَعَتْ
 فِيهِ هَذِهِ الْخِصَالُ كَانَ هُوَ الدَّاعِي الْخَيْرِ إِلَى نَفْسِهِ . وَهَذِهِ
 الْخِصَالُ كُلُّهَا قَدْ اجْتَمَعَتْ فِيكَ ، وَبَانَ لِي مِنْكَ . فَاللَّهُ تَعَالَى
 يَحْفَظُكَ ، وَيُعِينُكَ عَلَى مَا قَدِمْتَ لَهُ ، فَصَادَقْتُكَ إِيَّايَ ، وَإِنْ
 كَانَتْ لِسَلْبِي كَنْزِي وَغَيْرِي وَعَلَيَّ ، تَجْعَلُكَ أَهْلًا لِأَنْ تُسْعَفَ
 بِحَاجَتِكَ ، وَتُسْفَعَ بِطَلِبَتِكَ ^(٢) ، وَتُعْطَى سُؤْلُكَ ^(٣) . فَقَالَ لَهُ بَرْزَوِيهِ :
 إِنِّي قَدْ كُنْتُ هَيَّأْتُ كَلَامًا كَثِيرًا ، وَشَعَبْتُ لَهُ شُعُوبًا ، وَأَنْسَأْتُ
 لَهُ أَصُولًا وَطُرُقًا ، فَلَمَّا أَنْتَهَيْتَ إِلَى مَا بَدَأْتَنِي بِهِ مِنْ أَطْلَاعِكَ
 عَلَى أَمْرِي وَالَّذِي قَدِمْتُ لَهُ ، وَأَلْقَيْتُهُ عَلَى مِنْ ذَاتِ نَفْسِكَ ،
 وَرَغَبْتِكَ فِيمَا أَلْقَيْتَ مِنَ الْقَوْلِ ، أَكْتَفَيْتُ بِالْيَسِيرِ مِنَ الْخُطَابِ

مَعَكَ ، وَعَرَفْتُ الْكَبِيرَ مِنْ أُمُورِي بِالصَّغِيرِ مِنَ الْكَلَامِ ،
وَأَقْتَصَرْتُ بِهِ مَعَكَ عَلَى الْإِيْجَازِ . وَرَأَيْتُ مِنْ إِسْعَافِكَ إِتْيَا
بِحَاجَتِي مَا دَلَّنِي عَلَى كَرَمِكَ وَحُسْنِ وَفَائِكَ : فَإِنَّ الْكَلَامَ إِذَا
أُلْقِيَ إِلَى الْفِيلَسُوفِ ، وَالسَّرَّ إِذَا اسْتُودِعَ إِلَى اللَّسِيبِ الْحَافِظِ ،
فَقَدْ حُصِّنَ وَبُلِغَ بِهِ نِهَآيَةُ أَمَلِ صَاحِبِهِ ، كَمَا يُحْصَنُ الشَّيْءُ
النَّفِيسُ فِي الْقِلَاعِ الْحَصِينَةِ . قَالَ لَهُ الْهِنْدِيُّ : لَا شَيْءَ أَفْضَلُ
مِنَ الْمَوَدَّةِ . وَمَنْ خَلَصَتْ مَوَدَّتُهُ كَانَ أَهْلًا أَنْ يَخْلِطَهُ الرَّجُلُ
بِنَفْسِهِ ، وَلَا يَدَّخِرَ عَنْهُ شَيْئًا ، وَلَا يَكْتُمَهُ سِرًّا : فَإِنَّ حِفْظَ السَّرِّ
رَأْسُ الْأَدَبِ . فَإِذَا كَانَ السَّرُّ عِنْدَ الْأَمِينِ الْكُتُومِ فَقَدْ اخْتَرَزَ
مِنَ التَّضْيِيعِ ؛ مَعَ أَنَّهُ خَلِيقٌ إِلَّا يَتَكَلَّمُ بِهِ ؛ وَلَا يَتِمُّ سِرٌّ بَيْنَ اثْنَيْنِ
قَدْ عَلِمَاهُ وَتَفَاوَضَاهُ . فَإِذَا تَكَلَّمَ بِالسَّرِّ اثْنَانِ فَلَا بُدَّ مِنْ ثَالِثٍ
مِنْ جِهَةِ أَحَدِهِمَا ؛ فَإِذَا صَارَ إِلَى الثَّلَاثَةِ فَقَدْ شَاعَ وَذَاعَ ، حَتَّى
لَا يَسْتَطِيعُ صَاحِبُهُ أَنْ يَجْعِدَهُ وَيُكَابِرَ عَنْهُ ؛ كَالْغَيْمِ إِذَا كَانَ
مُتَقَطِّعًا فِي السَّمَاءِ فَقَالَ قَائِلٌ : هَذَا غَيْمٌ مُتَقَطِّعٌ ، لَا يَقْدِرُ أَحَدٌ
عَلَى تَكْذِيبِهِ . وَأَنَا قَدْ يَدَاخَلْنِي مِنْ مَوَدَّتِكَ وَخِلَاطِكَ سُرُورٌ^(١)

لَا يَعْدِلُهُ شَيْءٌ . وَهَذَا الْأَمْرُ الَّذِي تَطْلُبُهُ مِنِّي أَعْلَمُ أَنَّهُ مِنْ
الْأَسْرَارِ الَّتِي لَا تُكْتَمُ ؛ فَلَا بُدَّ أَنْ يَفْشَوْ وَيُظْهَرَ ، حَتَّى يَخْذَلَ
بِهِ النَّاسُ . فَإِذَا فَشَا فَقَدْ سَعَيْتُ فِي هَلَاكِ هَلَاكًا لَا أَقْدِرُ
عَلَى الْفِدَاءِ مِنْهُ بِأَمْسٍ وَإِنْ كَثُرَ : لِأَنَّ مَلِكًا فَظًّا غَلِيظًا ، يُعَاقِبُ
عَلَى الذَّنْبِ الصَّغِيرِ أَشَدَّ الْعِقَابِ ؛ فَكَيْفَ مِثْلُ هَذَا الذَّنْبِ
الْعَظِيمِ ؟ وَإِذَا حَمَلْتَنِي الْمَوَدَّةَ الَّتِي بَيْنِي وَبَيْنَكَ فَاسْعَفْتُكَ بِحَاجَتِكَ
لَمْ يَرُدَّ عِقَابُهُ عَنِّي شَيْءٌ . قَالَ بَرْزَوِيهِ : إِنَّ الْعُلَمَاءَ قَدْ مَدَحَتْ
الصَّدِيقَ إِذَا كَتَمَ سِرَّ صَدِيقِهِ وَأَعَانَهُ عَلَى الْفَوْزِ . وَهَذَا الْأَمْرُ
الَّذِي قَدِمْتُ لَهُ ، لِمِثْلِكَ ذَخَرْتُهُ ، وَبِكَ أَرْجُو بُلُوغَهُ ؛ وَأَنَا وَاثِقٌ
بِكَرَمِ طَبَاعِكَ وَوُفُورِ عَقْلِكَ ، وَأَعْلَمُ أَنَّكَ لَا تَحْشَى مِنِّي وَلَا تَخَافُ
أَنْ أَبْدِيَهُ ؛ بَلْ تَحْشَى أَهْلَ بَيْتِكَ الطَّائِفِينَ بِكَ وَبِالْمَلِكِ أَنْ
يَسْعَوْا بِكَ إِلَيْهِ . وَأَنَا أَرْجُو أَلَّا يَشِيعَ شَيْءٌ مِنْ هَذَا الْأَمْرِ :
لَأَنِّي أَنَا ظَاعِنٌ وَأَنْتَ مُقِيمٌ ، وَمَا أَقْتُ فَلَا ثَالِثَ بَيْنَنَا . فَتَعَاهَدَا
عَلَى هَذَا جَمِيعًا . وَكَانَ الْهِنْدِيُّ خَازِنَ الْمَلِكِ ، وَبِيَدِهِ مَفَاتِيحُ
خَزَائِنِهِ . فَأَجَابَهُ إِلَى ذَلِكَ الْكِتَابِ وَإِلَى غَيْرِهِ مِنَ الْكُتُبِ .

فَأَكَبَّ عَلَى تَفْسِيرِهِ وَنَقَلَهُ مِنَ اللِّسَانِ الْهِنْدِيِّ إِلَى اللِّسَانِ الْفَارِسِيِّ ؛
وَأَتَعَبَ نَفْسَهُ ، وَأَنْصَبَ بَدَنَهُ لَيْلًا وَنَهَارًا . وَهُوَ مَعَ ذَلِكَ وَجِلٌّ
وَفَزِعٌ مِنْ مَلِكِ الْهِنْدِ ؛ خَائِفٌ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ أَنْ يَذْكُرَ الْمَلِكُ
الْكِتَابَ فِي وَقْتٍ وَلَا يُصَادِفُهُ فِي خَزَائِنِهِ . فَلَمَّا فَرَغَ مِنْ
انْتِسَاخِ الْكِتَابِ وَغَيْرِهِ مِمَّا أَرَادَ مِنْ سَائِرِ الْكُتُبِ . كَتَبَ إِلَى
أَنُوشِروَانَ يُعَلِّمُهُ بِذَلِكَ . فَلَمَّا وَصَلَ إِلَيْهِ الْكِتَابُ ، سَرَّ بِذَلِكَ
سُرُورًا شَدِيدًا ؛ ثُمَّ تَخَوَّفَ مُعَاجَلَةَ الْمَقَادِيرِ أَنْ تُنْغِصَ عَلَيْهِ فَرَحَهُ ؛
فَكَتَبَ إِلَى بَرَزَوِيهِ يَأْمُرُهُ بِتَعْجِيلِ الْقُدُومِ . فَسَارَ بَرَزَوِيهِ
مُتَوَجِّهًا نَحْوَ كَسْرَى . فَلَمَّا رَأَى الْمَلِكُ مَا قَدَّمَ مِنْ الشُّحُوبِ ^(١)
وَالْتَعَبِ وَالنَّصَبِ ، قَالَ لَهُ : أَيُّهَا الْعَبْدُ النَّاصِحُ الَّذِي يَأْكُلُ ثَمَرَةَ
مَا قَدَّمَ غَرَسَ ، أَبَشِرْ وَقَرَّ عَيْنًا : فَإِنِّي مُشْرِفٌكَ وَبَالِغٌ بِكَ أَفْضَلَ
دَرَجَةٍ . وَأَمْرُهُ أَنْ يُرِيحَ بَدَنَهُ سَبْعَةَ أَيَّامٍ . فَلَمَّا كَانَ الْيَوْمُ الثَّامِنُ ،
أَمَرَ الْمَلِكُ أَنْ يَجْتَمَعَ إِلَيْهِ الْأُمَرَاءُ وَالْعُلَمَاءُ . فَلَمَّا اجْتَمَعُوا ،
أَمَرَ بَرَزَوِيهِ بِالْحُضُورِ . فَحَضَرَ مَعَهُ الْكُتُبُ ؛ فَفَتَحَهَا وَقَرَأَهَا

عَلَى مَنْ حَضَرَ مِنْ أَهْلِ الْمَمْلَكَةِ . فَلَمَّا سَمِعُوا مَا فِيهَا مِنَ الْعِلْمِ
فَرِحُوا فَرَحًا شَدِيدًا ، وَشَكَرُوا لِلَّهِ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ ، وَمَدَحُوا
بِرَزْوِيهِ وَأَثْنُوا عَلَيْهِ ، وَأَمَرَ الْمَلِكُ أَنْ تُفْتَحَ لِبِرَزْوِيهِ خَزَائِنُ اللُّوْلُؤِ
وَالزَّبَرْجَدِ وَالْيَاقُوتِ وَالذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ ، وَأَمَرَهُ أَنْ يَأْخُذَ مِنْ
الْخَزَائِنِ مَا شَاءَ مِنْ مَالٍ أَوْ كِسْفَةٍ ، وَقَالَ : يَا بِرَزْوِيهِ إِنِّي قَدْ
أَمَرْتُ أَنْ تُجْلِسَ عَلَى مِثْلِ سَرِيرِي هَذَا ، وَتُلْبَسَ تَاجًا ،
وَتَتَرَأَّسَ عَلَى جَمِيعِ الْأَشْرَافِ . فَسَجَدَ بِرَزْوِيهِ لِلْمَلِكِ وَدَعَا لَهُ
وَطَلَبَ مِنَ اللَّهِ وَقَالَ : أَكْرَمَ اللَّهُ تَعَالَى الْمَلِكَ كَرَامَةَ الدُّنْيَا
وَالْآخِرَةِ ، وَأَحْسَنَ عَنِّي ثَوَابَهُ وَجَزَاءَهُ ، فَإِنِّي بِحَمْدِ اللَّهِ مُسْتَغْنٍ
عَنِ الْمَالِ بِمَا رَزَقَنِي اللَّهُ عَلَى يَدِ الْمَلِكِ السَّعِيدِ الْجَدِّ ، الْعَظِيمِ
الْمَلِكِ ، وَلَا حَاجَةَ لِي بِالْمَالِ ، لَكِنْ لَمَّا كَلَّفَنِي الْمَلِكُ ذَلِكَ
وَعَلِمْتُ أَنَّهُ يَسْرُهُ ، أَنَا أَمْضِي إِلَى الْخَزَائِنِ فَأَخْذُ مِنْهَا طَلَبًا لِمَرْضَاتِهِ
وَأَمْتِنًا لِأَمْرِهِ . ثُمَّ قَصَدَ خِزَانَةَ الثِّيَابِ فَأَخْذَ مِنْهَا تَحْتًا^(١) مِنْ
طَرَائِفِ خُرَاسَانَ مِنْ مَلَابِسِ الْمُلُوكِ . فَلَمَّا قَبِضَ بِرَزْوِيهِ

(١) وعاء تصان فيه الثياب .

مَا اخْتَارَهُ وَرَضِيَهُ مِنَ الثِّيابِ قَالَ : أَكْرَمَ اللَّهُ الْمَلِكَ وَمَدَّ
 فِي عُمُرِهِ أَبَدًا . لَا بُدَّ أَنَّ الْإِنْسَانَ إِذَا أُكْرِمَ وَجَبَ عَلَيْهِ الشُّكْرُ ،
 وَإِنْ كَانَ قَدْ اسْتَوْجَبَهُ تَعَبًا وَمَشَقَّةً فَقَدْ كَانَ فِيهِمَا رِضَا الْمَلِكِ .
 وَأَمَّا أَنَا فَمَا لَقِيْتُهُ مِنْ عَنَاءٍ وَتَعَبٍ وَمَشَقَّةٍ ، لِمَا أَعْلَمُ أَنَّ لَكُمْ
 فِيهِ الشَّرَفَ يَأْهَلُ هَذَا الْبَيْتِ ! فَإِنِّي لَمْ أَزَلْ إِلَى هَذَا الْيَوْمِ تَابِعًا
 رِضَاكُمْ ، أَرَى الْعَسِيرَ فِيهِ يَسِيرًا . وَالشَّاقَّ هَيِّنًا ، وَالنَّصَبَ
 وَالْأَذَى سُورًا وَلَذَّةً : لِمَا أَعْلَمُ أَنَّ لَكُمْ فِيهِ رِضًا وَقُرْبَةً عِنْدَكُمْ .
 وَلَكِنِّي أَسْأَلُكَ أَيُّهَا الْمَلِكُ حَاجَةً تُسَعِفُنِي بِهَا ، وَتُعْطِينِي فِيهَا
 سُؤْلِي : فَإِنَّ حَاجَتِي يَسِيرَةٌ ، وَفِي قَضَائِهَا فَائِدَةٌ كَثِيرَةٌ . قَالَ
 أَنُوشِرَوَانُ : قُلْ فَكُلَّ حَاجَةٍ لَكَ قَبْلَنَا مَقْضِيَّةٌ : فَإِنَّكَ عِنْدَنَا
 عَظِيمٌ ، وَلَوْ طَلَبْتَ مُشَارَكَتَنَا فِي مُلْكِنَا لَفَعَلْنَا ، وَلَمْ نَزِدْ طَلِبَتَكَ ،
 فَكَيْفَ مَا سِوَى ذَلِكَ ؟ فَقُلْ وَلَا تَحْتَشِمْ ، فَإِنَّ الْأُمُورَ كُلَّهَا
 مَبْدُوءَةٌ لَكَ . قَالَ بَرَزَوَيْهِ : أَيُّهَا الْمَلِكُ لَا تَنْظُرْ إِلَى عَنَائِي
 فِي رِضَاكَ وَانْكَاشِي فِي طَاعَتِكَ ، فَإِنَّمَا أَنَا عَبْدُكَ يَلْزُمُنِي بَذُلُ

مُهَجَّتِي فِي رِضَاكَ ، وَلَوْ لَمْ تَجْزِنِي لَمْ يَكُنْ ذَلِكَ عِنْدِي عَظِيماً وَلَا
 وَاجِباً عَلَى الْمَلِكِ ، وَلَكِنْ لِكَرَمِهِ وَشَرَفِ مَنْصِبِهِ عَمَدًا إِلَى مُجَازَاتِي ،
 وَخَصَّنِي وَأَهْلَ بَيْتِي بِعُلُوِّ الْمَرْتَبَةِ وَرَفْعِ الدَّرَجَةِ ، حَتَّى لَوْ قَدَّرَ
 أَنْ يَجْمَعَ لَنَا بَيْنَ شَرَفِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لَفَعَلَ . فَجَزَاهُ اللَّهُ عَنَّا
 أَفْضَلَ الْجَزَاءِ . قَالَ أُنُوشِرَوَانُ : أَذْكُرُ حَاجَتَكَ ، فَعَلَى مَا يُسْرُكَ .
 فَقَالَ بَرْزَوِيهِ : حَاجَتِي أَنْ يَأْمُرَ الْمَلِكُ ، أَعْلَاهُ اللَّهُ تَعَالَى ،
 وَزِيرُهُ بَزْرَجَمِهَرُ بْنُ الْبَخْتِكَانِ ، وَيُقَسِّمَ عَلَيْهِ أَنْ يُعْمَلَ فِكْرُهُ ،
 وَيَجْمَعَ رَأْيُهُ ، وَيَجْهَدَ طَاقَتَهُ ، وَيُفْرِغَ قَلْبَهُ فِي نَظْمِ تَأْلِيفِ
 كَلَامٍ مُنْتَقَنِ مُحْكَمٍ ، وَيَجْعَلُهُ بَابًا يَذْكُرُ فِيهِ أَمْرِي وَيَصِفُ حَالِي ؛
 وَلَا يَدَّعُ مِنَ الْمُبَالَغَةِ فِي ذَلِكَ أَقْصَى مَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ . وَيَأْمُرُهُ
 إِذَا أَسْتَتَمَهُ أَنْ يَجْعَلَهُ أَوَّلَ الْأَبْوَابِ الَّتِي تُقْرَأُ قَبْلَ بَابِ الْأَسَدِ
 وَالشَّوْرِ : فَإِنَّ الْمَلِكَ إِذَا فَعَلَ ذَلِكَ فَقَدْ بَلَغَ بِي وَبِأَهْلِي غَايَةَ
 الشَّرَفِ وَأَعْلَى الْمَرَاتِبِ ، وَأَبْقَى لَنَا مَا لَا يَزَالُ ذِكْرُهُ بَاقِيًا عَلَى
 الْأَبَدِ حَيْثُمَا قُرِئَ هَذَا الْكِتَابُ .

فَلَمَّا سَمِعَ كِسْرَى أَنُوشِرَوَانَ وَالْعُظَمَاءَ مَقَالَتَهُ وَمَا سَمِعَتْ إِلَيْهِ نَفْسُهُ
 مِنْ مَحَبَّةٍ إِبْقَاءِ الذِّكْرِ اسْتَحْسَنُوا طَلِبَتَهُ وَاخْتِيَارَهُ ، وَقَالَ كِسْرَى :
 حُبًّا وَكَرَامَةً لَكَ يَا بَرْزَوِيهِ ، إِنَّكَ لَأَهْلٌ أَنْ تُسَعَفَ بِحَاجَتِكَ ؛
 فَمَا أَقَلَّ مَا قَنِعْتَ بِهِ وَأَيْسَرُهُ عِنْدَنَا ! وَإِنْ كَانَ خَطَرُهُ عِنْدَكَ
 عَظِيمًا . ثُمَّ أَقْبَلَ أَنُوشِرَوَانُ عَلَى وَزِيرِهِ بَرْزَجَمِهَرَ فَقَالَ لَهُ : قَدْ
 عَرَفْتَ مُنَاصَحَةَ بَرْزَوِيهِ لَنَا ، وَتَجَشَّمُهُ^(٢) الْمَخَافُوفُ وَالْمِهَالِكُ فِيمَا يُقَرِّبُهُ
 مِنَّا ، وَإِتِّعَابُهُ بَدَنُهُ فِيمَا يُسَرِّنَا ؛ وَمَا أَتَى بِهِ إِلَيْنَا مِنَ الْمَعْرُوفِ ،
 وَمَا أَفَادَنَا اللَّهُ عَلَى يَدِهِ مِنَ الْحِكْمَةِ وَالْأَدَبِ الْبَاقِي لَنَا نَفْرُهُ ، وَمَا
 عَرَضْنَا عَلَيْهِ مِنْ خَزَائِنِنَا لِنَجْزِيَهُ بِذَلِكَ عَلَى مَا كَانَ مِنْهُ ، فَلَمْ تَعْمَلْ
 نَفْسُهُ إِلَى شَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ ؛ وَكَانَ بُغْيَتُهُ وَطَلِبَتُهُ مِنَّا أَمْرًا يَسِيرًا رَأَاهُ
 هُوَ الثَّوَابَ مِنَّا لَهُ وَالْكَرَامَةَ الْجَلِيلَةَ عِنْدَهُ ؛ فَإِنِّي أَحِبُّ أَنْ تُتَكَلَّمَ
 فِي ذَلِكَ وَتُسَعِفَهُ بِحَاجَتِهِ وَطَلِبَتِهِ . وَأَعْلَمُ أَنَّ ذَلِكَ مِمَّا يُسَرِّنِي ،
 وَلَا تَدْعُ شَيْئًا مِنَ الْاجْتِهَادِ وَالْمُبَالَغَةِ إِلَّا بَلَعْتُهُ ، وَإِنْ نَالَكَ فِيهِ
 مَشَقَّةٌ . وَهُوَ أَنْ تُكْتُبَ بَابًا مُضَارِعًا لِنَتْلِكَ الْأَبْوَابَ الَّتِي
 فِي الْكِتَابِ ؛ وَتَذْكُرَ فِيهِ فَضْلَ بَرْزَوِيهِ ، وَكَيْفَ كَانَ ابْتِدَاءُ

أَمْرُهُ وَشَأْنُهُ ، وَتَنَسَّبَهُ إِلَيْهِ وَإِلَى حَسَبِهِ وَصِنَاعَتِهِ ، وَتَذَكَّرَ فِيهِ
بَعَثَتُهُ إِلَى بِلَادِ الْهِنْدِ فِي حَاجَتِنَا ، وَمَا أَفْدَنَا عَلَى يَدَيْهِ مِنْ هُنَالِكَ ؛
وَشَرَّفَنَا بِهِ وَفَضَّلَنَا عَلَى غَيْرِنَا ، وَكَيْفَ كَانَ حَالُ بَرَزَوِيهِ وَقُدُومُهُ
مِنْ بِلَادِ الْهِنْدِ ، فَقُلْ مَا تَقْدِرُ عَلَيْهِ مِنَ التَّقْرِيطِ وَالْإِطْنَابِ
فِي مَدْحِهِ ، وَبَالِغِ فِي ذَلِكَ أَفْضَلَ الْمُبَالِغَةِ وَاجْتَهِدْ فِي ذَلِكَ أَجْتِهَادًا
يُسَرُّ بَرَزَوِيَهُ وَأَهْلَ الْمَمْلَكَةِ . وَإِنَّ بَرَزَوِيَهُ أَهْلٌ لَذَلِكَ مِنِّي وَمِنْ
بِجَمِيعِ أَهْلِ الْمَمْلَكَةِ وَمِنْكَ أَيْضًا : لِمَحَبَّتِكَ لِلْعُلُومِ . وَاجْتَهِدْ أَنْ
يَكُونَ غَرَضُ هَذَا الْكِتَابِ الَّذِي يُنْسَبُ إِلَى بَرَزَوِيهِ أَفْضَلَ مِنْ
أَغْرَاضِ تِلْكَ الْأَبْوَابِ عِنْدَ الْخَاصِّ وَالْعَامِّ ، وَأَشَدَّ مُشَاكَلَةً لِلْحَالِ
هَذَا الْعِلْمِ : فَإِنَّكَ أَسْعَدُ النَّاسِ كُلِّهِمْ بِذَلِكَ : لِانْفِرَادِكَ بِهَذَا
الْكِتَابِ ، وَاجْعَلْهُ أَوَّلَ الْأَبْوَابِ . فَإِذَا أَنْتَ عَمَلْتَهُ وَوَضَعْتَهُ
فِي مَوْضِعِهِ فَأَعْلِنِي لِأَجْمَعَ أَهْلِ الْمَمْلَكَةِ وَتَقْرَأْ عَلَيْهِمْ ، فَيُظْهِرَ فَضْلُكَ
وَاجْتِهَادُكَ فِي مَحَبَّتِنَا ، فَيَكُونُ لَكَ بِذَلِكَ نَفْرٌ . فَلَمَّا سَمِعَ بَرَزَجَمَهُرُ
مَقَالَةَ الْمَلِكِ نَحْرَهُ سَاجِدًا ، وَقَالَ : أَدَامَ اللَّهُ لَكَ أَيُّهَا الْمَلِكُ
الْبَقَاءَ ، وَبَلَغَكَ أَفْضَلَ مَنَازِلِ الصَّالِحِينَ فِي الْآخِرَةِ وَالْأُولَى ؛
لَقَدْ شَرَّفْتَنِي بِذَلِكَ شَرَفًا بَاقِيًا إِلَى الْأَبَدِ . ثُمَّ نَخَرَ بَرَزَجَمَهُرُ مِنْ

عِنْدَ الْمَلِكِ ، فَوصَفَ بَرَزَوِيهَ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ دَفَعَهُ أَبَوَاهُ إِلَى الْمَعْلَمِ ،
وَمُضِيهِ إِلَى بِلَادِ الْهِنْدِ فِي طَلَبِ الْعَقَاقِيرِ وَالْأَدْوِيَةِ ؛ وَكَيْفَ تَعَلَّمَ
خُطُوطَهُمْ وَلُغَتَهُمْ ؛ إِلَى أَنْ بَعَثَهُ أَنْوَشِرَوَانُ إِلَى الْهِنْدِ فِي طَلَبِ
الْكِتَابِ . وَلَمْ يَدَعْ مِنْ فَضَائِلِ بَرَزَوِيهِ وَحِكْمَتِهِ وَخَلَائِقِهِ
وَمَذْهَبِهِ أَمْرًا إِلَّا تَسَقَّهَ ، وَأَتَى بِهِ بِأَجُودَ مَا يَكُونُ مِنَ الشَّرْحِ .
ثُمَّ أَعْلَمَ الْمَلِكُ بِفِرَاقِهِ مِنْهُ . فَجَمَعَ أَنْوَشِرَوَانُ أَشْرَافَ قَوْمِهِ وَأَهْلَ
مَمْلَكَتِهِ ، وَأَدْخَلَهُمْ إِلَيْهِ ؛ وَأَمَرَ بَرْزَجْمَهَرَ بِقِرَاءَةِ الْكِتَابِ ،
وَبَرَزَوِيهِ قَائِمًا إِلَى جَانِبِ بَرْزَجْمَهَرَ ، وَابْتَدَأَ بِوَصْفِ بَرَزَوِيهِ
حَتَّى انْتَهَى إِلَى آخِرِهِ . فَفَرِحَ الْمَلِكُ بِمَا أَتَى بِهِ بَرْزَجْمَهَرُ مِنَ
الْحِكْمَةِ وَالْعِلْمِ . ثُمَّ أَتَى الْمَلِكُ وَجَمِيعُ مَنْ حَضَرَهُ عَلَى بَرْزَجْمَهَرَ ،
وَشَكَرُوهُ وَمَدَحُوهُ ؛ وَأَمَرَ لَهُ الْمَلِكُ بِمَالٍ جَزِيلٍ وَكُنُوسَةٍ وَحُلِيِّ
وَأَوَانٍ ؛ فَلَمْ يَقْبَلْ مِنْ ذَلِكَ شَيْئًا غَيْرَ كُنُوسَةٍ كَانَتْ مِنْ ثِيَابِ
الْمُلُوكِ . ثُمَّ شَكَرَ لَهُ ذَلِكَ بَرَزَوِيهِ وَقَبَّلَ رَأْسَهُ وَيَدَهُ ؛ وَأَقْبَلَ
بَرَزَوِيهِ عَلَى الْمَلِكِ وَقَالَ : أَدَامَ اللَّهُ لَكَ الْمُلْكَ وَالسَّعَادَةَ فَقَدْ
بَلَغْتَ بِي وَبِأَهْلِي غَايَةَ الشَّرَفِ بِمَا أَمَرْتَ بِهِ بَرْزَجْمَهَرَ مِنْ صُنْعِهِ
الْكِتَابِ فِي أَمْرِي وَإِبْقَاءِ ذِكْرِي .

بَابُ عَرْضِ الْكِتَابِ . تَرْجَمَةُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الْمُقَفَّعِ

هَذَا كِتَابُ كُلَيْلَةٍ وَدَمْنَةٍ ، وَهُوَ مِمَّا وَضَعَهُ عُلَمَاءُ الْهِنْدِ مِنَ الْأَمْثَالِ وَالْأَحَادِيثِ الَّتِي أُلْهِمُوا أَنْ يُدْخِلُوا فِيهَا أَبْلَغَ مَا وَجَدُوا مِنَ الْقَوْلِ فِي النُّحُوِّ الَّذِي أَرَادُوا . وَلَمْ تَزَلِ الْعُلَمَاءُ مِنْ أَهْلِ كُلِّ مِلَّةٍ يَلْتَمِسُونَ أَنْ يُعْقَلَ عَنْهُمْ ، وَيَحْتَالُونَ فِي ذَلِكَ بِصُنُوفِ الْحِيلِ ؛ وَيَتَّبِعُونَ إِنْجَرَاجَ مَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلَلِ ، حَتَّى كَانَ مِنْ تِلْكَ الْعِلَلِ وَضَعُ هَذَا الْكِتَابِ عَلَى أَفْوَاهِ الْبَهَائِمِ وَالطَّيْرِ . فَاجْتَمَعَ لَهُمْ بِذَلِكَ خَلَالٌ . أَمَّا هُمْ فَوَجَدُوا مُتَصَرِّفًا فِي الْقَوْلِ وَشِعَابًا يَأْخُذُونَ مِنْهَا . وَأَمَّا الْكِتَابُ فَجُمِعَ حِكْمَةٌ وَلَهْوٌ : فَاخْتَارَهُ الْحُكَمَاءُ لِحِكْمَتِهِ . وَالسُّفَهَاءُ لِلْهَوَى ، وَالْمُتَعَلِّمُونَ مِنَ الْأَحْدَاثِ نَاشِطٌ فِي حِفْظِ مَا صَارَ إِلَيْهِ مِنْ أَمْرٍ يُرْبِطُ فِي صَدْرِهِ وَلَا يَذَرِي مَا هُوَ ، بَلْ عَرَفَ أَنَّهُ قَدْ ظَفِرَ مِنْ ذَلِكَ بِمَكْتُوبٍ مَرْقُومٍ . وَكَانَ كُلُّ رَجُلٍ الَّذِي لَمَّا اسْتَحْكَلَ الرَّجُولِيَّةَ وَجَدَ أَبَوِيَّةَ قَدْ كُنَزَا لَهُ كُنُوزًا وَعَقْدًا لَهُ عُقُودًا اسْتَغْنَى بِهَا عَنِ الْكَدْحِ فِيمَا يَعْمَلُهُ مِنْ أَمْرِ مَعِيشَتِهِ ؛ فَأَغْنَاهُ مَا أَشْرَفَ عَلَيْهِ مِنَ الْحِكْمَةِ عَنِ الْحَاجَةِ إِلَى غَيْرِهَا مِنْ وَجْهِهِ الْأَدَبِ .

وَيَنْبَغِي لِمَنْ قَرَأَ هَذَا الْكِتَابَ أَنْ يَعْرِفَ الْوُجُوهَ الَّتِي وُضِعَتْ
لَهُ ، وَإِلَى أَى غَايَةٍ جَرَى مُؤَلَّفُهُ فِيهِ عِنْدَ مَا نَسَبَهُ إِلَى الْبَهَائِمِ
وَأَضَافَهُ إِلَى غَيْرِ مُفْصَحٍ ، وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْأَوْضَاعِ الَّتِي جَعَلَهَا
أَمْثَالًا : فَإِنَّ قَارِئَهُ مَتَى لَمْ يَفْعَلْ ذَلِكَ لَمْ يَذِرْ مَا أُرِيدَ بِتِلْكَ الْمَعَانِي ،
وَلَا أَى ثَمَرَةٍ يَجْتَنِي مِنْهَا ، وَلَا أَى نَتِيجَةٍ تَحْصُلُ لَهُ مِنْ مُقَدِّمَاتِ
مَا تَضَمَّنَهُ هَذَا الْكِتَابُ . وَإِنَّهُ وَإِنْ كَانَ غَايَتُهُ اسْتِئْثَامَ قِرَاءَتِهِ إِلَى
آخِرِهِ دُونَ مَعْرِفَةِ مَا يَقْرَأُ مِنْهُ لَمْ يَعُدْ عَلَيْهِ شَيْءٌ يَرْجِعُ إِلَيْهِ نَفْعُهُ .
وَمَنْ اسْتَكْثَرَ مِنْ جَمْعِ الْعُلُومِ وَقِرَاءَةِ الْكُتُبِ ، مِنْ غَيْرِ إِعْمَالِ
الرَّوِيَّةِ فِيمَا يَقْرُوهُ ، كَانَ خَلِيقًا إِلَّا يُصِيبُهُ إِلَّا مَا أَصَابَ الرَّجُلَ
الَّذِي زَعَمَتِ الْعُلَمَاءُ أَنَّهُ اجْتَازَ بَعْضَ الْمَفَاوِزِ ، فَظَهَرَ لَهُ مَوْضِعُ
آثَارِ كَثْرٍ ، فَجَعَلَ يَحْفَرُ وَيَطْلُبُ ، فَوَقَعَ عَلَى شَيْءٍ مِنْ عَيْنِ
وَوَرَقٍ ، فَقَالَ فِي نَفْسِهِ : إِنْ أَنَا أَخَذْتُ فِي نَقْلِ هَذَا الْمَالِ
قَلِيلًا قَلِيلًا طَالَ عَلَيَّ ، وَقَطَعَنِي الْإِشْتِغَالُ بِنَقْلِهِ وَإِحْرَارِهِ عَنِ
اللَّذَةِ بِمَا أَصَبْتُ مِنْهُ ، وَلَكِنْ سَأَسْتَأْجِرُ أَقْوَامًا يَحْمِلُونَهُ إِلَى مَنْزِلِي ،
وَأَكُونُ أَنَا آخِرَهُمْ ، وَلَا يَكُونُ بَقِي وَرَائِي شَيْءٌ يَشْغَلُ فِكْرِي

بِنَقْلِهِ ؛ وَأَكُونُ قَدْ اسْتَظْهَرْتُ لِنَفْسِي فِي إِرَاحَةِ بَدَنِي عَنِ الْكَدِّ^(١)
بِإِسِيرِ أَجْرَةٍ أُعْطِيهِمْ إِيَّاهَا . ثُمَّ جَاءَ بِالْحَمَّالِينَ ، فَعَمِلَ يُحْمِلُ كُلُّ وَاحِدٍ
مِنْهُمْ مَا يُطِيقُ ، فَيَنْطَلِقُ بِهِ إِلَى مَنْزِلِهِ فَيَفُوزُ بِهِ ؛ حَتَّى لَمْ يَبَقَ
مِنَ الْكَنْزِ شَيْءٌ . فَانْطَلَقَ خَلْفَهُمْ إِلَى مَنْزِلِهِ : فَلَمْ يَجِدْ فِيهِ مِنْ
الْمَالِ شَيْئًا ، لَا قَلِيلًا وَلَا كَثِيرًا . وَإِذَا أَكُلَ وَاحِدٌ مِنَ الْحَمَّالِينَ
قَدْ فَازَ بِمَا حَمَلَهُ لِنَفْسِهِ . وَلَمْ يَكُنْ لَهُ مِنْ ذَلِكَ إِلَّا الْعَنَاءُ
وَالْتَّعَبُ : لِأَنَّهُ لَمْ يُفَكِّرْ فِي آخِرِ أَمْرِهِ . وَكَذَلِكَ مَنْ قَرَأَ هَذَا
الْكِتَابَ ، وَلَمْ يَفْهَمْ مَا فِيهِ ، وَلَمْ يَعْلَمْ غَرَضَهُ ظَاهِرًا وَبَاطِنًا ،
لَمْ يَنْتَفِعْ بِمَا بَدَأَ لَهُ مِنْ خَطِّهِ وَنَقْشِهِ ؛ كَمَا لَوْ أَنَّ رَجُلًا قَدَّمَ لَهُ
جَوْزٌ صَحِيحٌ لَمْ يَنْتَفِعْ بِهِ إِلَّا أَنْ يَكْسِرَهُ ؛ وَكَانَ أَيْضًا كَالرَّجُلِ
الَّذِي طَلَبَ عِلْمَ الْفَصِيحِ مِنْ كَلَامِ النَّاسِ ؛ فَأَتَى صَدِيقًا لَهُ مِنْ
الْعُلَمَاءِ ، لَهُ عِلْمٌ بِالْفَصَاحَةِ ، فَأَعْلَمَهُ حَاجَتَهُ إِلَى عِلْمِ الْفَصِيحِ ؛
فَرَسَمَ لَهُ صَدِيقُهُ فِي صَحِيفَةٍ صَفْرَاءَ فَصِيحَ الْكَلَامِ وَتَصَارِيفَهُ
وَوُجُوهُهُ ؛ فَانْصَرَفَ الْمُتَعَلِّمُ إِلَى مَنْزِلِهِ ؛ فَعَمِلَ يَكْثُرُ قِرَاءَتَهَا وَلَا

يَقِفُ عَلَى مَعَانِيهَا . ثُمَّ إِنَّهُ جَلَسَ ذَاتَ يَوْمٍ فِي مُحْفَلٍ مِنْ أَهْلِ
 الْعِلْمِ وَالْأَدَبِ ، فَأَخَذَ فِي مُحَاوَرَتِهِمْ ؛ بَحَرَتْ لَهُ كَلِمَةٌ أَخْطَأَ فِيهَا ؛
 فَقَالَ لَهُ بَعْضُ الْجَمَاعَةِ : إِنَّكَ قَدْ أَخْطَأْتَ ؛ وَالْوَجْهَ غَيْرُ مَا تَكَلَّمْتَ
 بِهِ . فَقَالَ وَكَيْفَ أَخْطِئْتُ وَقَدْ قَرَأْتُ الصَّحِيفَةَ الصَّفْرَاءَ ؛ وَهِيَ
 فِي مَنْزِلِي ؟ فَكَانَتْ مَقَالَتُهُ لَهُمْ أَوْجَبَ لِلْحُجَّةِ عَلَيْهِ وَزَادَهُ ذَلِكَ
 قُرْبًا مِنَ الْجَهْلِ وَبُعْدًا مِنَ الْأَدَبِ .

ثُمَّ إِنَّ الْعَاقِلَ إِذَا فَهِمَ هَذَا الْكِتَابَ وَبَلَغَ نِهَايَةَ عَلَيْهِ فِيهِ ،
 يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَعْمَلَ بِمَا عَلِمَ مِنْهُ لِيَنْتَفِعَ بِهِ ؛ وَيَجْعَلُهُ مِثَالًا
 لَا يَحِيدُ عَنْهُ . فَإِذَا لَمْ يَفْعَلْ ذَلِكَ ، كَانَ مِثْلُهُ كَالرَّجُلِ الَّذِي
 زَعَمُوا أَنَّ سَارِقًا تَسَوَّرَ عَلَيْهِ وَهُوَ نَائِمٌ فِي مَنْزِلِهِ ، فَعَلِمَ بِهِ فَقَالَ :
 وَاللَّهِ لَا أَسْكُتَنَّ حَتَّى أَنْظُرَ مَاذَا يَصْنَعُ ، وَلَا أَذْعُرُهُ ؛ وَلَا أُغْلِبُهُ
 أُنِّي قَدْ عَلِمْتُ بِهِ . فَإِذَا بَلَغَ مُرَادَهُ قُمْتُ إِلَيْهِ ، فَنَغَضْتُ ذَلِكَ
 عَلَيْهِ . ثُمَّ إِنَّهُ أَمْسَكَ عَنْهُ . وَجَعَلَ السَّارِقُ يَتَرَدَّدُ ، وَطَالَ
 تَرَدُّدُهُ فِي جَمْعِهِ مَا يَجِدُهُ ؛ فَغَلَبَ الرَّجُلَ النَّعَاسُ فَنَامَ ، وَفَرَّغَ
 اللَّصُّ مِمَّا أَرَادَ ، وَأَمْكَنَهُ الذَّهَابُ . وَاسْتَيْقَظَ الرَّجُلُ ، فَوَجَدَ

اللصّ قَدْ أَخَذَ الْمُتَاعَ وَفَارَ بِهِ . فَأَقْبَلَ عَلَى نَفْسِهِ يَلُومُهَا ،
وَعَرَفَ أَنَّهُ لَمْ يَنْتَفِعْ بِعِلْمِهِ بِاللَّصِّ : إِذْ لَمْ يَسْتَغْمِلْ فِي أَمْرِهِ
مَا يَجِبُ . فَالْعِلْمُ لَا يَتِمُّ إِلَّا بِالْعَمَلِ ، وَهُوَ كَالشَّجَرَةِ وَالْعَمَلُ بِهِ
كَالْمَثْرَةِ . وَإِنَّمَا صَاحِبُ الْعِلْمِ يَقُومُ بِالْعَمَلِ لِيَنْتَفِعَ بِهِ ؛ وَإِنْ
لَمْ يَسْتَغْمِلْ مَا يَعْلَمُ لَا يُسَمَّى عَالِمًا . وَلَوْ أَنَّ رَجُلًا كَانَ عَالِمًا
بِطَرِيقِ مَخُوفٍ ، ثُمَّ سَلَكَهُ عَلَى عِلْمِهِ بِهِ ، سُمِّيَ جَاهِلًا ؛ وَلَعَلَّهُ إِنْ
حَاسَبَ نَفْسَهُ وَجَدَهَا قَدْ رَكِبَتْ أَهْوَاءَ هَجَمَتْ بِهَا فِيمَا هُوَ
أَعْرَفُ بِضَرَرِهَا فِيهِ وَأَذَاهَا مِنْ ذَلِكَ السَّالِكِ فِي الطَّرِيقِ
الْمَخُوفِ الَّذِي قَدْ جَهِلَهُ . وَمَنْ رَكِبَ هَوَاهُ وَرَفَضَ مَا يَنْبَغِي
أَنْ يَعْمَلَ بِمَا جَرَّبَهُ هُوَ أَوْ أَعْلَمَهُ بِهِ غَيْرُهُ ، كَانَ كَالْمَرِيضِ الْعَالِمِ
بِرَدَى الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ وَجِدِّهِ وَخَفِيفِهِ وَثَقِيلِهِ ، ثُمَّ يَحْمِلُهُ الشَّرُّ
عَلَى أَكْلِ رَدِيئِهِ وَتَرْكِ مَا هُوَ أَقْرَبُ إِلَى النِّجَاةِ وَالتَّخَلُّصِ مِنْ
عَائَتِهِ . وَأَقْلُ النَّاسِ عُذْرًا فِي اجْتِنَابِ مَحْمُودِ الْأَفْعَالِ وَارْتِكَابِ
مَذْمُومِهَا مَنْ أَبْصَرَ ذَلِكَ وَمِيزَهُ وَعَرَفَ فَضْلَ بَعْضِهِ عَلَى بَعْضِ
كَمَا أَنَّهُ لَوْ أَنَّ رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا بَصِيرٌ وَالْآخَرُ أَعْمَى سَاقَهُمَا الْأَجَلَ

إِلَى حُفْرَةٍ فَوَقَعَا فِيهَا ، كَانَا إِذَا صَارَا فِي قَاعِهَا بِمَنْزِلَةٍ وَاحِدَةٍ ؛
غَيْرَ أَنَّ الْبَصِيرَ أَقْلُ عُدْرًا عِنْدَ النَّاسِ مِنَ الضَّرِيرِ : إِذْ كَانَتْ لَهُ
عَيْنَانِ يُبْصِرُ بِهِمَا ، وَذَلِكَ بِمَا صَارَ إِلَيْهِ جَاهِلٌ غَيْرُ عَارِفٍ .

وَعَلَى الْعَالِمِ أَنْ يَبْدَأَ بِنَفْسِهِ وَيُودِّعَهَا بِعِلْمِهِ ، وَلَا تَكُونَ غَايَتُهُ
اِقْتِنَاؤُهُ الْعِلْمَ لِمُعَاوَنَةِ غَيْرِهِ ، وَيَكُونُ كَالْعَيْنِ الَّتِي يَشْرَبُ النَّاسُ
مَاءَهَا وَلَيْسَ لَهَا فِي ذَلِكَ شَيْءٌ مِنَ الْمُنْفَعَةِ ، وَكَدُودَةِ الْقَرْزِ الَّتِي
تُحْكَمُ صِنْعَتُهُ وَلَا تَنْتَفِعُ بِهِ . فَيَنْبَغِي لِمَنْ طَلَبَ الْعِلْمَ أَنْ يَبْدَأَ
بِعِظَةِ نَفْسِهِ ، ثُمَّ عَلَيْهِ بَعْدَ ذَلِكَ أَنْ يَقْبِسَهُ ^(١) ، فَإِنَّ خِلَالَ مَا يَنْبَغِي
لصَاحِبِ الدُّنْيَا أَنْ يَقْتَنِيَهَا وَيُقْبِسَهَا : مِنْهَا الْعِلْمُ وَالْمَالُ . وَمِنْهَا
اتِّخَاذُ الْمَعْرُوفِ . وَلَيْسَ لِلْعَالِمِ أَنْ يَعِيبَ أَمْرًا بِشَيْءٍ فِيهِ مِثْلُهُ ،
وَيَكُونُ كَالْأَعْمَى الَّذِي يُعِيرُ الْأَعْمَى بَعَمَاهُ . وَيَنْبَغِي لِمَنْ طَلَبَ
أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُ فِيهِ غَايَةٌ وَنِهَايَةٌ ، وَيَعْمَلُ بِهَا ، وَيَقِفَ عِنْدَهَا ؛
وَلَا يَتَّحَدَى فِي الطَّلَبِ ، فَإِنَّهُ يُقَالُ : مَنْ سَارَ إِلَى غَيْرِ غَايَةٍ

(١) أقبسه العلم وقبسه إياه يقبسه : أفاده إياه ، ويقال : اقتبست منه علما وقبست استفدت

يُوشِكُ أَنْ تَقْطَعَ بِهِ مَظِيَّتَهُ ، وَأَنَّهُ كَانَ حَقِيقًا ^(١) أَلَّا يُعْنَى نَفْسَهُ
 فِي طَلَبِ مَا لَا حَدَّ لَهُ . وَمَا لَمْ يَنْلُهُ أَحَدٌ قَبْلَهُ ، وَلَا يَتَأَسَفُ
 عَلَيْهِ ، وَلَا يَكُونُ لِدُنْيَاهُ مُؤَثِّرًا عَلَى آخِرَتِهِ : فَإِنَّ مَنْ لَمْ يَعْلُقْ قَلْبَهُ
 بِالْغَايَاتِ قَلَّتْ حَسْرَتُهُ عِنْدَ مُفَارَقَتِهَا . وَقَدْ يُقَالُ فِي أَمْرَيْنِ
 إِنَّهُمَا يَجْمَلَانِ بِكُلِّ أَحَدٍ : أَحَدُهُمَا النَّسْكُ وَالْآخَرُ الْمَالُ الْحَلَالُ ^(٢)
 وَلَا يَلِيقُ بِالْعَاقِلِ أَنْ يُؤَنِّبَ نَفْسَهُ عَلَى مَا فَاتَهُ وَلَيْسَ فِي مَقْدُورِهِ ،
 فَرُبَّمَا أَتَاكَ اللَّهُ لَهُ مَا يَهْنَأُ بِهِ وَلَمْ يَكُنْ فِي حُسْبَانِهِ . وَمِنْ أَمْثَالِ
 هَذَا أَنَّ رَجُلًا كَانَ بِهِ فَاقَةٌ ^{السر} وَجُوعٌ وَعُرَى ، فَأَلْجَأَهُ ذَلِكَ إِلَى
 أَنْ سَأَلَ أَقْرَابَهُ وَأَصْدِقَاءَهُ ، فَلَمْ يَكُنْ عِنْدَ أَحَدٍ مِنْهُمْ فَضْلٌ يَعُودُ
 بِهِ عَلَيْهِ . فَبَيْنَمَا هُوَ ذَاتَ لَيْلَةٍ فِي مَنْزِلِهِ إِذْ بَصُرَ ^(٣) بِسَارِقٍ فِيهِ ،
 فَقَالَ : وَاللَّهِ مَا فِي مَنْزِلِي شَيْءٌ أَخَافُ عَلَيْهِ : فَلْيَجْهَدْ السَّارِقُ
 جُهْدَهُ . فَبَيْنَمَا السَّارِقُ يَجُولُ إِذْ وَقَعَتْ يَدُهُ عَلَى خَائِبَةٍ فِيهَا
 حِنْطَةٌ ، فَقَالَ السَّارِقُ : وَاللَّهِ مَا أَحَبُّ أَنْ يَكُونَ عَنَائِي اللَّيْلَةُ
 بَاطِلًا . وَلَعَلِّي لَا أَصِلُ إِلَى مَوْضِعِ آخِرٍ ، وَلَكِنْ سَأَحْمِلُ هَذِهِ

(١) يتعبها . (٢) العبادة . (٣) بصره كظرف وفتح أبصره .

الْحِنْطَةَ . ثُمَّ بَسَطَ قَيْصَهُ لِيَصُبَّ عَلَيْهِ الْحِنْطَةُ . فَقَالَ الرَّجُلُ :
 أَيَذْهَبُ هَذَا بِالْحِنْطَةِ وَلَيْسَ وَرَأْيِ سِوَاهَا ؟ فَيَجْتَمِعُ عَلَى مَعَ
 الْعُرَى ذَهَابُ مَا كُنْتُ أَقْتَاتُ بِهِ . وَمَا تَجْتَمِعُ وَاللَّهِ هَاتَانِ
 الْخِلَتَانِ عَلَى أَحَدٍ إِلَّا أَهْلَكَاهُ . ثُمَّ صَاحَ بِالسَّارِقِ ، وَأَخَذَ هِرَاوَةً^(١)
 كَانَتْ عِنْدَ رَأْسِهِ ، فَلَمْ يَكُنْ لِلْسَّارِقِ حِيلَةٌ إِلَّا الْهَرَبُ مِنْهُ ، وَتَرَكَ
 قَيْصَهُ وَتَجَا بِنَفْسِهِ ، وَغَدَا الرَّجُلُ بِهِ كَاسِيًا ، وَلَيْسَ يَنْبَغِي أَنْ
 يَرْكَنَ إِلَى مِثْلِ هَذَا وَيَدْعَ مَا يَجِبُ عَلَيْهِ مِنَ الْحَذَرِ وَالْعَمَلِ فِي
 مِثْلِ هَذَا لِصَلَاحِ مَعَاشِهِ ، وَلَا يَنْظُرَ إِلَى مَنْ تُؤَاتِيهِ الْمَقَادِيرُ
 وَتُسَاعِدُهُ عَلَى غَيْرِ التَّكَاسُ مِنْهُ : لِأَنَّ أَوْلَئِكَ فِي النَّاسِ قَلِيلٌ ،
 وَالْجُمْهُورُ مِنْهُمْ مَنْ أَتْعَبَ نَفْسَهُ فِي الْكَدِّ وَالسَّعْيِ فِيمَا يَصْلِحُ
 أَمْرَهُ وَيَنَالُ بِهِ مَا أَرَادَ . وَيَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ حِرْصُهُ عَلَى مَا طَابَ
 كَسْبُهُ وَحَسَنَ نَفْعُهُ ، وَلَا يَتَعَرَّضَ لِمَا يَجْلِبُ عَلَيْهِ الْعَنَاءُ
 وَالشَّقَاءُ ، فَيَكُونَ كَالْحِمَامَةِ الَّتِي تُفْرِخُ الْفِرَاحَ فَتُوَخِّدُ وَتُذْبِحُ ،
 ثُمَّ لَا يَمْنَعُهَا ذَلِكَ أَنْ تَعُودَ تُفْرِخُ مَوْضِعَهَا ، وَتَقِيمَ بِمَكَانِهَا فَتُوَخِّدَ

(١) الهراوة بالكسر : العصا الضخمة .

الثَّانِيَّةُ مِنْ فِرَاحِهَا فَتُذَبِّحُ . وَقَدْ يُقَالُ : إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَدْ جَعَلَ
لِكُلِّ شَيْءٍ حَدًّا يُوقَفُ عَلَيْهِ . وَمَنْ تَجَاوَزَ فِي أَشْيَاءَ حَدَّهَا
أَوْشَكَ أَنْ يَلْحَقَهُ التَّقْصِيرُ عَنْ بُلُوغِهَا . وَيُقَالُ : مَنْ كَانَ سَعْيُهُ
لِالْآخِرَةِ وَدُنْيَاهُ خَيَابَةً لَهُ وَعَلَيْهِ . وَيُقَالُ فِي ثَلَاثَةِ أَشْيَاءَ يَجِبُ
عَلَى صَاحِبِ الدُّنْيَا إِصْلَاحُهَا وَبَذْلُ جُهِدِهِ فِيهَا : مِنْهَا أَمْرُ
مَعِيشَتِهِ ، وَمِنْهَا مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ النَّاسِ ، وَمِنْهَا مَا يُكْسِبُهُ الذِّكْرُ
الْجَمِيلَ بَعْدُ . وَقَدْ قِيلَ فِي أُمُورٍ مِنْ كُنَّ فِيهِ لَمْ يَسْتَقِمَّ لَهُ عَمَلٌ .
مِنْهَا التَّوَانِي ، وَمِنْهَا تَضْيِيعُ الْفُرْصِ ، وَمِنْهَا التَّصَدِيقُ لِكُلِّ
مُخْبِرٍ . فَرُبَّ مُخْبِرٍ بِشَيْءٍ عَقَلَهُ وَلَا يَعْرِفُ اسْتِقَامَتَهُ فَيُصَدِّقُهُ .
وَيَنْبَغِي لِلْعَاقِلِ أَنْ يَكُونَ لِهَوَاهُ مَتْنَمًا ، وَلَا يَقْبَلَ مِنْ كُلِّ أَحَدٍ
حَدِيثًا ، وَلَا يَتِمَادَى فِي الْخَطَا إِذَا ظَهَرَ لَهُ خَطْوُهُ وَلَا يُقَدِّمُ
عَلَى أَمْرٍ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُ الصَّوَابُ ، وَتَتَّضِحَ لَهُ الْحَقِيقَةُ ، وَلَا
يَكُونَ كَالرَّجُلِ الَّذِي يَحِيدُ عَنِ الطَّرِيقِ ، فَيَسْتَمِرَّ عَلَى الضَّلَالِ ،
فَلَا يَزْدَادُ فِي السَّيْرِ إِلَّا جَهْدًا ، وَعَنِ الْقَصْدِ إِلَّا بُعْدًا ،
وَكَالرَّجُلِ الَّذِي تَقْذَى عَيْنُهُ فَلَا يَزَالُ يُحْكِمُهَا ، وَرُبَّمَا كَانَ ذَلِكَ

الْحَكُّ سَبَبًا لِدَهَابِهَا . وَيَجِبُ عَلَى الْعَاقِلِ أَنْ يُصَدِّقَ بِالْقَضَاءِ
وَالْقَدَرِ ، وَيَأْخُذَ بِالْحَزْمِ ، وَيُحِبَّ لِلنَّاسِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ ، وَلَا
يَلْتَمِسَ صَلَاحَ نَفْسِهِ بِفَسَادِ غَيْرِهِ ، فَإِنَّهُ مَنْ فَعَلَ ذَلِكَ كَانَ
خَلِيقًا أَنْ يُصِيبَهُ مَا أَصَابَ التَّاجِرَ مِنْ رَفِيقِهِ .

فَإِنَّهُ يُقَالُ إِنَّهُ كَانَ رَجُلٌ تَاجِرٌ ، وَكَانَ لَهُ شَرِيكٌ ، فَاسْتَأْجَرَا
حَانُوتًا ، وَجَعَلَا مَتَاعَهُمَا فِيهِ . وَكَانَ أَحَدُهُمَا قَرِيبَ الْمَنْزِلِ مِنَ
الْحَانُوتِ ؛ فَاضْمَرَ فِي نَفْسِهِ أَنْ يَسْرِقَ عَدْلًا مِنْ أَعْدَالِ رَفِيقِهِ ؛
وَمَكَرَ الْحِيلَةَ فِي ذَلِكَ ، وَقَالَ : إِنْ أَتَيْتُ لَيْلًا لَمْ أَمِنْ أَنْ أَهْمَلَ
عَدْلًا مِنْ أَعْدَالِي أَوْ رِزْمَةً مِنْ رِزْمِي وَلَا أَعْرِفَهَا ؛ فَيَذْهَبَ
عَنَّا نِي وَتَعْبِي بَاطِلًا . فَأَخَذَ رِدَاءَهُ ، وَأَلْقَاهُ عَلَى الْعِدْلِ الَّذِي
اضْمَرَ أَخْذَهُ . ثُمَّ أَنْصَرَفَ إِلَى مَنْزِلِهِ . وَجَاءَ رَفِيقُهُ بَعْدَ ذَلِكَ
لِيُصْلِحَ أَعْدَالَهُ ، فَوَجَدَ رِدَاءَ شَرِيكِهِ عَلَى بَعْضِ أَعْدَالِهِ ، فَقَالَ :
وَاللَّهِ هَذَا رِدَاءُ صَاحِبِي ؛ وَلَا أَحْسَبُهُ إِلَّا قَدْ نَسِيَهُ . وَمَا الرَّأْيُ
أَنْ أَدْعُهُ هَاهُنَا ؛ وَلَكِنْ أَجْعَلُهُ عَلَى رِزْمِهِ ؛ فَلَعَلَّهُ يَسْبِقُنِي إِلَى

الْحَانُوتِ فَيَجِدُهُ حَيْثُ يُحِبُّ . ثُمَّ أَخَذَ الرِّدَاءَ فَأَلْقَاهُ عَلَى عِدْلِ
 مِنْ أَعْدَالِ رَفِيقِهِ ، وَأَقْفَلَ الْحَانُوتَ ، وَمَضَى إِلَى مَنْزِلِهِ . فَلَمَّا
 جَاءَ اللَّيْلُ أَتَى رَفِيقَهُ وَمَعَهُ رَجُلٌ قَدْ وَاطَّاهُ عَلَى مَا عَزَمَ عَلَيْهِ ،
 وَضَمِنَ لَهُ جُعْلًا عَلَى حَمْلِهِ ؛ فَصَارَ إِلَى الْحَانُوتِ ؛ فَالْتَمَسَ
 الْإِزَارَ فِي الظُّلْمَةِ فَوَجَدَهُ عَلَى الْعِدْلِ ؛ فَاحْتَمَلَ ذَلِكَ الْعِدْلَ ،
 وَأَخْرَجَهُ هُوَ وَالرَّجُلُ ، وَجَعَلَا يَتَرَاوَحَانِ عَلَى حَمْلِهِ ؛ حَتَّى أَتَى
 مَنْزِلَهُ ، وَرَمَى نَفْسَهُ تَعَبًا . فَلَمَّا أَصْبَحَ أَفْتَقَدَهُ فَإِذَا هُوَ بَعْضُ
 أَعْدَالِهِ ؛ فَنَدِمَ أَشَدَّ النَّدَامَةِ . ثُمَّ أَنْطَلَقَ نَحْوَ الْحَانُوتِ ، فَوَجَدَ
 شَرِيكَهُ قَدْ سَبَقَهُ إِلَيْهِ فَفَتَحَ الْحَانُوتَ وَوَجَدَ الْعِدْلَ مَفْقُودًا :
 فَاعْتَمَ لِذَلِكَ غَمًّا شَدِيدًا ؛ وَقَالَ : وَاسَوْءَتَاهُ مِنْ رَفِيقِ صَالِحٍ
 قَدْ اسْتَمَنَنِي عَلَى مَالِهِ وَخَلَفَنِي فِيهِ ! مَاذَا يَكُونُ حَالِي عِنْدَهُ ؟
 وَلَسْتُ أَشْكُ فِي تَهْمَتِهِ إِيَّايَ . وَلَكِنْ قَدْ وَطَّنْتُ نَفْسِي عَلَى
 غَرَامَتِهِ . ثُمَّ أَتَى صَاحِبَهُ فَوَجَدَهُ مُغْتَمًّا ، فَسَأَلَهُ عَنْ حَالِهِ ؛ فَقَالَ
 إِنِّي قَدْ افْتَقَدْتُ الْأَعْدَالَ ، وَفَقَدْتُ عِدْلًا مِنْ أَعْدَالِكَ ، وَلَا

أَعْلَمُ بِسَبَبِهِ ^(١) ، وَإِنِّي لَا أَشُكُّ فِي تَهْمَتِكَ إِيَّايَ ، وَإِنِّي قَدْ وَطَّئْتُ
نَفْسِي عَلَى غَرَامَتِهِ . فَقَالَ لَهُ : يَا أَخِي لَا تَغْتَمَّ : فَإِنَّ الْخِيَانَةَ
شَرُّ مَا عَمِلَهُ الْإِنْسَانُ ، وَالْمَكْرَ وَالْخَدِيعَةَ لَا يُؤَدِّيَانِ إِلَى خَيْرٍ ،
وَصَاحِبُهُمَا مَغْرُورٌ أَبَدًا ، وَمَا عَادَ وَبَالَ الْبَغْيِ إِلَّا عَلَى صَاحِبِهِ ،
وَأَنَا أَحَدُ مَنْ مَكَرَ وَخَدَعَ وَآخَتَلَ . فَقَالَ لَهُ صَاحِبُهُ : وَكَيْفَ
كَانَ ذَلِكَ ؟ فَأَخْبَرَهُ بِخَبْرِهِ ، وَقَصَّ عَلَيْهِ قِصَّتَهُ . فَقَالَ لَهُ رَفِيقُهُ :
مَا مَثْلُكَ إِلَّا مَثَلُ اللَّصِّ وَالتَّاجِرِ . فَقَالَ لَهُ : وَكَيْفَ كَانَ ذَلِكَ ؟
قَالَ : زَعَمُوا أَنَّ تَاجِرًا كَانَ لَهُ فِي مَنْزِلِهِ خَائِدَتَانِ إِحْدَاهُمَا مَمْلُوءَةٌ ^(٢)
حِنْطَةً ، وَالْأُخْرَى مَمْلُوءَةٌ ذَهَبًا . فَتَرَقَّبَهُ بَعْضُ اللَّصُوصِ
زَمَانًا ، حَتَّى إِذَا كَانَ بَعْضُ الْأَيَّامِ تَشَاغَلَ التَّاجِرُ عَنِ الْمَنْزِلِ ،
فَتَغَفَّلَ ^(٣) اللَّصُّ ، وَدَخَلَ الْمَنْزِلَ ، وَكَمَنَ فِي بَعْضِ نَوَاحِيهِ . فَلَمَّا
هَمَّ بِأَخْذِ الْخَائِدَةِ الَّتِي فِيهَا الدَّنَانِيرُ أَخَذَ الَّتِي فِيهَا الْحِنْطَةُ ،
وَضَمَّهَا الَّتِي فِيهَا الذَّهَبُ ، وَلَمْ يَزَلْ فِي كَدٍّ وَتَعَبٍ حَتَّى أَتَى بِهَا
مَنْزِلَهُ فَلَمَّا فَتَحَهَا وَعَلِمَ مَا فِيهَا نَدِمَ . قَالَ لَهُ الْخَائِنُ : مَا أَبْعَدْتَ

(١) أشعر . (٢) الخائبة الجب أي الجرة الضخمة وأصلها الحمز لأنها من خبا . (٣) اعتم غفلته .

المثل ، وَلَا تَجَاوَزْتَ الْقِيَّاسَ ، وَقَدْ اعْتَرَفْتُ بِذَنْبِي وَخَطِيئِي
عَلَيْكَ ، وَعَزِيزٌ عَلَيَّ أَنْ يَكُونَ هَذَا كَهَذَا . غَيْرَ أَنَّ النَّفْسَ
الرَّدِيئَةَ تَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ . فَقِيلَ الرَّجُلُ مَعْدِرَتُهُ ، وَأَضْرَبَ عَنْ
تَوْبِيخِهِ وَعَنِ الثُّقَةِ بِهِ ، وَنَدِمَ هُوَ عِنْدَ مَا عَايَنَ مِنْ سُوءِ فِعْلِهِ
وَتَقْدِيمِ جَهْلِهِ .

وَقَدْ يَذْنِبُنِي لِلنَّاطِرِ فِي كِتَابِنَا هَذَا أَلَّا تَكُونَ غَايَتُهُ التَّصَفُّحُ
لِتَزَاوِيَقِهِ ، بَلْ يُشْرِفُ^(١) عَلَى مَا يَتَضَمَّنُ مِنَ الْأَمْثَالِ ، حَتَّى يَنْتَهِيَ
مِنْهُ ، وَيَقِفَ عِنْدَ كُلِّ مَثَلٍ وَكَلِمَةٍ ، وَيُعْمَلَ فِيهَا رَوِيَّتُهُ ،
وَيَكُونَ مِثْلَ أَصْغَرِ الْإِخْوَةِ الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خَلَفَ لَهُمْ أَبُوهُمُ الْمَالُ
الكَثِيرَ ، فَتَنَازَعُوهُ بَيْنَهُمْ^(٢) ، فَأَمَّا الْكَبِيرَانِ فَأَيُّهُمَا أَسْرَعَا فِي إِتْلَافِهِ
وَإِنْفَاقِهِ فِي غَيْرِ وَجْهِهِ ، وَأَمَّا الصَّغِيرُ فَإِنَّهُ عِنْدَ مَا نَظَرَ مَا صَارَ إِلَيْهِ
أَخَوَاهُ مِنْ إِسْرَافِهِمَا وَتَحْلِيهِمَا مِنَ الْمَالِ ، أَقْبَلَ عَلَى نَفْسِهِ
يُسَاوِرُهَا وَقَالَ : يَا نَفْسِي إِنَّكَ الْمَالُ يَطْلُبُهُ صَاحِبُهُ ، وَيَجْمَعُهُ
مِنْ كُلِّ وَجْهِ : لِبَقَاءِ حَالِهِ ، وَصَلَاحِ مَعَاشِهِ وَدُنْيَاةِ ، وَشَرَفِ

(١) أصل معناه يطلع عليه من فوق والمراد هنا يدقق ويتأمل . (٢) تنازعه : تناولوه .

مَنْزَلَتِهِ فِي أَتَيْنِ النَّاسِ ، وَأَسْتِغْنَاهُ عَمَّا فِي أَيْدِيهِمْ ، وَصَرَفِهِ
 فِي وَجْهِهِ : مِنْ صَلَةِ الرَّحِمِ ، وَالْإِنْفَاقِ عَلَى الْوَلَدِ ، وَالْإِفْضَالِ
 عَلَى الْإِخْوَانِ . فَمَنْ كَانَ لَهُ مَالٌ وَلَا يُنْفِقُهُ فِي حَقُّوقِهِ ، كَانَ
 كَالَّذِي يُعَدُّ فَقِيرًا وَإِنْ كَانَ مُوسِرًا . وَإِنْ هُوَ أَحْسَنَ إِمْسَاكُهُ
 وَالْقِيَامَ عَلَيْهِ ، لَمْ يَعْدِمِ الْأَمْرَيْنِ جَمِيعًا مِنْ دُنْيَا تَبْقَى عَلَيْهِ ، وَحَمْدِ
 يُضَافُ إِلَيْهِ ، وَمَتَى قَصَدَ إِنْفَاقَهُ عَلَى غَيْرِ الْوُجُوهِ الَّتِي عَلِمَتْ ،
 لَمْ يَلْبَثْ أَنْ يُتْلِفَهُ وَيَبْقَى عَلَى حَسْرَةٍ وَنَدَامَةٍ . وَلَكِنَّ الرَّأْيَ
 أَنْ أُمْسِكَ هَذَا الْمَالَ ، فَإِنِّي أَرْجُو أَنْ يَنْفَعَنِي اللَّهُ بِهِ : وَيُغْنِيَ
 أَخَوَى عَلَى يَدَيَّ : فَإِنَّمَا هُوَ مَالُ أَبِي وَمَالُ أَبِيهِمَا . وَإِنْ أَوْلَى
 الْإِنْفَاقِ عَلَى صَلَةِ الرَّحِمِ وَإِنْ بَعْدَتْ ، فَكَيْفَ بِأَخَوَى ؟ فَانْفَذْ
 فَأَخْضَرَهُمَا وَشَاطَرَهُمَا مَالَهُ ، وَكَذَلِكَ يَجِبُ عَلَى قَارِئِ هَذَا الْكِتَابِ
 أَنْ يُدِيمَ النَّظَرَ فِيهِ مِنْ غَيْرِ ضَجَرٍ ، وَيَلْتَمِسَ جَوَاهِرَ مَعَانِيهِ ،
 وَلَا يَظُنَّ أَنَّ نَتِيجَتَهُ الْإِخْبَارُ عَنْ حِيلَةٍ بِهِمَتَيْنِ أَوْ مُحَاوَرَةٍ سَبْعٍ
 لِثَوْرِ : فَيَنْصَرِفَ بِذَلِكَ عَنِ الْغَرَضِ الْمَقْصُودِ . وَيَكُونُ مَثَلُهُ
 مَثَلُ الصَّيَّادِ الَّذِي كَانَ فِي بَعْضِ الْخُلُجَانِ يَصِيدُ فِيهِ السَّمَكَ

(١١)
 فِي زَوْرِقٍ فَرَأَى ذَاتَ يَوْمٍ فِي أَرْضِ الْمَاءِ صَدْفَةً تَتَلَاؤُا حُسْنًا ،
 فَتَوَهَّمَهَا جَوْهَرًا لَهُ قِيَمَةٌ وَكَانَ قَدْ أَلْقَى شَبَكَّتَهُ فِي الْبَحْرِ ،
 فَاشْتَمَلَتْ عَلَى سَمَكَةٍ كَانَتْ قُوَتْ يَوْمِهِ ، فَخَلَّاهَا وَقَذَفَ نَفْسَهُ
 فِي الْمَاءِ لِيَأْخُذَ الصَّدْفَةَ ، فَلَمَّا أَنْحَرَجَهَا وَجَدَهَا فَارِغَةً لَا شَيْءَ
 فِيهَا مِمَّا ظَنَّ . فَنَدِمَ عَلَى تَرْكِ مَا فِي يَدِهِ لِلطَّمْعِ ، وَتَأَسَّفَ
 عَلَى مَا فَاتَهُ ، فَلَمَّا كَانَ الْيَوْمَ الثَّانِي تَنَحَّى عَنْ ذَلِكَ الْمَكَانِ ،
 وَأَلْقَى شَبَكَّتَهُ ، فَأَصَابَ حُوتًا صَغِيرًا ، وَرَأَى أَيْضًا صَدْفَةً سَنِيةً ،
 فَلَمْ يَلْتَفِتْ إِلَيْهَا ، وَسَاءَ ظَنُّهُ بِهَا ، فَتَرَكَهَا . فَاجْتَنَزَبَهَا
 بَعْضُ الصَّيَّادِينَ فَأَخَذَهَا ، فَوَجَدَ فِيهَا دُرَّةً تُسَاوِي أَمْوَالًا .
 وَكَذَلِكَ الْجُهَالُ إِذَا اغْفَلُوا أَمْرَ التَّفَكُّرِ فِي هَذَا الْكِتَابِ ، وَتَرَكُوا
 الْوُقُوفَ عَلَى أَسْرَارِ مَعَانِيهِ ، وَأَخَذُوا بِظَاهِرِهِ . وَمَنْ صَرَفَ
 هِمَّتَهُ إِلَى النَّظَرِ فِي أَبْوَابِ الْهَزْلِ ، كَانَ كَرَجُلٍ أَصَابَ أَرْضًا
 طَيِّبَةً حَرَّةً وَحَبًّا صَحِيحًا ، فَزَرَعَهَا وَسَقَاهَا ، حَتَّى إِذَا قُرِبَ خَيْرُهَا

وَأَيَّنَعَتْ ، تَسَاغَلَ عَنْهَا بِجَمْعٍ مَا فِيهَا مِنَ الزَّهْرِ وَقَطَعَ الشَّوْكَ ؛
فَأَهْلَكَ بِتَسَاغُلِهِ مَا كَانَ أَحْسَنَ فَائِدَةً وَأَجْمَلَ عَائِدَةً .

وَيَذْبَغِي لِلنَّاطِرِ فِي هَذَا الْكِتَابِ أَنْ يَعْلَمَ أَنَّهُ يَنْقَسِمُ إِلَى أَرْبَعَةِ
أَغْرَاضٍ : أَحَدُهَا مَا قُصِدَ فِيهِ إِلَى وَضْعِهِ عَلَى أَلْسِنَةِ الْبَهَائِمِ
غَيْرِ النَّاطِقَةِ لِإِسَارَعِ إِلَى قِرَاءَتِهِ أَهْلُ الْهَزْلِ مِنَ الشُّبَّانِ ،
فَتُسْتَمَالُ بِهِ قُلُوبُهُمْ : لِأَنَّهُ الْغَرَضُ بِالنَّوَادِرِ مِنْ حِيلِ الْحَيَوَانِ .
وَالثَّانِي إِيْظْهَارُ خَيَالَاتِ الْحَيَوَانِ بِصُنُوفِ الْأَصْبَاغِ وَالْأَلْوَانِ :
لِيَكُونَ أُنْسًا لِقُلُوبِ الْمُلُوكِ ، وَيَكُونَ حِرْصُهُمْ عَلَيْهِ أَشَدَّ لِلتَّزْهِةِ
فِي تِلْكَ الصُّورِ . وَالثَّالِثُ أَنْ يَكُونَ عَلَى هَذِهِ الصِّفَةِ : فَيَتَّخِذُهُ
الْمُلُوكُ وَالسُّوقَةُ ، فَيَكْثُرُ بِذَلِكَ انْتِسَاخُهُ ، وَلَا يَبْطُلَ فَيَخْلَقَ عَلَى
مُرُورِ الْأَيَّامِ ؛ وَلِيَنْتَفِعَ بِذَلِكَ الْمُصَوِّرُ وَالنَّاسِخُ أَبَدًا . وَالْغَرَضُ
الرَّابِعُ ، وَهُوَ الْأَقْصَى ، وَذَلِكَ مَخْصُوصٌ بِالْفَيَاسُوفِ خَاصَّةً .

بَابُ بَرْزَوِيهِ تَرْجَمَةُ بُرْزَجْمَهْرِ بْنِ الْبَخْتِكَانِ

قَالَ بَرْزَوِيهِ رَأْسُ أَطِبَّاءِ فَارِسَ ، وَهُوَ الَّذِي تَوَلَّى انْتِسَاخَ
هَذَا الْكِتَابِ ، وَتَرْجَمَهُ مِنْ كُتُبِ الْهِنْدِ (وَقد مضى ذِكْرُ ذَلِكَ
مِنْ قَبْلُ) : أَبِي كَانَ مِنَ الْمُقَاتِلَةِ ، وَكَانَتْ أُمِّي مِنْ عُظَمَاءِ بِيُوتِ
الزَّمَازِمَةِ ^(١) . وَكَانَ مَنْشَى فِي نِعْمَةٍ كَامِلَةٍ ، وَكُنْتُ أَكْرَمَ وَلَدِ أَبَوَيَّ
عَلَيْهِمَا ، وَكَانَا بِي أَشَدَّ احْتِفَاطًا مِنْ دُونِ إِخْوَتِي ، حَتَّى إِذَا
بَلَغْتُ سَبْعَ سِنِينَ ، أَسْلَمَانِي إِلَى الْمُودِبِ ، فَلَمَّا حَدِثْتُ
الْكِبَاةَ ، شَكَرْتُ أَبَوَيَّ ، وَنَظَرْتُ فِي الْعِلْمِ ، فَكَانَ أَوَّلَ
مَا ابْتَدَأْتُ بِهِ ، وَحَرَصْتُ عَلَيْهِ ، عِلْمُ الطَّبِّ : لِأَنِّي كُنْتُ عَرَفْتُ
فَضْلَهُ . وَكَلَّمَا ازْدَدْتُ مِنْهُ عِلْمًا ازْدَدْتُ فِيهِ حِرْصًا ، وَلَهُ اتِّبَاعًا .
فَلَمَّا هَمَّتْ نَفْسِي بِمُدَاوَاةِ الْمَرْضَى ، وَعَزَمْتُ عَلَى ذَلِكَ أَمْرَتَهَا ^(٢)
ثُمَّ خَيْرَتَهَا بَيْنَ الْأُمُورِ الْأَرْبَعَةِ الَّتِي يَطْلُبُهَا النَّاسُ ، وَفِيهَا يَرْغُبُونَ ،
وَلَهَا يَسْعَوْنَ . فَقُلْتُ : أَيُّ هَذِهِ الْخِلَالِ ابْتَغَى فِي عِلْمِي ؟ وَأَيُّهَا
أُخْرَى بِي فَأَذْرِكُ مِنْهُ حَاجَتِي ؟ الْمَالُ ، أَمْ الذِّكْرُ ، أَمْ اللَّذَاتُ

أَمْ الْآخِرَةُ ؟ وَكُنْتُ وَجَدْتُ فِي كُتُبِ الطِّبِّ أَنَّ أَفْضَلَ الْأَطِبَّاءِ
 مَنْ وَاظَبَ عَلَى طِبِّهِ ، لَا يَبْتَغِي إِلَّا الْآخِرَةَ . فَرَأَيْتُ أَنَّ أَطْلُبَ
 الْإِشْتِغَالَ بِالطِّبِّ ابْتِغَاءَ الْآخِرَةِ : لِثَلَا أَكُونُ كَالْتَّاجِرِ الَّذِي بَاعَ
 يَاقُوتَةً مِمَّنَّةً بِخَرَزَةٍ لَا تُسَاوِي شَيْئًا ، مَعَ أَتَى قَدْ وَجَدْتُ فِي كُتُبِ
 الْأَوَّلِينَ أَنَّ الطَّيِّبَ الَّذِي يَبْتَغِي بِطِبِّهِ أَجْرَ الْآخِرَةِ لَا يَنْقُصُهُ
 ذَلِكَ حَظُّهُ مِنَ الدُّنْيَا . وَإِنَّ مِثْلَهُ مِثْلُ الزَّارِعِ الَّذِي يَغْمُرُ أَرْضَهُ
 ابْتِغَاءَ الزَّرْعِ لَا ابْتِغَاءَ الْعُشْبِ ، ثُمَّ هِيَ لَا مُحَالَةٌ نَابَتْ فِيهَا أَلْوَانُ
 الْعُشْبِ مَعَ يَنْبَعِ الزَّرْعِ . فَأَقْبَلْتُ عَلَى مُدَاوَاةِ الْمَرْضَى ابْتِغَاءَ أَجْرِ
 الْآخِرَةِ ، فَلَمْ أَدْعُ مَرِيضًا أَرْجُو لَهُ الْبُرءَ ، وَآخِرَ لَا أَرْجُو لَهُ
 ذَلِكَ ، إِلَّا أَتَى أَطْمَعُ أَنْ يَخِفَّ عَنْهُ بَعْضُ الْمَرَضِ ، إِلَّا بَالِغَتْ
 فِي مُدَاوَاتِهِ مَا أَمَكَّتَنِي الْقِيَامُ عَلَيْهِ بِنَفْسِي ؛ وَمَنْ لَمْ أَقْدِرْ عَلَى
 الْقِيَامِ عَلَيْهِ وَصَفْتُ لَهُ مَا يُصْلِحُ ، وَأَعْطَيْتُهُ مِنَ الدَّوَاءِ مَا يُعَالِجُ
 بِهِ . وَلَمْ أُرِدْ مِمَّنْ فَعَلْتُ مَعَهُ ذَلِكَ جَزَاءً وَلَا مُكَافَأَةً ؛ وَلَمْ أَغْظِ
 أَحَدًا مِنْ نَظَرَانِي الَّذِينَ هُمْ دُونِي فِي الْعِلْمِ وَفَوْقِي فِي الْجَاهِ وَالْمَالِ
 وَغَيْرِهِمَا مِمَّا لَا يَجُودُ بِنَفْسِي وَلَا بِحُسْنِ سِيرَةٍ قَوْلًا وَلَا عَمَلًا .

(١)
وَمَا تَأَقَّتْ نَفْسِي إِلَى غَشْيَانِهِمْ وَتَمَنَّتْ مَنَازِلَهُمْ أَثَبْتُ لَهَا الْخُصُومَةَ؛
فَقُلْتُ لَهَا : يَا نَفْسُ ، أَمَا تَعْرِفِينَ نَفْعَكَ مِنْ ضُرِّكَ ؟ أَلَا تَنْتَهِينِ
عَنْ تَمَنِّي مَا لَا يَنَالُهُ أَحَدٌ إِلَّا قَلَّ انْتِفَاعُهُ بِهِ ، وَكَثُرَ عَنَاؤُهُ فِيهِ ،
وَاشْتَدَّتْ الْمَثُونَةُ عَلَيْهِ وَعَظُمَتِ الْمَشَقَّةُ لَدَيْهِ بَعْدَ فِرَاقِهِ ؟ يَا نَفْسِي ،
أَمَا تَذْكُرِينَ مَا بَعْدَ هَذِهِ الدَّارِ : فَيُنْسِيكَ مَا تَشْرَهينَ إِلَيْهِ مِنْهَا ؟
أَلَا تَسْتَحِينِ مِنْ مُشَارَكَةِ الْفُجَّارِ فِي حُبِّ هَذِهِ الْعَاجِلَةِ الْفَانِيَةِ
الَّتِي مَنْ كَانَ فِي يَدِهِ شَيْءٌ مِنْهَا فَلَيْسَ لَهُ ، وَلَيْسَ بَبَاقٍ عَلَيْهِ ؛
فَلَا يَأْلُفُهَا إِلَّا الْمُعْتَزُّونَ الْجَاهِلُونَ ؟ يَا نَفْسُ انْظُرِي فِي أَمْرِكَ ،
وَانْصَرِفِي عَنْ هَذَا السَّفْهِ ، وَأَقْبِلِي بِقُوَّتِكَ وَسَعِيكَ عَلَى تَقْدِيمِ
الْخَيْرِ ، وَإِيَّاكَ وَالشَّرَّ ؛ وَادْكُرِي أَنَّ هَذَا الْجَسَدَ مَوْجُودٌ لآفَاتٍ ،
وَأَنَّهُ مَمْلُوءٌ أَخْلَاطًا فَاسِدَةً قَدِرَةً ، تَعْقِدُهَا الْحَيَاةُ ، وَالْحَيَاةُ إِلَى
نَفَادٍ ؛ كَالصَّنَمِ الْمُفْصَلَةِ أَعْضَاؤُهُ إِذَا رَكِبَتْ وَوُضِعَتْ ، يَجْمَعُهَا
مِسْمَارٌ وَاحِدٌ ، وَيُضَمُّ بَعْضُهَا إِلَى بَعْضٍ ، فَإِذَا أُخِذَ ذَلِكَ الْمِسْمَارُ
تَسَاقَطَتِ الْأَوْصَالُ . يَا نَفْسُ ، لَا تَغْتَرِّي بِصُحْبَةِ أَحِبَّائِكَ

وَأَصْحَابِكَ ، وَلَا تَحْرِصِ عَلَى ذَلِكَ كُلِّ الْحَرِصِ : فَإِنَّ صُحْبَتَهُمْ -
 عَلَى مَا فِيهَا مِنَ السُّرُورِ - كَثِيرَةٌ الْمُتُونَةُ ، وَعَاقِبَةُ ذَلِكَ الْفِرَاقُ .
 وَمِثْلُهَا مِثْلُ الْمَغْرَفَةِ الَّتِي تُسْتَعْمَلُ فِي جِدَّتِهَا لِسُخُونَةِ الْمَرْقِ ،
 فَإِذَا انْكَسَرَتْ صَارَتْ وَقُودًا . يَأْتَفَسُ ، لَا يَحْمِلَنَّ أَهْلُكَ وَأَقَارِبُكَ
 عَلَى جَمْعِ مَا تَهْلِكُ فِيهِ ، إِرَادَةَ صَلَاتِهِمْ ، فَإِذَا أَنْتِ كَالدُّخْنَةِ
 الْأَرَجَةِ الَّتِي تَحْتَرِقُ وَيَذْهَبُ آخَرُونَ بِرِيحِهَا . يَأْتَفَسُ ، لَا يَبْعُدُ
 عَلَيْكَ أَمْرُ الْآخِرَةِ فَتَمِيلِي إِلَى الْعَاجِلَةِ فِي اسْتِعْجَالِ الْقَلِيلِ وَبَيْعِ
 الْكَثِيرِ بِالْبَيْسِ ، كَالْتَّاجِرِ الَّذِي كَانَ لَهُ مِلْءُ بَيْتٍ مِنَ الصَّنَدِلِ ،
 فَقَالَ : إِنْ بَغْتُهُ وَزَنَّا طَالَ عَلَى ، فَبَاعَهُ جُزْأً بِأَجْحَسِ الثَّمَنِ .
 وَقَدْ وَجَدْتُ آرَاءَ النَّاسِ مُخْتَلِفَةً وَأَهْوَاءَهُمْ مُتَبَايِنَةً ، وَكُلُّ عَلَى
 كُلِّ رَادٍّ ، وَلَهُ عَدُوٌّ وَمُغْتَابٌ ، وَلِقَوْلِهِ مُخَالَفٌ . فَلَمَّا رَأَيْتُ ذَلِكَ
 لَمْ أَجِدْ إِلَى مُتَابَعَةِ أَحَدٍ مِنْهُمْ سَبِيلًا ، وَعَرَفْتُ أَنِّي إِنْ صَدَقْتُ
 أَحَدًا مِنْهُمْ لَا عِلْمَ لِي بِحَالِهِ ، كُنْتُ فِي ذَلِكَ كَالْمُصَدِّقِ الْمَخْدُوعِ

(١) الدخنة : بخور تجزبه الثياب أو البيت . (٢) ذات الراحة الطيبة .

(٣) مثلث الفاء أى بالحدس والتقدير .

الَّذِي زَعَمُوا فِي شَأْنِهِ أَنَّ سَارِقًا عَلَا ظَهَرَ بَيْتِ رَجُلٍ مِنَ الْأَغْنِيَاءِ ،
وَكَانَ مَعَهُ جَمَاعَةٌ مِنْ أَصْحَابِهِ ، فَاسْتَيْقَظَ صَاحِبُ الْمَنْزِلِ مِنْ
حَرَكَةِ أَقْدَامِهِمْ ، فَعَرَفَ أَمْرَاتَهُ ذَلِكَ ؛ فَقَالَ لَهَا : رُوَيْدًا إِنِّي
لَأَحْسِبُ اللَّصُوصَ عَلَاؤَ الْبَيْتِ ، فَإِنَّظِرْنِي بِصَوْتِ يَسْمَعُهُ
اللَّصُوصُ وَقُولِي أَلَّا تُخْبِرَنِي أَيُّهَا الرَّجُلُ عَنْ أَمْوَالِكَ هَذِهِ الْكَثِيرَةِ
وَكُنُوزِكَ الْعَظِيمَةِ ؟ فَإِذَا نَهَيْتُكَ عَنْ هَذَا السُّؤَالِ فَالْحَيَّ عَلَى
بِالسُّؤَالِ . فَفَعَلَتِ الْمَرْأَةُ ذَلِكَ وَسَأَلَتْهُ كَمَا أَمَرَهَا ؛ وَأَنْصَتَتْ
اللَّصُوصُ إِلَى سَمَاعِ قَوْلِهِمَا . فَقَالَ لَهَا الرَّجُلُ : أَيُّهَا الْمَرْأَةُ ، قَدْ
سَاقَكَ الْقَدَرُ إِلَى رِزْقٍ وَاسِعٍ كَثِيرٍ : فَكُلِّي وَأَسْكِنِي ، وَلَا تَسْأَلِي
عَنْ أَمْرٍ إِنْ أَخْبَرْتُكَ بِهِ لَمْ أَمِنْ أَنْ يَسْمَعَهُ أَحَدٌ ، فَيَكُونَ فِي ذَلِكَ
مَا أَكْرَهُ وَتُكْرِهِينَ . فَقَالَتِ الْمَرْأَةُ : أَخْبِرْنِي أَيُّهَا الرَّجُلُ ، فَلَعَمْرِي
مَا بِقُرْبِنَا أَحَدٍ يَسْمَعُ كَلَامَنَا . فَقَالَ لَهَا : فَإِنِّي أَخْبِرُكَ أَنِّي لَمْ أَجْعَلْ
هَذِهِ الْأَمْوَالَ إِلَّا مِنَ السَّرِقَةِ . قَالَتْ : وَكَيْفَ كَانَ ذَلِكَ ؟ وَمَا
كُنْتَ تَصْنَعُ ؟ قَالَ : ذَلِكَ لِعَلِّمِ أَصْبَتْهُ فِي السَّرِقَةِ ، وَكَانَ
الْأَمْرُ عَلَى يَسِيرٍ ، وَأَنَا آمِنٌ مِنْ أَنْ يَتَّهَمَنِي أَحَدٌ أَوْ يَرْتَابَ فِيَّ .

قَالَتْ : فَاذْكُرْنِي ذَلِكَ ، قَالَ : كُنْتُ أَذْهَبُ فِي اللَّيْلَةِ الْمُقَمَّرَةِ ،
 أَنَا وَأَصْحَابِي ، حَتَّى أَعْلُو دَارَ بَعْضِ الْأَغْنِيَاءِ مِثْلِنَا ، فَأَتَتْهُنَّ إِلَى
 الْكُوَّةِ الَّتِي يَدْخُلُ مِنْهَا الضَّوُّ فَارْقَى بِهِذِهِ الرُّقِيَّةَ وَهِيَ شَوْلُم شَوْلُم
 سَبْعَ مَرَّاتٍ ، وَأَعْتَنَقُ الضَّوُّ ، فَلَا يُحِسُّ بِوُقُوعِي أَحَدٌ ، فَلَا
 أَدْعُ مَالًا وَلَا مَتَاعًا إِلَّا أَخَذْتُهُ . ثُمَّ أَرَقَى بِتِلْكَ الرُّقِيَّةِ سَبْعَ مَرَّاتٍ ،
 وَأَعْتَنَقُ الضَّوُّ ، فَيَجْذِبُنِي ، فَأَصْعَدُ إِلَى أَصْحَابِي ، فَنَمْضِي
 سَالِمِينَ آمِنِينَ . فَلَمَّا سَمِعَ اللُّصُوصُ ذَلِكَ قَالُوا : قَدْ ظَفِرْنَا
 اللَّيْلَةَ بِمَا نُرِيدُ مِنَ الْمَالِ ، ثُمَّ إِنَّهُمْ أَطَالُوا الْمُسْكْتَ حَتَّى ظَنُّوا
 أَنَّ صَاحِبَ الدَّارِ وَزَوْجَتَهُ قَدْ هَجَعَا ، فَقَامَ قَائِدُهُمْ إِلَى مَدْخَلِ
 الضَّوِّ ، وَقَالَ : شَوْلُم شَوْلُم سَبْعَ مَرَّاتٍ ، ثُمَّ آعْتَنَقَ الضَّوُّ
 لِيَنْزِلَ إِلَى أَرْضِ الْمَنْزِلِ ، فَوَقَعَ عَلَى أُمِّ رَأْسِهِ مُنْكَسًا . فَوَثَبَ إِلَيْهِ
 الرَّجُلُ بِهَرَاوَتِهِ ، وَقَالَ لَهُ : مَنْ أَنْتَ ؟ قَالَ : أَنَا الْمُصَدِّقُ
 الْمَخْدُوعُ الْمُغْتَرَّبُ بِمَا لَا يَكُونُ أَبَدًا ، وَهَذِهِ ثَمَرَةُ رُقِيَّتِكَ . فَلَمَّا تَحَرَّزْتُ
 مِنْ تَصَدِيقِ مَا لَا يَكُونُ ، وَلَمْ أَمِنْ إِنْ صَدَّقْتُهُ أَنْ يُوقِعَنِي فِي مَهْلَكَةٍ
 عُدْتُ إِلَى طَلَبِ الْأَذْيَانِ وَالْتِمَاسِ الْعَدْلِ مِنْهَا ، فَلَمْ أَجِدْ عِنْدَ

أَحَدٍ مِّنْ كَلِمَتِهِ جَوَابًا فِيمَا سَأَلْتُهُ عَنْهُ فِيهَا ، وَلَمْ أَرِ فِيمَا كَلَّمُونِي بِهِ شَيْئًا يَحِقُّ لِي فِي عَقْلِي أَنْ أَصْدَقَ بِهِ وَلَا أَنْ أَتَّبِعَهُ . فَقُلْتُ لِمَا لَمْ أَجِدْ ثِقَةً أَخَذُ مِنْهُ ، الرَّأْيُ أَنْ أُلْزِمَ دِينَ آبَائِي وَأَجْدَادِي الَّذِي وَجَدْتُهُمْ عَلَيْهِ . فَلَمَّا ذَهَبْتُ أَلْتَمَسُ الْعُذْرَ لِنَفْسِي فِي لُزُومِ دِينِ الْآبَاءِ وَالْأَجْدَادِ ، لَمْ أَجِدْ لَهَا عَلَى الثُّبُوتِ عَلَى دِينِ الْآبَاءِ طَاقَةً ، بَلْ وَجَدْتُهَا تُرِيدُ أَنْ تَتَفَرَّغَ لِلْبَحْثِ عَنِ الْأَذْيَانِ وَالْمَسْأَلَةِ عَنْهَا ، وَلِلنَّظَرِ فِيهَا ؛ فَهَجَسُ فِي قَلْبِي وَخَطَرَ عَلَى بَالِي قُرْبُ الْأَجَلِ (١) وَسُرْعَةُ انْقِطَاعِ الدُّنْيَا وَاعْتِبَاطُ أَهْلِهَا وَتَحْرُمُ الدَّهْرِ حَيَاتُهُمْ . (٢) فَفَكَّرْتُ فِي ذَلِكَ . فَلَمَّا خِفْتُ مِنَ التَّرَدُّدِ وَالتَّحَوُّلِ ، رَأَيْتُ الْآءِ تَعَرَّضَ لِمَا أَخْوَفُ مِنْهُ الْمَكْرُوهَ ؛ وَأَنْ أَقْتَصِرَ عَلَى عَمَلٍ تَشْهَدُ النَّفْسُ أَنَّهُ يُوَافِقُ كُلَّ الْأَذْيَانِ . فَكَفَفْتُ يَدَيَّ عَنِ الْقَتْلِ وَالضَّرْبِ ، وَطَرَحْتُ نَفْسِي عَنِ الْمَكْرُوهِ وَالْغَضَبِ وَالسَّرِقَةِ وَالْخِيَانَةِ وَالْكَذِبِ وَالْبُهْتَانِ وَالْغَيْبَةِ ، وَأَضْمَرْتُ فِي نَفْسِي أَلَّا أَبْغِيَ عَلَى أَحَدٍ ، وَلَا أَكْذِبَ بِالْبَعْثِ وَلَا الْقِيَامَةِ وَلَا الثَّوَابِ وَلَا

(١) وقع وخطروا به ضرب . (٢) هلاكهم بدون مرض . (٣) القطع والاستئصال .

الْعِقَابُ؛ وَزَايَلْتُ الْأَشْرَارَ بِقَلْبِي ، وَحَاوَلْتُ الْجُلُوسَ مَعَ الْأَخْيَارِ
 بِجُهْدِي ، وَرَأَيْتُ الصَّلَاحَ لَيْسَ كَمَثَلِهِ صَاحِبٌ وَلَا قَرِينٌ ،
 وَوَجَدْتُ مَكْسَبَهُ إِذَا وَفَّقَ اللَّهُ وَأَعَانَ يَسِيرًا ، وَوَجَدْتُهُ يَدُلُّ عَلَى
 الْخَيْرِ وَيُشِيرُ بِالثَّنَجِ ، فِعْلَ الصَّدِيقِ بِالصَّدِيقِ ؛ وَوَجَدْتُهُ
 لَا يَنْقُصُ عَلَى الْإِنْفَاقِ مِنْهُ ؛ بَلْ يَزْدَادُ جِدَّةً وَحُسْنًا^(١) ؛ وَوَجَدْتُهُ
 لَا خَوْفَ عَلَيْهِ مِنَ السُّلْطَانِ أَنْ يَغْضَبَهُ ، وَلَا مِنْ الْمَاءِ أَنْ
 يُغْرِقَهُ ، وَلَا مِنَ النَّارِ أَنْ تُحْرِقَهُ ، وَلَا مِنَ اللَّصُوصِ أَنْ تَسْرِقَهُ ،
 وَلَا مِنَ السَّبَاعِ وَجَوَارِحِ الطَّيْرِ أَنْ تُثْمِرِقَهُ ؛ وَوَجَدْتُ الرَّجُلَ
 السَّاهِيَ اللَّاهِيَّ الْمُؤَثِّرَ الْيَسِيرَ يَنَالُهُ فِي يَوْمِهِ وَيَعْدِمُهُ فِي غَدِهِ عَلَى
 الْكَثِيرِ الْبَاقِي نَعِيمُهُ ، يُصِيبُهُ مَا أَصَابَ التَّاجِرَ الَّذِي زَعَمُوا أَنَّهُ
 كَانَ لَهُ جَوْهَرٌ نَفِيسٌ ، فَاسْتَأْجَرَ لِنَفْسِهِ رَجُلًا ، الْيَوْمَ بِمِائَةِ دِينَارٍ ؛
 وَأَنْطَلَقَ بِهِ إِلَى مَنْزِلِهِ لِيَعْمَلَ ؛ وَإِذَا فِي نَاحِيَةِ الْبَيْتِ صَنْجٌ^(٢)
 مَوْضُوعٌ . فَقَالَ التَّاجِرُ لِلصَّانِعِ : هَلْ تُحْسِنُ أَنْ تَلْعَبَ بِالصَّنَجِ ؟

(١) هي ضد البلى . (٢) الصنج نوعان : ما يتخذ من الصفر يضرب به مع الدف

(ويسمى عند عوام مصر بالكاسات) وما له أوتار .

قَالَ : نَعَمْ . وَكَانَ بِلَعِبِهِ مَاهِرًا . فَقَالَ التَّاجِرُ : دُونَكَ وَالصَّنَجِ
فَأَسْمِعْنَا ضَرْبَكَ بِهِ . فَأَخَذَ الرَّجُلُ الصَّنَجَ ، وَلَمْ يَزَلْ يُسْمِعُ التَّاجِرَ
الضَّرْبَ الصَّحِيحَ ، وَالصَّوْتَ الرَّفِيعَ ، وَالتَّاجِرُ يُشِيرُ بِيَدِهِ وَرَأْسِهِ
طَرِبًا ، حَتَّى أَمْسَى . فَلَمَّا حَانَ الْغُرُوبُ قَالَ الرَّجُلُ لِلتَّاجِرِ :
مُرْنِي بِالْأُجْرَةِ . فَقَالَ لَهُ التَّاجِرُ : وَهَلْ عَمِلْتَ شَيْئًا تَسْتَحِقُّ بِهِ
لِأُجْرَةٍ ؟ فَقَالَ لَهُ : عَمِلْتُ مَا أَمَرْتَنِي بِهِ ، وَأَنَا أَجِيرُكَ ، وَمَا
سَتَعْمَلْتَنِي عَمِلْتُ ، وَلَمْ يَزَلْ بِهِ حَتَّى اسْتَوْفَى مِنْهُ مِائَةَ دِينَارٍ .
وَبَقِيَ جَوْهَرُهُ غَيْرَ مَثْقُوبٍ . فَلَمْ أَزْدَدْ فِي الدُّنْيَا وَشَهَوَاتِهَا نَظْرًا ، إِلَّا
أَزْدَدْتُ فِيهَا زَهَادَةً وَمِنْهَا هَرَبًا . وَوَجَدْتُ النَّسْكَ ^(١) هُوَ الَّذِي
يُمَهِّدُ لِلْعِبَادَةِ كَمَا يُمَهِّدُ الْوَالِدُ لَوْلَدِهِ ، وَوَجَدْتُهُ هُوَ الْبَابُ الْمَفْتُوحُ
إِلَى النَّعِيمِ الْمُقِيمِ ، وَوَجَدْتُ النَّاسِكَ قَدْ تَدَبَّرَ فِعْلَتَهُ بِالسَّكِينَةِ
فَشَكَرَ ، وَتَوَاضَعَ وَقِنَعَ فَاسْتَغْنَى ، وَرَضِيَ وَلَمْ يَهْتَمْ ، وَخَلَعَ الدُّنْيَا
فَنَجَا مِنَ الشُّرُورِ ، وَرَفَضَ الشَّهَوَاتِ فَصَارَ طَاهِرًا ، وَاطَّرَحَ
الْحَسَدَ فَوَجَبَتْ لَهُ الْمَحَبَّةُ ، وَسَخَتْ نَفْسُهُ بِكُلِّ شَيْءٍ ، وَاسْتَعْمَلَ

(١) النسك مثله النون وبضمين : العبادة .

الْعَقْلَ وَأَبْصَرَ الْعَاقِبَةَ فَأَمِنَ الدَّامَةَ ، وَلَمْ يَحْفَ النَّاسَ وَلَمْ يَدْبَ
 إِلَيْهِمْ فَسَلِمَ مِنْهُمْ . فَلَمْ أَزْدَدْ فِي أَمْرِ النَّسِكِ نَظْرًا ، إِلَّا أَزْدَدْتُ
 فِيهِ رَغْبَةً ، حَتَّى هَمَمْتُ أَنْ أَكُونَ مِنْ أَهْلِهِ . ثُمَّ تَخَوَّفْتُ
 إِلَّا أَصْبِرَ عَلَى عَيْشِ النَّاسِ ، وَلَمْ أَمِنْ أَنْ تَرَكْتُ الدُّنْيَا وَأَخَذْتُ
 فِي النَّسِكِ ، أَنْ أَضْعُفَ عَنْ ذَلِكَ ، وَرَفَضْتُ أَعْمَالًا كُنْتُ أَرْجُو
 عَائِدَتَهَا ، وَقَدْ كُنْتُ أَعْمَلُهَا فَأَنْتَفِعُ بِهَا فِي الدُّنْيَا ، فَيَكُونُ
 مَثَلِي فِي ذَلِكَ مَثَلُ الْكَلْبِ الَّذِي مَرَّ بِنَهْرٍ وَفِي فِيهِ ضِلْعٌ ، فَرَأَى
 ظِلَّهَا فِي الْمَاءِ ، فَهَوَى لِيَأْخُذَهَا ، فَاتْلَفَ مَا كَانَ مَعَهُ ، وَلَمْ يَجِدْ
 فِي الْمَاءِ شَيْئًا . فَهَبَّتْ النَّسِكُ مَهَابَةً شَدِيدَةً ، وَخَفْتُ مِنْ
 الضَّجَرِ وَقِلَّةِ الصَّبْرِ ، وَأَرَدْتُ الثَّبُوتَ عَلَى حَالَتِي الَّتِي كُنْتُ
 عَلَيْهَا . ثُمَّ بَدَأَ لِي أَنْ أَسْبِرَ مَا أَخَافُ إِلَّا أَصْبِرَ عَلَيْهِ مِنَ الْأَذَى
 وَالضَّيْقِ وَالْخَشُونَةِ فِي النَّسِكِ ، وَمَا يُصِيبُ صَاحِبَ الدُّنْيَا مِنَ
 الْبَلَاءِ ، وَكَانَ عِنْدِي أَنَّهُ لَيْسَ شَيْءٌ مِنْ شَهَوَاتِ الدُّنْيَا وَلَذَائِهَا

إِلَّا وَهُوَ مُتَحَوِّلٌ إِلَى الْأَذَى وَمَوْلِدٌ لِلْحَزَنِ . فَالذُّنْيَا كَالْمَاءِ الْمِنْحِ
الَّذِي لَا يَزْدَادُ شَارِبُهُ شُرْبًا ، إِلَّا آزْدَادَ عَطْشًا . وَهِيَ كَالْعَظْمِ
الَّذِي يُصِيبُهُ الْكَلْبُ فَيَجِدُ فِيهِ رِيحَ اللَّحْمِ ؛ فَلَا يَزَالُ يَطْلُبُ
ذَلِكَ حَتَّى يُذِمِّيَ فَاهُ . وَكَالْحِدَاةِ الَّتِي تَظْفَرُ بِقِطْعَةٍ مِنَ اللَّحْمِ ،
فَيَجْتَمِعُ عَلَيْهَا الطَّيْرُ ، فَلَا تَزَالُ تَدُورُ وَتَدَّأِبُ حَتَّى تَغِيَا
وَتَتَعَبَ ؛ فَإِذَا تَعَبَتْ أَلْقَتْ مَا مَعَهَا . وَكَالْكُوزِ مِنَ الْعَسَلِ
الَّذِي فِي أَسْفَلِهِ السَّمُّ الَّذِي يَذَاقُ مِنْهُ حَلَاوَةٌ عَاجِلَةٌ وَآخِرُهُ مَوْتٌ
ذُعَافٌ^(١) ، وَكَأَحْلَامِ النَّائِمِ الَّتِي يَفْرَحُ بِهَا الْإِنْسَانُ فِي نَوْمِهِ ،
فَإِذَا اسْتَيْقَظَ ذَهَبَ الْفَرَحُ . فَلَمَّا فَكَّرْتُ فِي هَذِهِ الْأُمُورِ ،
رَجَعْتُ إِلَى طَلَبِ النَّسِكِ ؛ وَهَزَّنِي الْاِشْتِيَاقُ إِلَيْهِ ؛
ثُمَّ خَاصَمْتُ نَفْسِي إِذْ هِيَ فِي شُرُورِهَا سَارِحَةٌ ، وَقَدْ لَا تَثْبُتُ
عَلَى أَمْرٍ تَعَزُّمُ عَلَيْهِ : كَقَاضِ سَمِيعٍ مِنْ خَضَمٍ وَاحِدٍ فَحَكَمَ لَهُ ،
فَلَمَّا حَضَرَ الْخَضَمُ الثَّانِي عَادَ إِلَى الْأَوَّلِ وَقَضَى عَلَيْهِ .

ثُمَّ نَظَرْتُ فِي الَّذِي أَكْبَدُهُ مِنْ أَحْتِمَالِ النَّسِكِ وَضِيقِهِ ، فَقُلْتُ :
 مَا أَصْغَرَ هَذِهِ الْمَشَقَّةَ فِي جَانِبِ رَوْحِ الْأَبَدِ وَرَاحَتِهِ . ثُمَّ نَظَرْتُ
 فِيمَا تَشْرُهُ إِلَيْهِ النَّفْسُ مِنْ لَذَّةِ الدُّنْيَا ، فَقُلْتُ : مَا أَمْرٌ هَذَا
 وَأَوْجَعُهُ ، وَهُوَ يَدْفَعُ إِلَى عَذَابِ الْأَبَدِ وَأَهْوَالِهِ ! وَكَيْفَ لَا يَسْتَحْلِي
 الرَّجُلُ مَرَارَةً قَلِيلَةً تَعْقُبُهَا حَلَاوَةٌ طَوِيلَةٌ ؟ وَكَيْفَ لَا تَمُرُّ عَلَيْهِ
 حَلَاوَةٌ قَلِيلَةٌ تَعْقُبُهَا مَرَارَةٌ دَائِمَةٌ ؟ وَقُلْتُ : لَوْ أَنَّ رَجُلًا
 عُرِضَ عَلَيْهِ أَنْ يَعْيشَ مِائَةَ سَنَةٍ ، لَا يَأْتِي عَلَيْهِ يَوْمٌ وَاحِدٌ
 إِلَّا بَضْعَ مِنْهُ بَضْعَةٌ ^(١) ، ثُمَّ أُعِيدَ عَلَيْهِ مِنَ الْغَدِ ، غَيْرَ أَنَّهُ يُشْرَطُ لَهُ ،
 أَنَّهُ إِذَا اسْتَوَفَى السِّنِينَ الْمِائَةَ ، نَجَا مِنْ كُلِّ أَلَمٍ وَأَذَى ، وَصَارَ
 إِلَى الْأَمْنِ وَالسُّرُورِ ، كَانَ حَقِيقًا أَلَّا يَرَى تِلْكَ السِّنِينَ شَيْئًا .
 وَكَيْفَ يَأْتِي الصَّبْرَ عَلَى أَيَّامٍ قَلِيلٍ يَعِيشُهَا فِي النَّسِكِ ، وَأَذَى
 تِلْكَ الْأَيَّامِ قَلِيلٌ يُعْقَبُ خَيْرًا كَثِيرًا ؟ فَلْنَعْلَمْ أَنَّ الدُّنْيَا كُلَّهَا بَلَاءٌ
 وَعَذَابٌ . أَوْ لَيْسَ الْإِنْسَانُ إِنَّمَا يَتَقَلَّبُ فِي عَذَابِ الدُّنْيَا مِنْ

حِينَ يَكُونُ جَنِينًا إِلَى أَنْ يَسْتَوْفِيَ أَيَّامَ حَيَاتِهِ ؟ فَإِذَا كَانَ طِفْلًا
ذَاقَ مِنَ الْعَذَابِ الْوَأْنَا : إِنْ جَاعَ فَلَيْسَ بِهِ اسْتِطْعَامٌ ،
أَوْ عَطَشَ فَلَيْسَ بِهِ اسْتِسْقَاءٌ ، أَوْ وَجَعَ فَلَيْسَ بِهِ اسْتِغَاثَةٌ ،
مَعَ مَا يَلْقَى مِنَ الْوَضْعِ وَالْحَمْلِ وَاللَّفِّ وَالذَّهْنِ وَالْمَسْحِ ،
إِنْ أَنْيَمَ عَلَى ظَهْرِهِ لَمْ يَسْتَطِعْ تَقَلُّبًا ، ثُمَّ يَلْقَى أَصْنَافَ الْعَذَابِ
مَا دَامَ رَضِيعًا ، فَإِذَا أَفْلَتَ مِنَ عَذَابِ الرِّضَاعِ ، أَخَذَ فِي عَذَابِ
الْأَدَبِ ، فَأَذِيقَ مِنْهُ الْوَأْنَا : مِنْ عُنْفِ الْمُعَلِّمِ ، وَضَجَرِ
الدَّرْسِ ، وَسَامَةِ الْكِتَابَةِ ، ثُمَّ لَهُ مِنَ الدَّوَاءِ وَالْجُمُيَةِ وَالْأَسْقَامِ
وَالْأَوْجَاعِ أَوْفَى حَظٍّ . فَإِذَا أَدْرَكَ كَانَتْ هِمَّتُهُ فِي جَمْعِ الْمَالِ
وَتَرْبِيَةِ الْوَلَدِ وَمُخَاطَرَةِ الطَّلَبِ وَالسَّعْيِ وَالْكَدِّ وَالتَّعَبِ . وَهُوَ مَعَ
ذَلِكَ يَتَقَلَّبُ مَعَ أَعْدَائِهِ الْبَاطِنِيَّةِ اللَّازِمَةِ لَهُ : وَهِيَ الصَّفَرَاءُ
وَالسُّودَاءُ وَالرَّيْحُ وَالْبَلْغَمُ وَالْدَّمُ وَالسَّمُّ الْمُحِيتُ وَالْحَيَّةُ اللَّاذِعَةُ ،
مَعَ الْخَوْفِ مِنَ السَّبَاعِ وَالْهُوَامِ ، مَعَ صَرْفِ الْحَرِّ وَالْبَرْدِ
وَالْمَطَرِ وَالرِّيَّاحِ ، ثُمَّ أَنْوَاعَ عَذَابِ الْهَرَمِ لِمَنْ يَبْلُغُهُ . فَلَوْ لَمْ

يَخْفَ مِنْ هَذِهِ الْأُمُورِ شَيْئًا ، وَكَانَ قَدْ أَمِنَ وَوَثِقَ بِالسَّلَامَةِ مِنْهَا
فَلَمْ يُفَكِّرْ فِيهَا ، لَوْ جَبَ عَلَيْهِ أَنْ يَعْتَبِرَ بِالسَّاعَةِ الَّتِي يُحْضَرُ فِيهَا
الْمَوْتُ ، فَيُفَارِقُ الدُّنْيَا ، وَيَتَذَكَّرُ مَا هُوَ نَازِلٌ بِهِ فِي تِلْكَ السَّاعَةِ :
مِنْ فِرَاقِ الْأَحِبَّةِ وَالْأَهْلِ وَالْأَقَارِبِ وَكُلِّ مَضْنُونٍ بِهِ مِنَ الدُّنْيَا ،
وَالْإِشْرَافِ عَلَى الْهَبْلِ الْعَظِيمِ بَعْدَ الْمَوْتِ . فَلَوْ لَمْ يَفْعَلْ ذَلِكَ ،
لَكَانَ حَقِيقَةً أَنْ يُعَدَّ عَاجِزًا مُفْرَطًا مُحِبًّا لِلدَّيْنَاءَةِ مُسْتَحِقًّا لِلنُّومِ ؛
فَمَنْ ذَا الَّذِي يَعْلَمُ وَلَا يَخْتَالُ لِغَدِ جُهْدِهِ فِي الْحِيلَةِ ، وَيَرْفُضُ
مَا يَشْغَلُهُ وَيُلْهِيه مِنْ شَهَوَاتِ الدُّنْيَا وَغُرُورِهَا ؟ وَلَا سِيَّمَا فِي هَذَا
الزَّمَانِ الشَّبِيهِ بِالصَّافِي وَهُوَ كَدِرٌ فَإِنَّهُ وَإِنْ كَانَ الْمَلِكُ حَازِمًا عَظِيمَ
الْمَقْدَرَةِ ، رَفِيعَ الْحِمَّةِ بَلِيعَ الْفَخْرِ ، عَدْلًا مَرْجُوًّا صَدُوقًا
شُكُورًا ، رَحْبَ الذِّرَاعِ مُفْتَقِدًا مُوَظَّبًا مُسْتَمِرًّا عَلِيمًا بِالنَّاسِ
وَالْأُمُورِ ، مُحِبًّا لِلْعِلْمِ وَالْخَيْرِ وَالْأَخْيَارِ ، شَدِيدًا عَلَى الظَّالِمَةِ ، غَيْرَ
جَبَانٍ وَلَا خَفِيفِ الْقِيَادِ ، رَفِيقًا بِالتَّوَسُّعِ عَلَى الرِّعْيَةِ فِيمَا يُجِبُونَ ،
وَالدَّفْعِ لِمَا يَكْرَهُونَ ، فَلِنَّا قَدْ نَرَى الزَّمَانَ مُذْبِرًا بِكُلِّ مَكَانٍ ،
فَكَانَ أُمُورَ الصَّدَقِ قَدْ نُزِعَتْ مِنَ النَّاسِ ، فَأَصْبَحَ مَا كَانَ

عَزِيزًا فَقَدَهُ مَفْقُودًا ، وَمَوْجُودًا مَا كَانَ ضَائِرًا ^(١) وَجُودُهُ . وَكَانَ
الْخَيْرُ أَصْبَحَ ذَابِلًا وَالشَّرُّ أَصْبَحَ نَاضِرًا . وَكَانَ الْفَهْمُ أَصْبَحَ قَدْ
زَالَتْ سُبُلُهُ . وَكَانَ الْحَقُّ وَلَّى كَسِيرًا وَأَقْبَلَ الْبَاطِلُ تَابِعَهُ . وَكَانَ
اتِّبَاعُ الْهَوَى وَإِضَاعَةُ الْحِكْمِ أَصْبَحَ بِالْحُكَّامِ مُوَكَّلًا ؛ وَأَصْبَحَ
الْمَظْلُومُ بِالْخَيْفِ مُقِرًّا وَالظَّالِمُ لِنَفْسِهِ مُسْتَطِيلًا . وَكَانَ الْحِرْصُ
أَصْبَحَ فَاغِرًا فَاهُ مِنْ كُلِّ جِهَةٍ يَتَلَقَّفُ مَا قَرُبَ مِنْهُ وَمَا بَعُدَ .
وَكَانَ الرِّضَا أَصْبَحَ مَجْهُولًا . وَكَانَ الْأَشْرَارُ يَقْصِدُونَ السَّمَاءَ
صُعُودًا . وَكَانَ الْأَخْيَارُ يُرِيدُونَ بَطْنَ الْأَرْضِ ؛ وَأَصْبَحَتِ
الْمُرُوءَةُ مَقْدُوفًا بِهَا مِنْ أَعْلَى شَرَفٍ إِلَى أَسْفَلِ دَرَكٍ ؛ وَأَصْبَحَتِ
الدَّنَاءَةُ مَكْرَمَةً مُمْكِنَةً ؛ وَأَصْبَحَ السُّلْطَانُ مُنْتَقِلًا عَنْ أَهْلِ الْفَضْلِ
إِلَى أَهْلِ النَّقْصِ . وَكَانَ الدُّنْيَا جَذَلَةً مُسْرُورَةً تَقُولُ : قَدْ غِيبَتِ
الْخَيْرَاتُ وَأُظْهِرَتِ السَّيِّئَاتُ . فَلَمَّا فَكَّرْتُ فِي الدُّنْيَا وَأُمُورِهَا ؛
وَأَنَّ الْإِنْسَانَ هُوَ أَشْرَفُ الْخَلْقِ فِيهَا وَأَفْضَلُهُ ؛ ثُمَّ هُوَ لَا يَتَقَلَّبُ
إِلَّا فِي الشُّرُورِ وَالْهَمُومِ ، عَرَفْتُ أَنَّهُ لَيْسَ إِنْسَانٌ ذُو عَقْلٍ يَعْلَمُ

ذَلِكَ ثُمَّ لَا يَحْتَالُ لِنَفْسِهِ فِي النَّجَاةِ؛ فَعَجِبْتُ مِنْ ذَلِكَ كُلِّ الْعَجَبِ .
 ثُمَّ نَظَرْتُ فَإِذَا الْإِنْسَانُ لَا يَمْنَعُهُ عَنِ الْإِحْتِيَالِ لِنَفْسِهِ إِلَّا لَذَّةُ
 صَغِيرَةٍ حَقِيرَةٍ غَيْرِ كَبِيرَةٍ مِنَ الشَّمِّ وَالذَّوْقِ وَالنَّظَرِ وَالسَّمْعِ وَاللَّمْسِ :
 فَعَلَّهُ يُصِيبُ مِنْهَا الطَّفِيفَ أَوْ يَقْتَنِي مِنْهَا الْيَسِيرَ ؛ فَإِذَا ذَلِكَ
 يَشْغَلُهُ وَيَذْهَبُ بِهِ عَنِ الْإِهْتِمَامِ لِنَفْسِهِ وَطَلَبِ النَّجَاةِ لَهَا .

فَالْتَمَسْتُ لِلْإِنْسَانِ مَثَلًا ، فَإِذَا مَثَلُهُ مِثْلُ رَجُلٍ نَجَا مِنْ خَوْفٍ
 فِيلٍ هَائِجٍ إِلَى بَيْرٍ ، فَتَدَلَّى فِيهَا ، وَتَعَلَّقَ بِغُصْنَيْنِ كَانَا عَلَى
 سَمَائِمَا ، فَوَقَعَتْ رِجْلَاهُ عَلَى شَيْءٍ فِي طَى الْبَيْرِ . فَإِذَا حَيَاتٌ
 أَرْبَعٌ قَدْ أَخْرَجْنَ رُءُوسَهُنَّ مِنْ أَجْحَارِهِنَّ ، ثُمَّ نَظَرَ فَإِذَا فِي قَاعِ
 الْبَيْرِ تَيْنِ^(١) فَاتِحٌ فَاهُ مُنْتَظِرٌ لَهُ لِيَقَعَ فَيَأْخُذَهُ ؛ فَرَفَعَ بَصَرَهُ إِلَى
 الْغُصْنَيْنِ فَإِذَا فِي أَصْلِهِمَا جُرْدَانِ^(٢) أَسْوَدٌ وَأَبْيَضُ ، وَهُمَا يَقْرِضَانِ
 الْغُصْنَيْنِ دَائِبَيْنِ لَا يَفْتُرَانِ ، فَبَيْنَمَا هُوَ فِي النَّظَرِ لِأَمْرِهِ وَالْإِهْتِمَامِ
 لِنَفْسِهِ ، إِذْ أَبْصَرَ قَرِيبًا مِنْهُ كَوَاوِرَةً^(٣) فِيهَا عَسَلٌ نَحْلٍ ؛ فَذَاقَ

(١) ضرب من الحيات . (٢) مثنى جرد : ضرب من الفأر . (٣) شئ . يتخذ للنحل

من القضبان وهى الخلية .

الْعَسَلَ ، فَشَغَلَتْهُ حَلَاوَتُهُ وَاهْتَهُ لَذَّتُهُ عَنِ الْفِكْرَةِ فِي شَيْءٍ مِنْ
أَمْرِهِ ، وَأَنْ يَنْتَمِسَ الْخِلَاصَ لِنَفْسِهِ ، وَلَمْ يَذْكُرْ أَنَّ رِجْلَيْهِ عَلَى
حَيَاتٍ أَرْبَعٍ لَا يَذْرَى مَتَى يَقَعُ عَلَيْهِنَّ ، وَلَمْ يَذْكُرْ أَنَّ الْجُرَذَيْنِ
دَائِبَانِ فِي قَطْعِ الْغُصْنَيْنِ ، وَمَتَى انْقَطَعَا وَقَعَ عَلَى التَّنِينِ . فَلَمْ
يَزَلْ لَاهِيًا غَافِلًا مَشْغُولًا بِتِلْكَ الْحَلَاوَةِ حَتَّى سَقَطَ فِي فَمِ التَّنِينِ
فَهَلَكَ . فَشَبَّهْتُ بِالْبَيْرِ الدُّنْيَا الْمَمْلُوءَةَ آفَاتٍ وَشُرُورًا ،
وَمَخَافَاتٍ وَعَاقِبَاتٍ ، وَشَبَّهْتُ بِالْحَيَاتِ الْأَرْبَعِ الْأَخْلَاطِ الْأَرْبَعَةَ
الَّتِي فِي الْبَدَنِ : فَإِنَّهَا مَتَى هَاجَتْ أَوْ أَحْدَهَا كَانَتْ كُحْمَةً^(١)
الْأَفَاعِي وَالسَّمِّ الْمُمِيتِ ، وَشَبَّهْتُ بِالْغُصْنَيْنِ الْأَجَلَ الَّذِي لَا بُدَّ
مَنْ انْقِطَاعِهِ ، وَشَبَّهْتُ بِالْجُرَذَيْنِ الْأَسْوَدِ وَالْأَبْيَضِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ
الَّذَيْنِ هُمَا دَائِبَانِ فِي إِفْنَاءِ الْأَجَلِ ، وَشَبَّهْتُ بِالتَّنِينِ الْمَصِيرِ
الَّذِي لَا بُدَّ مِنْهُ ، وَشَبَّهْتُ بِالْعَسَلِ هَذِهِ الْحَلَاوَةَ الْقَلِيلَةَ الَّتِي
يَنَالُ مِنْهَا الْإِنْسَانُ فَيَطْعَمُ وَيَسْمَعُ وَيَشْمُ وَيَلْبَسُ ، وَيَتَشَاغَلُ عَنْ
نَفْسِهِ ، وَيَلْهُو عَنْ شَأْنِهِ ، وَيَصُدُّ عَنْ سَبِيلِ قَصْدِهِ . فَحَيْذُ

(١) إبرة النحلة ونحوها .

صَارَ أَمْرِي إِلَى الرِّضَا بِحَالِي وَإِصْلَاحُ مَا اسْتَطَعْتُ إِصْلَاحَهُ
 مِنْ عَمَلِي : لَعَلِّي أَصَادِفُ بَاقِيَ أَيَّامِي زَمَانًا أُصِيبُ فِيهِ دَلِيلًا عَلَى
 هُدَايَ ، وَسُلْطَانًا عَلَى نَفْسِي ^(١) ، وَقَوَامًا لِأَمْرِي ، فَأَقَمْتُ عَلَى هَذِهِ
 الْحَالِ وَانْتَسَخْتُ كُتُبًا كَثِيرَةً ، وَانْصَرَفْتُ مِنْ بِلَادِ الْهِنْدِ ، وَقَدْ
 نَسَخْتُ هَذَا الْكِتَابَ . (انقضى باب برزويه المنطوق)

بَابُ الْأَسَدِ وَالثَّوْرِ وَهُوَ أَوَّلُ الْكِتَابِ

قَالَ دَبْشَلِيمُ الْمَلِكُ لِبَيْدَبَا الْفَيْلَسُوفِ ، وَهُوَ رَأْسُ الْبِرَاهِمَةِ :
 اضْرِبْ لِي مَثَلًا لِمُسْتَحَاتِّينَ يَقْطَعُ بَيْنَهُمَا الْكُذُوبُ الْمُحْتَالُ ، حَتَّى
 يَحْمِلَهُمَا عَلَى الْعَدَاوَةِ وَالْبَغْضَاءِ . قَالَ بَيْدَبَا : إِذَا أَبْتَلِيَ الْمُتَحَابَّانِ
 بِأَنْ يَدْخُلَ بَيْنَهُمَا الْكُذُوبُ الْمُحْتَالُ ، لَمْ يَلْبَثَا أَنْ يَتَقَاطَعَا
 وَيَتَدَابَّرَا . وَمِنْ أَمْثَالِ ذَلِكَ أَنَّهُ كَانَ بِأَرْضِ دَسْتَاوَنْدَ رَجُلٌ
 شَيْخٌ ، وَكَانَ لَهُ ثَلَاثَةُ بَنِينَ . فَلَمَّا بَلَغُوا أَشَدَّهُمْ اسْرَفُوا فِي مَالِ
 آبَائِهِمْ ، وَلَمْ يَكُونُوا أَحْتَرَفُوا حِرْفَةً يَكْسِبُونَ لَأَنْفُسِهِمْ بِهَا خَيْرًا .

فَلَا مَهْمُ آبُوهُمْ ، وَوَعَظَهُمْ عَلَى سُوءِ فِعْلِهِمْ ، وَكَانَ مِنْ قَوْلِهِ لَهُمْ :
 يَا بَنِيَّ إِنَّ صَاحِبَ الدُّنْيَا يَطْلُبُ ثَلَاثَةَ أُمُورٍ لَنْ يُدْرِكَهَا إِلَّا بِأَرْبَعَةِ
 أَشْيَاءَ : أَمَّا الثَّلَاثَةُ الَّتِي يَطْلُبُ ، فَالسَّعَةُ فِي الرِّزْقِ وَالْمَنْزِلَةُ
 فِي النَّاسِ وَالزَّادُ لِلْآخِرَةِ ، وَأَمَّا الْأَرْبَعَةُ الَّتِي يَحْتَاجُ إِلَيْهَا فِي دَرْكِ
 هَذِهِ الثَّلَاثَةِ ، فَالْكَتْسَابُ الْمَالِ مِنْ أَحْسَنِ وَجْهِ يَكُونُ ،
 ثُمَّ حُسْنُ الْقِيَامِ عَلَى مَا اكْتَسَبَ مِنْهُ ، ثُمَّ اسْتِثَارُهُ ، ثُمَّ إِتْفَاقُهُ
 فِيمَا يَصْلِحُ الْمَعِيشَةَ وَيَرْضَى الْأَهْلَ وَالْإِخْوَانَ ، فَيَعُودُ عَلَيْهِ نَفْعُهُ
 فِي الْآخِرَةِ . فَمَنْ ضَيَّعَ شَيْئًا مِنْ هَذِهِ الْأَحْوَالِ لَمْ يُدْرِكْ مَا أَرَادَ
 مِنْ حَاجَتِهِ : لِأَنَّهُ إِنْ لَمْ يَكْتَسِبْ ، لَمْ يَكُنْ لَهُ مَالٌ يَعِيشُ
 بِهِ ، وَإِنْ هُوَ كَانَ ذَا مَالٍ وَاكْتَسَبَ ثُمَّ لَمْ يُحْسِنْ الْقِيَامَ عَلَيْهِ ،
 أَوْ شَكَّ الْمَالُ أَنْ يَفْنَى وَيَبْقَى مُعْدِمًا ، وَإِنْ هُوَ وَضَعَهُ وَلَمْ
 يَسْتَنْمِرْهُ ، لَمْ تَمْنَعُهُ قِلَّةُ الْإِنْفَاقِ مِنْ سُرْعَةِ الذَّهَابِ : كَالْكُحْلِ
 الَّذِي لَا يُؤْخَذُ مِنْهُ إِلَّا غُبَارُ الْمِيلِ ثُمَّ هُوَ مَعَ ذَلِكَ سَرِيعٌ فَنَآؤُهُ .
 وَإِنْ أَنْفَقَهُ فِي غَيْرِ وَجْهِهِ ، وَوَضَعَهُ فِي غَيْرِ مَوْضِعِهِ ، وَاخْطَأَ
 بِهِ مَوَاضِعَ اسْتِحْقَاقِهِ ، صَارَ بِمَنْزِلَةِ الْفَقِيرِ الَّذِي لَا مَالَ لَهُ ،

ثُمَّ لَا يَمْنَعُ ذَلِكَ مَالَهُ مِنَ التَّلَفِ بِالْحَوَادِثِ وَالْعِلَلِ الَّتِي تَجْرِي عَلَيْهِ ؛ كَمَحْسِ الْمَاءِ الَّذِي لَا تَزَالُ الْمِيَاهُ تَنْصَبُ فِيهِ ، فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ مُخْرَجٌ وَمَفِيزٌ وَمَنْفَسٌ يُخْرِجُ الْمَاءَ مِنْهُ بِقَدْرِ مَا يَنْبَغِي ، حَرِبَ وَسَالَ وَتَزَّ مِنْ نَوَاجٍ كَثِيرَةٍ ، وَرُبَّمَا أَنْبَتُ الْبَثَقُ الْعَظِيمَ فَذَهَبَ الْمَاءُ ضَيَاعًا . ثُمَّ إِنَّ بَنِي الشَّيْخِ اتَّعَظُوا بِقَوْلِ آبَائِهِمْ وَأَخَذُوا بِهِ وَعَلِمُوا أَنَّ فِيهِ الْخَيْرَ وَعَوَّلُوا عَلَيْهِ ؛ فَاَنْطَلَقَ أَكْبَرُهُمْ نَحْوَ أَرْضٍ يُقَالُ لَهَا مَيُونُ ؛ فَأَتَى فِي طَرِيقِهِ عَلَى مَكَانٍ فِيهِ وَحَلٌّ كَثِيرٌ ، وَكَانَ مَعَهُ عَجَلَةٌ يَجْرُهَا ثَوْرَانِ يُقَالُ لِأَحَدِهِمَا شَتْرَبَةٌ وَلِلْآخَرِ بَنْدَبَةٌ ؛ فَوَحَلَ شَتْرَبَةٌ فِي ذَلِكَ الْمَكَانِ ، فَعَالَجَهُ الرَّجُلُ وَأَضْحَاهُ حَتَّى بَلَغَ مِنْهُمْ الْجَهْدَ ، فَلَمْ يَقْدِرُوا عَلَى إِخْرَاجِهِ ؛ فَذَهَبَ الرَّجُلُ وَخَلَّفَ عِنْدَهُ رَجُلًا يُسَارِفُهُ : لَعَلَّ الْوَحَلَ يَنْشَفُ فَيَتْبَعُهُ بِالثَّوْرِ . فَلَمَّا بَاتَ الرَّجُلُ بِذَلِكَ الْمَكَانِ ، تَبَرَّمَ بِهِ وَاسْتَوْحَشَ ؛ فَتَرَكَ الثَّوْرَ وَالتَّحَقَّ بِصَاحِبِهِ ، فَأَخْبَرَهُ أَنَّ الثَّوْرَ قَدْ مَاتَ ؛ وَقَالَ لَهُ : إِنَّ الْإِنْسَانَ إِذَا انْقَضَتْ مُدَّتُهُ وَحَانَتْ مَنِيَّتُهُ

(١) انشق وانفجر . (٢) ضمير .

فَهُوَ وَإِنْ أَجْتَهَدَ فِي التَّوَقُّيِّ مِنَ الْأُمُورِ الَّتِي يَخَافُ فِيهَا عَلَى نَفْسِهِ
الْهَلَاكَ لَمْ يَغْنِ ذَلِكَ عَنْهُ شَيْئًا ؛ وَرُبَّمَا عَادَ اجْتِهَادُهُ فِي تَوَقُّيِهِ
وَحَذَرُهُ وَبَالًا عَلَيْهِ ^(١) .

كَالَّذِي قِيلَ : إِنَّ رَجُلًا سَلَكَ مَفَاذَةً فِيهَا خَوْفٌ مِنَ السَّبَاعِ ؛
وَكَانَ الرَّجُلُ خَيْرًا يَوْعِثُ تِلْكَ الْأَرْضِ وَخَوْفِهَا ؛ فَلَمَّا سَارَ
غَيْرَ بَعِيدٍ اعْتَرَضَ لَهُ ذِئْبٌ مِنْ أَحَدِ الذَّنَابِ وَأَضْرَاَهَا ؛
فَلَمَّا رَأَى الرَّجُلُ أَنَّ الذِّئْبَ قَاصِدٌ نَحْوَهُ خَافَ مِنْهُ ، وَنَظَرَ
يَمِينًا وَشِمَالًا لِيَجِدَ مَوْضِعًا يَخْزُ فِيهِ مِنَ الذِّئْبِ فَلَمْ يَرَ إِلَّا
قَرْيَةً خَلْفَ وَادٍ ؛ فَذَهَبَ مُسْرِعًا نَحْوَ الْقَرْيَةِ ؛ فَلَمَّا أَتَى الْوَادِي
لَمْ يَرَ عَلَيْهِ قَنْطَرَةً ، وَرَأَى الذِّئْبَ قَدْ أَذْرَكَهُ ، فَأَلْقَى نَفْسَهُ فِي الْمَاءِ ،
وَهُوَ لَا يُحْسِنُ السِّبَاحَةَ ، وَكَادَ يَغْرُقُ ، لَوْلَا أَنَّ بَصْرِيهِ قَوْمٌ
مِنْ أَهْلِ الْقَرْيَةِ ؛ فَتَوَاقَعُوا لِإِنْخِرَاجِهِ فَأَخْرَجُوهُ ، وَقَدْ أَشْرَفَ
عَلَى الْهَلَاكِ ؛ فَلَمَّا حَصَلَ الرَّجُلُ عِنْدَهُمْ وَأَمِنَ عَلَى نَفْسِهِ
مِنْ غَائِلَةِ الذِّئْبِ رَأَى عَلَى عُذْوَةِ الْوَادِي بَيْتًا مُفْرَدًا ؛ فَقَالَ :

(١) وخيم العاقبة . (٢) العدو بضم العين وكسرهما : جانب الوادي .

أَدْخُلْ هَذَا الْبَيْتَ فَاسْتَرِجْ فِيهِ . فَلَمَّا دَخَلَهُ وَجَدَ جَمَاعَةً
 مِنَ اللَّصُوصِ قَدْ قَطَعُوا الطَّرِيقَ عَلَى رَجُلٍ مِنَ التُّجَّارِ ،
 وَهُمْ يَقْتَسِمُونَ مَالَهُ ، وَيُرِيدُونَ قَتْلَهُ ، فَلَمَّا رَأَى الرَّجُلُ ذَلِكَ
 حَافَ عَلَى نَفْسِهِ وَمَضَى نَحْوَ الْقَرْيَةِ ، فَأَسْنَدَ ظَهْرَهُ إِلَى حَائِطٍ
 مِنْ حِيطَانِهَا لِيَسْتَرِجَ مِمَّا حَلَّ بِهِ مِنَ الْهَوْلِ وَالْإِغْيَاءِ ، إِذْ سَقَطَ
 الْحَائِطُ عَلَيْهِ فَمَاتَ . قَالَ التَّاجِرُ : صَدَقْتَ ، قَدْ بَلَغَنِي
 هَذَا الْحَدِيثُ . وَأَمَّا الثَّوْرُ فَإِنَّهُ خَلَصَ مِنْ مَكَانِهِ وَانْبَعَثَ ، فَلَمْ
 يَزَلْ فِي مَرْجٍ مُخْصِبٍ كَثِيرِ الْمَاءِ وَالْكَلَالِ ، فَلَمَّا سَمِنَ وَأَمِنَ
 جَعَلَ يَخُورُ وَيَرْفَعُ صَوْتَهُ بِالْخَوَارِ . وَكَانَ قَرِيبًا مِنْهُ أَجَمَةٌ فِيهَا
 أَسَدٌ عَظِيمٌ ، وَهُوَ مَلِكُ تِلْكَ النَّاحِيَةِ ، وَمَعَهُ سِبَاعٌ كَثِيرَةٌ وَذَنَابٌ
 وَبَنَاتٌ آوَى وَثَعَالِبٌ وَفُهُودٌ وَنُمُورٌ ، وَكَانَ هَذَا الْأَسَدُ مُنْفَرِدًا
 بِرَأْيِهِ دُونَ أَخْذِ بَرَأَى أَحَدٍ مِنْ أَصْحَابِهِ . فَلَمَّا سَمِعَ خَوَارَ
 الثَّوْرِ ، وَلَمْ يَكُنْ رَأَى ثُورًا قَطُ ، وَلَا سَمِعَ خَوَارَهُ ، لِأَنَّهُ
 كَانَ مُقِيمًا مَكَانَهُ لَا يَبْرَحُ وَلَا يَنْشَطُ ، بَلْ يُؤْتَى بِرِزْقِهِ كُلَّ يَوْمٍ
 عَلَى يَدِ جُنْدِهِ . وَكَانَ فِيمَنْ مَعَهُ مِنَ السِّبَاعِ ابْنُ آوَى يُقَالُ

لِأَحَدِهِمَا كَلِيلَةُ وَلِلْآخَرِ دِمْنَةُ ؛ وَكَانَا ذَوَيْنِ دَهَاءٍ وَعِلْمٍ وَأَدَبٍ .
فَقَالَ دِمْنَةُ لِأَخِيهِ كَلِيلَةُ : يَا أَخِي مَا شَأْنُ الْأَسَدِ مُقِيمًا مَكَانَهُ
لَا يَبْرَحُ وَلَا يَنْشُطُ ؟ قَالَ لَهُ كَلِيلَةُ : مَا شَأْنُكَ أَنْتَ وَالْمَسْأَلَةُ عَنْ
هَذَا ؟ نَحْنُ عَلَى بَابِ مَلِكِنَا آخِذِينَ بِمَا أَحَبَّ وَتَارِكِينَ مَا يَكْرَهُ ؛
وَلَسْنَا مِنْ أَهْلِ الْمَرْتَبَةِ الَّتِي يَتَنَاوَلُ أَهْلُهَا كَلَامَ الْمُلُوكِ وَالنَّظَرَ
فِي أُمُورِهِمْ . فَأَمْسَكَ عَنْ هَذَا ، وَاعْلَمْ أَنَّهُ مَنْ تَكَلَّفَ مِنَ الْقَوْلِ
وَالْفِعْلِ مَا لَيْسَ مِنْ شَأْنِهِ أَصَابَهُ مَا أَصَابَ الْقِرْدَ مِنَ النَّجَارِ .
قَالَ دِمْنَةُ : وَكَيْفَ كَانَ ذَلِكَ ؟ قَالَ كَلِيلَةُ : زَعَمُوا أَنَّ قِرْدًا
رَأَى نَجَّارًا يُشُقُّ خَشَبَةً بَيْنَ وَتَدَيْنِ ، وَهُوَ رَاكِبٌ عَلَيْهَا ، فَاعْجَبَهُ
ذَلِكَ . ثُمَّ إِنَّ النَّجَّارَ ذَهَبَ لِبَعْضِ شَأْنِهِ . فَقَامَ الْقِرْدُ ؛ وَتَكَلَّفَ
مَا لَيْسَ مِنْ شُغْلِهِ ، فَرَكِبَ الْخَشَبَةَ ، وَجَعَلَ ظَهْرَهُ قَبْلَ الْوَتْدِ ،
وَوَجْهَهُ قَبْلَ الْخَشَبَةِ ؛ فَتَدَلَّى ذَنْبُهُ فِي الشَّقِّ ، وَنَزَعَ الْوَتْدَ فَلَزِمَ^(١)
الشَّقَّ عَلَيْهِ نَحْرٌ مَغْشِيًّا عَلَيْهِ . ثُمَّ إِنَّ النَّجَّارَ وَافَاهُ فَرَأَاهُ مَوْضِعَهُ ،
فَأَقْبَلَ عَلَيْهِ يَضْرِبُهُ . فَكَانَ مَا لَقِيَ مِنَ النَّجَّارِ مِنَ الضَّرْبِ أَشَدَّ

مِمَّا أَصَابَهُ مِنَ الْحَشَبَةِ . قَالَ دِمْنَةُ : قَدْ سَمِعْتُ مَا ذَكَرْتَ ،
 وَلَكِنْ أَعْلَمُ أَنَّ كُلَّ مَنْ يَذْنُو مِنَ الْمُلُوكِ لَيْسَ يَذْنُو مِنْهُمْ لِبَطْنِهِ ،
 وَإِنَّمَا يَذْنُو مِنْهُمْ لَيْسَرُ الصَّدِيقِ وَيَكْبِتُ الْعَدُوَّ . وَإِنَّ مِنَ
 النَّاسِ مَنْ لَا مُرُوءَةَ لَهُ ، وَهُمْ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِالْقَلِيلِ وَيَرْضَوْنَ
 بِالذُّونِ ، كَالْكَلْبِ الَّذِي يُصِيبُ عَظْمًا يَابِسًا فَيَفْرَحُ بِهِ . وَأَمَّا
 أَهْلُ الْفَضْلِ وَالْمُرُوءَةِ فَلَا يَقْنَعُهُمُ الْقَلِيلُ ، وَلَا يَرْضَوْنَ بِهِ ،
 دُونَ أَنْ تَسْمُو بِهِ نَفُوسُهُمْ إِلَى مَا هُمْ أَهْلٌ لَهُ ، وَهُوَ أَيْضًا لَهُمْ
 أَهْلٌ ، كَالْأَسَدِ الَّذِي يَفْتَرِسُ الْأَرْبَ ، فَإِذَا رَأَى الْبَعِيرَ تَرَكَهَا
 وَطَلَبَ الْبَعِيرَ ، أَلَا تَرَى أَنَّ الْكَلْبَ يُبْضِضُ^(١) بِذَنَبِهِ . حَتَّى
 تُرْمَى لَهُ الْكِسْرَةُ ، وَأَنَّ الْفِيلَ الْمُعْتَرِفَ بِفَضْلِهِ وَقُوَّتِهِ إِذَا قَدِمَ إِلَيْهِ
 عُلْفَهُ لَا يَعْتَلِفُهُ حَتَّى يَمْسَحَ وَيَتَمَلَّقَ لَهُ . فَمَنْ عَاشَ ذَا مَالٍ وَكَانَ
 ذَا فَضْلٍ وَإِفْضَالٍ عَلَى أَهْلِهِ وَإِخْوَانِهِ فَهُوَ وَإِنْ قَلَّ عُمُرُهُ طَوِيلُ
 الْعُمُرِ . وَمَنْ كَانَ فِي عَيْشِهِ ضَيْقٌ وَقِلَّةٌ وَإِمْسَاكٌ^{بَال} عَلَى نَفْسِهِ وَذَوِيهِ

فَالْمَقْبُورُ أَحْيَا مِنْهُ . وَمَنْ عَمِلَ لِبَطْنِهِ وَقِنَعَ وَتَرَكَ مَا سِوَى ذَلِكَ
عَدَّ مِنَ الْبَهَائِمِ .

قَالَ كَلِيلَةُ : قَدْ فَهِمْتُ مَا قُلْتَ ؛ فَرَا جَعِ عَقْلَكَ ، وَاعْلَمْ أَنَّ
لِكُلِّ إِنْسَانٍ مَنْزِلَةً وَقَدْرًا . فَإِنْ كَانَ فِي مَنْزِلَتِهِ الَّتِي هُوَ فِيهَا
مُمَاسِكًا ، كَانَ حَقِيقًا أَنْ يَقْنَعَ . وَلَيْسَ لَنَا مِنَ الْمَنْزِلَةِ مَا يَحِطُّ
حَالَنَا الَّتِي نَحْنُ عَلَيْهَا . قَالَ دِمْنَةُ : إِنَّ الْمَنَازِلَ مُتَنَازِعَةٌ مُشْتَرَكَةٌ
عَلَى قَدْرِ الْمَرْوَةِ ؛ فَالْمَرْءُ تَرْفَعُهُ مَرْوَتُهُ مِنَ الْمَنْزِلَةِ الْوَضِيعَةِ إِلَى
الْمَنْزِلَةِ الرَّفِيعَةِ ؛ وَمَنْ لَا مَرْوَةَ لَهُ يُحِطُّ نَفْسَهُ مِنَ الْمَنْزِلَةِ الرَّفِيعَةِ
إِلَى الْمَنْزِلَةِ الْوَضِيعَةِ . وَإِنَّ الِارْتِفَاعَ إِلَى الْمَنْزِلَةِ الشَّرِيفَةِ شَدِيدٌ ،
وَالِانْحِطَاطُ مِنْهَا هَيِّنٌ ؛ كَالْحَجَرِ الثَّقِيلِ : رَفَعُهُ مِنَ الْأَرْضِ إِلَى
الْعَاقِقِ عَسِرٌ ، وَوَضَعُهُ إِلَى الْأَرْضِ هَيِّنٌ . فَنَحْنُ أَحَقُّ أَنْ نُرُومَ
مَا فَوْقَنَا مِنَ الْمَنَازِلِ ، وَأَنْ نَلْتَمِسَ ذَلِكَ بِمَرْوَتِنَا . ثُمَّ كَيْفَ نَقْنَعُ
بِهَا وَنَحْنُ نَسْتَطِيعُ التَّحَوُّلَ عَنْهَا ؟ قَالَ كَلِيلَةُ : فَمَا الَّذِي اجْتَمَعَ
عَلَيْهِ رَأْيُكَ ؟ قَالَ دِمْنَةُ : أُرِيدُ أَنْ أَتَعَرَّضَ لِلْأَسَدِ عِنْدَ هَذِهِ
الْفُرْصَةِ : فَإِنَّ الْأَسَدَ ضَعِيفُ الرَّأْيِ . وَلَعَلِّي عَلَى هَذِهِ الْحَالِ

أَذْنُو مِنْهُ فَاصِيبٌ ^{بِأَذْنِهِ} عَنْدهُ مَنْزِلَةٌ وَمَكَانَةٌ . قَالَ كَلِيلَةُ : وَمَا يَذْرِيكَ
 أَنَّ الْأَسَدَ قَدْ التَّبَسَّ عَلَيْهِ أَمْرُهُ ؟ قَالَ دِمْنَةُ : بِالْحِسِّ وَالرَّأْيِ
 أَعْلَمُ ذَلِكَ مِنْهُ : فَإِنَّ الرَّجُلَ ذَا الرَّأْيِ يَعْرِفُ حَالَ صَاحِبِهِ
 وَبَاطِنَ أَمْرِهِ بِمَا يَظْهَرُ لَهُ مِنْ دَلِيلِهِ وَشَكْلِهِ . قَالَ كَلِيلَةُ : فَكَيْفَ
 تَرْجُو الْمَنْزِلَةَ عِنْدَ الْأَسَدِ وَلَسْتَ بِصَاحِبِ السُّلْطَانِ ، وَلَا لَكَ عِلْمٌ
 بِخِدْمَةِ السَّلَاطِينِ ؟ قَالَ دِمْنَةُ : الرَّجُلُ الشَّدِيدُ الْقُوَى لَا يُعْجِزُهُ
 الْحِمْلُ الثَّقِيلُ ، وَإِنْ لَمْ تَكُنْ عَادَتُهُ الْحِمْلُ ، وَالرَّجُلُ الضَّعِيفُ
 لَا يَسْتَقِلُّ بِهِ وَإِنْ كَانَ ذَلِكَ مِنْ صِنَاعَتِهِ . قَالَ كَلِيلَةُ : فَإِنَّ
 السُّلْطَانَ لَا يَتَوَخَّى بِكَرَامَتِهِ فُضْلَاءَ مَنْ بِحَضْرَتِهِ ، وَلَكِنَّهُ يُوَثِّرُ
 الْأَذْنَى وَمَنْ قُرْبَ مِنْهُ . وَيُقَالُ : إِنَّ مَثَلَ السُّلْطَانِ فِي ذَلِكَ
 مَثَلُ شَجَرِ الْكَرِّمِ الَّذِي لَا يَغْلُقُ إِلَّا بِأَقْرَبِ الشَّجَرِ . وَكَيْفَ
 تَرْجُو الْمَنْزِلَةَ عِنْدَ الْأَسَدِ وَلَسْتَ تَدْنُو مِنْهُ ؟ قَالَ دِمْنَةُ : قَدْ فَهِمْتُ
 كَلَامَكَ جَمِيعَهُ وَمَا ذَكَرْتَ ، وَأَنْتَ صَادِقٌ . لَكِنْ أَعْلَمُ أَنَّ الَّذِي
 هُوَ قَرِيبٌ مِنَ السُّلْطَانِ وَلَا ذَلِكَ مَوْضِعُهُ وَلَا تِلْكَ مَنْزِلَتُهُ ،

لَيْسَ كَمَنْ دَنَا مِنْهُ بَعْدَ الْبُعْدِ وَلَهُ حَقٌّ وَحَرَمَةٌ ؛ وَأَنَا مُلْتَمِسٌ بُلُوغَ
 مَكَانَتِهِمْ بِجُهْدِي . وَقَدْ قِيلَ : لَا يَؤَاطِبُ عَلَى بَابِ السُّلْطَانِ
 إِلَّا مَنْ يَطْرَحُ الْأَنْفَ وَيَحْمِلُ الْأَذَى وَيَكْظِمُ الْغَيْظَ وَيَرْفُقُ بِالنَّاسِ
 وَيَكْتُمُ السِّرَّ ، فَإِذَا وَصَلَ إِلَى ذَلِكَ فَقَدْ بَلَغَ مُرَادَهُ . قَالَ كَلِيلَةُ :
 هَبْكَ وَصَلْتَ إِلَى الْأَسَدِ ، فَمَا تَوْفِيقُكَ عِنْدَهُ الَّذِي تَرْجُو أَنْ
 تَنَالَ بِهِ الْمَنْزِلَةَ وَالْحُظُوَّةَ لَدَيْهِ ؟ قَالَ دِمْنَةُ : لَوْ دَنَوْتُ مِنْهُ
 وَعَرَفْتُ أَخْلَاقَهُ ، لَرَفَقْتُ فِي مُتَابَعَتِهِ وَقَلَّةِ الْخِلَافِ لَهُ . وَإِذَا
 أَرَادَ أَمْرًا هُوَ فِي نَفْسِهِ صَوَابٌ ، زَيَّنَتْهُ لَهُ وَصَبَّرَتْهُ عَلَيْهِ ، وَعَرَفْتُهُ
 بِمَا فِيهِ مِنَ النَّفْعِ وَالْخَيْرِ ؛ وَشَجَعَتْهُ عَلَيْهِ وَعَلَى الْوُصُولِ إِلَيْهِ ،
 حَتَّى يَزْدَادَ بِهِ سُورًا . وَإِذَا أَرَادَ أَمْرًا يُخَافُ عَلَيْهِ ضَرَّهُ وَشَيْنَهُ ،
 بَصَّرَتْهُ بِمَا فِيهِ مِنَ الضَّرِّ وَالشَّيْنِ ، وَأَوْقَفَتْهُ عَلَى مَا فِي تَرْكِهِ مِنَ
 النَّفْعِ وَالزَّيْنِ ، بِحَسَبِ مَا أَجَدُ إِلَيْهِ السَّبِيلَ . وَأَنَا أَرْجُو أَنْ
 أَزْدَادَ بِذَلِكَ عِنْدَ الْأَسَدِ مَكَانَةً وَيَرَى مِنِّي مَا لَا يَرَاهُ مِنْ غَيْرِي :
 فَإِنَّ الرَّجُلَ الْأَدِيبَ الرَّفِيقَ لَوْ شَاءَ أَنْ يُبْطَلَ حَقًّا أَوْ يُحَقَّ بَاطِلًا

لَفَعَلَ : كَالْمُصَوِّرِ الْمَاهِرِ الَّذِي يُصَوِّرُ فِي الْحَيَاطَانِ صُورًا كَأَنَّهَا
خَارِجَةٌ وَلَيْسَتْ بِخَارِجَةٍ ، وَأُخْرَى كَأَنَّهَا دَاخِلَةٌ وَلَيْسَتْ بِدَاخِلَةٍ .
قَالَ كَلِيلَةُ : أَمَّا إِنْ قُلْتَ هَذَا أَوْ قُلْتَ هَذَا فَلِيَّ أَخَافُ عَلَيْكَ
مِنَ السُّلْطَانِ فَإِنَّ صُحْبَتَهُ خَطَرَةٌ . وَقَدْ قَالَتِ الْعُلَمَاءُ : إِنَّ أُمُورًا
ثَلَاثَةً لَا يَجْتَرِئُ عَلَيْهِنَّ إِلَّا أَهْوَجُ ، وَلَا يَسْلُمُ مِنْهُنَّ إِلَّا قَلِيلٌ ،
وَهِيَ : صُحْبَةُ السُّلْطَانِ ، وَائْتِمَانُ النِّسَاءِ عَلَى الْأَسْرَارِ ، وَشُرْبُ
السَّمِّ لِلتَّجَرِبَةِ . وَإِنَّمَا شَبَّهَ الْعُلَمَاءُ السُّلْطَانَ بِالْجَبَلِ الصَّغِيرِ
الْمُرْتَقَى الَّذِي فِيهِ الثَّمَارُ الطَّيِّبَةُ وَالْجَوَاهِرُ النَّفِيسَةُ وَالْأَدْوِيَةُ النَّافِعَةُ .
وَهُوَ مَعَ ذَلِكَ مَعْدِنُ السَّبَاعِ وَالثُّمُورِ وَالذَّنَابِ وَكُلِّ ضَارٍ مُخَوِّفٍ .
فَالِازْتِقَاءُ إِلَيْهِ شَدِيدٌ ، وَالْمُقَامُ فِيهِ أَشَدُّ . قَالَ دِمْنَةُ : صَدَقْتَ
فِيمَا ذَكَرْتَ ، غَيْرَ أَنَّهُ مَنْ لَمْ يَرْكَبِ الْأَهْوَالَ ، لَمْ يَنْلِ الرِّغَائِبَ ،
وَمَنْ تَرَكَ الْأَمْرَ الَّذِي لَعَلَّهُ يَبْلُغُ فِيهِ حَاجَتَهُ هَيْبَةً وَمَخَافَةً لِمَا لَعَلَّهُ
أَنْ يَتَوَقَّاهُ ، فَلَيْسَ بِبَالِغٍ جَسِيًّا . وَقَدْ قِيلَ : إِنَّ خِصَالًا ثَلَاثًا
لَنْ يَسْتَطِيعَهَا أَحَدٌ إِلَّا بِمُعُونَةٍ مِنْ عُلُوِّ هِمَّةٍ وَعَظِيمِ خَطَرٍ : مِنْهَا

عَمَلُ السُّلْطَانِ وَتِجَارَةُ الْبَحْرِ وَمُنَاجَزَةُ الْعَدُوِّ . ^(١) وَقَدْ قَالَتِ الْعُلَمَاءُ
فِي الرَّجُلِ الْفَاضِلِ الرَّشِيدِ : إِنَّهُ لَا يُرَى إِلَّا فِي مَكَانَيْنِ ، وَلَا
يَلِيقُ بِهِ غَيْرُهُمَا : إِمَّا مَعَ الْمُلُوكِ مُكْرَمًا ، وَإِمَّا مَعَ النَّسَاكِ مُتَعَبِدًا ،
كَالْفِيلِ إِمَّا جَمَالَهُ وَبَهَاؤَهُ فِي مَكَانَيْنِ : إِمَّا أَنْ تَرَاهُ وَخَشِيًا وَإِمَّا
مَرْجَبًا لِلْمُلُوكِ . ^(٢) قَالَ كَلِيلَةُ : خَارَ اللَّهُ لَكَ فِيمَا عَزَمْتَ عَلَيْهِ .

ثُمَّ إِنَّ دِمْنَةَ انْطَلَقَ حَتَّى دَخَلَ عَلَى الْأَسَدِ فَسَلَّمَ عَلَيْهِ . فَقَالَ
الْأَسَدُ لِبَعْضِ جُلَسَائِهِ : مَنْ هَذَا ؟ فَقَالَ : فَلَانُ بْنُ فَلَانٍ .
قَالَ : قَدْ كُنْتُ أَغْرِفُ أَبَاهُ . ثُمَّ سَأَلَهُ أَيْنَ تَكُونُ ؟ قَالَ :
لَمْ أَزَلْ مُلَازِمًا بَابَ الْمَلِكِ ، رَجَاءً أَنْ يَحْضُرَ أَمْرًا فَأَعِينَ الْمَلِكَ
فِيهِ بِنَفْسِي وَرَأْيِي : فَإِنَّ أَبْوَابَ الْمُلُوكِ تَكْثُرُ فِيهَا الْأُمُورُ الَّتِي
رُبَّمَا يُنْتَاجُ فِيهَا إِلَى الَّذِي لَا يُؤْبَهُ لَهُ ، وَلَيْسَ أَحَدٌ يَصْغُرُ
أَمْرُهُ إِلَّا وَقَدْ يَكُونُ عِنْدَهُ بَعْضُ الْغَنَاءِ وَالْمَنَافِعِ عَلَى قَدَرِهِ ،
حَتَّى الْعُودُ الْمُلْتَقَى فِي الْأَرْضِ رُبَّمَا نَفَعَ ، فَيَأْخُذُهُ الرَّجُلُ فَيَكُونُ
عُدَّتُهُ عِنْدَ الْحَاجَةِ إِلَيْهِ . فَلَمَّا سَمِعَ الْأَسَدُ قَوْلَ دِمْنَةَ اعْجَبَهُ ،

وَضَنَّ أَنَّ عِنْدَهُ نَصِيحَةً وَرَأْيًا . فَأَقْبَلَ عَلَى مَنْ حَضَرَ فَقَالَ :
 إِنَّ الرَّجُلَ ذَا الْعِلْمِ وَالْمَرْوَةَ يَكُونُ خَامِلٌ الذِّكْرُ خَافِضٌ الْمَنْزِلَةُ ،
 فَتَأْتِي مَنْزِلَتُهُ إِلَّا أَنْ تَشَبَّ وَتَرْتَفِعَ ، كَالشُّعْلَةِ مِنَ النَّارِ يَضْرِبُهَا
 صَاحِبُهَا وَتَأْتِي إِلَّا أَنْ تَرْتَفِعَ . فَلَمَّا عَرَفَ دِمْنَةَ أَنَّ الْأَسَدَ قَدْ
 عَجِبَ مِنْهُ قَالَ : إِنَّ رَعِيَّةَ الْمَلِكِ تَحْضُرُ بَابَ الْمَلِكِ ، رَجَاءً
 أَنْ يَعْرِفَ مَا عِنْدَهَا مِنْ عِلْمٍ وَافِرٍ . وَقَدْ يُقَالُ : إِنَّ الْفَضْلَ
 فِي أَمْرَيْنِ : فَضْلُ الْمُقَاتِلِ عَلَى الْمُقَاتِلِ وَالْعَالِمِ عَلَى الْعَالِمِ .
 وَإِنْ كَثُرَ الْأَعْوَانُ إِذَا لَمْ يَكُونُوا مُحْتَبَرِينَ رُبَّمَا تَكُونُ مَضَرَّةً عَلَى
 الْعَمَلِ : فَإِنَّ الْعَمَلَ لَيْسَ رَجَاؤُهُ بِكَثْرَةِ الْأَعْوَانِ وَلَكِنْ بِصَالِحِي
 الْأَعْوَانِ . وَمَثَلُ ذَلِكَ مَثَلُ الرَّجُلِ الَّذِي يَحْمِلُ الْحَجَرَ الثَّقِيلَ ،
 فَيُثْقَلُ بِهِ نَفْسُهُ ، وَلَا يَجِدُ لَهُ ثَمَنًا . وَالرَّجُلُ الَّذِي يَحْتَاجُ إِلَى
 الْخُذُوعِ لَا يَجْزِيهِ الْقَصَبُ وَإِنْ كَثُرَ . فَأَنْتَ الْآنَ أَيُّهَا الْمَلِكُ
 حَقِيقٌ إِلَّا تَحْقِرَ مَرْوَةً أَنْتَ تَجِدُهَا عِنْدَ رَجُلٍ صَغِيرِ الْمَنْزِلَةِ :
 فَإِنَّ الصَّغِيرَ رُبَّمَا عَظُمَ ، كَالْعَصَبِ يُؤْخَذُ مِنَ الْمِيتَةِ فَإِذَا عَمِلَ مِنْهُ
 الْقَوْسُ أَكْرَمَ ، فَتَقْبِضُ عَلَيْهِ الْمُلُوكُ وَتَحْتَاجُ إِلَيْهِ فِي الْبَاسِ وَاللَّهْوِ .

وَأَحَبَّ دِمْنَةٌ أَنْ يُرَى الْقَوْمَ أَنَّ مَا نَالَهُ مِنْ كَرَامَةِ الْمَلِكِ إِنَّمَا هُوَ لِرَأْيِهِ وَمُرُوءَتِهِ وَعَقْلِهِ : لِأَنَّهُمْ عَرَفُوا قَبْلَ ذَلِكَ أَنَّ ذَلِكَ لِمَعْرِفَتِهِ أَبَاهُ ، فَقَالَ : إِنَّ السُّلْطَانَ لَا يُقَرِّبُ الرِّجَالَ لِقُرْبِ آبَائِهِمْ ، وَلَا يُبْعِدُهُمْ لِبُعْدِهِمْ ، وَلَكِنْ يَنْبَغِي أَنْ يَنْظُرَ إِلَى كُلِّ رَجُلٍ بِمَا عِنْدَهُ : لِأَنَّهُ لَا شَيْءَ أَقْرَبُ إِلَى الرَّجُلِ مِنْ جَسَدِهِ وَمِنْ جَسَدِهِ مَا يَدْوِي حَتَّى يُؤْذِيَهُ وَلَا يُدْفَعُ ذَلِكَ عَنْهُ إِلَّا بِالْإِدْوَاءِ ^(١) الَّذِي يَأْتِيهِ مِنْ بَعْدِ .

فَلَمَّا فَرَغَ دِمْنَةٌ مِنْ مَقَالَاتِهِ هَذِهِ أُعْجِبَ الْمَلِكُ بِهِ إِعْجَابًا شَدِيدًا ، وَأَحْسَنَ الرَّدَّ عَلَيْهِ ، وَزَادَ فِي كَرَامَتِهِ . ثُمَّ قَالَ لِحُجَّاسَانِهِ : يَنْبَغِي لِلسُّلْطَانِ أَلَّا يَلْجَأَ فِي تَضْيِيعِ حَقِّ ذَوِي الْحُقُوقِ . وَالنَّاسُ فِي ذَلِكَ رَجُلَانِ : رَجُلٌ طَبَعُهُ الشَّرَاسَةُ ، فَهُوَ كَالْحَيَّةِ إِنْ وَطَّئَهَا الْوَاطِئُ فَلَمْ تَلْدَغْهُ ، لَمْ يَكُنْ جَدِيرًا أَنْ يَغْرَهُ ذَلِكَ مِنْهَا ، فَيَعُودَ إِلَى وَطَّئِهَا ثَانِيًا فَيَلْدَغْهُ ، وَرَجُلٌ أَصْلُ طَبَاعِهِ السُّهُولَةُ ، فَهُوَ كَالصَّنَدَلِ الْبَارِدِ الَّذِي إِذَا أُفْرِطَ فِي حِكِّهِ صَارَ حَارًّا مُؤْذِيًا .

ثُمَّ إِنَّ دِمْنَةَ اسْتَأْنَسَ بِالْأَسَدِ وَخَلَا بِهِ . فَقَالَ لَهُ يَوْمًا : أَرَى
الْمَلِكَ قَدْ أَقَامَ فِي مَكَانٍ وَاحِدٍ لَا يَبْرَحُ مِنْهُ ، فَمَا سَبَبُ ذَلِكَ ؟
فَبَيَّنَّا هُمَا فِي هَذَا الْحَدِيثِ إِذْ خَارَ شَتْرَبَةُ خُورًا شَدِيدًا : فَهَبَجَ
الْأَسَدُ وَكَرِهَ أَنْ يُخْبِرَ دِمْنَةَ بِمَا نَالَهُ ، وَعَلِمَ دِمْنَةُ أَنَّ ذَلِكَ الصَّوْتَ
قَدْ أَدْخَلَ عَلَى الْأَسَدِ رِيبةً وَهَيْبَةً ^(١) . فَسَأَلَهُ : هَلْ رَأَى الْمَلِكَ
سَمَاعُ هَذَا الصَّوْتِ ؟ قَالَ لَمْ يَرِنِّي شَيْءٌ سِوَى ذَلِكَ . قَالَ
دِمْنَةُ : لَيْسَ الْمَلِكُ بِحَقِيقٍ أَنْ يَدَّعَى مَكَانَهُ لِأَجْلِ صَوْتٍ . فَقَدْ
قَالَتِ الْعُلَمَاءُ : إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ كُلِّ الْأَصْوَاتِ تَجِبُ الْهَيْبَةُ .
قَالَ الْأَسَدُ : وَمَا مِثْلُ ذَلِكَ ؟

قَالَ دِمْنَةُ : زَعَمُوا أَنَّ ثَعْلَبًا آتَى أَجْمَةً فِيهَا طَبْلٌ مُعَلَّقٌ عَلَى
شَجَرَةٍ ، وَكَلِمًا هَبَّتِ الرِّيحُ عَلَى قُضْبَانِ تِلْكَ الشَّجَرَةِ حَرَكَتَهَا ،
فَضْرَبَتْ الطَّبْلَ فَسَمِعَ لَهُ صَوْتُ عَظِيمٌ ، فَتَوَجَّهَ الثَّعْلَبُ نَحْوَهُ
لِأَجْلِ مَا سَمِعَ مِنْ عَظَمِ صَوْتِهِ ، فَلَمَّا أَتَاهُ وَجَدَهُ ضَخْمًا ، فَأَيَّقَنَ

فِي نَفْسِهِ بِكَثْرَةِ الشَّحْمِ وَاللَّحْمِ . فَعَالَجَهُ حَتَّى شَقَّهِ . فَلَمَّا رَأَاهُ
 أَجُوفَ لَا شَيْءَ فِيهِ ، قَالَ : لَا أَذْرِي لَعَلَّ أَفْشَلَ الْأَشْيَاءِ
 أَجْهَرُهَا صَوْتًا وَأَعْظَمُهَا جُثَّةً . وَإِنَّمَا ضَرَبْتُ لَكَ هَذَا الْمَثَلَ
 لِيَتَعْلَمَ أَنَّ هَذَا الصَّوْتَ الَّذِي رَاعَنَا ، لَوْ وَصَلْنَا إِلَيْهِ ، لَوَجَدْنَاهُ
 أَيْسَرَ مِمَّا فِي أَنْفُسِنَا . فَإِنْ شَاءَ الْمَلِكُ بَعَثَنِي وَأَقَامَ بِمَكَانِهِ
 حَتَّى آتِيَهُ بَيَانُ هَذَا الصَّوْتِ . فَوَافَقَ الْأَسَدَ قَوْلُهُ ، فَأَذِنَ لَهُ
 بِالذَّهَابِ نَحْوِ الصَّوْتِ . فَاِنْطَلَقَ دِمْنَةُ إِلَى الْمَكَانِ الَّذِي فِيهِ
 شَتْرَبَةٌ . فَلَمَّا فَصَلَ دِمْنَةُ مِنْ عِنْدِ الْأَسَدِ ، فَكَّرَ الْأَسَدُ فِي أَمْرِهِ ،
 وَنَدِمَ عَلَى إِرْسَالِ دِمْنَةَ . حَيْثُ أَرْسَلَهُ ، وَقَالَ فِي نَفْسِهِ :
 مَا أَصَبْتُ فِي اتِّمَّانِي دِمْنَةَ ، وَقَدْ كَانَ بِيَابِي مَطْرُوحًا ،
 فَإِنَّ الرَّجُلَ إِذَا كَانَ يَخْضُرُ بَابَ الْمَلِكِ ، وَقَدْ أُبْطِلَتْ حُقُوقُهُ مِنْ
 غَيْرِ جُرْمٍ كَانَ مِنْهُ ، أَوْ كَانَ مَبْغِيًّا عَلَيْهِ عِنْدَ سُلْطَانِهِ ، أَوْ كَانَ
 عِنْدَهُ مَعْرُوفًا بِالشَّرِّ وَالْحَرِصِ ، أَوْ كَانَ قَدْ أَصَابَهُ ضَرٌّْ وَضِيقٌ
 فَلَمْ يُنْعِشْهُ ، أَوْ كَانَ قَدْ أَجْتَرَمَ جُرْمًا فَهُوَ يَخَافُ الْعُقُوبَةَ مِنْهُ ، أَوْ
 كَانَ يَرْجُو شَيْئًا يَضُرُّ الْمَلِكَ وَلَهُ مِنْهُ نَفْعٌ ، أَوْ يَخَافُ فِي شَيْءٍ

مِمَّا يَنْفَعُهُ ضُرًّا ، أَوْ كَانَ لَعُدُّوْهُ الْمَلِكِ مُسَالِّاً ، وَلِمُسَالِمِهِ مُحَارِبًا ،
فَلَيْسَ السُّلْطَانُ بِحَقِيقٍ أَنْ يَعْجَلَ بِالِاسْتِرْسَالِ إِلَيْهِ . وَالثِّقَةُ بِهِ ،
وَالِائْتِمَانُ لَهُ : فَإِنَّ دِمْنَةَ دَاهِيَةِ أَرِيبٍ . وَقَدْ كَانَ بِبَابِي
مَطْرُوحًا مَجْفُوءًا . وَلَعَلَّهُ قَدْ اخْتَمَلَ عَلَىٰ بِذَلِكَ ضِعْفًا ، وَلَعَلَّ
ذَلِكَ يَحْمِلُهُ عَلَىٰ خِيَانَتِي وَإِعَانَةِ عَدُوِّي وَنَقِصَتِي عِنْدَهُ ، وَلَعَلَّهُ
صَادَفَ صَاحِبَ الصَّوْتِ أَقْوَى سُلْطَانًا مِنِّي فِيرَغَبَ بِهِ عَنِّي
وَيَمِيلَ مَعَهُ عَلَى . ثُمَّ قَامَ مِنْ مَكَانِهِ فَشَى غَيْرَ بَعِيدٍ ، فَبَصُرَ
بِدِمْنَةَ مُقْبِلًا نَحْوَهُ فَطَابَتْ نَفْسُهُ بِذَلِكَ ، وَرَجَعَ إِلَى مَكَانِهِ ،
وَدَخَلَ دِمْنَةُ عَلَى الْأَسَدِ فَقَالَ لَهُ : مَاذَا صَنَعْتَ ؟ وَمَاذَا رَأَيْتَ ؟
قَالَ : رَأَيْتُ ثَوْرًا هُوَ صَاحِبُ الْخَوَارِ وَالصَّوْتِ الَّذِي سَمِعْتُهُ .
قَالَ : فَمَا قُوَّتُهُ ؟ قَالَ : لَا شَوْكَةَ لَهُ . وَقَدْ دَنَوْتُ مِنْهُ وَحَاوَرْتُهُ
مُحَاوَرَةَ الْإِكْفَاءِ فَلَمْ يَسْتَطِعْ لِي شَيْئًا . قَالَ الْأَسَدُ : لَا يَغُرُّكَ
ذَلِكَ مِنْهُ وَلَا يَصْغُرَنَّ عِنْدَكَ أَمْرُهُ : فَإِنَّ الرِّيحَ الشَّدِيدَةَ لَا تَعْبَأُ
بِضَعِيفِ الْحَشِيشِ ، لَكِنَّهَا تُحْطِمُ طَوَالَ النَّخْلِ وَعَظِيمَ الشَّجَرِ .

قَالَ دِمْنَةُ : لَا تَهَابَنَّ أَيُّهَا الْمَلِكُ مِنْهُ شَيْئًا ، وَلَا يَكْبُرَنَّ عَلَيْكَ أَمْرُهُ : فَإِنَّا آتِيكَ بِهِ لِيَكُونَ لَكَ عَبْدًا سَامِعًا مُطِيعًا . قَالَ الْأَسَدُ : دُونَكَ وَمَا بَدَا لَكَ .

فَانْطَلَقَ دِمْنَةُ إِلَى الثَّوْرِ ، فَقَالَ لَهُ غَيْرَ هَائِبٍ وَلَا مُكْتَرِثٍ : إِنَّ الْأَسَدَ أَرْسَلَنِي إِلَيْكَ لِآتِيهِ بِكَ . وَأَمْرِي ، إِنْ أَنْتَ عَجَلْتَ إِلَيْهِ طَائِعًا ، أَنْ أُوْمِنَكَ عَلَى مَا سَلَفَ مِنْ ذَنْبِكَ فِي التَّائِخِ عَنْهُ وَتَرِكَكَ لِقَاءِهِ ، وَإِنْ أَنْتَ تَأَخَّرْتَ عَنْهُ وَأَجَحَمْتَ ، أَنْ أُعَجِّلَ الرَّجْعَةَ إِلَيْهِ فَأُخْبِرَهُ . قَالَ لَهُ شَتْرَبَةُ : وَمَنْ هُوَ هَذَا الْأَسَدُ الَّذِي أَرْسَلَكَ إِلَيَّ ؟ وَآيْنَ هُوَ ؟ وَمَا حَالُهُ ؟ قَالَ دِمْنَةُ : هُوَ مَلِكُ السَّبَاعِ ، وَهُوَ بِمَكَانٍ كَذَا ، وَمَعَهُ جُنْدٌ كَثِيرٌ مِنْ جَنْسِهِ فَرِعَبَ شَتْرَبَةُ مِنْ ذِكْرِ الْأَسَدِ وَالسَّبَاعِ . وَقَالَ : إِنْ أَنْتَ جَعَلْتَ لِي الْأَمَانَ عَلَى نَفْسِي أَقْبَلْتُ مَعَكَ إِلَيْهِ . فَأَعْطَاهُ دِمْنَةُ مِنَ الْأَمَانِ مَا وَثِقَ بِهِ . ثُمَّ أَقْبَلَ وَالثَّوْرُ مَعَهُ ، حَتَّى دَخَلَ عَلَى الْأَسَدِ فَأَحْسِنَ الْأَسَدُ إِلَى الثَّوْرِ وَقَرَّبَهُ ، وَقَالَ لَهُ : مَتَى قَدِمْتَ هَذِهِ الْبِلَادَ ؟ وَمَا أَقْدَمَكَهَا ؟ فَقَصَّ شَتْرَبَةُ عَلَيْهِ قِصَّتَهُ . فَقَالَ لَهُ الْأَسَدُ أَضْحَكُنِي وَالزَّمَنِي : فَإِنِّي مُكْرِمُكَ . فَدَعَا لَهُ الثَّوْرَ وَأَخْنَى عَلَيْهِ .

ثُمَّ إِنَّ الْأَسَدَ قَرَّبَ شَتْرَبَةً وَأَكْرَمَهُ وَأَنَسَ بِهِ وَأَتَمَّنَهُ عَلَى أَسْرَارِهِ
وَشَاوَرَهُ فِي أَمْرِهِ ، وَلَمْ تَزِدْهُ إِلَّا يَوْمًا إِلَّا عَجَبًا بِهِ وَرَغْبَةً فِيهِ
وَتَقَرُّبًا مِنْهُ ؛ حَتَّى صَارَ أَحْصَى أَصْحَابِهِ عِنْدَهُ مَنْزِلَةً . فَلَمَّا رَأَى
دِمْنَةً أَنَّ الثَّوْرَ قَدْ اخْتَصَّ بِالْأَسَدِ دُونَهُ وَدُونَ أَصْحَابِهِ ، وَأَنَّهُ قَدْ
صَارَ صَاحِبَ رَأْيِهِ وَخُلَوَاتِهِ وَلَهْوِهِ ، حَسَدَهُ حَسَدًا عَظِيمًا ، وَبَلَغَ
مِنْهُ غَيْظُهُ كُلَّ مَبْلَغٍ : فَشَكَا ذَلِكَ إِلَى أَخِيهِ كَلِيلَةَ ؛ وَقَالَ لَهُ :
أَلَا تَعْجَبُ يَا أَخِي مِنْ عَجْزِ رَأْيِي ، وَصُنْعِي بِنَفْسِي ؟ وَنَظَرِي
فِيمَا يَنْفَعُ الْأَسَدَ ، وَأَغْفَلْتُ نَفْعَ نَفْسِي حَتَّى جَلَبْتُ إِلَى الْأَسَدِ
ثَوْرًا غَلْبَنِي عَلَى مَنْزِلَتِي .

قَالَ كَلِيلَةُ : أَخْبِرْنِي عَنْ رَأْيِكَ وَمَا تَرِيدُ أَنْ تَعْرِزَ عَلَيْهِ
فِي ذَلِكَ . قَالَ دِمْنَةُ : أَمَّا أَنَا فَلَسْتُ الْيَوْمَ أَرْجُو أَنْ تَزْدَادَ
مَنْزِلَتِي عِنْدَ الْأَسَدِ فَوْقَ مَا كَانَتْ عَلَيْهِ ؛ وَلَكِنْ أَلْتِمِسُ أَنْ أَعُودَ
إِلَى مَا كُنْتُ عَلَيْهِ : فَإِنَّ أُمُورًا ثَلَاثَةً الْعَاقِلُ جَدِيرٌ بِالنَّظَرِ فِيهَا ،
وَالْأَحْتِيَالِ لَهَا بِجُهِدِهِ : مِنْهَا النَّظَرُ فِيمَا مَضَى مِنَ الضَّرِّ وَالنَّفْعِ ،

فِيحْتَرِسُ مِنَ الضَّرِّ الَّذِي أَصَابَهُ فِيمَا سَلَفَ لِكَيْلًا يَعُودَ إِلَى ذَلِكَ
الضَّرِّ ، وَيَلْتَمِسُ النَّفْعَ الَّذِي مَضَى وَيَحْتَالُ لِمُعَاوَدَتِهِ ، وَمِنْهَا
النَّظَرُ فِيمَا هُوَ مُقِيمٌ فِيهِ مِنَ الْمَنَافِعِ وَالْمَضَارِّ ، وَالِاسْتِثْنَاءُ بِمَا
يَنْفَعُ وَالْهَرَبُ بِمَا يَضُرُّ ، وَمِنْهَا النَّظَرُ فِي مُسْتَقْبَلِ مَا يَرْجُو مِنْ
قَبْلِ النَّفْعِ ، وَمَا يَخَافُ مِنْ قَبْلِ الضَّرِّ ، فَيَسْتَتِمُّ مَا يَرْجُو وَيَتَوَقَّى
مَا يَخَافُ بِجُهْدِهِ . وَإِنِّي لَمَّا نَظَرْتُ فِي الْأَمْرِ الَّذِي بِهِ أَرْجُو
أَنْ تَعُودَ مَنَزِلَتِي ، وَمَا غَلِبْتُ عَلَيْهِ مِمَّا كُنْتُ فِيهِ ، لَمْ أَجِدْ
حِيلَةً وَلَا وَجْهًا إِلَّا الْإِحْتِيَالَ لِأَكْلِ الْعُشْبِ هَذَا ، حَتَّى أُفَرِّقَ
بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْحَيَاةِ : فَإِنَّهُ إِنْ فَارَقَ الْأَسَدَ عَادَتْ لِي مَنَزِلَتِي .
وَلَعَلَّ ذَلِكَ يَكُونُ خَيْرًا لِلْأَسَدِ : فَإِنَّ إِفْرَاطَهُ فِي تَقْرِيْبِ الثَّوْرِ
خَلِيقٌ أَنْ يَشِينَهُ وَيَضُرَّهُ فِي أَمْرِهِ . قَالَ كَلِيلَةُ : مَا أَرَى عَلَى
الْأَسَدِ فِي رَأْيِهِ فِي الثَّوْرِ وَمَكَانِهِ مِنْهُ وَمَنَزِلَتِهِ عِنْدَهُ شَيْنًا وَلَا شَرًّا .
قَالَ دِمْنَةُ : إِنَّمَا يُؤْتِي السُّلْطَانَ وَيُفْسِدُ أَمْرَهُ مِنْ قَبْلِ سِتَّةِ
أَشْيَاءَ : الْحَرَمَانَ وَالْفِتْنَةَ وَالْهَوَى وَالْفُظَاظَةَ وَالزَّمَانَ وَالْخَرْقَ .

فَأَمَّا الْحَرَمَانُ فَإِنَّ يُحْرَمَ صَالِحَ الْأَعْوَانِ وَالنَّصَحَاءِ وَالسَّاسَةِ مِنْ
أَهْلِ الرَّأْيِ وَالنَّجْدَةِ وَالْأَمَانَةِ ، وَتَرَكُ التَّفَقُّدَ لِمَنْ هُوَ كَذَلِكَ . وَأَمَّا
الْفِتْنَةُ فَهِيَ تَحَارِبُ النَّاسِ وَوُقُوعُ الْحَرْبِ بَيْنَهُمْ . وَأَمَّا الْهُوَى
فَالْغَرَامُ بِالْحَدِيثِ وَاللَّهْوِ وَالشَّرَابِ وَالصَّيْدِ وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ . وَأَمَّا
الْفِظَازَةُ فَهِيَ إِفْرَاطُ الشَّدَّةِ حَتَّى يَجْمَحَ اللِّسَانُ بِالشَّتْمِ وَالْيَدُ
بِالْبَطْشِ فِي غَيْرِ مَوْضِعِهِمَا . وَأَمَّا الزَّمَانُ فَهُوَ مَا يُصِيبُ النَّاسَ
مِنَ السِّنِينَ وَالْمَوْتِ وَنَقْصِ الثَّمَرَاتِ وَالْغَزَوَاتِ وَأَشْبَاهِ ذَلِكَ .
وَأَمَّا الْخَرْقُ فَإِعْمَالُ الشَّدَّةِ فِي مَوْضِعِ اللَّيْنِ ، وَاللَّيْنُ فِي مَوْضِعِ
الشَّدَّةِ . وَإِنَّ الْأَسَدَ قَدْ أَغْرِمَ بِالثَّوْرِ إِغْرَامًا شَدِيدًا هُوَ الَّذِي
ذَكَرْتُ لَكَ أَنَّهُ خَلِيقٌ أَنْ يَشِينَهُ وَيُضِرَّهُ فِي أَمْرِهِ . قَالَ كَلِيلَةُ :
وَكَيْفَ تَطِيقُ الثَّوْرَ وَهُوَ أَشَدُّ مِنْكَ وَأَكْرَمُ عَلَى الْأَسَدِ مِنْكَ
وَأَكْثَرُ أَعْوَانًا ؟ قَالَ دِمْنَةُ : لَا تَنْظُرُ إِلَى صِغَرِي وَضَعْفِي :
فَإِنَّ الْأُمُورَ لَيْسَتْ بِالضَّعْفِ وَلَا الْقُوَّةَ وَلَا الصِّغَرِ وَلَا الْكِبَرِ
فِي الْجُحْتَةِ : فَرُبُّ صَغِيرٍ ضَعِيفٍ قَدْ بَلَغَ بِجِيلَتِهِ وَدَهَائِهِ وَرَأْيِهِ
مَا يَعْجِزُ عَنْهُ كَثِيرٌ مِنَ الْأَقْوِيَاءِ . أَوْ لَمْ يَبْلُغْكَ أَنَّ غُرَابًا ضَعِيفًا
اِحْتَالَ لَأَسْوَدَ حَتَّى قَتَلَهُ ؟ قَالَ كَلِيلَةُ : وَكَيْفَ كَانَ ذَلِكَ ؟

قَالَ دِمْنَةُ : زَعَمُوا أَنَّ غُرَابًا كَانَ لَهُ وَكْرٌ فِي شَجَرَةٍ عَلَى جَبَلٍ ؛
وَكَانَ قَرِيبًا مِنْهُ جُرْثُومَانِ أَسْوَدَ ، فَكَانَ الْغُرَابُ إِذَا فَرَّخَ عَمَدَ
الْأَسْوَدِ إِلَى فِرَاحِهِ فَأَكَلَهَا ؛ فَبَلَغَ ذَلِكَ مِنَ الْغُرَابِ وَأَحْزَنَهُ ،
فَشَكَا ذَلِكَ إِلَى صَدِيقٍ لَهُ مِنْ بَنَاتِ آوَى ؛ وَقَالَ لَهُ : أُرِيدُ
مُشَاوَرَتَكَ فِي أَمْرٍ قَدْ عَزَمْتُ عَلَيْهِ ؛ قَالَ : وَمَا هُوَ ؟ قَالَ
الْغُرَابُ : قَدْ عَزَمْتُ أَنْ أَذْهَبَ إِلَى الْأَسْوَدِ إِذَا نَامَ ، فَأَنْقُرَ
عَيْنَيْهِ ، فَأَفْقَاهُمَا ، لَعَلِّي أَسْتَرِيحُ مِنْهُ . قَالَ ابْنُ آوَى : بِئْسَ
الْحِيلَةُ الَّتِي احْتَلْتُ^(١) ؛ فَالْتَمَسَ أَمْرًا تُصِيبُ فِيهِ بَغِيَّتَكَ مِنْ
الْأَسْوَدِ ، مِنْ غَيْرِ أَنْ تُغَرَّرَ بِنَفْسِكَ وَتُخَاطَرِ بِهَا . وَإِيَّاكَ أَنْ
يَكُونَ مِثْلُكَ مِثْلَ الْعُلْجُومِ^(٢) الَّذِي أَرَادَ قَتْلَ السَّرْطَانِ فَقَتَلَ
نَفْسَهُ . قَالَ الْغُرَابُ : وَكَيْفَ كَانَ ذَلِكَ ؟

قَالَ ابْنُ آوَى : زَعَمُوا أَنَّ عُلْجُومًا عَشَّشَ فِي أَجْمَةٍ كَثِيرَةٍ
السَّمَكِ ؛ فَعَاشَ بِهَا مَا عَاشَ ؛ ثُمَّ هَرِمَ فَلَمْ يَسْتَطِعْ صَيْدًا ؛
فَأَصَابَهُ جُوعٌ وَجَهْدٌ شَدِيدٌ ؛ فَجَلَسَ حَزِينًا يَلْتَمِسُ الْحِيلَةَ

(١) طائر أبيض . (٢) حيوان بحري معروف .

فِي أَمْرِهِ ؛ فَمَرَّ بِهِ سَرَطَانٌ ، فَرَأَى حَالَتَهُ وَمَا هُوَ عَلَيْهِ مِنَ الْكَآبَةِ
وَالْحُزْنِ ، فَدَنَا مِنْهُ وَقَالَ : مَا لِي أُرَاكَ أَيُّهَا الطَّائِرُ هَكَذَا حَزِينًا
كَثِيبًا ؟ قَالَ الْعُلْجُومُ : وَكَيْفَ لَا أَحْزَنُ وَقَدْ كُنْتُ أَعِيشُ مِنْ
صَيْدِ مَا هَاهُنَا مِنَ السَّمَكِ ؟ وَإِنِّي قَدْ رَأَيْتُ الْيَوْمَ صَيَّادَيْنِ قَدْ
مَرَّ بِهَذَا الْمَكَانِ ؛ فَقَالَ أَحَدُهُمَا لِصَاحِبِهِ : إِنَّ هَاهُنَا سَمَكًا
كَثِيرًا أَفَلَا نَصِيدُهُ أَوَّلًا ؟ فَقَالَ الْآخَرُ : إِنِّي قَدْ رَأَيْتُ فِي مَكَانٍ
كَذَا سَمَكًا أَكْثَرَ مِنْ هَذَا السَّمَكِ ؛ فَلْنَبْدَأْ بِذَلِكَ ، فَإِذَا فَرَعْنَا
مِنْهُ جِئْنَا إِلَى هَذَا فَأَقْنِينَاهُ . وَقَدْ عَلِمْتُ أَنَّهُمَا إِذَا فَرَعَا مِمَّا
هُنَاكَ ، أَتَيْبَا إِلَى هَذِهِ الْأَجْمَةِ فَاصْطَادَا مَا فِيهَا ؛ فَإِذَا كَانَ ذَلِكَ
فَهُوَ هَلَاكِي وَنَفَادُ مَدَّتِي . فَاَنْطَلَقَ السَّرَطَانُ مِنْ سَاعَتِهِ إِلَى
جَمَاعَةِ السَّمَكِ فَأَخْبَرَهُنَّ بِذَلِكَ ؛ فَأَقْبَلْنَ إِلَى الْعُلْجُومِ فَاسْتَشَرْنَهُ ؛
وَقُلْنَ لَهُ : إِنَّا أَتَيْنَاكَ لِتُشِيرَ عَلَيْنَا : فَإِنَّ ذَا الْعَقْلِ لَا يَدْعُ مُشَاوَرَةَ
عَدُوِّهِ . قَالَ الْعُلْجُومُ : أَمَّا مُكَابَرَةُ الصَّيَّادَيْنِ فَلَا طَاقَةَ لِي بِهِمَا ؛
وَلَا أَعْلَمُ حِيلَةً إِلَّا الْمَصِيرَ إِلَى غَدِيرٍ قَرِيبٍ مِنْ هَاهُنَا ، فِيهِ سَمَكٌ
وَمِيَاهُ عَظِيمَةٌ وَقَصَبٌ ؛ فَإِنْ اسْتَطَعْتُنَّ الْإِلْتِقَالَ إِلَيْهِ ، كَانَ فِيهِ

صَاحِكُنَّ وَخَضْبُكُنَّ . فَقُلْنَ لَهُ : مَا مِنْ عَلَيْنَا بِذَلِكَ غَيْرُكَ .
 جَعَلَ الْعُلْجُومُ يَحْمِلُ فِي كُلِّ يَوْمٍ سَمَكَيْنِ حَتَّى يَنْتَهِيَ بِهِمَا إِلَى
 بَعْضِ التَّلَالِ فَيَأْكُلُهُمَا ، حَتَّى إِذَا كَانَ ذَاتَ يَوْمٍ جَاءَ لِأَخْذِ
 السَّمَكَيْنِ ، فَجَاءَهُ السَّرَطَانُ ، فَقَالَ لَهُ : إِنِّي أَيْضًا قَدْ أَشْفَقْتُ
 مِنْ مَكَانِي هَذَا وَاسْتَوْحَشْتُ مِنْهُ فَادْهَبْ بِي إِلَى ذَلِكَ الْغَدِيرِ ،
 فَاحْتَمِلْهُ وَطَارِيهِ ، حَتَّى إِذَا دَنَا مِنَ التَّلَالِ الَّذِي كَانَ يَأْكُلُ
 السَّمَكَ فِيهِ نَظَرَ السَّرَطَانُ فَرَأَى عِظَامَ السَّمَكِ مَجْمُوعَةً هُنَاكَ ،
 فَعَلِمَ أَنَّ الْعُلْجُومَ هُوَ صَاحِبُهَا ، وَأَنَّهُ يُرِيدُ بِهِ مِثْلَ ذَلِكَ . فَقَالَ
 فِي نَفْسِهِ : إِذَا لَقِيَ الرَّجُلَ عَدُوَّهُ فِي الْمَوَاطِنِ الَّتِي يَعْلَمُ أَنَّهُ فِيهَا
 هَالِكٌ ، سِوَاءٍ قَاتَلَ أَمْ لَمْ يُقَاتِلْ ، كَانَ حَقِيقًا أَنْ يُقَاتِلَ عَنْ
 نَفْسِهِ كَرَمًا وَحِفَاطًا ، ثُمَّ أَهْوَى بِكَلْبَتَيْهِ عَلَى عُنُقِ الْعُلْجُومِ ،
 فَعَصَرَهُ فَمَاتَ ، وَتَخَلَّصَ السَّرَطَانُ إِلَى جَمَاعَةِ السَّمَكِ فَأَخْبَرَهُنَّ
 بِذَلِكَ . وَإِنَّمَا ضَرَبْتُ لَكَ هَذَا الْمَثَلَ لِتَعْلَمَ أَنَّ بَعْضَ الْحِيلَةِ

(١) أنفة . (٢) كلبتا السَّرَطَانِ : هما قرناه اللذان يشبهان الأداة التي يأخذها

الحداد الحديد المحمى أم التي يخرج بها النجار المسامير من الخشب (الكاشة) .

مَهْلَكَةٌ لِّلْمُحْتَالِ وَلَكِنِّي أَدُلُّكَ عَلَى أَمْرٍ ، إِنْ أَنْتَ قَدَرْتَ عَلَيْهِ ،
كَانَ فِيهِ هَلَاكُ الْأَسْوَدِ مِنْ غَيْرِ أَنْ تُهْلِكَ بِهِ نَفْسَكَ ، وَتَكُونُ
فِيهِ سَلَامَتُكَ . قَالَ الْغُرَابُ : وَمَا ذَاكَ ؟

قَالَ ابْنُ آوَى : تَتَطَلَّقُ فَتَبْصُرُ فِي طَيْرَانِكَ : لَعَلَّكَ أَنْ تَظْفَرَ
بِشَيْءٍ مِنْ حَلِيِّ النِّسَاءِ فَتَخْطِفَهُ ، وَلَا تَزَالُ طَائِرًا وَاقِعًا ، بِحَيْثُ
لَا تَقْوَتُ الْعُيُونُ ، حَتَّى تَأْتِيَ جُحْرَ الْأَسْوَدِ فَتَرْمِيَ بِالْحَلِيِّ عِنْدَهُ .
فَإِذَا رَأَى النَّاسُ ذَلِكَ أَخَذُوا حَلِيَهُمْ وَأَرَاخُوكَ مِنَ الْأَسْوَدِ .
فَانْطَلَقَ الْغُرَابُ مُحَلِّقًا فِي السَّمَاءِ ، فَوَجَدَ امْرَأَةً مِنْ بَنَاتِ الْعُظَمَاءِ
فَوْقَ سَطْحٍ تَغْتَسِلُ ، وَقَدْ وَضَعَتْ ثِيَابَهَا وَحَلِيَهَا نَاحِيَةً ، فَاَنْقَضَ
وَاخْتَطَفَ مِنْ حَلِيهَا عِقْدًا ، وَطَارَ بِهِ ، فَتَبِعَهُ النَّاسُ ، وَلَمْ يَزَلْ
طَائِرًا وَاقِعًا ، بِحَيْثُ يَرَاهُ كُلُّ أَحَدٍ ، حَتَّى انْتَهَى إِلَى جُحْرِ
الْأَسْوَدِ ، فَالْتَقَى الْعِقْدَ عَلَيْهِ ، وَالنَّاسُ يَنْظُرُونَ إِلَيْهِ . فَلَمَّا أَتَوْهُ
أَخَذُوا الْعِقْدَ وَقَتَلُوا الْأَسْوَدَ . وَإِنَّمَا ضَرَبْتُ لَكَ هَذَا الْمَثَلَ
لِتَعْلَمَ أَنَّ الْحِيلَةَ تُجْرِي مَا لَا تُجْرِي الْقُوَّةُ . قَالَ كَلِيلَةُ : إِنْ النَّوَرُ

لَوْ لَمْ يَجْتَمِعْ مَعَ شِدَّتِهِ رَأْيُهُ لَكَانَ كَمَا تَقُولُ . وَلَكِنَّ لَهُ مَعَ
شِدَّتِهِ وَقُوَّتِهِ حُسْنَ الرَّأْيِ وَالْعَقْلِ . فَمَاذَا تَسْتَطِيعُ لَهُ ؟ قَالَ
دِمْنَةُ : إِنَّ الثَّورَ لَكَأَمْ ذَكَرْتَ فِي قُوَّتِهِ وَرَأْيِهِ ، وَلَكِنَّهُ مُقِرٌّ لِي
بِالْفَضْلِ ، وَأَنَا خَلِيقٌ أَنْ أَصْرَعَهُ كَمَا صَرَعَتِ الْأَرْنبُ الْأَسَدَ .
قَالَ كَلِيلَةُ : وَكَيْفَ كَانَ ذَلِكَ ؟

قَالَ دِمْنَةُ : زَعَمُوا أَنَّ أَسَدًا كَانَ فِي أَرْضٍ كَثِيرَةِ الْمِيَاهِ
وَالْعُشْبِ ، وَكَانَ فِي تِلْكَ الْأَرْضِ مِنَ الْوُحُوشِ فِي سَعَةِ الْمِيَاهِ
وَالْمَرْعَى شَيْءٌ كَثِيرٌ ، إِلَّا أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ يَنْفَعُهَا ذَلِكَ لِحَوْفِهَا مِنَ
الْأَسَدِ ، فَاجْتَمَعَتْ وَأَتَتْ إِلَى الْأَسَدِ ، فَقَالَتْ لَهُ : إِنَّكَ
لَتَصِيبُ مِنَّا الدَّابَّةَ بَعْدَ الْجَهْدِ وَالتَّعَبِ ، وَقَدْ رَأَيْنَا لَكَ رَأْيًا فِيهِ
صَلَاحٌ لَكَ وَأَمْنٌ لَنَا . فَإِنْ أَنْتَ أَمْنْتِنَا وَلَمْ تُخَفِّنَا ، فَلَكَ عَلَيْنَا
فِي كُلِّ يَوْمٍ دَابَّةٌ نُرْسِلُ بِهَا إِلَيْكَ فِي وَقْتِ غَدَائِكَ : فَرَضَى الْأَسَدُ
بِذَلِكَ ، وَصَالَحَ الْوُحُوشَ عَلَيْهِ ، وَوَفَّيْنَ لَهُ بِهِ . ثُمَّ إِنَّ أَرْنبًا
أَصَابَتْهَا الْقُرْعَةُ ، وَصَارَتْ غَدَاءَ الْأَسَدِ ، فَقَالَتْ لِلْوُحُوشِ :
إِنْ أَنْتُنَّ رَفَقْتُنَّ بِي فِيمَا لَا يَضُرُّكُنَّ ، رَجَوْتُ أَنْ أُرِيحَكُنَّ مِنْ

الْأَسَدُ . فَقَالَتِ الْوُحُوشُ : وَمَا الَّذِي تُكَلِّفِينَا مِنَ الْأُمُورِ ؟
 قَالَتْ : تَأْمُرُنَ الَّذِي يَنْطَلِقُ بِي إِلَى الْأَسَدِ أَنْ يُمَهِّلَنِي رَيْثًا
 أَبْطِي عَلَيْهِ بَعْضَ الْإِبْطَاءِ . فَقُلْنَ لَهَا ذَلِكَ لَكَ . فَاَنْطَلَقَتْ
 الْأَرْبُ مُتَبَايِئَةً ، حَتَّى جَاوَزَتِ الْوَقْتَ الَّذِي كَانَ يَتَغَدَّى فِيهِ
 الْأَسَدُ . ثُمَّ تَقَدَّمَتْ إِلَيْهِ وَحَدَّاهَا رُويْدًا ، وَقَدْ جَاعَ ، فَعْظَبَ
 وَقَامَ مِنْ مَكَانِهِ نَحْوَهَا ، فَقَالَ لَهَا : مِنْ أَيْنَ أَقْبَلْتَ ؟ قَالَتْ :
 أَنَا رَسُولُ الْوُحُوشِ إِلَيْكَ : بَعَثَنِي وَمَعِيَ أَرْبُ لَكَ ، فَتَبْعَنِي
 أَسَدٌ فِي بَعْضِ تِلْكَ الطَّرِيقِ ، فَأَخَذَهَا مِنِّي ، وَقَالَ : أَنَا أَوَّلِي
 بِهَذِهِ الْأَرْضِ وَمَا فِيهَا مِنَ الْوُحُوشِ . فَقُلْتُ : إِنَّ هَذَا غَدَاءُ الْمَلِكِ
 أَرْسَلَنِي بِهِ الْوُحُوشُ إِلَيْهِ . فَلَا تَغْصِبْنَهُ ، فَسَبَّكَ وَشَتَمَكَ .
 فَأَقْبَلْتُ مُسْرِعَةً لِأَخْبِرَكَ . فَقَالَ الْأَسَدُ : انْطَلِقِي مَعِيَ فَأَرِينِي
 مَوْضِعَ هَذَا الْأَسَدِ . فَاَنْطَلَقَتْ الْأَرْبُ إِلَى جُبٍ فِيهِ مَاءٌ غَامِرٌ
 صَافٍ ، فَاطَّلَعَتْ فِيهِ ، وَقَالَتْ : هَذَا الْمَكَانُ . فَاطَّاعَ الْأَسَدُ ،
 فَرَأَى ظِلَّهُ وَظِلَّ الْأَرْبِ فِي الْمَاءِ ، فَلَمْ يَشْكْ فِي قَوْلِهَا ، وَوَبَّ
 إِلَيْهِ لِيُقَاتِلَهُ ، فَغَرِقَ فِي الْجُبِّ . فَاَنْقَلَبَتِ الْأَرْبُ إِلَى الْوُحُوشِ

فَاعْلَمْتَهُنَّ صَنِيعَهَا بِالْأَسَدِ . قَالَ كَلِيلَةُ : إِنْ قَدَّرْتَ عَلَى هَلَاكِ
 الثَّورِ بَشْيَءٍ لَيْسَ فِيهِ مَضَرَّةٌ لِلْأَسَدِ فَشَانِكَ : فَإِنَّ الثَّورَ قَدْ أَضْرَبَ
 وَبِكَ وَبَغَيْرِنَا مِنْ الْجُنْدِ ، وَإِنْ أَنْتَ لَمْ تَقْدِرْ عَلَى ذَلِكَ إِلَّا بِهَلَاكِ
 الْأَسَدِ ، فَلَا تُقَدِّمُ عَلَيْهِ ، فَإِنَّهُ غَدَرُ مِنِّي وَمِنْكَ . ثُمَّ إِنَّ دِمْنَةَ
 تَرَكَ الدُّخُولَ عَلَى الْأَسَدِ أَيَّامًا كَثِيرَةً ، ثُمَّ أَتَاهُ عَلَى خَلْوَةٍ مِنْهُ ،
 فَقَالَ لَهُ الْأَسَدُ : مَا حَبَسَكَ عَنِّي ؟ مُنْذُ زَمَانٍ لَمْ أَرَكَ . أَلَا لِحَيْرٍ
 كَانَ انْقِطَاعُكَ ؟ قَالَ دِمْنَةُ : فَلْيَكُنْ خَيْرًا أَيُّهَا الْمَلِكُ . قَالَ الْأَسَدُ :
 وَهَلْ حَدَّثَ أَمْرٌ ؟ قَالَ دِمْنَةُ : حَدَّثَ مَا لَمْ يَكُنِ الْمَلِكُ يُرِيدُهُ
 وَلَا أَحَدٌ مِنْ جُنْدِهِ . قَالَ : وَمَا ذَاكَ ؟ قَالَ : كَلَامٌ فَطِيعٌ .
 قَالَ : أَخْبِرْنِي بِهِ . قَالَ دِمْنَةُ إِنَّهُ كَلَامٌ يَكْرَهُهُ سَامِعُهُ ، وَلَا
 يَشْجَعُ عَلَيْهِ قَائِلُهُ . وَإِنَّكَ أَيُّهَا الْمَلِكُ لَذُو فَضِيلَةٍ ، وَرَأْيُكَ يَدُلُّكَ
 عَلَى أَنْ يَوْجِعَنِي أَنْ أَقُولَ مَا تَكْرَهُ ، وَاثِقْ بِكَ أَنْ تَعْرِفَ نَصِيحِي
 وَإِثَارِي إِيَّاكَ عَلَى نَفْسِي . وَإِنَّهُ لَيَعْرِضُ لِي أَنَّكَ غَيْرُ مُصَدِّقٍ
 فِيمَا أَخْبَرْتُكَ بِهِ ، وَلَكِنِّي إِذَا تَذَكَّرْتُ وَتَفَكَّرْتُ أَنَّ نَفُوسَنَا ، مَعَاشِرَ
 الْوُحُوشِ ، مُتَعَلِّقَةٌ بِكَ لَمْ أَجِدْ بُدًّا مِنْ آدَاءِ الْحَقِّ الَّذِي يُلْزِمُنِي

وَإِنْ أَنْتَ لَمْ تَسْأَلْنِي وَخِفْتُ أَلَّا تَقْبَلَ مِنِّي فَإِنَّهُ يُقَالُ : مَنْ كَتَمَ
السُّلْطَانَ نَصِيحَتَهُ وَالْإِخْوَانَ رَأْيَهُ فَقَدْ خَانَ نَفْسَهُ . قَالَ الْأَسَدُ :
فَمَا ذَاكَ ؟

قَالَ دِمْنَةُ : حَدَّثَنِي الْأَمِينُ الصَّدُوقُ عِنْدِي أَنَّ شَتْرِبَةَ خَلَا
بِرْعَوْسَ جُنْدِكَ ، وَقَالَ : قَدْ خَبَرْتُ الْأَسَدَ وَبَلَوْتُ رَأْيَهُ وَمَكِيدَتَهُ
وَقُوَّتَهُ : فَاسْتَبَانَ لِي أَنَّ ذَلِكَ يَثُولُ مِنْهُ إِلَى ضَعْفٍ وَعَجْزٍ ،
وَسَيَكُونُ لِي وَلَهُ شَأْنٌ مِنَ الشُّيُونِ . فَلَمَّا بَلَغَنِي ذَلِكَ عَلِمْتُ
أَنَّ شَتْرِبَةَ خَوَّانٌ غَدَّارٌ ، وَأَنَّكَ أَكْرَمْتَهُ الْكَرَامَةَ كُلَّهَا ، وَجَعَلْتَهُ
نَظِيرَ نَفْسِكَ ، وَهُوَ يَظُنُّ أَنَّهُ مِثْلُكَ . وَأَنَّكَ مَتَى زِلْتَ عَنْ مَكَانِكَ
صَارَ لَهُ مِثْلُكَ ، وَلَا يَدْعُ جُهْدًا إِلَّا بَلَغَهُ فِيكَ . وَقَدْ كَانَ
يُقَالُ : إِذَا عَرَفَ الْمَلِكُ مِنَ الرَّجُلِ أَنَّهُ قَدْ سَاوَاهُ فِي الْمَنْزِلَةِ
وَالْحَالِ ، فَلْيَصْرَعْهُ ، فَإِنْ لَمْ يَفْعَلْ بِهِ ذَلِكَ ، كَانَ هُوَ الْمَصْرُوعَ .
وَشَتْرِبَةُ أَعْلَمُ بِالْأُمُورِ وَأَبْلَغُ فِيهَا ، وَالْعَاقِلُ هُوَ الَّذِي يَحْتَالُ لِلْأَمْرِ
قَبْلَ تَمَامِهِ وَوُقُوعِهِ : فَإِنَّكَ لَا تَأْمَنُ أَنْ يَكُونَ وَلَا تَسْتَدْرِكُهُ .
فَإِنَّهُ يُقَالُ : الرَّجَالُ ثَلَاثَةٌ : حَازِمٌ وَأَحْزَمٌ مِنْهُ وَعَاجِزٌ ، فَأَحَدُ

الْحَازِمِينَ مَنْ إِذَا نَزَلَ بِهِ الْأَمْرُ لَمْ يَدْهَشْ لَهُ ، وَلَمْ يَذْهَبْ قَلْبُهُ
 شَعَاعًا ، وَلَمْ تَعْيَ بِهِ حِيلَتُهُ وَمَكِيدَتُهُ الَّتِي يَرْجُو بِهَا الْخُرْجَ مِنْهُ ؛
 وَأَحْزَمُ مِنْ هَذَا الْمُتَقَدِّمِ ذُو الْعُدَّةِ الَّذِي يَعْرِفُ الْإِبْتِلَاءَ قَبْلَ
 وَقُوعِهِ ؛ فَيُعْظِمُهُ إِعْظَامًا ، وَيَحْتَالُ لَهُ حَتَّى كَأَنَّهُ قَدْ لَزِمَهُ :
 فَيَحْسِمُ الدَّاءَ قَبْلَ أَنْ يُبْتَلَى بِهِ ؛ وَيَدْفَعُ الْأَمْرَ قَبْلَ وَقُوعِهِ .
 وَأَمَّا الْعَاجِزُ فَهُوَ فِي تَرَدُّدٍ وَتَمَنٍّ وَتَوَانٍ حَتَّى يَهْلِكَ . وَمِنْ أَمْثَالِ
 ذَلِكَ مَثَلُ السَّمَكَاتِ الثَّلَاثِ . قَالَ الْأَسَدُ : وَكَيْفَ كَانَ ذَلِكَ ؟
 قَالَ دِمْنَةُ : زَعَمُوا أَنَّ غَدِيرًا كَانَ فِيهِ ثَلَاثُ سَمَكَاتٍ : كَيْسَةُ
 وَأَكْبِسُ مِنْهَا وَعَاجِزَةٌ ؛ وَكَانَ ذَلِكَ الْغَدِيرُ بَنَجْوَةً مِنَ الْأَرْضِ
 لَا يَكَادُ يَقْرِبُهُ أَحَدٌ ؛ وَيَقْرِبُهُ نَهْرٌ جَارٍ . فَاتَّفَقَ أَنَّهُ اجْتَاَزَ بِذَلِكَ
 النَّهْرِ صَيَّادَانِ ؛ فَأَبْصَرَ الْغَدِيرَ ، فَتَوَاعَدَا أَنْ يَرْجِعَا إِلَيْهِ بِشَبَا كِلَهُمَا
 فَيَصِيدَا مَا فِيهِ مِنَ السَّمَكِ . فَسَمِعَ السَّمَكَاتُ قَوْلَهُمَا : فَأَمَّا
 أَكْبِسُ هُنَّ لَمَّا سَمِعَتْ قَوْلَهُمَا ، وَارْتَابَتْ بِهِمَا ، وَتَخَوَّفَتْ مِنْهُمَا ؛
 فَلَمْ تَعْرِجْ عَلَى شَيْءٍ حَتَّى نَخَرَجَتْ مِنَ الْمَكَانِ الَّذِي يَدْخُلُ فِيهِ

الماء من النهر إلى الغدير . وأما الكيسة فإنها مكثت مكانها حتى جاء الصيادان ؛ فلما رأتهما ، وعرفت ما يريدان ، ذهبت لتخرج من حيث يدخل الماء ؛ فإذا بهما قد سدا ذلك المكان فحيئذ قالت : فرطت ، وهذه عاقبة التفريط ؛ فكيف الحيلة على هذه الحال ؟ ولعلها تنجع حيلة العجلة والإرهاق ^(١) ، غير أن العاقل لا يقنط من منافع الرأي ، ولا يئس على حال ، ولا يدع الرأي والجهد . ثم إنها تماوتت فطفت على وجه الماء منقلبة على ظهرها تارة ، وتارة على بطنها ؛ فأخذها الصيادان فوضعاها على الأرض بين النهر والغدير ؛ فوثبت إلى النهر فنجت . وأما العاجزة فلم تزل في إقبال وإدبار حتى صيدت .

قال الأسد : قد فهمت ذلك ؛ ولا أظن الثور يغشني ويرجو لي الغوائل . وكيف بفعل ذلك ولم ير مني سوءاً قط ؟ ولم أدع خيراً إلا فعلته معه ؟ ولا أضمنه إلا بلغته إياها ؟ . قال دمنة : إن اللئيم لا يزال نافعا ناصحاً حتى يرفع إلى المنزلة التي ليس لها

بِأَهْلٍ ، فَإِذَا بَلَغَهَا التَّمَسُّ مَا فَوْقَهَا ، وَلَا سِيَّأَ أَهْلَ الْحَيَاةِ
وَالْفُجُورِ : فَإِنَّ اللَّئِيمَ الْفَاجِرَ لَا يَخْدُمُ السُّلْطَانَ وَلَا يَنْصَحُ لَهُ إِلَّا
مِنْ فَرْقٍ . فَإِذَا اسْتَعْنَى وَذَهَبَتِ الْهَيْبَةُ عَادَ إِلَى جَوْهَرِهِ ، كَذَبَ
الْكَلْبُ الَّذِي يُرَبِّطُ لِيَسْتَقِيمَ فَلَا يَزَالُ مُسْتَوِيًّا مَا دَامَ مُرَبُوطًا ،
فَإِذَا حُلَّ انْحَنَى وَاعْوَجَ كَمَا كَانَ . وَاعْلَمْ أَيُّهَا الْمَلِكُ أَنَّهُ مَنْ لَمْ يَقْبَلْ
مِنْ نَصَحَاتِهِ مَا يَثْقُلُ عَلَيْهِ مِمَّا يَنْصَحُونَ لَهُ بِهِ ، لَمْ يَحْمَدِ رَأْيَهُ ،
كَالْمَرِيضِ الَّذِي يَدْعُ مَا يَبْعَثُ لَهُ الطَّيِّبُ ، وَيَعْمَدُ إِلَى
مَا يَسْتَهْيه . وَحَقٌّ عَلَى مُوَازِرِ السُّلْطَانِ أَنْ يُبَالِغَ فِي التَّخَضُّعِ
لَهُ عَلَى مَا يَزِيدُ سُلْطَانَهُ قُوَّةً وَيَزِينُهُ ، وَالْكَفَّ عَمَّا يَضُرُّهُ وَيَسْهِنُهُ ،
وَحَيْرُ الْإِخْوَانِ وَالْأَعْوَانِ أَقْلُهُمْ مَدَاهِنَةً فِي النَّصِيحَةِ ، وَحَيْرُ
الْأَعْمَالِ أَحْلَاهَا عَاقِبَةٌ ، وَحَيْرُ النِّسَاءِ الْمُوَافَقَةُ لِبُعْلِهَا ، وَحَيْرُ
النِّسَاءِ مَا كَانَ عَلَى أَفْوَاهِ الْأَخْيَارِ ، وَأَشْرَفُ الْمُلُوكِ مَنْ لَمْ يُخَالِطْهُ
بَطَرٌ ، وَحَيْرُ الْأَخْلَاقِ اعْوُنَهَا عَلَى الْوَرَعِ . وَقَدْ قِيلَ : لَوْ أَنَّ
أَمْرًا تَوَسَّدَ النَّارَ وَافْتَرَشَ الْحَيَاتِ ، كَانَ أَحَقَّ أَلَا يَهْنُئَهُ النَّوْمُ .

وَالرَّجُلُ إِذَا أَحَسَّ مِنْ صَاحِبِهِ بَعْدَاوَةً يُرِيدُهُ بِهَا ، لَا يَظْمَنُ
إِلَيْهِ ، وَأَعْجَزُ الْمُلُوكِ أَخْذُهُمْ بِالْهُوْنَى ، وَأَقْلَهُمْ نَظْرًا فِي مُسْتَقْبَلِ
الْأُمُورِ ، وَأَشْبَهُهُمْ بِالْفِيلِ الْهَائِجِ الَّذِي لَا يَلْتَفِتُ إِلَى شَيْءٍ :
فَإِنْ حَزَبَهُ أَمْرٌ تَهَاوَنَ بِهِ ، وَإِنْ أَضَاعَ الْأُمُورَ حَمَلَ ذَلِكَ عَلَى
قُرْنَانِهِ . قَالَ لَهُ الْأَسَدُ : لَقَدْ أَغْلَظْتَ فِي الْقَوْلِ ، وَقَوْلُ النَّاصِحِ
مَقْبُولٌ مَحْمُولٌ . وَإِنْ كَانَ شَتْرَبَةً مُعَادِيًّا لِي ، كَمَا تَقُولُ ، فَإِنَّهُ
لَا يَسْتَطِيعُ لِي ضَرًّا ، وَكَيْفَ يَقْدِرُ عَلَى ذَلِكَ وَهُوَ آكِلُ عُشْبٍ
وَأَنَا آكِلُ لَحْمٍ ؟ وَإِنَّمَا هُوَ لِي طَعَامٌ ، وَلَيْسَ عَلَيْهِ مِنْهُ مَخَافَةٌ .
ثُمَّ لَيْسَ لِي الْغَدْرِ بِهِ سَبِيلٌ بَعْدَ الْأَمَانِ الَّذِي جَعَلْتَهُ لَهُ ، وَبَعْدَ
إِكْرَامِي لَهُ ، وَشَنَائِي عَلَيْهِ . وَإِنْ عَيَّرْتُ مَا كَانَ مِنِّي وَبَدَّلْتُهُ ،
سَفَهْتُ رَأْيِي وَجَهَلْتُ نَفْسِي وَغَدَرْتُ بِذِمَّتِي . قَالَ دِمْنَةُ :
لَا يَغُرُّكَ قَوْلُكَ : هُوَ لِي طَعَامٌ وَلَيْسَ عَلَيْهِ مِنْهُ مَخَافَةٌ : فَإِنَّ شَتْرَبَةً
إِنْ لَمْ يَسْتَطِعْكَ بِنَفْسِهِ اخْتَالَ لَكَ مِنْ قِبَلِ غَيْرِهِ . وَيُقَالُ :
إِنْ اسْتَضَافَكَ ضَيْفٌ سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ ، وَأَنْتَ لَا تَعْرِفُ أَخْلَاقَهُ
فَلَا تَأْمَنُهُ عَلَى نَفْسِكَ ، وَلَا تَأْمَنُ أَنْ يَصِلَكَ مِنْهُ أَوْ بِسَبَبِهِ
مَا أَصَابَ الْقَمَلَةَ مِنَ الْبُرْغُوثِ . قَالَ الْأَسَدُ : وَكَيْفَ كَانَ ذَلِكَ ؟

قَالَ دِمْنَةُ: زَعُمُوا أَنَّ قَمَلَةً لَزِمَتْ فِرَاشَ رَجُلٍ مِنَ الْأَغْنِيَاءِ
 دَهْرًا فَكَانَتْ تُصِيبُ مِنْ دَمِهِ وَهُوَ نَائِمٌ لَا يَشْعُرُ، وَتَدْبُ
 دَبِيبًا رَفِيقًا، فَكَثُرَتْ كَذَلِكَ حِينًا حَتَّى اسْتَضَافَهَا لَيْلَةٌ مِنَ اللَّيَالِي
 بُرْغُوثٌ، فَقَالَتْ لَهُ: بِنْتُ اللَّيْلَةِ عِنْدَنَا فِي دَمٍ طَيِّبٍ وَفِرَاشٍ لَيْنٍ،
 فَأَقَامَ الْبُرْغُوثُ عِنْدَهَا حَتَّى إِذَا أَوَى الرَّجُلُ إِلَى فِرَاشِهِ وَثَبَ عَلَيْهِ
 الْبُرْغُوثُ فَلَدَغَهُ لَدَغَةً أَيْقَظَتْهُ، وَأَطَارَتِ النَّوْمَ عَنْهُ، فَقَامَ الرَّجُلُ
 وَأَمَرَ أَنْ يُفْتَشَ فِرَاشُهُ، فَنَظَرَ فَلَمْ يَرَ إِلَّا الْقَمَلَةَ، فَأَخَذَتْ
 فُقِصَعَتِ^(١) وَفَرَّ الْبُرْغُوثُ. وَإِنَّمَا ضَرَبْتُ لَكَ هَذَا الْمَثَلَ لِتَعْلَمَ
 أَنَّ صَاحِبَ الشَّرِّ لَا يَسْلُمُ مِنْ شَرِّهِ أَحَدٌ، وَإِنْ هُوَ ضَعُفَ عَنْ
 ذَلِكَ جَاءَ الشَّرُّ بِسَبَبِهِ. وَإِنْ كُنْتَ لَا تَخَافُ مِنْ شَتْرَبَةٍ، نَخَفَ
 غَيْرُهُ مِنْ جُنْدِكَ الَّذِينَ قَدْ حَمَلَهُمْ عَلَيْكَ وَعَلَى عَدَاوَتِكَ. فَوَقَعَ
 فِي نَفْسِ الْأَسَدِ كَلَامُ دِمْنَةَ. فَقَالَ: فَمَا الَّذِي تَرَى إِذَا؟
 وَبِمَاذَا تُشِيرُ؟ قَالَ دِمْنَةُ: إِنَّ الضُّرْسَ لَا يَزَالُ مُتَأَكِّلًا، وَلَا
 يَزَالُ صَاحِبُهُ مِنْهُ فِي أَلَمٍ وَأَذَى حَتَّى يُفَارِقَهُ. وَالطَّعَامُ الَّذِي

قَدْ عَفَنَ فِي الْبَطْنِ ، الرَّاحَةُ فِي قَذْفِهِ . وَالْعَبْوُ الْمَخُوفُ ، دَوَاؤُهُ
 قَتْلُهُ . قَالَ الْأَسَدُ : لَقَدْ تَرَكْتَنِي ^{بِغِيَاةٍ} أَكْرَهُ مَجَاوِرَةً شَتْرَبَةً إِيَّايَ ؛
 وَأَنَا مُرْسِلٌ إِلَيْهِ ، وَذَاكَ لَهُ مَا وَقَعَ فِي نَفْسِي مِنْهُ ؛ ثُمَّ أَمَرَهُ
 بِالْحَقِ حَيْثُ أَحَبَّ . فَكَّرَهُ ذِمَّتُهُ ذَلِكَ ، وَعَلِمَ أَنَّ الْأَسَدَ مَتَى
 كَلَّمَ شَتْرَبَةً فِي ذَلِكَ وَسَمِعَ مِنْهُ جَوَابًا عَرَفَ بَاطِلَ مَا أَتَى بِهِ ،
 وَاطَّلَعَ عَلَى غَدْرِهِ وَكَذِبِهِ ؛ وَلَمْ يَخَفْ عَلَيْهِ أَمْرَهُ . فَقَالَ لِلْأَسَدِ :
 أَمَّا إِزْسَالُكَ إِلَى شَتْرَبَةٍ فَلَا أَرَاهُ لَكَ رَأْيًا وَلَا حِزْمًا ؛ فَلْيَنْظُرِ الْمَلِكُ
 فِي ذَلِكَ : فَإِنَّ شَتْرَبَةً مَتَى شَعَرَ بِهَذَا الْأَمْرِ ، خِفْتُ أَنْ يُعَاجِلَ
 الْمَلِكُ بِالْمُكَابَرَةِ . وَهُوَ إِنْ قَاتَلَكَ قَاتَلَكَ مُسْتَعِدًّا ؛ وَإِنْ
 فَارَقَكَ ، فَارَقَكَ فِرَاقًا يَلِيكَ مِنْهُ النَّقْصُ ، وَيَلْزُمُكَ مِنْهُ الْعَارُ .
 مَعَ أَنَّ ذَوِي الرَّأْيِ مِنَ الْمُلُوكِ لَا يُعْلِنُونَ عُقُوبَةَ مَنْ لَمْ يُعْلِنِ
 ذَنْبَهُ ؛ وَلَكِنْ لِكُلِّ ذَنْبٍ عِنْدَهُمْ عُقُوبَةٌ : فَلِذَنْبِ الْعَلَانِيَةِ عُقُوبَةٌ
 الْعَلَانِيَةُ ، وَلِذَنْبِ السِّرِّ عُقُوبَةُ السِّرِّ . قَالَ الْأَسَدُ : إِنَّ الْمَلِكَ
 إِذَا عَاقَبَ أَحَدًا عَنْ ظَنَّةٍ ظَنَّمَا مِنْ غَيْرِ تَيَقُّنٍ بِجُرْمِهِ ، فَنَفْسُهُ

عَاقَبَ وَإِيَّاهَا ظَلَمَ . قَالَ دِمْنَةُ : أَمَّا إِذَا كَانَ هَذَا رَأَى الْمَلِكِ ،
فَلَا يَدْخُلَنَّ عَلَيْكَ شُرْبَةُ إِلَّا وَأَنْتَ مُسْتَعِدٌّ لَهُ ؛ وَإِيَّاكَ أَنْ تُصِيبَكَ
مِنْهُ غِرَّةٌ أَوْ غَفْلَةٌ : فَإِنِّي لَا أَحْسِبُ الْمَلِكَ حِينَ يَدْخُلُ عَلَيْهِ إِلَّا
سَيَعْرِفُ أَنَّهُ قَدْ هَمَّ بِعَظِيمَةٍ . وَمِنْ عِلَامَاتِ ذَلِكَ أَنَّكَ تَرَى
لَوْنَهُ مُتَغَيِّرًا ؛ وَتَرَى أَوْصَالَهُ تَرَعْدُ ؛ وَتَرَاهُ مُلْتَفِتًا يَمِينًا وَشِمَالًا ؛
وَتَرَاهُ يَهْزُقُ قَرْنَيْهِ فِعْلَ الَّذِي هَمَّ بِالنِّطَاجِ وَالْقِتَالِ . قَالَ الْأَسَدُ :
سَأَكُونُ مِنْهُ عَلَى حَذَرٍ ؛ وَإِنْ رَأَيْتُ مِنْهُ مَا يَدُلُّ عَلَى مَا ذَكَرْتَ
عَلِمْتُ أَنَّ مَا فِي أَمْرِهِ شَكٌّ .

فَلَمَّا فَرَغَ دِمْنَةُ مِنْ حَمْلِ الْأَسَدِ عَلَى الثَّورِ ، وَعَرَفَ أَنَّهُ قَدْ
وَقَعَ فِي نَفْسِهِ مَا كَانَ يَلْتَمِسُ ، وَأَنَّ الْأَسَدَ سَيَتَحَدَّرُ الثَّورَ ،
وَيَهَيِّئُ لَهُ ، أَرَادَ أَنْ يَأْتِيَ الثَّورَ لِيُغْرِيه بِالْأَسَدِ ؛ وَأَحَبَّ أَنْ يَكُونَ
إِثْيَانُهُ مِنْ قَبْلِ الْأَسَدِ مَخَافَةَ أَنْ يَبْلُغَهُ ذَلِكَ فَيَتَأَذَّى بِهِ . فَقَالَ :
أَيُّهَا الْمَلِكُ إِلَّا آتِيَ شُرْبَةً فَأَنْظُرَ إِلَى حَالِهِ وَأَمْرِهِ ؛ وَأَسْمَعَ
كَلَامَهُ : لَعَلِّي أَطْلِعُ عَلَى سِرِّهِ ، فَأُطْلِعَ الْمَلِكَ عَلَى ذَلِكَ ، وَعَلَى
مَا يَظْهَرُ لِي مِنْهُ ؟ فَأَذِنَ لَهُ الْأَسَدُ فِي ذَلِكَ . فَانْطَلَقَ فَدَخَلَ

عَلَى شَتْرَبَةٍ كَالْكَيْبِ الْحَزِينِ . فَلَمَّا رَأَاهُ الثَّورُ رَحِبَ بِهِ ،
 وَقَالَ : مَا كَانَ سَبَبَ انْقِطَاعِكَ عَنِّي ؟ فَإِنِّي لَمْ أَرَكَ مُنْذُ أَيَّامٍ ،
 وَلَعَلَّكَ فِي سَلَامَةٍ ! قَالَ دِمْنَةُ : وَمَتَى كَانَ مِنْ أَهْلِ السَّلَامَةِ
 مَنْ لَا يَمْلِكُ نَفْسَهُ ، وَأَمْرُهُ بِيَدِ غَيْرِهِ مِمَّنْ لَا يُوثِقُ بِهِ ، وَلَا
 يَنْفُكُ عَلَى خَطَرٍ وَخَوْفٍ . حَتَّى مَا مِنْ سَاعَةٍ تَمُرُّ وَيَأْمَنُ فِيهَا
 عَلَى نَفْسِهِ . قَالَ شَتْرَبَةُ : وَمَا الَّذِي حَدَثَ ؟ قَالَ دِمْنَةُ :
 حَدَثَ مَا قُدِّرَ وَهُوَ كَائِنٌ . وَمَنْ ذَا الَّذِي غَالَبَ الْقَدَرَ ؟ وَمَنْ
 ذَا الَّذِي بَلَغَ مِنَ الدُّنْيَا جَسْمًا مِنَ الْأُمُورِ فَلَمْ يَبْطُرْ ؟ وَمَنْ
 ذَا الَّذِي بَلَغَ مِنْهَا فَلَمْ يَغْتَرَّ ؟ وَمَنْ ذَا الَّذِي تَبَعَ هَوَاهُ فَلَمْ
 يَحْسَرْ ؟ وَمَنْ ذَا الَّذِي طَلَبَ مِنَ اللَّثَامِ فَلَمْ يُحْرَمْ ؟ وَمَنْ ذَا الَّذِي
 خَالَطَ الْأَشْرَارَ فَسَلِمَ ؟ وَمَنْ ذَا الَّذِي صَحِبَ السُّلْطَانَ فَدَامَ لَهُ
 مِنْهُ الْأَمْنُ وَالْإِحْسَانُ ؟ قَالَ شَتْرَبَةُ : إِنِّي أَسْمَعُ مِنْكَ كَلَامًا يَدُلُّ
 عَلَى أَنَّهُ قَدْ رَأَيْتَ مِنَ الْأَسَدِ رَيْبًا ، وَهَالِكًا مِنْهُ أَمْرًا . قَالَ
 دِمْنَةُ : أَجَلٌ ، لَقَدْ رَأَيْتُ مِنْهُ ذَلِكَ ، وَلَكِنَّ هُوَ فِي أَمْرِ نَفْسِي .
 قَالَ شَتْرَبَةُ : فَنَفْسُ مَنْ رَأَيْتَ ؟ قَالَ دِمْنَةُ : قَدْ تَعْلَمُ مَا بَنَيْتُ

وَبَيْنَكَ ، وَتَعْلَمُ حَقَّكَ عَلَيَّ ، وَمَا كُنْتُ جَعَلْتُ لَكَ مِنَ الْعَهْدِ
وَالْمِيثَاقِ أَيَّامٌ أَرْسَلَنِي الْأَسَدُ إِلَيْكَ ، فَلَمْ أَجِدْ بَدَأًا مِنْ حِفْظِكَ
وَإِطْلَاعِكَ عَلَيَّ مَا أَطْلَعْتُ عَلَيْهِ مِمَّا أَخَافُ عَلَيْكَ مِنْهُ . قَالَ
شَرَبَةُ : وَمَا الَّذِي بَلَغَكَ ؟ قَالَ دِمْنَةُ : حَدَّثَنِي الْخَيْرُ الصَّدُوقُ
الَّذِي لَا مَرِيَّةَ فِي قَوْلِهِ أَنَّ الْأَسَدَ قَالَ لِبَعْضِ أَصْحَابِهِ وَجَلَسَانِهِ :
قَدْ أَعْجَبَنِي سِمْنُ الثَّوْرِ ، وَلَيْسَ لِي إِلَى حَيَاتِهِ حَاجَةٌ ، فَأَنَا آكُلُهُ
وَمُطْعِمُ أَصْحَابِي مِنْ لَحْمِهِ . فَلَمَّا بَلَغَنِي هَذَا الْقَوْلُ ، وَعَرَفْتُ
غَدْرَهُ وَنَقْضَ عَهْدِهِ ، أَقْبَلْتُ إِلَيْكَ لِأَقْضِيَ حَقَّكَ ، وَتَحْتَالَ
أَنْتَ لِأَمْرِكَ . فَلَمَّا سَمِعَ شَرَبَةُ كَلَامَ دِمْنَةَ ، وَتَذَكَّرَ مَا كَانَ
دِمْنَةُ جَعَلَ لَهُ مِنَ الْعَهْدِ وَالْمِيثَاقِ ، وَفَكَرَ فِي أَمْرِ الْأَسَدِ ، ظَنَّ
أَنَّ دِمْنَةَ قَدْ صَدَقَهُ وَنَصَحَ لَهُ ، وَرَأَى أَنَّ الْأَمْرَ شَبِيهٌ بِمَا قَالَ
دِمْنَةُ . فَأَهَمَّهُ ذَلِكَ ، وَقَالَ : مَا كَانَ لِلْأَسَدِ أَنْ يَغْدِرَ بِي وَلَمْ
آتِ إِلَيْهِ ذَنْبًا ، وَلَا إِلَى أَحَدٍ مِنْ جُنْدِهِ ، مُنْذُ صَحِبْتُهُ ، وَلَا
أُظُنُّ الْأَسَدَ إِلَّا قَدْ حُمِلَ عَلَيَّ بِالْكَذِبِ وَشَبَّهِ عَلَيْهِ أَمْرِي : فَإِنَّ
الْأَسَدَ قَدْ صَحِبَهُ قَوْمٌ سَوَاءٌ ، وَجَرَّبَ مِنْهُمْ الْكَذِبَ وَأُمُورًا هِيَ

تُصَدِّقُ عِنْدَهُ مَا بَلَغَهُ مِنْ غَيْرِهِمْ : فَإِنَّ صُحْبَةَ الْأَشْرَارِ رُبَّمَا
أُورِثَتْ صَاحِبَهَا سُوءَ ظَنٍّ بِالْأَخْيَارِ؛ وَحَمَلَتْهُ تَجَرِبَتُهُ عَلَى الْخَطَا
كَخَطَا الْبَطَّةِ الَّتِي زَعَمُوا أَنَّهَا رَأَتْ فِي الْمَاءِ ضَوْءَ كَوْكَبٍ ، فَظَنَّتْهُ
سَمَكَةً ، فَحَاوَلَتْ أَنْ تَصِيدَهَا ، فَلَمَّا جَرَبَتْ ذَلِكَ مَرَارًا ،
عَلِمَتْ أَنَّهُ لَيْسَ بِشَيْءٍ يُصَادُ فَتَرَكَتْهُ . ثُمَّ رَأَتْ مِنْ غَدٍ ذَلِكَ
النَّيَّومَ سَمَكَةً ، فَظَنَّتْ أَنَّهَا مِثْلُ الَّذِي رَأَتْهُ بِالْأَمْسِ ، فَتَرَكَتْهَا
وَلَمْ تَطْلُبْ صَيْدَهَا . فَإِنْ كَانَ الْأَسَدُ بَلَغَهُ عَنِّي كَذِبُ فَصَدَقَهُ
عَلَى وَصْفِهِ فِي ، فَمَا جَرَى عَلَى غَيْرِي يَجْرَى عَلَى . وَإِنْ كَانَ
لَمْ يَبْلُغْهُ شَيْءٌ ، وَأَرَادَ السُّوءَ بِي مِنْ غَيْرِ عِلَّةٍ ، فَإِنَّ ذَلِكَ لِمَنْ
أَعْجَبَ الْأُمُورَ . وَقَدْ كَانَ يُقَالُ : إِنْ مِنَ الْعَجَبِ أَنْ يَطْلُبَ
الرَّجُلُ رِضًا صَاحِبِهِ وَلَا يَرْضَى . وَأَعْجَبُ مِنْ ذَلِكَ أَنْ يَلْتَمِسَ
رِضَاهُ فَيَسْخَطَ . فَإِذَا كَانَتِ الْمَوْجِدَةُ عَنْ عِلَّةٍ ^(١) ، كَانَ الرِّضَا
مَوْجُودًا وَالْعَفْوُ مَأْمُولًا . وَإِذَا كَانَتْ عَنْ غَيْرِ عِلَّةٍ ، انْقَطَعَ
الرَّجَاءُ : لِأَنَّ الْعِلَّةَ إِذَا كَانَتِ الْمَوْجِدَةُ فِي وُجُودِهَا ، كَانَ الرِّضَا
مَأْمُولًا فِي صُدُورِهَا .

قَدْ نَظَرْتُ : فَلَا أَعْلَمُ بَيْنِي وَبَيْنَ الْأَسَدِ جُرْمًا ، وَلَا صَغِيرَ
 ذَنْبٍ ، وَلَا كَبِيرَهُ . وَلَعَمْرِي مَا يَسْتَطِيعُ أَحَدٌ أَطَالَ صُحْبَةَ
 صَاحِبٍ أَنْ يَحْتَرِسَ فِي كُلِّ شَيْءٍ مِنْ أَمْرِهِ ، وَلَا أَنْ يَحْفَظَ
 مِنْ أَنْ يَكُونَ مِنْهُ صَغِيرَةٌ أَوْ كَبِيرَةٌ يَكْرَهُهَا صَاحِبُهُ ؛ وَلَكِنَّ الرَّجُلَ
 ذَا الْعَقْلِ وَذَا الْوَفَاءِ إِذَا سَقَطَ عِنْدَهُ صَاحِبُهُ سَقَطَتْ نَظَرُفِيهَا ،
 وَعَرَفَ قَدْرَ مَبْلَغِ خَطْئِهِ عَمْدًا كَانَ أَوْ خَطَأً . ثُمَّ يَنْظُرُ هَلْ
 فِي الصَّفْحِ عَنْهُ أَمْرٌ يَخَافُ ضَرَرَهُ وَشَيْنَهُ ؟ فَلَا يُؤَاخِذُ صَاحِبَهُ
 بِشَيْءٍ يَجِدُ فِيهِ إِلَى الصَّفْحِ عَنْهُ سَبِيلًا . فَإِنْ كَانَ الْأَسَدُ قَدْ
 اعْتَقَدَ عَلَى ذَنْبٍ ، فَلَسْتُ أَعْلَمُهُ ؛ إِلَّا أَنِّي خَالَفْتُهُ فِي بَعْضِ
 رَأْيِهِ نَصِيحَةً لَهُ ؛ فَعَسَاهُ أَنْ يَكُونَ قَدْ أَنْزَلَ أَمْرِي عَلَى الْجَرَائَةِ
 عَلَيْهِ وَالْمُخَالَفَةِ لَهُ ؛ وَلَا أَجِدُ لِي فِي هَذَا الْمُحْضَرِ إِنْمَاءً مَا : لِأَنِّي
 لَمْ أَخْلِفْهُ فِي شَيْءٍ إِلَّا مَا قَدْ نَدَرْتُ مِنَ مُخَالَفَةِ الرَّشْدِ وَالْمَنْفَعَةِ
 وَالدِّينِ ؛ وَلَمْ أَجَاهِرْ بِشَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ عَلَى رُءُوسِ جُنْدِهِ وَعِنْدَ
 أَصْحَابِهِ ؛ وَلَكِنِّي كُنْتُ أَخْلُو بِهِ وَأَكَلِمُهُ سِرًّا كَلَامَ الْهَائِبِ الْمُوقِرِ .
 وَعَلِمْتُ أَنَّهُ مِنَ التَّمَسِّسِ الرَّخِصِ مِنَ الْإِخْوَانِ عِنْدَ الْمَشَاوِرَةِ ،

وَمِنَ الْأَطِبَّاءِ عِنْدَ الْمَرِضِ ، وَمِنَ الْفُقَهَاءِ عِنْدَ الشُّبْهَةِ ، أَخْطَأَ
 مَنَافِعَ الرَّأْيِ ؛ وَازْدَادَ فِيمَا وَقَعَ فِيهِ مِنْ ذَلِكَ تَوَرُّطًا ، وَحَمَلَ
 الْوِزْرَ . وَإِنْ لَمْ يَكُنْ هَذَا ، فَعَسَى أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ مِنْ بَعْضِ
 سَكَرَاتِ السُّلْطَانِ : فَإِنَّ مُصَاحَبَةَ السُّلْطَانِ خَطِرَةٌ ، وَإِنْ
 صُوحِبَ بِالسَّلَامَةِ وَالثِّقَةِ وَالْمُودَّةِ وَحُسْنِ الصُّحْبَةِ . وَإِنْ لَمْ
 يَكُنْ هَذَا ، فَبَعْضُ مَا أُوتِيَتْ مِنَ الْفَضْلِ قَدْ جُعِلَ لِي فِيهِ
 الْهَلَاكُ . وَإِنْ لَمْ يَكُنْ هَذَا وَلَا هَذَا ، فَهُوَ إِذَا مِنْ مَوَاقِعِ
 الْقَضَاءِ وَالْقَدَرِ الَّذِي لَا يُدْفَعُ ؛ وَالْقَدَرُ هُوَ الَّذِي يَسْلُبُ الْأَسَدَ
 قُوَّتَهُ وَشِدَّتَهُ ؛ وَيُدْخِلُهُ الْقَبْرَ ؛ وَهُوَ الَّذِي يَحْمِلُ الرَّجُلَ الضَّعِيفَ
 عَلَى ظَهْرِ الْفِيلِ الْهَائِجِ ؛ وَهُوَ الَّذِي يُسَلِّطُ عَلَى الْحَيَّةِ ذَاتِ الْحِمَّةِ^(٢)
 مَنْ يَنْزِعُ حِمَّتَهَا وَيَلْعَبُ بِهَا ؛ وَهُوَ الَّذِي يَجْعَلُ الْعَاجِزَ حَازِمًا ،
 وَيُثَبِّطُ^(٣) الشَّهْمَ ، وَيُوسِعُ^(٤) عَلَى الْمُقْتِرِ ، وَيُشْجِعُ الْجَبَانَ ، وَيُجْبِنُ
 الشُّجَاعَ عِنْدَ مَا تَعْتَرِيهِ الْمُسْقَادِيرُ مِنَ الْعِلَلِ الَّتِي وَضَعَتْ عَلَيْهَا
 الْأَقْدَارُ .

قَالَ دِمْنَةُ: إِنَّ إِرَادَةَ الْأَسَدِ بِكَ لَيْسَتْ مِنْ تَنْجِيلِ الْأَشْرَارِ وَلَا
 سَكْرَةِ السُّلْطَانِ وَلَا غَيْرِ ذَلِكَ ، وَلَكِنَّهَا الْغَدْرُ وَالْفُجُورُ مِنْهُ :
 فَإِنَّهُ فَاجِرٌ خَوَّانٌ غَدَّارٌ : لِيَطْعَمَهُ حَلَاوَةٌ وَآخِرُهُ سَمٌ مُمِيتٌ . قَالَ
 شَرَبَةُ : فَأَرَانِي قَدْ اسْتَلَذْتُ الْحَلَاوَةَ إِذْ ذُقْتُهَا : وَقَدْ انْتَهَيْتُ
 إِلَى آخِرِهَا الَّذِي هُوَ الْمَوْتُ ، وَلَوْ لَا الْحَيْنُ مَا كَانَ مُقَامِي عِنْدَ
 الْأَسَدِ ، وَهُوَ آكِلُ لَحْمٍ وَأَنَا آكِلُ عُشْبٍ فَأَنَا فِي هَذِهِ الْوَرِطَةِ
 كَالنَّحْلَةِ الَّتِي تَجْلِسُ عَلَى نَوْرِ النَّيْلُوفِرِ إِذْ تَسْتَلِزُّ رِيحَهُ وَطَعْمَهُ ،
 فَتَحْبِسُهَا تِلْكَ اللَّذَّةُ ، فَإِذَا جَاءَ اللَّيْلُ يَنْضُمُ عَلَيْهَا ، فَتَرْتَبِكُ فِيهِ
 وَتَمُوتُ . وَمَنْ لَمْ يَرْضَ مِنَ الدُّنْيَا بِالْكَفَافِ الَّذِي يُغْنِيهِ
 وَطَمَحَتْ عَيْنُهُ إِلَى مَا سِوَى ذَلِكَ ، وَلَمْ يَخَوْفْ عَاقِبَتَهَا ، كَانَ
 كَالذَّبَابِ الَّذِي لَا يَرْضَى بِالشَّجَرَةِ وَالرَّيَاحِينِ ، وَلَا يَقْنَعُهُ ذَلِكَ ،
 حَتَّى يَطْلُبَ الْمَاءَ الَّذِي يَسِيلُ مِنْ أُذُنِ الْفِيلِ ، فَيَضْرِبُهُ الْفِيلُ
 بِأَذَانِهِ فَيَهْلِكُهُ . وَمَنْ يَبْذُلُ وُدَّهُ وَنَصِيحَتَهُ لِمَنْ لَا يَشْكُرُهُ ،
 فَهُوَ كَمَنْ يَبْذُرُ فِي السِّبَاخِ . وَمَنْ يُشِرْ عَلَى الْمُعْجَبِ ، فَهُوَ كَمَنْ

يُسَاوِرُ الْمَيِّتَ أَوْ يُسَارُّ الْأَصَمَّ . قَالَ دِمْنَةُ : دَعَّ عَنْكَ هَذَا
الْكَلَامَ وَاحْتَلِ لِنَفْسِكَ . قَالَ شَتْرَبَةُ : بِأَيِّ شَيْءٍ أُحْتَالُ
لِنَفْسِي ، إِذَا أَرَادَ الْأَسَدُ أَكْلِي ، مَعَ مَا عَرَفْتَنِي مِنْ رَأْيِ الْأَسَدِ
وَسُوءِ أَخْلَاقِهِ ؟ وَاعْلَمْ أَنَّهُ لَوْ لَمْ يَرُدِّ بِي إِلَّا خَيْرًا ، ثُمَّ أَرَادَ أَصْحَابَهُ
بِمَكْرِهِمْ وَجُفُورِهِمْ هَلَاقِي لَقَدَرُوا عَلَى ذَلِكَ فَإِنَّهُ إِذَا اجْتَمَعَ
الْمَكْرَةُ الظَّلْمَةُ عَلَى الْبَرِيِّ الصَّحِيحِ ، كَانُوا خُلُقَاءَ أَنْ يُهْلِكُوهُ ،
وَإِنْ كَانُوا ضَعَفَاءَ وَهُوَ قَوِيٌّ ، كَمَا أَهْلَكَ الذِّبُّ وَالْغُرَابُ وَابْنُ
أَوَى الْجَمَلِ ، حِينَ اجْتَمَعُوا عَلَيْهِ بِالْمَكْرِ وَالْخَدِيعَةِ وَالْخِيَانَةِ .
قَالَ دِمْنَةُ : وَكَيْفَ كَانَ ذَلِكَ ؟

قَالَ شَتْرَبَةُ : زَعَمُوا أَنَّ أَسَدًا كَانَ فِي أَجْمَةٍ مُجَاوِرَةٍ لِمَطَرِيحٍ
مِنْ طَرِيقِ النَّاسِ ، وَكَانَ لَهُ أَصْحَابٌ ثَلَاثَةٌ : ذِئْبٌ وَغُرَابٌ
وَابْنُ أَوَى ، وَأَنْ رَعَاةً مَرُّوا بِذَلِكَ الطَّرِيقِ ، وَمَعَهُمْ جِمَالٌ ،
فَتَخَلَّفَ مِنْهَا بَقْلٌ ، فَدَخَلَ تِلْكَ الْأَجْمَةَ حَتَّى انْتَهَى إِلَى الْأَسَدِ ،
فَقَالَ لَهُ الْأَسَدُ : مِنْ أَيْنَ أَقْبَلْتَ ؟ قَالَ : مِنْ مَوْضِعٍ كَذَّابٍ .
قَالَ : فَمَا حَاجَتُكَ ؟ قَالَ : مَا يَأْمُرُنِي بِهِ الْمَلِكُ . قَالَ : تُقِيمُ

عِنْدَنَا فِي السَّعَةِ وَالْأَمْنِ وَالْخُصْبِ . فَأَقَامَ الْأَسَدُ وَالْجَمَلَ
مَعَهُ زَمَنًا طَوِيلًا . ثُمَّ إِنَّ الْأَسَدَ مَضَى فِي بَعْضِ الْأَيَّامِ لِطَلَبِ
الصَّيْدِ ، فَلَقِيَ فِيلًا عَظِيمًا ، فَقَاتَلَهُ قِتَالًا شَدِيدًا ؛ وَأَفْلَتَ
مِنْهُ مُثَقَلًا مُثَخَّنًا بِالْجُرَاحِ ، يَسِيلُ مِنْهُ الدَّمُ ، وَقَدْ خَدَشَهُ الْفِيلُ
بِأَنْيَابِهِ . فَلَمَّا وَصَلَ إِلَى مَكَانِهِ ، وَقَعَ لَا يَسْتَطِيعُ حَرَاكًا ،
وَلَا يَقْدِرُ عَلَى طَلَبِ الصَّيْدِ ؛ فَلَبِثَ الذِّئْبُ وَالْغُرَابُ وَأَبْنُ آوَى
أَيَّامًا لَا يَجِدُونَ طَعَامًا : لِأَنَّهُمْ كَانُوا يَأْكُلُونَ مِنْ فَضَلَاتِ
الْأَسَدِ وَطَعَامِهِ ؛ فَأَصَابَهُمْ جُوعٌ شَدِيدٌ وَهَزَالٌ ، وَعَرَفَ
الْأَسَدُ ذَلِكَ مِنْهُمْ ؛ فَقَالَ : لَقَدْ جُهِدْتُمْ^(١) وَاحْتَجَمْتُمْ إِلَى مَا تَأْكُلُونَ .
فَقَالُوا : لَا تَهْمُنَا أَنْفُسُنَا : لَكِنَّا نَرَى الْمَلِكَ عَلَى مَا نَرَاهُ .
فَلَيْتَنَا نَجِدُ مَا يَأْكُلُهُ وَيُضْلِحُهُ . قَالَ الْأَسَدُ : مَا أَشْكُ
فِي نَصِيحَتِكُمْ ، وَلَكِنْ اانْتَشِرُوا لَعَلَّكُمْ تُصِيبُونَ صَيْدًا تَأْتُونَنِي بِهِ ؛
فِيُصِيبُنِي وَيُصِيبُكُمْ مِنْهُ رِزْقٌ . فَخَرَجَ الذِّئْبُ وَالْغُرَابُ
وَأَبْنُ آوَى مِنْ عِنْدِ الْأَسَدِ ؛ فَتَنَحَّوْا نَاحِيَةً ، وَتَشَاوَرُوا فِيمَا

بَيْنَهُمْ ، وَقَالُوا : مَا لَنَا وَلِهَذَا الْإِكْلِ الْعُشْبِ الَّذِي لَيْسَ شَأْنُهُ
 مِنْ شَأْنِنَا ، وَلَا رَأْيُهُ مِنْ رَأْيِنَا ؟ أَلَا نُزِينُ لِلْأَسَدِ فَيَأْكُلُهُ
 وَيُطْعِمُنَا مِنْ لَحْمِهِ ؟ قَالَ ابْنُ آوَى : هَذَا مِمَّا لَا نَسْتَطِيعُ ذِكْرَهُ
 لِلْأَسَدِ : لِأَنَّهُ قَدْ آمَنَ الْجَمَلُ ، وَجَعَلَ لَهُ مِنْ ذِمَّتِهِ عَهْدًا .
 قَالَ الْغُرَابُ : أَنَا أَكْفِيكُمْ أَمْرَ الْأَسَدِ . ثُمَّ انْطَلَقَ فَدَخَلَ عَلَى
 الْأَسَدِ ، فَقَالَ لَهُ الْأَسَدُ : هَلْ أَصَبْتَ شَيْئًا ؟ قَالَ الْغُرَابُ :
 إِنَّمَا يُصِيبُ مَنْ يَسْعَى وَيُبْصِرُ . وَأَمَّا نَحْنُ فَلَا سَعَى لَنَا وَلَا
 بَصَرَ : لِمَا بَنَا مِنَ الْجُوعِ ، وَلَكِنْ قَدْ وَفَّقْنَا لِرَأْيِ وَاجْتَمَعْنَا
 عَلَيْهِ ، إِنْ وَافَقْنَا الْمَلِكُ فَنَحْنُ لَهُ مُجِيبُونَ . قَالَ الْأَسَدُ : وَمَا
 ذَاكَ ؟ قَالَ الْغُرَابُ : هَذَا الْجَمَلُ آكَلَ الْعُشْبِ الْمُتَمَرِّغُ بَيْنَنَا
 مِنْ غَيْرِ مَنَفْعَةٍ لَنَا مِنْهُ ، وَلَا رَدِّ عَائِدَةٍ ، وَلَا عَمَلٍ يُعْقِبُ
 مَضْلَحَةً . فَلَمَّا سَمِعَ الْأَسَدُ ذَلِكَ غَضِبَ وَقَالَ : مَا أَخْطَأَ
 رَأْيِكَ ، وَمَا أَعْجَزَ مَقَالِكَ ، وَأَبْعَدَكَ مِنَ الْوَفَاءِ وَالرَّحْمَةِ ! وَمَا
 كُنْتَ حَقِيقًا أَنْ تَجْتَرِيَّ عَلَى بَهْذِهِ الْمَقَالَةِ ، وَتَسْتَقْبِلَنِي بِهَذَا
 الْخَطَابِ ، مَعَ مَا عَلِمْتَ مِنْ أَنِّي قَدْ آمَنْتُ الْجَمَلَ ، وَجَعَلْتُ لَهُ

مِنْ ذِمَّتِي . أَوْ لَمْ يَبْلُغْكَ أَنَّهُ لَمْ يَتَصَدَّقْ مُتَصَدِّقٌ بِصَدَقَةٍ هِيَ
 أَعْظَمُ أَجْرًا مِمَّنْ أَمِنَ نَفْسًا خَائِفَةً ، وَحَقَنَ دَمًا مُهْدَرًا ؟ وَقَدْ
 أَمَّنْتُهُ وَلَسْتُ بِغَادِرٍ بِهِ . قَالَ الْغُرَابُ : إِنِّي لَا أَعْرِفُ مَا يَقُولُ
 الْمَلِكُ ؛ وَلَكِنَّ النَّفْسَ الْوَاحِدَةَ يُفْتَدَى بِهَا أَهْلُ الْبَيْتِ ؛ وَأَهْلُ
 الْبَيْتِ تُفْتَدَى بِهِمُ الْقَبِيلَةُ ؛ وَالْقَبِيلَةُ يُفْتَدَى بِهَا أَهْلُ الْمِصْرِ ؛
 وَأَهْلُ الْمِصْرِ فِدَاءُ الْمَلِكِ . وَقَدْ نَزَلْتُ بِالْمَلِكِ الْحَاجَّةُ ؛ وَأَنَا
 أَجْعَلُ لَهُ مِنْ ذِمَّتِهِ مَخْرَجًا ، عَلَى أَلَّا يَتَكَلَّفَ الْمَلِكُ ذَلِكَ ، وَلَا
 يَلِيهِهُ بِنَفْسِهِ ، وَلَا يَأْمُرُهُ أَحَدًا ؛ وَلَكِنَّا نَحْتَالُ بِحِيلَةٍ لَنَا وَلَهُ
 فِيهَا إِصْلَاحٌ وَظَفَرٌ . فَسَكَتَ الْأَسَدُ عَنْ جَوَابِ الْغُرَابِ عَنْ هَذَا
 الْخِطَابِ . فَلَمَّا عَرَفَ الْغُرَابُ إِقْرَارَ الْأَسَدِ أَتَى أَصْحَابَهُ ،
 فَقَالَ لَهُمْ : قَدْ كَلَّمْتُ الْأَسَدَ فِي أَكْلِهِ الْجَمَلِ ؛ عَلَى أَنَّ نَجْتَمِعَ نَحْنُ
 وَالْجَمَلُ عِنْدَ الْأَسَدِ ، فَنَذْكُرُ مَا أَصَابَهُ ، وَنَتَوَجَّعَ لَهُ اهْتِمَامًا مِنَّا
 بِأَمْرِهِ ، وَخِرْصًا عَلَى صَلَاحِهِ ؛ وَيَعْرِضُ كُلُّ وَاحِدٍ مِنَّا نَفْسَهُ
 عَلَيْهِ تَجَمُّلاً لِيَأْكُلَهُ ، فَيَرُدُّ الْإِحْرَانَ عَلَيْهِ ، وَيُسَفِّهَانَ رَأْيَهُ ،
 وَيُبَيِّنَانِ الضَّرَرَ فِي أَكْلِهِ . فَإِذَا فَعَلْنَا ذَلِكَ ، سَلِمْنَا كُلُّنَا وَرَضِيَ

الْأَسَدُ عَنَّا . فَفَعَلُوا ذَلِكَ ، وَتَقَدَّمُوا إِلَى الْأَسَدِ ؛ فَقَالَ الْغُرَابُ :
 قَدْ اخْتَجَتِ أَيُّهَا الْمَلِكُ إِلَى مَا يُقَوِّيكَ ؛ وَنَحْنُ أَحَقُّ أَنْ نَهَبَ
 أَنْفُسَنَا لَكَ : فَإِنَّا بِكَ نَعِيشُ ؛ فَإِذَا هَلَكْتَ فَلَيْسَ لِأَحَدٍ مِنَّا
 بَقَاءٌ بَعْدَكَ ، وَلَا لَنَا فِي الْحَيَاةِ مِنْ خَيْرَةٍ ؛ فَلْيَأْكُلْنِي الْمَلِكُ :
 فَقَدْ طَبْتُ بِذَلِكَ نَفْسًا . فَأَجَابَهُ الذِّئْبُ وَأَبْنُ آوَى أَنْ أَسْكْتَ ؛
 فَلَا خَيْرَ لِلْمَلِكِ فِي أَكْلِكَ ؛ وَلَيْسَ فِيكَ شَيْعٌ . قَالَ ابْنُ آوَى
 لَكِنْ أَنَا أَشْبَعُ الْمَلِكَ ، فَلْيَأْكُلْنِي : فَقَدْ رَضِيتُ بِذَلِكَ ،
 وَطَبْتُ عَنْهُ نَفْسًا . فَرَدَّ عَلَيْهِ الذِّئْبُ وَالْغُرَابُ بِقَوْلِهِمَا : إِنَّكَ
 لَمُنْتِنٌ قَدِيرٌ . قَالَ الذِّئْبُ : إِنِّي لَسْتُ كَذَلِكَ ، فَلْيَأْكُلْنِي الْمَلِكُ ،
 فَقَدْ سَمِخْتُ بِذَلِكَ ، وَطَبْتُ عَنْهُ نَفْسًا ؛ فَأَعْتَرَضَهُ الْغُرَابُ وَأَبْنُ
 آوَى وَقَالَا : قَدْ قَالَتِ الْأَطِبَاءُ : مَنْ أَرَادَ قَتْلَ نَفْسِهِ فَلْيَأْكُلْ
 لَحْمَ ذئْبٍ . فَظَنَّ الْجَمَلُ أَنَّهُ إِذَا عَرَضَ نَفْسَهُ عَلَى الْأَكْلِ ،
 التَّمَسُّوا لَهُ عُذْرًا كَمَا التَّمَسَّ بَعْضُهُمْ لِبَعْضِ الْأَعْدَارِ ، فَيَسْلَمُ
 وَيَرْضَى الْأَسَدُ عَنْهُ بِذَلِكَ ، وَيَنْجُو مِنَ الْمَهَالِكِ . فَقَالَ :
 لَكِنْ أَنَا فِي الْمَلِكِ شَيْعٌ وَرَى ؛ وَلَحْمِي طَيِّبٌ هَنِيٌّ ، وَبَطْنِي

نَظِيفٌ ، فَلْيَاكُنِي الْمَلِكُ ، وَيُطْعِمِ أَصْحَابَهُ وَخَدَمَهُ : فَقَدْ رَضِيتُ
بِذَلِكَ ، وَطَابَتْ نَفْسِي عَنْهُ ، وَسَمَحَتْ بِهِ . فَقَالَ الذِّئْبُ
وَالْغُرَابُ وَابْنُ آوَى : لَقَدْ صَدَقَ الْجَمَلُ وَكَرُمَ . وَقَالَ مَا عَرِفَ .
ثُمَّ إِنَّهُمْ وَثَبُوا عَلَيْهِ فَمَزَقُوهُ .

وَإِنَّمَا ضَرَبْتُ لَكَ هَذَا الْمَثَلَ لِتَعْلَمَ أَنَّهُ إِنْ كَانَ أَصْحَابُ
الْأَسَدِ قَدْ اجْتَمَعُوا عَلَى هَلَاكِ فُلَانٍ لَسْتُ أَقْدِرُ أَنْ أَمْتَنِعَ مِنْهُمْ ،
وَلَا أَحْتَرِسَ ؛ وَإِنْ كَانَ رَأَى الْأَسَدُ لِي عَلَى غَيْرِ مَا هُمْ عَلَيْهِ مِنَ الرَّأْيِ
فِيَّ ، فَلَا يَنْفَعُنِي ذَلِكَ ، وَلَا يُغْنِي عَنِّي شَيْئًا . وَقَدْ يُقَالُ : خَيْرُ
السَّلَاطِينِ مَنْ عَدَلَ فِي النَّاسِ . وَلَوْ أَنَّ الْأَسَدَ لَمْ يَكُنْ فِي نَفْسِهِ
لِي إِلَّا الْخَيْرُ وَالرَّحْمَةُ ، لَغَيَّرْتُهُ كَثْرَةُ الْأَقَاوِيلِ : فَإِنَّهَا إِذَا كَثُرَتْ
لَمْ تَلْبَثْ دُونَ أَنْ تُذْهِبَ الرِّقَّةَ وَالرَّافَةَ . أَلَا تَرَى أَنَّ الْمَاءَ لَيْسَ
كَالْقَوْلِ ؛ وَأَنَّ الْحَجَرَ أَشَدَّ مِنَ الْإِنْسَانِ ؟ فَالْمَاءُ إِذَا دَامَ
انْحِدَارُهُ عَلَى الْحَجَرِ لَمْ يَلْبَثْ حَتَّى يَثْقُبَهُ وَيُوَثِّرَ فِيهِ . وَكَذَلِكَ
الْقَوْلُ فِي الْإِنْسَانِ . قَالَ دِمْنَةُ : فَمَاذَا تُرِيدُ أَنْ تَصْنَعَ الْآنَ ؟
قَالَ شَتْرَبَةُ : مَا أَرَى إِلَّا الْاجْتِهَادَ وَالْمُجَاهَدَةَ بِالْقِتَالِ : فَإِنَّهُ لَيْسَ

لِلْمُصَلِّي فِي صَلَاتِهِ ، وَلَا لِلْمُتَصَدِّقِ فِي صَدَقَتِهِ ، وَلَا لِلْوَرَعِ
فِي وَرَعِهِ مِنَ الْأَجْرِ مَا لِلْمُجَاهِدِ عَنْ نَفْسِهِ ، إِذَا كَانَتْ مُجَاهَدَتُهُ
عَلَى الْحَقِّ . قَالَ دِمْنَةُ : لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ أَنْ يُخَاطِرَ بِنَفْسِهِ ، وَهُوَ
يَسْتَطِيعُ غَيْرَ ذَلِكَ ، وَلَكِنَّ ذَا الرَّأْيِ جَاعِلُ الْقِتَالِ آخِرَ الْحِيلِ ؛
وَبَادِيٌّ قَبْلَ ذَلِكَ بِمَا اسْتَطَاعَ مِنْ رِفْقٍ وَتَمَحُّلٍ . وَقَدْ قِيلَ :
لَا تَحْقِرَنَّ الْعَدُوَّ الضَّعِيفَ الْمُهِنَ ، وَلَا سِيَّمَا إِذَا كَانَ ذَا حِيلَةٍ
وَيَقْدِرُ عَلَى الْأَعْوَانِ ، فَكَيْفَ بِالْأَسَدِ عَلَى جِرَائَتِهِ وَشِدَّتِهِ ؟ فَإِنَّ
مَنْ حَقَرَ عَدُوَّهُ لِضَعْفِهِ أَصَابَهُ مَا أَصَابَ وَكِيلَ الْبَحْرِ مِنَ
الطَّيْطَوَى قَالَ شَتْرَبَةُ : ^(١) وَكَيْفَ كَانَ ذَلِكَ ؟

قَالَ دِمْنَةُ : زَعَمُوا أَنَّ طَائِرًا مِنْ طُيُورِ الْبَحْرِ يُقَالُ لَهُ الطَّيْطَوَى
كَانَ وَطْنُهُ عَلَى سَاحِلِ الْبَحْرِ ، وَمَعَهُ زَوْجَةٌ لَهُ ، فَلَمَّا جَاءَ
أَوَانُ تَفْرِيجِهِمَا قَالَتِ الْأُنْثَى لِلذَّكَرِ : لَوْ التَّمَسْنَا مَكَانًا حَرِيْرًا
نُفْرَخُ فِيهِ : فَإِنِّي أَخْشَى مِنْ وَكِيلِ الْبَحْرِ إِذَا مَدَّ الْمَاءُ أَنْ
يَذْهَبَ بِفِرَاحِنَا . فَقَالَ لَهَا : أَفَرِحِي مَكَانَكَ : فَإِنَّهُ مُوَافِقٌ لَنَا ؛

وَالْمَاءُ وَالزَّهْرُ مِنَّا قَرِيبٌ . قَالَتْ لَهُ : يَا غَافِلُ لِيَحْسُنْ نَظْرُكَ :
فَإِنِّي أَخَافُ وَكِيلَ الْبَحْرِ أَنْ يَذْهَبَ بِفِرَاحِنَا . فَقَالَ لَهَا : أَفَرِحِي
مَكَانَكَ : فَإِنَّهُ لَا يَفْعَلُ ذَلِكَ فَقَالَتْ لَهُ : مَا أَشَدَّ تَعَنُّتَكَ ^(١) !
أَمَّا ذِكْرُ وَعِيدِهِ وَتَهْدِيدِهِ إِيَّاكَ ؟ أَلَا تَعْرِفُ نَفْسَكَ وَقَدْرَكَ ؟ فَإِنِّي
أَنْ يُطِيعَهَا . فَلَمَّا أَكْثَرَتْ عَلَيْهِ وَلَمْ يَسْمَعْ قَوْلَهَا ، قَالَتْ لَهُ :
إِنْ مَنْ لَمْ يَسْمَعْ قَوْلَ النَّاصِحِ يُصِيبُهُ مَا أَصَابَ السُّلْحَفَاةَ حِينَ لَمْ
تَسْمَعْ قَوْلَ الْبَطَّيْنِ . قَالَ الذَّكْرُ : وَكَيْفَ كَانَ ذَلِكَ ؟

قَالَتِ الْأُنثَى : زَعَمُوا أَنَّ غَدِيرًا كَانَ عِنْدَهُ عُشْبٌ ، وَكَانَ فِيهِ
بَطَّانٌ وَكَانَ فِي الْغَدِيرِ سُلْحَفَاةٌ ، بَيْنَهَا وَبَيْنَ الْبَطَّيْنِ مَوَدَّةٌ
وَصَدَاقَةٌ . فَاتَّفَقَ أَنْ غِيضَ ذَلِكَ الْمَاءُ ، بِجَاءَتِ الْبَطَّانِ لَوْدَاعِ
السُّلْحَفَاةِ ، وَقَالَتَا : السَّلَامُ عَلَيْكَ فَإِنَّا ذَاهِبَتَانِ عَنْ هَذَا الْمَكَانِ
لِأَجْلِ نُقْصَانِ الْمَاءِ عَنْهُ . فَقَالَتْ : إِنَّمَا يَبِينُ نُقْصَانُ الْمَاءِ
عَلَى مِثْلِي : فَإِنِّي كَأَنِّي السَّفِينَةُ لَا أَقْدِرُ عَلَى الْعَيْشِ إِلَّا بِالْمَاءِ .
فَأَمَّا أَنْتُمْ فَتَقْدِرَانِ عَلَى الْعَيْشِ حَيْثُ كُنْتُمَا . فَاذْهَبَا بِي مَعَكُمْ .

قَالَتَا لَهَا : نَعَمْ . قَالَتْ : كَيْفَ السَّبِيلُ إِلَى حَمَلِي ؟ قَالَتَا :
نَأْخُذُ بِطَرْفِي عُرْدٍ ، وَتَتَعَلَّقِينَ بِوَسْطِهِ ، وَنَطِيرُ بِكَ فِي الْجَوِّ .
وَإِيَّاكَ ، إِذَا سَمِعْتَ النَّاسَ يَتَكَلَّمُونَ ، أَنْ تَنْطِقِي . ثُمَّ أَخَذَتَاهَا
فَطَارَتَا بِهِمَا فِي الْجَوِّ . فَقَالَ النَّاسُ : عَجَبٌ : سُلْحَفَةٌ بَيْنَ
بَطْطَيْنِ ، قَدْ حَمَلَتَاهَا . فَلَمَّا سَمِعَتْ ذَلِكَ قَالَتْ : فَقَاءَ اللَّهُ أَعْيُنَكُمْ
أَيُّهَا النَّاسُ ، فَلَمَّا فَتَحَتْ فَاَهَا بِالنُّطْقِ وَقَعَتْ عَلَى الْأَرْضِ
فَمَاتَتْ . قَالَ الذَّكْرُ : قَدْ سَمِعْتُ مَقَالَاتِكَ ، فَلَا تَخَافِي وَكِيلَ
الْبَحْرِ . فَلَمَّا مَدَّ الْمَاءُ ذَهَبَ بِفِرَاحِهِمَا . فَقَالَتِ الْأُنْثَى :
قَدْ عَرَفْتُ فِي بَدْءِ الْأَمْرِ أَنَّ هَذَا كَائِنٌ . قَالَ الذَّكْرُ : سَوْفَ
أَنْتَقِمُ مِنْهُ . ثُمَّ مَضَى إِلَى جَمَاعَةِ الطَّيْرِ فَقَالَ لَهُنَّ : إِنَّكُمْ أَخَوَاتِي
وِثِقَاتِي : فَأَعِيتِي . قُلْنَ : مَاذَا تُرِيدُ أَنْ نَفْعَلَ ؟ قَالَ :
تَجْتَمِعْنَ وَتَذْهَبْنَ مَعِيَ إِلَى سَائِرِ الطَّيْرِ ، فَنَشْكُو إِلَيْهِنَّ مَا لَقِيتُ
مِنْ وَكِيلِ الْبَحْرِ ، وَنَقُولُ لَهُنَّ : إِنَّكُمْ طَيْرٌ مِثْلُنَا : فَأَعِيتَنَا .
فَقَالَتْ لَهُ جَمَاعَةُ الطَّيْرِ : إِنَّ الْعَنْقَاءَ هِيَ سَيِّدَتُنَا وَمَلِكَتُنَا :
فَاذْهَبِي بِنَا إِلَيْهَا حَتَّى نَصِيحَ بِهَا ، فَتَظْهَرَ لَنَا ، فَنَشْكُو إِلَيْهَا

مَا نَالَكَ مِنْ وَكِيلِ الْبَحْرِ ، وَنَسَأَلَهَا أَنْ تَنْتَقِمَ لَنَا مِنْهُ بِقُوَّةِ مُلْكِهَا .
ثُمَّ إِنَّهُنَّ ذَهَبْنَ إِلَيْهَا مَعَ الطَّيْطَوَى ، فَاسْتَغْنَتْهَا ، وَصَحْنَ بِهَا ،
فَقَرَأَتْ لَهُنَّ فَأَخْبَرْنَهَا بِقِصَّتِهِنَّ ، وَسَأَلْنَهَا أَنْ تَسِيرَ مَعَهُنَّ إِلَى
مُحَارَبَةِ وَكِيلِ الْبَحْرِ ، فَأَجَابَتْهُنَّ إِلَى ذَلِكَ . فَلَمَّا عَلِمَ وَكِيلُ
الْبَحْرِ أَنَّ الْعَنْقَاءَ قَدْ قَصَدَتْهُ فِي جَمَاعَةِ الطَّيْرِ خَافَ مِنْ مُحَارَبَةِ
مَلِكٍ لَا طَاقَةَ لَهُ بِهِ . فَرَدَّ فِرَاحَ الطَّيْطَوَى ، وَصَالَحَهُ
فَرَجَعَتِ الْعَنْقَاءُ عَنْهُ .

وَإِنَّمَا حَدَّثْتُكَ بِهَذَا الْحَدِيثِ لِتَعْلَمَ أَنَّ الْقِتَالَ مَعَ الْأَسَدِ
لَا أَرَاهُ لَكَ رَأْيًا . قَالَ شَتْرَبَةُ : مَا أَنَا بِمُقَاتِلِ الْأَسَدِ ،
وَلَا نَاصِبٍ لَهُ الْعَدَاوَةَ سِرًّا وَلَا عَلَانِيَةً وَلَا مُتَغَيِّرٍ لَهُ عَمَّا كُنْتُ
عَلَيْهِ ، حَتَّى يَبْدُوَ لِي مِنْهُ مَا أَخْوَفُ فَأَغْلِبُهُ . فَكَرِهَ دِمْنَةُ قَوْلَهُ ،
وَعَلِمَ أَنَّ الْأَسَدَ إِنْ لَمْ يَرِ مِنَ الثَّوْرِ الْعَلَامَاتِ الَّتِي كَانَ ذَكَرَهَا لَهُ
آتَمَّهُمْ وَأَسَاءَ بِهِ الظَّنَّ . فَقَالَ دِمْنَةُ لِشَتْرَبَةَ : اذْهَبِ إِلَى الْأَسَدِ
فَسَتَعْرِفُ حِينَ يَنْظُرُ إِلَيْكَ مَا يُرِيدُ مِنْكَ . قَالَ شَتْرَبَةُ : وَكَيْفَ
أَعْرِفُ ذَلِكَ ؟ قَالَ دِمْنَةُ : سَتَرَى الْأَسَدَ حِينَ تَدْخُلُ عَلَيْهِ

مُقْعِيًّا عَلَى ذَنْبِهِ ، رَافِعًا صَدْرَهُ إِلَيْكَ ، مَاذَا بَصَرُهُ نَحْوِكَ ، قَدْ
صَرَخْتُ بِهِ ، وَفَعَّرَ فَاهُ ، وَاسْتَوَى لِلْوَثْبَةِ . قَالَ شَتْرَبَةُ : إِنْ رَأَيْتُ
هَذِهِ الْعَلَامَاتِ مِنَ الْأَسَدِ عَرَفْتُ صِدْقَكَ فِي قَوْلِكَ . ثُمَّ إِنَّ دِمْنَةَ
لَمَّا فَرَّغَ مِنْ حَمْلِ الْأَسَدِ عَلَى الثَّوْرِ ، وَالثَّوْرِ عَلَى الْأَسَدِ تَوَجَّهَ
إِلَى كَلِيلَةَ . فَلَمَّا التَّقِيَا ، قَالَ كَلِيلَةُ : إِلَامَ أَنْتَهَى عَمَلُكَ
الَّذِي كُنْتَ فِيهِ ؟ قَالَ دِمْنَةُ : قَرِيبٌ مِنَ الْفَرَاغِ عَلَى مَا أُحِبُّ
وَتُحِبُّ . ثُمَّ إِنَّ كَلِيلَةَ وَدِمْنَةَ انْطَلَقَا جَمِيعًا لِيَخْضُرَا قِتَالَ
الْأَسَدِ وَالثَّوْرِ ، وَيَنْظُرَا مَا يَجْرِي بَيْنَهُمَا ، وَيُعَايِنَا مَا يَتَوَلَّى إِلَيْهِ
أَمْرُهُمَا . وَجَاءَ شَتْرَبَةُ ، فَدَخَلَ عَلَى الْأَسَدِ ، فَرَأَاهُ مُقْعِيًّا كَمَا
وَصَفَهُ لَهُ دِمْنَةُ ، فَقَالَ : مَا صَاحِبُ السُّلْطَانِ إِلَّا كَصَاحِبِ
الْحَيَّةِ الَّتِي فِي مَبِيتِهِ وَمَقِيلِهِ ، فَلَا يَذَرِي مَتَى تَهِيجُ بِهِ .
ثُمَّ إِنَّ الْأَسَدَ نَظَرَ إِلَى الثَّوْرِ فَرَأَى الدَّلَالَاتِ الَّتِي ذَكَرَهَا لَهُ
دِمْنَةُ : فَلَمْ يَشُكَّ أَنَّهُ جَاءَ لِقِتَالِهِ . فَوَاتَبَهُ ، وَنَشَأَ بَيْنَهُمَا الْحَرْبُ ،
وَأَشْتَدَّ قِتَالُ الثَّوْرِ وَالْأَسَدِ ، وَطَالَ ، وَسَالَتْ بَيْنَهُمَا الدَّمَاءُ .

فَلَمَّا رَأَى كَلِيلَةُ أَنَّ الْأَسَدَ قَدْ بَلَغَ مِنْهُ مَا قَدْ بَلَغَ . قَالَ لِدَمْنَةَ :
 أَيُّهَا الْفَسَلُ^(١) مَا أَنْكَرَ جَهْلَتَكَ وَأَسْوَأَ عَاقِبَتِكَ فِي تَدْبِيرِكَ ! قَالَ
 دَمْنَةُ : وَمَا ذَاكَ ؟ قَالَ كَلِيلَةُ : جُرِحَ الْأَسَدُ وَهَلَكَ الثَّوْرُ . وَإِنَّ
 أَنْحَرَقَ الْخُرْقَ مَنْ حَمَلَ صَاحِبَهُ عَلَى سُوءِ الْخُلُقِ وَالْمُبَارَزَةِ وَالْقِتَالِ ،
 وَهُوَ يَجِدُ إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ سَبِيلًا . وَإِنَّ الْعَاقِلَ يُدَبِّرُ الْأَشْيَاءَ وَيَقِيسُهَا
 قَبْلَ مُبَاشَرَتِهَا : فَكَارِجًا أَنْ يَتِمَّ لَهُ مِنْهَا أَقْدَمُ عَلَيْهِ ، وَمَا خَافَ أَنْ
 يَتَعَدَّرَ عَلَيْهِ مِنْهَا أَنْحَرَفَ عَنْهُ ، وَلَمْ يَلْتَفِتْ إِلَيْهِ . وَإِنِّي لِأَخَافُ
 عَلَيْكَ عَاقِبَةَ بَغْيِكَ هَذَا : فَإِنَّكَ قَدْ أَحْسَنْتَ الْقَوْلَ وَلَمْ تُحْسِنِ
 الْعَمَلَ . أَيْنَ مُعَاهَدَتُكَ إِيَّايَ أَنَّكَ لَا تَضُرُّ بِالْأَسَدِ فِي تَدْبِيرِكَ ؟
 وَقَدْ قِيلَ : لَا خَيْرَ فِي الْقَوْلِ إِلَّا مَعَ الْعَمَلِ ، وَلَا فِي الْفِقْهِ إِلَّا
 مَعَ الْوَرَعِ ، وَلَا فِي الصَّدَقَةِ إِلَّا مَعَ النِّيَّةِ ، وَلَا فِي الْمَالِ إِلَّا
 مَعَ الْجُودِ ، وَلَا فِي الصِّدْقِ إِلَّا مَعَ الْوَفَاءِ ، وَلَا فِي الْحَيَاةِ إِلَّا
 مَعَ الصُّحَّةِ ، وَلَا فِي الْأَمْنِ إِلَّا مَعَ السُّرُورِ .

(١) الفسل : الرذل الذي لامرؤة له .

وَأَعْلَمَ أَنَّ الْأَدَبَ يَذْهَبُ عَنِ الْعَاقِلِ الطَّيِّشِ ، وَيَزِيدُ الْأَخْمَقَ
طَيِّشًا ؛ كَمَا أَنَّ النَّهَارَ يَزِيدُ كُلَّ ذِي بَصَرٍ نَظْرًا ، وَيَزِيدُ الْخَفَّاشَ
سُوءَ النَّظَرِ .

وَقَدْ أَذْكَرَنِي أَمْرُكَ شَيْئًا سَمِعْتُهُ ، فَإِنَّهُ يُقَالُ : إِنَّ السُّلْطَانَ
إِذَا كَانَ صَالِحًا ، وَوُزَرَائِهِ وَزَرَائِ سُوءٍ ، مَنَعُوا خَيْرَهُ ، فَلَا يَقْدِرُ
أَحَدٌ أَنْ يَذْنُوبَ مِنْهُ . وَمِثْلُهُ فِي ذَلِكَ مِثْلُ الْمَاءِ الطَّيِّبِ الَّذِي فِيهِ
التَّمَّاسِيحُ : لَا يَقْدِرُ أَحَدٌ أَنْ يَتَنَاوَلَهُ ، وَإِنْ كَانَ إِلَى الْمَاءِ
مُحْتَاجًا . وَأَنْتَ يَا دِمْنَةُ أَرَدْتَ إِلَّا يَذْنُوبَ مِنَ الْأَسَدِ أَحَدٌ سِوَاكَ .
وَهَذَا أَمْرٌ لَا يَصِحُّ وَلَا يَتِمُّ أَبَدًا . وَذَلِكَ لِلْمِثْلِ الْمَضْرُوبِ :
إِنَّ الْبَحْرَ بِأَمْوَاجِهِ ، وَالسُّلْطَانَ بِأَصْحَابِهِ . وَمِنَ الْخُنْثَى الْحِرْصُ
عَلَى التَّمَّاسِ الْإِخْوَانِ بِغَيْرِ الْوَفَاءِ لَهُمْ ، وَطَلَبُ الْآخِرَةِ بِالرِّيَاءِ ،
وَنَفْعُ النَّفْسِ بِضَرِّ الْغَيْرِ . وَمَا عِظْتِي وَتَأْدِيبِي إِيَّاكَ إِلَّا كَمَا قَالَ
الرَّجُلُ لِلطَّائِرِ : لَا تَلْتَمِسْ تَقْوِيمَ مَا لَا يَسْتَقِيمُ ، وَلَا تُعَالِجْ
تَأْدِيبَ مَنْ لَا يَتَادَبُ . قَالَ دِمْنَةُ : وَكَيْفَ كَانَ ذَلِكَ ؟

قَالَ كَلِيلَةُ : زَعُمُوا أَنَّ جَمَاعَةً مِنَ الْقِرَدَةِ كَانُوا سُكَّانًا فِي جَبَلٍ ،
 فَالْتَمَسُوا فِي لَيْلَةٍ بَارِدَةٍ ذَاتِ رِيَّاحٍ وَأَمْطَارٍ نَارًا ، فَلَمْ يَجِدُوا ،
 فَرَأَوْا يَرَاعَةً ^(١) تَطِيرُ كَأَنَّهَا شَرَارَةٌ نَارٍ ، فَظَنُّوْهَا نَارًا ، وَجَمَعُوا حَطَبًا
 كَثِيرًا فَأَلْقَوْهُ عَلَيْهَا ، وَجَعَلُوا يَنْفُخُونَ طَمَعًا أَنَّ يُوقِدُوا نَارًا
 يَصْطَلُونَ بِهَا مِنَ الْبَرْدِ . وَكَانَ قَرِيبًا مِنْهُمْ طَائِرٌ عَلَى شَجَرَةٍ ، يَنْظُرُ
 إِلَيْهِ وَيَنْظُرُ إِلَيْهِمْ ، وَقَدْ رَأَى مَا صَنَعُوا ، فَجَعَلَ يُنَادِيهِمْ وَيَقُولُ
 لَا تَتَّبِعُوا فَإِنَّ الَّذِي رَأَيْتُمُوهُ لَيْسَ بِنَارٍ . فَلَمَّا طَالَ ذَلِكَ عَلَيْهِ
 عَزَمَ عَلَى الْقُرْبِ مِنْهُمْ لِيَنْهَاهُمْ عَمَّا هُمْ فِيهِ ، فَمَرَّ بِهِ رَجُلٌ فَعَرَفَ
 مَا عَزَمَ عَلَيْهِ . فَقَالَ لَهُ : لَا تَلْتَمِسْ تَقْوِيمَ مَا لَا يَسْتَقِيمُ
 فَإِنَّ الْحَجَرَ الْمَانِعَ الَّذِي لَا يَنْقَطِعُ لَا تُجَرَّبُ عَلَيْهِ السُّيُوفُ ^(٢)
 وَالْعُودَ الَّذِي لَا يَنْخَنِي لَا يُعْمَلُ مِنْهُ الْقَوْسُ : فَلَا تَتَّبِعْ . فَأَذَى
 الطَّائِرُ أَنْ يُطِيعَهُ ، وَتَقَدَّمَ إِلَى الْقِرَدَةِ لِيُعَرِّفَهُمْ أَنَّ الْيَرَاعَةَ لَيْسَتْ
 بِنَارٍ . فَتَنَاولَهُ بَعْضُ الْقِرَدَةِ فَضَرَبَ بِهِ الْأَرْضَ فَكَاتَ . فَهَذَا

(١) اليراع : ذباب يطير بالليل كأنه نار . (٢) يستدفنون . (٣) الصلْد

مَثَلِي مَعَكَ فِي ذَلِكَ . ثُمَّ قَدْ غَلَبَ عَلَيْكَ الْخُبُّ وَالْفُجُورُ ، وَهُمَا
خَلَّتَا سُوءَ ، وَالْخُبُّ شَرُّهُمَا عَاقِبَةً . وَلِهَذَا مَثَلٌ . قَالَ دِمْنَةُ :
وَمَا ذَلِكَ الْمَثَلُ ؟

قَالَ كَلِيلَةُ : زَعُمُوا أَنَّ خُبًّا وَمَغْفَلًا اشْتَرَكَا فِي تِجَارَةٍ وَسَافَرَا ،
فَبَيْنَمَا هُمَا فِي الطَّرِيقِ ، إِذْ تَخَلَّفَ الْمَغْفَلُ لِبَعْضِ حَاجَتِهِ ،
فَوَجَدَ كَيْسًا فِيهِ أَلْفُ دِينَارٍ ، فَأَخَذَهُ ، فَأَحْسَسَ بِهِ الْخُبُّ ،
فَرَجَعَا إِلَى بَلَدِهِمَا ؛ حَتَّى إِذَا دَنَوْا مِنَ الْمَدِينَةِ قَعَدَا لِاقْتِسَامِ
الْمَالِ . فَقَالَ الْمَغْفَلُ : خُذْ نِصْفَهُ وَأَعْطِنِي نِصْفَهُ ؛ وَكَانَ
الْخُبُّ قَدْ قَرَّرَ فِي نَفْسِهِ أَنْ يَذْهَبَ بِالْأَلْفِ جَمِيعِهِ . فَقَالَ لَهُ :
لَا نَقْتَسِمُ ، فَإِنَّ الشَّرْكَاءَ وَالْمُفَاوِضَةَ أَقْرَبُ إِلَى الصَّفَاءِ وَالْخُمَالِطَةِ ؛
وَلَكِنْ أَخِذْ نَفَقَةً ، وَتَأْخُذْ مِثْلَهَا ، وَنَذْفِنُ الْبَاقِي فِي أَصْلِ هَذِهِ
الشَّجَرَةِ : فَهُوَ مَكَانٌ حَرِيزٌ . فَإِذَا اخْتَجْنَا جِئْنَا أَنَا وَأَنْتَ فَنَأْخُذُ
حَاجَتَنَا مِنْهُ ؛ وَلَا يَعْلَمُ بِمَوْضِعِنَا أَحَدٌ . فَأَخَذَا مِنْهُ يَسِيرًا ، وَدَفْنَا

(١) الْبَاقِي فِي أَصْلِ دَوْحَةٍ ، وَدَخَلَ الْبَلَدَ . ثُمَّ إِنَّ الْخُبَّ خَالَفَ
 الْمُغْفَلَ إِلَى الدَّنَائِرِ فَأَخَذَهَا ، وَسَوَّى الْأَرْضَ كَمَا كَانَتْ .
 وَجَاءَ الْمُغْفَلُ بَعْدَ ذَلِكَ بِأَشْهُرٍ فَقَالَ لِلْخُبِّ : قَدْ اخْتَجْتُ إِلَى
 نَفْقَةٍ فَاِنْطَلِقْ بِنَا نَأْخُذْ حَاجَتَنَا ، فَقَامَ الْخُبُّ مَعَهُ وَذَهَبَا
 إِلَى الْمَكَانِ لُحْفَرًا ، فَلَمْ يَجِدَا شَيْئًا . فَأَقْبَلَ الْخُبُّ عَلَى وَجْهِهِ
 يَأْطِمُهُ يَقُولُ : لَا تَغْتَرَّ بِصُحْبَةِ صَاحِبٍ : خَالَفْتَنِي إِلَى الدَّنَائِرِ
 فَأَخَذْتَهَا . جُعِلَ الْمُغْفَلُ يَخْلِفُ وَيَلْعَنُ آخِذَهَا وَلَا يَزْدَادُ
 الْخُبُّ إِلَّا شِدَّةً فِي اللَّظْمِ . وَقَالَ : مَا أَخَذَهَا غَيْرُكَ . وَهَلْ
 شَعَرْتَهَا أَحَدٌ سِوَاكَ ؟ ثُمَّ طَالَ ذَلِكَ بَيْنَهُمَا ، فَتَرَفَعَا
 إِلَى الْقَاضِي ، فَاِقْتَصَّ الْقَاضِي قِصَّتَهُمَا ، فَادَّعَى الْخُبُّ
 أَنَّ الْمُغْفَلَ أَخَذَهَا ، وَجَحَدَ الْمُغْفَلُ . فَقَالَ لِلْخُبِّ : أَلَيْكَ عَلَى
 دَعْوَاكَ بَيِّنَةٌ ؟ قَالَ : نَعَمْ الشَّجَرَةُ الَّتِي كَانَتْ الدَّنَائِرُ عِنْدَهَا
 تَشْهَدُ لِي أَنَّ الْمُغْفَلَ أَخَذَهَا . وَكَانَ الْخُبُّ قَدْ أَمَرَ أَبَاهُ أَنْ يَذْهَبَ
 فَيَتَوَارَى فِي الشَّجَرَةِ بِحَيْثُ إِذَا سُئِلَتْ أَجَابَ . فَذَهَبَ أَبُو الْخُبِّ

فَدَخَلَ جَوْفَ الشَّجَرَةِ . ثُمَّ إِنَّ الْقَاضِيَ لَمَّا سَمِعَ ذَلِكَ مِنْ
 الْخُبِّ أَكْبَرَهُ ، وَانْطَلَقَ هُوَ وَأَصْحَابُهُ وَالْخُبُّ وَالْمُغْفَلُ مَعَهُ ، حَتَّى
 وَافَى الشَّجَرَةَ ؛ فَسَأَلَهَا عَنِ الْخَبْرِ . فَقَالَ الشَّيْخُ مِنْ جَوْفِهَا :
 نَعَمْ الْمُغْفَلُ أَخَذَهَا . فَلَمَّا سَمِعَ الْقَاضِيَ ذَلِكَ اشْتَدَّ تَعَجُّبُهُ .
 فَدَعَا بِحَطَبٍ وَأَمَرَ أَنْ تُحْرَقَ الشَّجَرَةُ . فَأُضْرِمَتْ حَوْلَهَا النَّيْرَانُ
 فَاسْتَعَاثَ أَبُو الْخُبِّ عِنْدَ ذَلِكَ . فَأُخْرِجَ وَقَدْ أَشْرَفَ عَلَى
 الْهَلَاكِ . فَسَأَلَهُ الْقَاضِيَ عَنِ الْقِصَّةِ فَأَخْبَرَهُ بِالْخَبْرِ ؛ فَأَوْقَعَ
 بِالْخُبِّ ضَرْبًا ، وَبِأَيْبِهِ صَفْعًا ، وَأَرْكَبَهُ مَشْهُورًا ^(١) ، وَغَرَمَ الْخُبَّ
 الدَّنَانِيرَ ؛ فَأَخَذَهَا وَأَعْطَاهَا الْمُغْفَلَ .

وَإِنَّمَا ضَرَبْتُ لَكَ هَذَا الْمَثَلَ لِتَعْلَمَ أَنَّ الْخُبَّ وَالْخَدِيعَةَ رُبَّمَا
 كَانَ صَاحِبَهُمَا هُوَ الْمَغْبُورُ . وَإِنَّكَ يَا دِمْنَةُ جَامِعٌ لِلْخُبِّ وَالْخَدِيعَةِ
 وَالْفُجُورِ . وَإِنِّي أَخْشَى عَلَيْكَ ثَمَرَةَ عَمَلِكَ ، مَعَ أَنَّكَ لَسْتَ بِنَاجٍ
 مِنَ الْعُقُوبَةِ : لِأَنَّكَ ذُو لَوْنَيْنِ وَلِسَانَيْنِ . وَإِنَّمَا عُذُوبَةُ مَاءِ
 الْأَنْهَارِ مَا لَمْ تَبْلُغْ إِلَى الْبَحَارِ . وَصَلَّاحُ أَهْلِ الْبَيْتِ مَا لَمْ يَكُنْ فِيهِمْ

(١) شهره كَشْرَه أَظْهَرَهُ فِي شُعْطَةٍ .

الْمُفْسِدُ . وَإِنَّهُ لَا شَيْءَ أَشْبَهُ بِكَ مِنَ الْحَيَّةِ ذَاتِ اللِّسَانِ الَّتِي
فِيهَا السَّمُ : فَإِنَّهُ قَدْ يَجْرِي مِنْ لِسَانِكَ كَسَمِّهَا . وَإِنِّي لَمْ أَزَلْ
لِذَلِكَ السَّمِّ مِنْ لِسَانِكَ خَائِفًا ، وَلِمَا يَحِلُّ بِكَ مُتَوَقِّعًا ،
وَالْمُفْسِدُ بَيْنَ الْإِخْوَانِ وَالْأَصْحَابِ كَالْحَيَّةِ يُرَبِّهَا الرَّجُلُ وَيُطْعِمُهَا
وَيُمَسِّحُهَا وَيُكْرِمُهَا ، ثُمَّ لَا يَكُونُ لَهُ مِنْهَا غَيْرُ اللَّدِغِ . وَقَدْ
يُقَالُ : أَلْزَمَ ذَا الْعَقْلِ وَذَا الْكَرَمِ ، وَاسْتَرْسَلَ إِلَيْهِمَا ، وَإِيَّاكَ
وَمُفَارَقَتُهُمَا ، وَأَصْحَبِ الصَّاحِبَ إِذَا كَانَ عَاقِلًا كَرِيمًا أَوْ عَاقِلًا
غَيْرَ كَرِيمٍ : فَالْعَاقِلُ الْكَرِيمُ كَامِلٌ ، وَالْعَاقِلُ غَيْرُ الْكَرِيمِ أَصْحَبُهُ ،
وَإِنْ كَانَ غَيْرَ مُخْمُودٍ انْخِلِيقَةٍ ، وَاحْذَرِ مِنْ سُوءِ أَخْلَاقِهِ وَانْتَفِعْ
بِعَقْلِهِ ، وَالْكَرِيمُ غَيْرُ الْعَاقِلِ ، أَلْزَمَهُ وَلَا تَدْعُ مُوَاصَلَتَهُ ، وَإِنْ
كُنْتَ لَا تَحْمَدُ عَقْلَهُ ، وَانْتَفِعْ بِكَرَمِهِ ، وَانْفَعُهُ بِعَقْلِكَ ، وَالْفِرَارُ
كُلُّ الْفِرَارِ مِنَ اللَّئِيمِ الْأَخْقِ . وَإِنِّي بِالْفِرَارِ مِنْكَ بِلَحْدِيرٍ .
وَكَيْفَ يَرْجُو إِخْوَانُكَ عِنْدَكَ كَرَمًا وَوُدًّا وَقَدْ صَنَعْتَ بِمِلِكِكَ
الَّذِي أَكْرَمَكَ وَشَرَّفَكَ مَا صَنَعْتَ ؟ وَإِنْ مَثَلَكَ مَثَلُ النَّاجِرِ الَّذِي

قَالَ : إِنَّ أَرْضًا تَأْكُلُ جِرْدَانَهَا مِائَةً مِنْ حديدًا ^(٢) ، لَيْسَ بِمُسْتَنْكَرٍ عَلَى بُزَاتِهَا أَنْ تَخْتَطِفَ الْأَفْيَالَ . قَالَ دِمْنَةُ : وَكَيْفَ كَانَ ذَلِكَ ؟ قَالَ كَلِيلَةُ : زَعَمُوا أَنَّهُ كَانَ بِأَرْضٍ كَذَا تَابِجٌ ، فَأَرَادَ الْخُرُوجَ إِلَى بَعْضِ الْوُجُوهِ لِابْتِغَاءِ الرِّزْقِ ، وَكَانَ عِنْدَهُ مِائَةٌ مِنْ حديدًا ، فَأَوْدَعَهَا رَجُلًا مِنْ إِخْوَانِهِ ، وَذَهَبَ فِي وَجْهِهِ . ثُمَّ قَدِمَ بَعْدَ ذَلِكَ بِمُدَّةٍ ، بِحِجَاءٍ وَالتَّمَسَ الْحَدِيدَ ، فَقَالَ لَهُ : إِنَّهُ قَدْ أَكَلَتْهُ الْجِرْدَانُ . فَقَالَ : قَدْ سَمِعْتُ أَنَّهُ لَا شَيْءَ أَقْطَعُ مِنْ أَنْيَابِهَا لِلْحَدِيدِ . فَفَرِحَ الرَّجُلُ بِتَصْدِيقِهِ عَلَى مَا قَالَ وَأَدَّعَى . ثُمَّ إِنَّ التَّابِجَ خَرَجَ ، فَلَقِيَ أَبْنَاءَ لِلرَّجُلِ ، فَأَخَذَهُ وَذَهَبَ بِهِ إِلَى مَنْزِلِهِ ، ثُمَّ رَجَعَ إِلَيْهِ الرَّجُلُ مِنَ الْغَدِ فَقَالَ لَهُ : هَلْ عِنْدَكَ عِلْمٌ بِأَبْنِي ؟ فَقَالَ لَهُ التَّابِجُ : إِنِّي لَمَّا خَرَجْتُ مِنْ عِنْدِكَ بِالْأَمْسِ ، رَأَيْتُ بَازِيًا قَدْ اخْتَطَفَ صَبِيًّا ، وَلَعَلَّهُ أَبْنُكَ . فَاطَمَ الرَّجُلُ عَلَى رَأْسِهِ وَقَالَ : يَا قَوْمِ هَلْ سَمِعْتُمْ أَوْ رَأَيْتُمْ أَنَّ الْبُزَاةَ تَخْتَطِفُ الصَّبِيَّانَ ؟ فَقَالَ : نَعَمْ . وَإِنَّ أَرْضًا تَأْكُلُ جِرْدَانَهَا مِائَةً مِنْ حديدًا لَيْسَ

بِعَجَبٍ أَنْ تَخْتِطِفَ بُرَاتَهَا الْفَيْلَةَ . قَالَ لَهُ الرَّجُلُ : أَنَا أَكَلْتُ
حَدِيدَكَ وَهَذَا ثَمَنُهُ . فَارْدُدْ عَلَى ابْنِي . وَإِنَّمَا ضَرَبْتُ لَكَ
هَذَا الْمِثْلَ لِتَعْلَمَ أَنَّكَ إِذَا غَدَرْتَ بِصَاحِبِكَ فَلَا شُكَّ أَنَّكَ
بِمَنْ سِوَاهُ أَغْدُرُ ؛ وَانَّهُ إِذَا صَاحَبَ أَحَدٌ صَاحِبًا وَغَدَرَ بِمَنْ
سِوَاهُ فَقَدْ عَلِمَ صَاحِبُهُ أَنَّهُ لَيْسَ عِنْدَهُ لِلْمَوَدَّةِ مَوْضِعٌ : فَلَا شَيْءَ
أَضِيعُ مِنْ مَوَدَّةٍ تُنْحَى مَنْ لَا وِفَاءَ لَهُ ، وَحِبَاءٍ يُضْطَنَعُ عِنْدَ مَنْ
لَا شُكْرَ لَهُ ، وَأَدَبٍ يُحْمَلُ إِلَى مَنْ لَا يَتَأَدَّبُ بِهِ وَلَا يَسْمَعُهُ ،
وَسِرٍّ يُسْتَوْدَعُ مَنْ لَا يَحْفَظُهُ ؛ فَإِنَّ صُحْبَةَ الْأَخْيَارِ تُورِثُ الْخَيْرَ ،
وَصُحْبَةَ الْأَشْرَارِ تُورِثُ الشَّرَّ : كَالرَّيْحِ إِذَا مَرَّتْ بِالطَّيْبِ حَمَلَتْ
طِيبًا ، وَإِذَا مَرَّتْ بِالسَّيِّئِ حَمَلَتْ نَجَسًا ، وَقَدْ طَالَ وَثَقُلَ كَلَامِي عَلَيْكَ .

فَانْتَهَى كَلِيلَةُ مِنْ كَلَامِهِ إِلَى هَذَا الْمَكَانِ وَقَدْ فَرَّغَ
الْأَسَدُ مِنَ الثَّوْرِ . ثُمَّ فَكَّرَ فِي قَتْلِهِ بَعْدَ أَنْ قَتَلَهُ وَذَهَبَ عَنْهُ
الْغَضَبُ . وَقَالَ : لَقَدْ بَحَغْنِي شَتْرَبَةُ بِنَفْسِهِ ؛ وَقَدْ كَانَ ذَا
عَقْلٍ وَرَأْيٍ وَخُلُقٍ كَرِيمٍ ، وَلَا أَذْرِي لَعَلَّهُ كَانَ بَرِيئًا أَوْ مَكْذُوبًا
عَلَيْهِ ؛ فَحَزِنَ وَنَدَّمَ عَلَى مَا كَانَ مِنْهُ ، وَتَبَيَّنَ ذَلِكَ فِي وَجْهِهِ ؛

وَبَصُرَ بِهِ دِمْنَةً ، فَتَرَكَ مُحَاوَرَةَ كَلِيلَةَ ، وَتَقَدَّمَ إِلَى الْأَسَدِ
فَقَالَ لَهُ : لِيَهْنُتَكَ الظَّفَرُ إِذْ أَهْلَكَ اللَّهُ أَعْدَاءَكَ . فَمَاذَا
يُحْزِنُكَ أَيُّهَا الْمَلِكُ ؟ قَالَ : أَنَا حَزِينٌ عَلَى عَقْلِ شَرَبَةِ وَرَأْيِهِ
وَأَدَبِهِ ؟ قَالَ لَهُ دِمْنَةٌ : لَا تَرْحَمُهُ أَيُّهَا الْمَلِكُ : فَإِنَّ الْعَاقِلَ
لَا يَرْحَمُ مَنْ يَخَافُهُ . وَإِنَّ الرَّجُلَ الْحَازِمَ رُبَّمَا أَبْغَضَ الرَّجُلَ
وَكَرِهَهُ ، ثُمَّ قَرَبَهُ وَأَذْنَاهُ : لِمَا يَعْلَمُ عِنْدَهُ مِنَ الْغَنَاءِ وَالْكَفَايَةِ ،
فَفَعَلَ الرَّجُلُ الْمُتَكَارِهِ عَلَى الدَّوَاءِ الشَّنِيعِ رَجَاءَ مَنْفَعَتِهِ . وَرُبَّمَا
أَحَبَّ الرَّجُلُ ، وَعَزَّ عَلَيْهِ ، فَأَقْصَاهُ وَأَهْلَكَهُ ، مَخَافَةَ ضَرَرِهِ ،
كَالَّذِي تَلْدَغُهُ الْحَيَّةُ فِي إِصْبَعِهِ فَيَقْطَعُهَا ، وَيَتَبَرَّأُ مِنْهَا مَخَافَةَ أَنْ
يَسْرِى سُمُّهَا إِلَى بَدَنِهِ . فَضَرَى الْأَسَدُ بِتَوَلِّ دِمْنَةً . ثُمَّ عَلِمَ بَعْدَ
ذَلِكَ بِكَذِبِهِ وَغَدْرِهِ وَجُحُورِهِ فَقَتَلَهُ شَرَّ قَتْلَةٍ (انتهى باب الأسد والثور)

بَابُ الْفَحْصِ عَنْ أَمْرِ دِمْنَةَ

قَالَ دَبْشَلِيمُ الْمَلِكُ لِيَدْبَابَ الْفَيْلَسُوفِ : قَدْ حَدَّثَنِي عَنِ الْوَأَشِيِّ
 الْمَاهِرِ الْمُخْتَالِ ، كَيْفَ يُفْسِدُ بِالنَّمِيمَةِ الْمُوَدَّةَ الثَّابِتَةَ بَيْنَ الْمُتَحَابِّينَ .
 فَحَدَّثَنِي حِينَئِذٍ بِمَا كَانَ مِنْ حَالِ دِمْنَةَ وَمَا آلَ أَمْرُهُ إِلَيْهِ بَعْدَ
 قَتْلِ شَتْرَبَةَ ، وَمَا كَانَ مِنْ مَعَاذِيرِهِ عِنْدَ الْأَسَدِ وَأَصْحَابِهِ حِينَ
 رَاجَعَ الْأَسَدُ رَأْيَهُ فِي الثَّوْرِ ، وَتَحَقَّقَ النَّمِيمَةَ مِنْ دِمْنَةَ ، وَمَا كَانَتْ
 حُجَّتُهُ الَّتِي اخْتَجَّ بِهَا ، قَالَ الْفَيْلَسُوفُ : أَنَا وَجَدْتُ فِي حَدِيثِ
 دِمْنَةَ أَنَّ الْأَسَدَ حِينَ قَتَلَ شَتْرَبَةَ نَدِمَ عَلَى قَتْلِهِ ، وَذَكَرَ قَدِيمُ
 صُحْبَتِهِ وَجَسِيمُ خِدْمَتِهِ ، وَأَنَّهُ كَانَ أَكْرَمَ أَصْحَابِهِ عَلَيْهِ . وَأَخْصَصَهُمْ
 مَنَزِلَةً لَدَيْهِ ، وَأَقْرَبَهُمْ وَأَدْنَاهُمْ إِلَيْهِ ، وَكَانَ يُوَاصِلُ لَهُ الْمَشُورَةَ
 دُونَ خَوَاصِّهِ . وَكَانَ مِنْ أَخْصِ أَصْحَابِهِ عِنْدَهُ بَعْدَ الثَّوْرِ الثَّمَرُ .
 فَاتَّفَقَ أَنَّهُ أَمْسَى الثَّمَرُ ذَاتَ لَيْلَةٍ عِنْدَ الْأَسَدِ ، فَخَرَجَ مِنْ عِنْدِهِ
 جَوْفَ اللَّيْلِ يُرِيدُ مَنَزِلَهُ ، فَاجْتَنَزَلَ عَلَى مَنَزِلِ كُلَيْلَةَ وَدِمْنَةَ .
 فَلَمَّا انْتَهَى إِلَى الْبَابِ ، سَمِعَ كُلَيْلَةَ يُعَاتِبُ دِمْنَةَ عَلَى مَا كَانَ مِنْهُ ،

وَيَلُومُهُ عَلَى النَّيْمَةِ وَاسْتِعْمَالِهَا ، خُصُوصًا مَعَ الْكَذِبِ وَالْبُهْتَانِ
فِي حَقِّ الْخَاصَّةِ . وَعَرَفَ النَّمِرُ عَضِيَّانَ دِمْنَةً وَتَرَكَ الْقَبُولَ لَهُ .

فَوَقَفَ يَسْتَمِعُ مَا يَجْرِي بَيْنَهُمَا فَكَانَ فِيمَا قَالَ كَلِيلَةُ لَدِمْنَةً : لَقَدْ
أَرْتَكَبْتَ مَرَكَبًا صَعْبًا ، وَدَخَلْتَ مَذْخَلًا ضَيِّقًا ، وَجَنَيْتَ عَلَى
نَفْسِكَ جَنَایَةً مُوبِقَةً ، وَعَاقِبَتُهَا وَخِيمَةٌ ، وَسَوْفَ يَكُونُ
مَضْرَعُكَ شَدِيدًا ، إِذَا انْكَشَفَ لِلْأَسَدِ أَمْرُكَ ، وَاطَّلَعَ عَلَيْهِ ،
وَعَرَفَ غَدْرَكَ وَمِحَالَّكَ ، وَبَقِيَتْ لَنَا صِرْلَكَ ، فَيَجْتَمِعُ عَلَيْكَ
الْهُوَانُ وَالْقَتْلُ ، مَخَافَةَ شَرِّكَ ، وَحَذَرًا مِنْ غَوَائِلِكَ ، فَلَسْتُ
بِمُتَّخِذِكَ بَعْدَ الْيَوْمِ خَلِيلًا ، وَلَا مُنْفِشَ إِلَيْكَ سِرًّا ، لِأَنَّ الْعُلَمَاءَ
قَدْ قَالُوا : تَبَاعَدْ عَمَّنْ لَا رَغْبَةَ فِيهِ . وَأَنَا جَدِيرٌ بِمُبَاعَدَتِكَ ،
وَالْتِمَاسِ الْخِلَاصِ لِي مِمَّا وَقَعَ فِي نَفْسِ الْأَسَدِ مِنْ هَذَا الْأَمْرِ .

فَلَمَّا سَمِعَ النَّمِرُ هَذَا مِنْ كَلَامِهِمَا قَفَلَ رَاجِعًا ، فَدَخَلَ عَلَى
أُمِّ الْأَسَدِ ، فَأَخَذَ عَلَيْهَا الْعُهُودَ وَالْمَوَاقِيقَ أَنَّهَا لَا تُنْفِشِي مَا يُسِرُّ
إِلَيْهَا ، فَعَاهَدَتْهُ عَلَى ذَلِكَ فَأَخْبَرَهَا بِمَا سَمِعَ مِنْ كَلَامِ

كَلِيلَةُ وَدَمْنَةُ . فَلَمَّا أَصْبَحَتْ دَخَلَتْ عَلَى الْأَسَدِ ، فَوَجَدَتْهُ كَثِيبًا
 حَزِينًا مَهْمُومًا : لِمَا وَرَدَ عَلَيْهِ مِنْ قَتْلِ شَتْرَبَةَ . فَقَالَتْ لَهُ :
 مَا هَذَا الْهَمُّ الَّذِي قَدْ أَخَذَ مِنْكَ ، وَغَلَبَ عَلَيْكَ ؟ قَالَ : يُحْزِنُنِي
 قَتْلُ شَتْرَبَةَ ؛ إِذْ تَذَكَّرْتُ صُحْبَتَهُ وَمُوَاطَّئَتَهُ عَلَى خِدْمَتِي ، وَمَا
 كُنْتُ أَسْمَعُ مِنْ نَصِيحَتِهِ ، وَأَسْكُنُ إِلَيْهِ مِنْ مُشَاوَرَتِهِ ، وَأَقْبِلُ
 مِنْ مُنَاصَحَتِهِ . قَالَتْ أُمُّ الْأَسَدِ : إِنْ أَشَدَّ مَا شَهِدَ أَمْرُؤُكَ عَلَى
 نَفْسِهِ ، وَهَذَا خَطَأٌ عَظِيمٌ ؛ كَيْفَ أَقْدَمْتَ عَلَى قَتْلِ الثَّوْرِ بِلَا
 عِلْمٍ وَلَا يَقِينٍ ؟ وَلَوْلَا مَا قَالَتْ الْعُلَمَاءُ فِي إِذَاعَةِ الْأَسْرَارِ ،
 وَمَا فِيهَا مِنَ الْإِنْمِ وَالسَّنَارِ^(١) ، لَذَكَّرْتُ لَكَ وَأَخْبَرْتُكَ بِمَا
 عَلِمْتُ . قَالَ الْأَسَدُ : إِنْ أَقْوَالَ الْعُلَمَاءَ لَهَا وَجُوهٌ كَثِيرَةٌ ،
 وَمَعَانٍ مُخْتَلِفَةٌ . وَإِنِّي لَا أَعْلَمُ صَوَابَ مَا تَقُولِينَ : وَإِنْ كَانَ
 عِنْدَكَ رَأْيٌ فَلَا تَطْوِيهِ عَنِّي ؛ وَإِنْ كَانَ قَدْ أَسَرَ إِلَيْكَ أَحَدٌ سِرًّا
 فَأَخْبِرْنِي بِهِ ، وَأُطْلِعْنِي عَلَيْهِ ، وَعَلَى جُمْلَةِ الْأَمْرِ . فَأَخْبَرَتْهُ
 بِجَمِيعِ مَا أَلْقَاهُ إِلَيْهَا النَّمْرُ مِنْ غَيْرِ أَنْ تُخْبِرَهُ بِاسْمِهِ . وَقَالَتْ :

إِنِّي لَمْ أَجْهَلَ قَوْلَ الْعُلَمَاءِ فِي تَعْظِيمِ الْعُقُوبَةِ وَتَشْدِيدِهَا ،
وَمَا يَدْخُلُ عَلَى الرَّجُلِ مِنَ الْعَارِ فِي إِذَاعَةِ الْأَسْرَارِ ؛ وَلَكِنِّي
أَحْبَبْتُ أَنْ أُخْبِرَكَ بِمَا فِيهِ الْمَصْلَحَةُ لَكَ ؛ وَإِنْ وَصَلَ خَطْوُهُ
وَضَرَرُهُ إِلَى الْعَامَّةِ فَيُضْراًهُمْ عَلَى خِيَانَةِ الْمَلِكِ مِمَّا لَا يَدْفَعُ
الشَّرَّ عَنْهُمْ ، وَبِهِ يَحْتَجُّ السُّفَهَاءُ ، وَيَسْتَخْسِنُونَ مَا يَكُونُ مِنْ
أَعْمَالِهِمُ الْقَبِيحَةِ . وَأَشَدُّ مَعَارِهِمْ إِقْدَامُهُمْ عَلَى ذِي الْحَزْمِ .
فَلَمَّا قَضَتْ أُمُّ الْأَسَدِ هَذَا الْكَلَامَ ، اسْتَدْعَى أَصْحَابَهُ وَجُنْدَهُ
فَادْخُلُوا عَلَيْهِ . ثُمَّ أَمَرَ أَنْ يُؤْتَى بِدِمْنَةٍ . فَلَمَّا وَقَفَ بَيْنَ يَدَيِ
الْأَسَدِ ، وَرَأَى مَا هُوَ عَلَيْهِ مِنَ الْحُزْنِ وَالْكَآبَةِ ، أَلْتَفَتَ إِلَى بَعْضِ
الْحَاضِرِينَ فَقَالَ : مَا الَّذِي حَدَثَ ؟ وَمَا الَّذِي أَخْزَنَ الْمَلِكُ ؟
فَالْتَفَتَتْ أُمُّ الْأَسَدِ إِلَيْهِ وَقَالَتْ : قَدْ أَخْزَنَ الْمَلِكُ بِقَاوُوكَ وَلَوْ
طَرَفَةً عَيْنٍ ؛ وَلَنْ يَدْعَكَ بَعْدَ الْيَوْمِ حَيًّا ! قَالَ دِمْنَةُ : مَا تَرَكَ
الْأَوَّلُ لِلْآخِرِ شَيْئًا : لِأَنَّهُ يُقَالُ : أَشَدُّ النَّاسِ فِي تَوَقُّي الشَّرِّ ،
يُصِيبُهُ الشَّرُّ قَبْلَ الْمُسْتَسْلَمِ لَهُ . فَلَا يَكُونَنَّ الْمَلِكُ وَخَاصَّتُهُ

(١) المَعَارِ : جمع مَعَرَةٍ وهى الإثم والحيلة والأذى .

وَجُنُودُهُ الْمُثَلَّ السُّوءُ ؛ وَقَدْ عَلِمْتُ أَنَّهُ قَدْ قِيلَ : مَنْ صَحَبَ
 الْأَشْرَارَ ، وَهُوَ يَعْلَمُ حَالَهُمْ ، كَانَ أَذَاهُ مِنْ نَفْسِهِ : وَلِذَلِكَ
 انْقَطَعَتِ النَّسَاكُ بِأَنْفُسِهَا عَنِ الْخَلْقِ ، وَاخْتَارَتِ الْوَحْدَةَ
 عَلَى الْمُخَالَطَةِ ، وَحُبَّ الْعَمَلِ لِلَّهِ عَلَى حُبِّ الدُّنْيَا وَأَهْلِهَا .
 وَمَنْ يَجْزَى بِالْخَيْرِ خَيْرًا وَيَبَالِإِحْسَانٍ إِحْسَانًا إِلَّا اللَّهُ ؟ وَمَنْ
 طَلَبَ الْجَزَاءَ عَلَى الْخَيْرِ مِنَ النَّاسِ ، كَانَ حَقِيقًا أَنْ يَحْطَى
 بِالْحَرَمَانِ ؛ إِذْ يُحْطَى الصَّوَابُ فِي خُلُوصِ الْعَمَلِ لِغَيْرِ اللَّهِ تَعَالَى
 وَطَلَبِ الْجَزَاءِ مِنَ النَّاسِ . وَإِنَّ أَحَقَّ مَا رَغِبْتَ فِيهِ رِعْيَةُ
 الْمَلِكِ هُوَ مُحَاسِنُ الْأَخْلَاقِ وَمَوَاقِعُ الصَّوَابِ وَجَمِيلُ السَّيْرِ ؛
 وَقَدْ قَالَتِ الْعُلَمَاءُ : مَنْ صَدَّقَ مَا يَنْبَغِي أَنْ يُكَذَّبَ . وَكَذَّبَ
 مَا يَنْبَغِي أَنْ يُصَدَّقَ ، نَخَرَجَ مِنْ مَصَافِّ الْعُقَلَاءِ ، وَكَانَ جَدِيرًا
 بِالْإِزْدِرَاءِ . فَيَنْبَغِي أَلَّا يُعَجَّلَ الْمَلِكُ فِي أَمْرِ بِشْهَةٍ . وَلَسْتُ
 أَقُولُ هَذَا كَرَاهَةً لِلْمَوْتِ : فَإِنَّهُ وَإِنْ كَانَ كَرِيهًا ، لَا مَنْجَى مِنْهُ .
 وَكُلُّ حَيٍّ هَالِكٌ . وَلَوْ كَانَتْ لِي مِائَةُ نَفْسٍ وَأَعْلَمُ أَنَّ هَوَى الْمَلِكِ
 فِي إِتْلَافِهِنَّ ، لَطَبْتُ لَهُ بِذَلِكَ نَفْسًا . فَقَالَ بَعْضُ الْجُنُودِ :

لَمْ يَنْطِقْ بِهَذَا حُبُّهُ الْمَلِكَ ، وَلَكِنْ لِحَلَاصِ نَفْسِهِ ، وَالتَّمَّاسِ
 الْعُذْرِ لَهَا . فَقَالَ لَهُ دِمْنَةُ : وَيْلَكَ ! وَهَلْ عَلَى فِي التَّمَّاسِ الْعُذْرُ
 لِنَفْسِي عَيْبٌ ؟ وَهَلْ أَحَدٌ أَقْرَبُ إِلَى الْإِنْسَانِ مِنْ نَفْسِهِ ؟
 وَإِذَا لَمْ يَلْتَمَسْ لَهَا الْعُذْرَ ، فَلِمَنْ يَلْتَمِسُهُ ؟ لَقَدْ ظَهَرَ مِنْكَ
 مَا لَمْ تَكُنْ تَكُنْ تَمْلِكُ كِتْمَانَهُ مِنَ الْحَسَدِ وَالْبَغْضَاءِ ، وَلَقَدْ عَرَفَ
 مَنْ سَمِعَ مِنْكَ ذَلِكَ أَنَّكَ لَا تُحِبُّ لِأَحَدٍ خَيْرًا ، وَأَنَّكَ عَدُوُّ
 نَفْسِكَ ، فَمَنْ سِوَاهَا بِالْأَوَّلَى . فَمِنْكَ لَا يَصْلُحُ أَنْ يَكُونَ مَعَ
 الْبَهَائِمِ ، فَضْلًا عَنْ أَنْ يَكُونَ مَعَ الْمَلِكِ ، وَأَنْ يَكُونَ بِبَابِهِ .
 فَلَمَّا أَجَابَهُ دِمْنَةُ بِذَلِكَ ، خَرَجَ مُكْتَتِبًا حَزِينًا مُسْتَحِيًّا . فَقَالَتْ
 أُمُّ الْأَسَدِ لِدِمْنَةَ : لَقَدْ عَجِبْتُ مِنْكَ ، أَيُّهَا الْمُحْتَالُ ، فِي قِلَّةِ
 حَيَائِكَ ، وَكَثْرَةِ وَقَاحَتِكَ ، وَسُرْعَةِ جَوَابِكَ لِمَنْ كَلَّمَكَ . قَالَ
 دِمْنَةُ : لِأَنَّكَ تَنْظُرِينَ إِلَى بَعِينٍ وَاحِدَةٍ ، وَتَسْمَعِينَ مِنِّي
 بِأُذُنٍ وَاحِدَةٍ ، مَعَ أَنَّ شَقَاوَةَ جَدِّي قَدْ زَوَتْ عَنِّي كُلَّ شَيْءٍ ،
 حَتَّى لَقَدْ سَعَوْا إِلَى الْمَلِكِ بِالنَّمِيمَةِ عَلَيَّ ، وَلَقَدْ صَارَ مِنْ بَبَابِ

الْمَلِكِ لَاسْتِخْفَافِهِمْ بِهِ ، وَطُولِ كَرَامَتِهِ إِيَّاهُمْ ، وَمَا هُمْ فِيهِ مِنْ
 الْعَيْشِ وَالنَّعْمَةِ ، لَا يَذْرُونَ فِي أَيِّ وَقْتٍ يَنْبَغِي لَهُمُ الْكَلَامُ ،
 وَلَا مَتَى يَجِبُ عَلَيْهِمُ السُّكُوتُ . قَالَتْ : أَلَا تَنْظُرُونَ إِلَى هَذَا
 الشَّقِيِّ ، مَعَ عَظَمِ ذَنْبِهِ ، كَيْفَ يَجْعَلُ نَفْسَهُ بَرِيئًا كَمَنْ
 لَا ذَنْبَ لَهُ ؟ قَالَ دِمْنَةُ : إِنَّ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ غَيْرَ أَعْمَالِهِمْ لَيَسْأَلُوا
 عَلَى شَيْءٍ ، كَالَّذِي يَضَعُ الرَّمَادَ مَوْضِعًا يَنْبَغِي أَنْ يَضَعَ فِيهِ
 الرَّمْلَ ، وَيَسْتَعْمِلُ فِيهِ السَّرِجِينَ ^(١) ، وَالرَّجُلُ الَّذِي يَلْبَسُ
 لِبَاسَ الْمَرْأَةِ ، وَالْمَرْأَةُ الَّتِي تَلْبَسُ لِبَاسَ الرَّجُلِ ، وَالضَّيْفُ الَّذِي
 يَقُولُ : أَنَا رَبُّ الْبَيْتِ ، وَالَّذِي يَنْطِقُ بَيْنَ الْجَمَاعَةِ بِمَا لَا يُسْأَلُ
 عَنْهُ . وَإِنَّمَا الشَّقِيُّ مَنْ لَا يَعْرِفُ الْأُمُورَ وَلَا أَحْوَالَ النَّاسِ
 وَلَا يَقْدِرُ عَلَى دَفْعِ الشَّرِّ عَنْ نَفْسِهِ ، وَلَا يَسْتَطِيعُ ذَلِكَ . قَالَتْ
 أُمُّ الْأَسَدِ : أَتُظَنُّ أَيُّهَا الْغَادِرُ الْمُحْتَالُ بِقَوْلِكَ هَذَا أَنَّكَ تَحْدَعُ
 الْمَلِكَ ، وَلَا يَسْجُنُكَ ؟ قَالَ دِمْنَةُ : الْغَادِرُ الَّذِي لَا يَأْمَنُ
 عَدُوَّهُ مَكْرَهُ ، وَإِذَا اسْتَمَكَنَ مِنْ عَدُوِّهِ قَتَلَهُ عَلَى غَيْرِ ذَنْبٍ .

(١) السرجين بكسر أوله : الزبل .

قَالَتْ أُمُّ الْأَسَدِ : أَيُّهَا الْغَادِرُ الْكَذُوبُ ، أَتَظُنُّ أَنَّكَ نَاجٍ
 مِنْ عَاقِبَةِ كَذِبِكَ ؟ وَأَنَّ مَحَالَّكَ هَذَا يَنْفَعُكَ مَعَ عِظَمِ جُرْمِكَ ؟
 قَالَ دِمْنَةُ : الْكَذُوبُ الَّذِي يَقُولُ مَا لَمْ يَكُنْ ، وَيَأْتِي بِمَا
 لَمْ يَقُلْ وَلَمْ يَفْعَلْ ، وَكَلَامِي وَاضِحٌ مُبِينٌ . قَالَتْ أُمُّ الْأَسَدِ :
 الْعُجْبَاءُ مِنْكُمْ هُمُ الَّذِينَ يُوصِّحُونَ أَمْرَهُ بِفَضْلِ الْخِطَابِ .
 ثُمَّ نَهَضَتْ فَخَرَجَتْ . فَدَفَعَ الْأَسَدُ دِمْنَةَ إِلَى الْقَاضِي ، فَأَمَرَ
 الْقَاضِي بِجَبْسِهِ ، فَأُلْقِيَ فِي عُنْقِهِ حَبْلٌ ، وَأَنْطَلَقَ بِهِ إِلَى السِّجْنِ .
 فَلَمَّا انْتَصَفَ اللَّيْلُ أَخْبَرَ كَلِيلَةُ أَنَّ دِمْنَةَ فِي الْحَبْسِ . فَاتَاهُ
 مُسْتَخْفِيًا ، فَلَمَّا رَأَاهُ وَمَا هُوَ عَلَيْهِ مِنْ ضِيقِ الْقَيْدِ ، وَحَرَجِ
 الْمَكَانِ ، بَكَى ، وَقَالَ لَهُ : مَا وَصَلْتَ إِلَى مَا وَصَلْتَ إِلَيْهِ إِلَّا
 لِاسْتِعْمَالِكَ الْخَدِيعَةَ وَالْمَكْرَ ، وَإِضْرَابِكَ عَنِ الْعِظَةِ ، وَلَكِنْ لَمْ
 يَكُنْ لِي بَدْءٌ فِيمَا مَضَى مِنْ إِذْكَارِكَ وَالنَّصِيحَةِ لَكَ وَالْمُسَارَعَةِ إِلَيْكَ
 فِي خُلُوصِ الرَّغْبَةِ فِيكَ : فَإِنَّهُ لِكُلِّ مَقَامٍ مَقَالٌ ، وَلِكُلِّ مَوْضِعٍ
 مَجَالٌ . وَلَوْ كُنْتُ قَصَرْتُ فِي عِظَتِكَ حِينَ كُنْتُ فِي عَافِيَةٍ ،
 لَكُنْتُ الْيَوْمَ شَرِيكَكَ فِي ذَنْبِكَ ، غَيْرَ أَنَّ الْعُجْبَ دَخَلَ مِنْكَ

مَذْخَلًا قَهَرَ رَأْيِكَ ، وَغَلَبَ عَلَى عَقْلِكَ ؛ وَكُنْتُ أَضْرِبُ لَكَ
 الْأَمْثَالَ كَثِيرًا ، وَأَذْكُرُكَ قَوْلَ الْعُلَمَاءِ . وَقَدْ قَالَتِ الْعُلَمَاءُ : إِنَّ
 الْمُخْتَالَ يَمُوتُ قَبْلَ أَجَلِهِ ^{مَوْت} . قَالَ دَمْنَةُ : قَدْ عَرَفْتُ صَدَقَ
 مَقَالَتَكَ . وَقَدْ قَالَتِ الْعُلَمَاءُ : لَا تَجْزَعُ ^{لَهْبَرًا} مِنَ الْعَذَابِ إِذَا وَقَفْتَ
 مِنْكَ عَلَى خَطِيئَةٍ ؛ وَلَآنَ تُعَذَّبُ فِي الدُّنْيَا بِجُرْمِكَ ، خَيْرٌ مِنْ أَنْ
 تُعَذَّبَ فِي الْآخِرَةِ بِجَهَنَّمَ مَعَ الْإِثْمِ . قَالَ كَلِيلَةُ : قَدْ فَهِمْتُ
 كَلَامَكَ ؛ وَلَكِنَّ ذَنْبَكَ عَظِيمٌ ، وَعُقَابُ الْأَسَدِ شَدِيدٌ ^{كَلِيلَةُ} الِيم .
 وَكَانَ يَقْرِبُهُمَا فِي السَّجْنِ فَهَذَا مُعْتَقِلٌ ^(١) يَسْمَعُ كَلَامَهُمَا ، وَلَا
 يَرِيَانَهُ ؛ فَعَرَفَ مُعَاتِبَةَ كَلِيلَةَ لِدَمْنَةَ عَلَى سُوءِ فَعْلِهِ ، وَمَا كَانَ
 مِنْهُ ؛ وَأَنَّ دَمْنَةَ مُقَرَّبٌ ^{بِحَبْرٍ} بِسُوءِ عَمَلِهِ ، وَعَظِيمٌ ذَنْبُهُ ؛ فَحَفِظَ الْحَاوِرَةَ
 بَيْنَهُمَا ، وَكَتَمَهَا لِيَشْهَدَ ^{بِحَبْرٍ} بِهَا إِنْ سُئِلَ عَنْهَا . ثُمَّ إِنَّ كَلِيلَةَ أَنْصَرَفَ
 إِلَى مَنْزِلِهِ ، وَدَخَلَتْ أُمُّ الْأَسَدِ حِينَ أَصْبَحَتْ عَلَى الْأَسَدِ ؛
 وَقَالَتْ لَهُ : يَا سَيِّدَ الْوُحُوشِ ، حُوشِيَتْ أَنْ تَنْسَى مَا قُلْتَ
 بِالْأَمْسِ ؛ وَأَنَّكَ أَمَرْتَ بِهِ لِقَوْتِهِ ؛ وَأَرْضَيْتَ بِهِ رَبَّ الْعِبَادِ .

وَقَدْ قَالَتِ الْعُلَمَاءُ: لَا يَنْبَغِي لِلْإِنْسَانِ أَنْ يَتَوَانَى فِي الْجِدِّ لِلتَّقْوَى؛
 بَلْ لَا يَنْبَغِي أَنْ يَدَافِعَ عَنْ ذَنْبِ الْأَثِمِ . فَلَمَّا سَمِعَ الْأَسَدُ
 كَلَامَ أُمِّهِ ، أَمَرَ أَنْ يَحْضُرَ النَّمِرُ ، وَهُوَ صَاحِبُ الْقَضَاءِ . فَلَمَّا
 حَضَرَ قَالَ لَهُ وَلِلْجَوَاسِ الْعَادِلِ (١) : أَجْلَسَا فِي مَوْضِعِ الْحُكْمِ ،
 وَنَادِيَا فِي الْجُنْدِ صَغِيرِهِمْ وَكَبِيرِهِمْ أَنْ يَحْضُرُوا وَيَنْظُرُوا فِي حَالِ
 دِمْنَةَ ، وَيَبْحَثُوا عَنْ شَأْنِهِ ، وَيَفْحَصُوا عَنْ ذَنْبِهِ ، وَيُنْثَبُوا
 قَوْلَهُ وَعُذْرَهُ فِي كُتُبِ الْقَضَاءِ ؛ وَارْفَعَا إِلَى ذَلِكَ يَوْمًا فَيَوْمًا .
 فَلَمَّا سَمِعَ ذَلِكَ النَّمِرُ وَالْجَوَاسُ الْعَادِلُ وَكَانَ هَذَا الْجَوَاسُ عَمَّ
 الْأَسَدِ ، قَالَا : سَمِعْنَا وَطَاعَةً لِمَا أَمَرَ الْمَلِكُ . وَخَرَجَا مِنْ عِنْدِهِ ؛
 فَعَمِلَا بِمُقْتَضَى مَا أَمَرَهُمَا بِهِ ؛ حَتَّى إِذَا مَضَى مِنَ الْيَوْمِ الَّذِي
 جَلَسُوا فِيهِ ثَلَاثُ سَاعَاتٍ ، أَمَرَ الْقَاضِي أَنْ يُؤْتَى بِدِمْنَةَ ؛
 فَأَتَى بِهِ ، فَأَوْقَفَ بَيْنَ يَدَيْهِ ، وَالْجَمَاعَةُ حُضُورٌ . فَلَمَّا
 اسْتَقَرَّ بِهِ الْمَكَانُ نَادَى سَيِّدُ الْجَمْعِ بِأَعْلَى صَوْتِهِ : أَيُّهَا الْجَمْعُ .
 إِنَّكُمْ قَدْ عَلِمْتُمْ أَنَّ سَيِّدَ السَّبَاعِ لَمْ يَزَلْ مُنْذُ قُتِلَ شَرَبَةُ خَائِرِ

النفس، كثير الهم والحزن، يرى أنه قد قتل شربة بغير ذنب،
 وأنه أخذه بالكذب دمنة ونميمة. وهذا القاضي قد أمر أن
 يجلس مجلس القضاء، ويبحث عن شأن دمنة. فمن علم منكم
 شيئاً في أمر دمنة من خير أو شر، فليقل ذلك، وليتكلم به
 على رؤوس الجمع والأشهاد، ليكون القضاء في أمره بحسب
 ذلك؛ فإذا استوجب القتل فالتبّت في أمره أولى، والعجلة
 من الهوى، ومتابعة الأصحاب على الباطل ذل. فعندها قال
 القاضي: أيها الجمع أسمعوا قول سيديكم، ولا تكتُموا ما عرفتُم
 من أمره؛ واحذروا في السر عليه ثلاث خصال: إحداهن،
 وهي أفضلهن، ألا تزدروا فعله، ولا تعدوه يسيراً؛ فمن
 أعظم الخطايا قتل البريء الذي لا ذنب له بالكذب والنميمة؛
 ومن علم من أمر هذا الكذاب الذي اتهم البريء بكذبه ونميمته
 شيئاً، فستر عليه فهو شريكه في الإثم والعقوبة. والثانية إذا
 اعترف المذنب بذنبه، كان أسلم له، وأحرى بالملك وجنده
 أن يعفوا عنه ويصفحوا. والثالثة ترك مراعاة أهل الذم

وَالْفُجُورِ ، وَقَطَعَ أَسْبَابَ مُوَاصَلَاتِهِمْ وَمَوَدَّتِهِمْ عَنِ الْخَاصَّةِ
وَالْعَامَّةِ ؛ فَمَنْ عَلِمَ مِنْ أَمْرِ هَذَا الْمُحْتَالَ شَيْئًا ، فَلْيَتَكَلَّمْ بِهِ عَلَى
رُءُوسِ الْأَشْهَادِ مِمَّنْ حَضَرَ ، لِيَكُونَ ذَلِكَ حُجَّةً عَلَيْهِ ؛ وَقَدْ
قِيلَ : إِنَّهُ مَنْ كَتَمَ شَهَادَةَ مَيِّتٍ ، أُلْحِمَ بِلِجَامٍ مِنْ نَارٍ يَوْمَ
الْقِيَامَةِ ؛ فَلْيَقُلْ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْكُمْ مَا عَلِمَ . فَلَمَّا سَمِعَ ذَلِكَ
الْجَمْعُ كَلَامَهُ ، أَمْسَكُوا عَنِ الْقَوْلِ . فَقَالَ دِمْنَةُ : مَا يُسْكِتُكُمْ ؟
تَكَلَّمُوا بِمَا عَلِمْتُمْ ؛ وَأَعْلَمُوا أَنَّ لِكُلِّ كَلِمَةٍ جَوَابًا . وَقَدْ قَالَتْ
الْعُلَمَاءُ : مَنْ يَشْهَدْ بِمَا لَمْ يَرَ ، وَيَقُولَ مَا لَا يَعْلَمُ ، أَصَابَهُ
مَا أَصَابَ الطَّيِّبَ الَّذِي قَالَ لِمَا لَا يَعْلَمُهُ : إِنِّي أَغْلَبُهُ . قَالَتْ
الْجَمَاعَةُ : وَكَيْفَ كَانَ ذَلِكَ ؟

قَالَ دِمْنَةُ : زَعَمُوا أَنَّهُ كَانَ فِي بَعْضِ الْمُدُنِ طَيِّبٌ لَهُ رِفْقٌ
وَعِلْمٌ ؛ وَكَانَ ذَا فِطْنَةٍ فِيمَا يَجْرِي عَلَى يَدَيْهِ مِنَ الْمَعَاجَلَاتِ ؛ فَكَبِرَ
ذَلِكَ الطَّيِّبُ وَضَعُفَ بَصَرُهُ . وَكَانَ لِمَلِكَ تِلْكَ الْمَدِينَةُ ابْنَةً قَدْ
زَوَّجَهَا لِابْنِ أَخِي لَهُ ؛ فَعَرَّضَ لَهَا مَا يَعْرِضُ لِلْخَوَامِلِ مِنْ

الْأَوْجَاعَ . فَجِئَ بِهَذَا الطَّيِّبِ ، فَلَمَّا حَضَرَ ، سَأَلَ الْجَارِيَةَ
 عَنْ وَجْعِهَا وَمَا تَجِدُ ، فَأَخْبَرَتْهُ ، فَعَرَفَ دَاءَهَا وَدَوَاءَهَا ، وَقَالَ :
 لَوْ كُنْتُ أَبْصَرُ ، لَجَمَعْتُ الْأَخْلَاطَ عَلَى مَعْرِفَتِي بِأَجْناسِهَا ، وَلَا
 أَثِقُ فِي ذَلِكَ بِأَحَدٍ غَيْرِي . وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ رَجُلٌ سَفِيهٌ ،
 فَبَلَغَهُ الْخَبَرُ ، فَأَتَاهُمْ وَادَّعَى عِلْمَ الطِّبِّ ، وَأَعْلَمَهُمْ أَنَّهُ خَبِيرٌ
 بِمَعْرِفَةِ أَخْلَاطِ الْأَدْوِيَةِ وَالْعَقَاقِيرِ ^(١) ، عَارِفٌ بِطَبَائِعِ الْأَدْوِيَةِ
 الْمُرَكَّبَةِ وَالْمُفْرَدَةِ ، فَأَمَرَهُ الْمَلِكُ أَنْ يَدْخُلَ خِزَانَةَ الْأَدْوِيَةِ فَيَأْخُذَ
 مِنْ أَخْلَاطِ الدَّوَاءِ حَاجَتَهُ ، فَلَمَّا دَخَلَ السَّفِيهُ الْخِزَانَةَ ،
 وَعَرَضَتْ عَلَيْهِ الْأَدْوِيَةُ ، وَلَا يَدْرِي مَا هِيَ ، وَلَا لَهُ بِهَا
 مَعْرِفَةٌ ، أَخَذَ فِي جُمْلَةٍ مَا أَخَذَ مِنْهَا صِرَةً فِيهَا سُمٌّ قَاتِلٌ لَوْ قَتَنَهُ ،
 وَخَلَطَهُ فِي الْأَدْوِيَةِ ، وَلَا عِلْمَ لَهُ بِهِ ، وَلَا مَعْرِفَةَ عِنْدَهُ بِجِنْسِهِ .
 فَلَمَّا تَمَّتْ أَخْلَاطُ الْأَدْوِيَةِ ، سَقَى الْجَارِيَةَ مِنْهُ ، فَمَاتَتْ لَوْ قَتَهَا .
 فَلَمَّا عَرَفَ الْمَلِكُ ذَلِكَ ، دَعَا بِالسَّفِيهِ ، فَسَقَاهُ مِنْ ذَلِكَ الدَّوَاءِ ،
 فَمَاتَ مِنْ سَاعَتِهِ . وَإِنَّمَا ضَرَبْتُ لَكُمْ هَذَا الْمَثَلَ لِتَعْلَمُوا

مَا يَدْخُلُ عَلَى الْقَائِلِ وَالْعَامِلِ مِنَ الزَّلَّةِ بِالشَّبَهَةِ فِي الْخُرُوجِ
عَنِ الْحَدِّ ، فَمَنْ نَحَرَ مِنْكُمْ عَنْ حَدِّهِ أَصَابَهُ مَا أَصَابَ ذَلِكَ
الْجَاهِلَ ، وَنَفْسُهُ الْمَلُومَةُ . وَقَدْ قَالَتِ الْعُلَمَاءُ : رُبَّمَا جَزَى
الْمُتَكَلِّمُ بِقَوْلِهِ . وَالْكَلَامُ بَيْنَ أَيْدِيكُمْ : فَانظُرُوا لِأَنْفُسِكُمْ .

فَتَكَلَّمَ سَيِّدُ الْخَنَازِيرِ ، لِإِذْلَالِهِ وَتَيْيِهِ بِمَنْزِلَتِهِ عِنْدَ الْأَسَدِ ،
فَقَالَ : يَا أَهْلَ الشَّرَفِ مِنَ الْعُلَمَاءِ ، أَسْمَعُوا مَقَالَتِي ، وَعُوا
بِأَخْلَامِكُمْ كَلَامِي ، فَالْعُلَمَاءُ قَالُوا فِي شَأْنِ الصَّالِحِينَ : إِنَّهُمْ يَعْرِفُونَ
بِسَيِّئِهِمْ ، وَأَنْتُمْ ، مَعَاشِرَ ذَوِي الْإِفْتِدَارِ ، بِحَسَنِ صَنِيعِ اللَّهِ لَكُمْ ،
وَتَمَامِ نِعْمَتِهِ لَدَيْكُمْ ، تَعْرِفُونَ الصَّالِحِينَ بِسَيِّئِهِمْ وَصُورِهِمْ ،
وَتُخْبِرُونَ الشَّيْءَ الْكَبِيرَ بِالشَّيْءِ الصَّغِيرِ ، وَهَٰ هُنَا أَشْيَاءُ كَثِيرَةٌ
تَدُلُّ عَلَى هَٰذَا الشَّقِيِّ دَمَنَةً ، وَتُخْبِرُ عَنْ شَرِّهِ ، فَاطْلُبُوهَا عَلَى
ظَاهِرِ جِسْمِهِ : لَتَسْتَيَقِنُوا وَتَسْكُنُوا إِلَى ذَلِكَ . قَالَ الْقَاضِي
لِسَيِّدِ الْخَنَازِيرِ : قَدْ عَلِمْتُ ، وَعَلِمَ الْجَمَاعَةُ الْحَاضِرُونَ ، أَنَّكَ
عَآرِفٌ بِمَا فِي الصُّورِ مِنْ عَلَامَاتِ السُّوءِ ، فَفَسِّرْ لَنَا مَا تَقُولُ ،
وَاطْلُعْنَا عَلَى مَا تَرَى فِي صُورَةِ هَٰذَا الشَّقِيِّ . فَأَخَذَ سَيِّدُ الْخَنَازِيرِ

يَذْمُ دِمْنَةً، وَقَالَ : إِنَّ الْعُلَمَاءَ قَدْ كَتَبُوا وَأَخْبَرُوا : أَنَّهُ مِنْ كَانَتْ
عَيْنُهُ الْيُسْرَى أَصْغَرَ مِنْ عَيْنِهِ الْيُمْنَى وَهِيَ لَا تَزَالُ تَحْتَلِجُ ،
وَكَانَ أَنْفُهُ مَائِلًا إِلَى جَنْبِهِ الْأَيْمَنِ ، فَهُوَ شَقِيٌّ خَبِيثٌ . قَالَ لَهُ
دِمْنَةُ : شَأْنُكَ عَجَبٌ ، أَيُّهَا الْقَدِيرُ ، ذُو الْعَلَامَاتِ الْفَاضِحَةِ
الْقَبِيحَةِ ، ثُمَّ الْعَجَبُ مِنْ جَرَأَتِكَ عَلَى طَعَامِ الْمَلِكِ ، وَقِيَامِكَ
بَيْنَ يَدَيْهِ ، مَعَ مَا يَجْسِمُكَ مِنَ الْقَدْرِ وَالْقُبْحِ ، وَمَعَ مَا تَعْرِفُهُ أَنْتَ
وَيَعْرِفُهُ غَيْرُكَ مِنْ عُيُوبِ نَفْسِكَ ، أَفَتَتَكَلَّمُ فِي النَّقِيِّ الْجِسْمِ الَّذِي
لَا عَيْبَ فِيهِ ؟ وَلَسْتُ أَنَا وَحْدِي أَطْلُعُ عَلَى عَيْنِكَ ، لَكِنْ
جَمِيعٌ مِنْ حَضَرَكَ قَدْ عَرَفَ ذَلِكَ . وَقَدْ كَانَ يَحْجُزُنِي عَنْ
إِظْهَارِهِ مَا بَيْنِي وَبَيْنَكَ مِنَ الصَّدَاقَةِ . فَأَمَّا إِذْ قَدْ كَذَبْتَ عَلَى
وَبَهْتَنِي فِي وَجْهِهِ ، وَكُنتَ بَعْدَاوَتِي ، فَقُلْتَ مَا قُلْتَ فِي بَغْيٍ
عَلِمَ عَلَى رُءُوسِ الْحَاضِرِينَ ، فَلِأَنِّي أَقْصِرُ عَلَى إِظْهَارِ مَا أَعْرِفُ
مِنْ عُيُوبِكَ ، وَتَعْرِفُ الْجَمَاعَةُ ، وَحَقٌّ عَلَى مَنْ عَرَفَكَ حَقًّا
مَعْرِفَتَكَ أَنْ يَمْنَعَ الْمَلِكُ مِنْ اسْتِعْمَالِهِ إِيَّاكَ عَلَى طَعَامِهِ ، فَلَوْ

كَلَّفَتْ أَنْ تَعْمَلَ الزَّرَاعَةَ لَكُنْتُ جَدِيرًا بِالْخِذْلَانِ فِيهَا .
 فَلَا أُخْرَى بِكَ إِلَّا تَدْنُو إِلَى عَمَلٍ مِنَ الْأَعْمَالِ ، وَإِلَّا تَكُونَ
 دَبَاغًا وَلَا حِجَامًا لِعَامِي فَضْلًا عَنْ خَاصِّ خِدْمَةِ الْمَلِكِ . قَالَ
 سَيِّدُ الْخَنَازِيرِ : أَتَقُولُ لِي هَذِهِ الْمَقَالَةَ ، وَتَلْقَانِي بِهَذَا الْمَلَقِ ؟
 قَالَ دِمْنَةُ ، نَعَمْ ، وَحَقًّا قُلْتُ فَيْكَ ، وَإِيَّاكَ أَغْنِي ، أَيُّهَا
 الْأَعْرَجُ الْمَكْسُورُ الْأَفْدَعُ الرَّجُلِ ، الْمَنْفُوخُ الْبَطْنِ ، الْأَفْلَحُ
 الشَّفَتَيْنِ ، السَّيِّئُ الْمَنْظَرُ وَالْمَخْبِرُ . فَلَمَّا قَالَ ذَلِكَ دِمْنَةُ ،
 تَغَيَّرَ وَجْهُ سَيِّدِ الْخَنَازِيرِ وَاسْتَعْبَرَ وَاسْتَحَى ، وَتَلَجَّجَ لِسَانُهُ ،
 وَاسْتَكْبَانَ وَفَتَرَ نَشَاطَهُ . فَقَالَ دِمْنَةُ ، حِينَ رَأَى انْكِسَارَهُ
 وَبُكَاءَهُ : إِنَّمَا يَنْبَغِي أَنْ يَطُولَ بُكَاءُكَ ، إِذَا اطَّلَعَ الْمَلِكُ
 عَلَى قُدْرِكَ وَعُيُوبِكَ فَعَزَلَكَ عَنْ طَعَامِهِ ، وَحَالَ بَيْنَكَ وَبَيْنَ
 خِدْمَتِهِ ، وَأَبْعَدَكَ عَنْ حَضْرَتِهِ . ثُمَّ إِنَّ شَغْبَرًا كَانَ الْأَسَدُ قَدْ جَرَبَهُ
 فَوَجَدَ فِيهِ أَمَانَةً وَصِدْقًا ، فَرَتَّبَهُ فِي خِدْمَتِهِ ، وَأَمَرَهُ أَنْ يَحْفَظَ
 مَا يَجْرِي بَيْنَهُمْ ، وَيُطْلِعَهُ عَلَى ذَلِكَ . فَقَامَ الشَّغْبَرُ فَدَخَلَ

عَلَى الْأَسَدِ حَدَّثَهُ بِالْحَدِيثِ كُلِّهِ عَلَى جَلِيلَتِهِ . فَأَمَرَ الْأَسَدُ
بِعَزْلِ سَيِّدِ الْخَنَازِيرِ عَنْ عَمَلِهِ ، وَأَمَرَ أَلَّا يَدْخُلَ عَلَيْهِ ، وَلَا يَرَى
وَجْهَهُ ، وَأَمَرَ بِدَمْنَةِ أَنْ يُسَجَّنَ ، وَقَدْ مَضَى مِنَ النَّهَارِ
أَكْثَرُهُ ، وَجَمِيعُ مَا جَرَى وَقَالُوا وَقَالَ قَدْ كُتِبَ وَخُتِمَ عَلَيْهِ بِخَاتَمِ
النَّمِرِ ، وَرَجَعَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ إِلَى مَنْزِلِهِ .

ثُمَّ إِنَّ شَغْبَرًا (أَبْنَ آوَى) يُقَالُ لَهُ رُوزِيَّةٌ ، كَانَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ
كَلِيلَةَ إِخَاءً وَمُودَةً ، وَكَانَ عِنْدَ الْأَسَدِ وَجِيهًا ، وَعَلَيْهِ كَرِيمًا ،
وَاتَّفَقَ أَنَّ كَلِيلَةَ أَخَذَهُ الْوَجْدُ إِشْفَاقًا وَحَدْرًا عَلَى نَفْسِهِ وَأَخِيهِ ،
فَمَرِضَ وَمَاتَ ، فَانْطَلَقَ هَذَا الشَّغْبَرُ إِلَى دِمْنَةَ ، فَأَخْبَرَهُ بِمَوْتِ
كَلِيلَةَ فَبَكَى وَحَزِنَ ، وَقَالَ : مَا أَصْنَعُ بِالْدُنْيَا بَعْدَ مُفَارَقَةِ الْأَخِ
الصَّفِيِّ ! وَلَكِنْ أَحْمَدُ اللَّهُ تَعَالَى حَيْثُ لَمْ يَمُتْ كَلِيلَةُ حَتَّى أَبْقَى
لِي مِنْ ذَوِي قَرَابَتِي أَخًا مِثْلَكَ : فَلِإِنِّي قَدْ وَثِقْتُ بِنِعْمَةِ اللَّهِ
تَعَالَى وَإِحْسَانِهِ إِلَى فِيمَا رَأَيْتُ مِنْ اِهْتِمَامِكَ بِي وَمُرَاعَاتِكَ لِي ،
وَقَدْ عَلِمْتُ أَنَّكَ رَجَائِي وَرُكْنِي فِيمَا أَنَا فِيهِ ، فَأُرِيدُ مِنْ إِنْعَامِكَ
أَنْ تَنْطَلِقَ إِلَى مَكَانٍ كَذَا ، فَتَنْظُرَ إِلَى مَا جَمَعْتُهُ أَنَا وَأَخِي بِحِيلِنَا

وَسَعِينَا وَمَشِيئَةِ اللَّهِ تَعَالَى ، فَتَأْتِنِي بِهِ ، فَفَعَلَ الشَّغِيرُ مَا أَمَرَهُ بِهِ
دِمْنَةُ . فَلَمَّا وَضَعَ الْمَالَ بَيْنَ يَدَيْهِ أَعْطَاهُ شَطْرَهُ ، وَقَالَ لَهُ :
إِنَّكَ عَلَى الدُّخُولِ وَالْخُرُوجِ عَلَى الْأَسَدِ أَقْدَرُ مِنْ غَيْرِكَ ،
فَتَفَرَّغَ لِشَأْنِي ، وَأَصْرَفَ أَهْتِمَامَكَ إِلَيَّ ، وَأَسْمَعَ مَا أَذْكُرُ بِهِ عِنْدَ
الْأَسَدِ ، إِذَا رَفَعَ إِلَيْهِ مَا يَجْرِي بَيْنِي وَبَيْنَ الْخُصُومِ ، وَمَا يَبْدُو
مِنْ أُمِّ الْأَسَدِ فِي حَقِّي ، وَمَا تَرَى مِنْ مَتَابَعَةِ الْأَسَدِ لَهَا ،
وَمُخَالَفَتِهِ إِيَّاهَا فِي أَمْرِي ، وَاحْفَظْ ذَلِكَ كُلَّهُ . فَأَخَذَ الشَّغِيرُ
مَا أَعْطَاهُ دِمْنَةُ وَانْصَرَفَ عَنْهُ عَلَى هَذَا الْعَهْدِ . فَاِنْطَلَقَ إِلَى
مَنْزِلِهِ فَوَضَعَ الْمَالَ فِيهِ . ثُمَّ إِنَّ الْأَسَدَ بَكَرَ مِنَ الْغَدِ بِجُحَاسٍ ،
حَتَّى إِذَا مَضَى مِنَ النَّهَارِ سَاعَتَانِ ، اسْتَأْذَنَ عَلَيْهِ أَصْحَابُهُ ، فَأَذِنَ
لَهُمْ ، فَدَخَلُوا عَلَيْهِ ، وَوَضَعُوا الْكِتَابَ بَيْنَ يَدَيْهِ . فَلَمَّا عَرَفَ
قَوْلَهُمْ وَقَوْلَ دِمْنَةَ دَعَا أُمَّهُ فَقَرَأَ عَلَيْهَا ذَلِكَ . فَلَمَّا سَمِعَتْ مَا فِي
الْكِتَابِ نَادَتْ بِأَعْلَى صَوْتِهَا : إِنَّ أَنَا أَغْلَظْتُ فِي الْقَوْلِ فَلَا
تَلْمِئْنِي : فَإِنَّكَ لَسْتَ تَعْرِفُ ضُرَّكَ مِنْ نَفْعِكَ . أَلَيْسَ هَذَا مِمَّا
كُنْتُ أَنُهَاكَ عَنْ سَمَاعِهِ : لِأَنَّهُ كَلَامُ هَذَا الْمَجْرِمِ الْمُسِيءِ إِلَيْنَا ،

الْغَادِرِ بِدِمْنَتِنَا ؟ ثُمَّ إِنَّهَا خَرَجَتْ مُغْضَبَةً ، وَذَلِكَ بَعَيْنِ الشَّغْبَرِ
الَّذِي آخَاهُ دِمْنَةُ وَبَسَمِعِهِ . فَخَرَجَ فِي أَثَرِهَا مُسْرِعًا ، حَتَّى أَتَى
دِمْنَةَ ، فَخَدَّتهُ بِالْحَدِيثِ . فَبَيْنَمَا هُوَ عِنْدَهُ إِذْ جَاءَ رَسُولٌ ،
فَأَنْطَلَقَ بِدِمْنَةَ إِلَى الْجَمْعِ عِنْدَ الْقَاضِي . فَلَمَّا مَثَلَ بَيْنَ يَدَيِ
الْقَاضِي اسْتَفْتَحَ سَيِّدُ الْمَجْلِسِ فَقَالَ : يَا دِمْنَةُ ، قَدْ أَنْبَأَنِي بِخَبْرِكَ
الْأَمِينُ الصَّادِقُ ، وَلَيْسَ يَنْبَغِي لَنَا أَنْ نَفْخَصَ عَنْ شَأْنِكَ
أَكْثَرُ مِنْ هَذَا : لِأَنَّ الْعُلَمَاءَ قَالُوا : إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى جَعَلَ الدُّنْيَا
سَبَبًا وَمِصْدَاقًا لِلْآخِرَةِ : لِأَنَّهَا دَارُ الرُّسُلِ وَالْأَنْبِيَاءِ الدَّالِّينَ
عَلَى الْخَيْرِ ، الْهَادِينَ إِلَى الْجَنَّةِ ، الدَّاعِينَ إِلَى مَعْرِفَةِ اللَّهِ تَعَالَى .
وَقَدْ ثَبَتَ شَأْنُكَ عِنْدَنَا ، وَأَخْبَرْنَا عَنْكَ مَنْ وَثِقْنَا بِقَوْلِهِ ،
إِلَّا أَنَّ سَيِّدَنَا أَمَرَنَا بِالْعُودِ فِي أَمْرِكَ وَالْفَخْصِ عَنْ شَأْنِكَ ،
وَإِنْ كَانَ عِنْدَنَا ظَاهِرًا بَيِّنًا . قَالَ دِمْنَةُ : أَرَأَيْكَ أَيُّهَا الْقَاضِي
لَمْ تَتَعَوَّدِ الْعَدْلَ فِي الْقَضَاءِ ، وَلَيْسَ فِي عَدْلِ الْمُلُوكِ دَفْعُ
الْمُظْلُومِينَ وَمَنْ لَا ذَنْبَ لَهُ إِلَى قَاضٍ غَيْرِ عَادِلٍ ، بَلِ الْمُخَاصِمَةُ
عَنْهُمْ وَالذَّوْدُ . فَكَيْفَ تَرَى أَنْ أُقْتَلَ وَلَمْ أَخَاصِمْ ؟ وَتَعْجَلُ ذَلِكَ

مُوافَقَةً هَؤُلَاءِ ، وَلَمْ تَمُضْ بَعْدَ ذَلِكَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ . وَلَكِنْ صَدَقَ
 الَّذِي قَالَ : إِنَّ الَّذِي تَعَوَّدُ عَمَلَ الْبَرِّ هَبْنِ عَلَيْهِ عَمَلَهُ ، وَإِنْ أَضْرَبَهُ .
 قَالَ الْقَاضِي : إِنَّا نَجِدُ فِي كُتُبِ الْأَوَّلِينَ : أَنَّ الْقَاضِيَ يَنْبَغِي لَهُ
 أَنْ يَعْرِفَ عَمَلَ الْمُحْسِنِ وَالْمُسِيءِ ، لِيُجَازِيَ الْمُحْسِنَ بِإِحْسَانِهِ
 وَالْمُسِيءَ بِإِسَاءَتِهِ ، فَإِذَا ذَهَبَ إِلَى هَذَا أَزْدَادَ الْمُحْسِنُونَ حِرْصًا
 عَلَى الْإِحْسَانِ ، وَالْمُسِيئُونَ اجْتَنَبُوا لِلذُّنُوبِ . وَالرَّأْيُ لَكَ ،
 يَا دِمْنَةُ ، أَنْ تَنْظُرَ الَّذِي وَقَعَتْ فِيهِ ، وَتَعْتَرِفَ بِذَنْبِكَ ،
 وَتُقَرِّبَهُ ، وَتَتُوبَ . فَأَجَابَهُ دِمْنَةُ : إِنَّ صَالِحِي الْقُضَاةِ
 لَا يَقْطَعُونَ بِالظَّنِّ ، وَلَا يَعْمَلُونَ بِهِ ، لَا فِي الْخَاصَّةِ وَلَا فِي
 الْعَامَّةِ : لِعَلَّهِمْ أَنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا . وَأَنْتُمْ إِنْ
 ظَنَنْتُمْ أَنِّي مُجْرِمٌ فِيمَا فَعَلْتُ ، فَإِنِّي أَعْلَمُ بِنَفْسِي مِنْكُمْ ، وَعَلَيَّ
 بِنَفْسِي يَقِينٌ لَا شَكَّ فِيهِ ، وَعَلَيْكُمْ بِي غَايَةُ الشَّكِّ ، وَإِنَّمَا قَبَحَ
 أَمْرِي عِنْدَكُمْ أَنِّي سَعَيْتُ بِغَيْرِي ، فَمَا عُذْرِي عِنْدَكُمْ إِذَا سَعَيْتُ
 بِنَفْسِي كَاذِبًا عَلَيْهَا ، فَأَسْلَمْتُهَا لِلْقَتْلِ وَالْعَطَبِ ، عَلَى مَعْرِفَةِ مِنِّي

بِبَرَاءَتِي وَسَلَامَتِي مِمَّا قُرِفَتْ بِهِ ؟ وَنَفْسِي أَعْظَمُ الْأَنْفُسِ عَلَى
حُرْمَةٍ وَأَوْجِبَهَا حَقًّا . فَلَوْ فَعَلْتُ هَذَا بِأَقْصَاكُمْ وَأَدْنَاكُمْ ، لَمَا
وَسِعَنِي فِي دِينِي ، وَلَا حَسَنَ بِي فِي مُرُوعَتِي ، وَلَا حَقَّ لِي أَنْ
أَفْعَلُهُ ، فَكَيْفَ أَفْعَلُهُ بِنَفْسِي ؟ فَأَكْغُفُ أَيُّهَا الْقَاضِي عَنْ هَذِهِ
الْمَقَالَةِ : فَإِنَّهَا إِنْ كَانَتْ مِنْكَ نَصِيحَةً ، فَقَدْ أَخْطَأْتَ
مَوْضِعَهَا ، وَإِنْ كَانَتْ خَدِيعَةً ، فَإِنَّ أَقْبَحَ الْخِدَاعِ مَا نَظَرْتُهُ
وَعَرَفْتَهُ مِنْ غَيْرِ أَهْلِهِ ، مَعَ أَنَّ الْخِدَاعَ وَالْمَكْرَ لَيْسَا مِنْ أَعْمَالِ
صَالِحِي الْقُضَاةِ ، وَلَا تُقَاةِ الْوُلَاةِ .

وَأَعْلَمُ أَنَّ قَوْلَكَ مِمَّا يَتَّخِذُهُ الْجُهَالُ وَالْأَشْرَارُ سُنَّةً يَقْتَدُونَ بِهَا :
لِأَنَّ أُمُورَ الْقُضَاةِ يَأْخُذُ بِصَوَابِهَا أَهْلُ الصَّوَابِ ، وَبِخَطِئِهَا أَهْلُ
الْخَطَا وَالْبَاطِلِ وَالْقَلِيلُ الْوَرَعِ ، وَأَنَا خَائِفٌ عَلَيْكَ أَيُّهَا الْقَاضِي
مِنْ مَقَالَاتِكَ هَذِهِ أَعْظَمُ الرِّزَايَا وَالْبَلَايَا ، وَلَيْسَ مِنَ الْبَلَاءِ
وَالْمُصِيبَةِ أَنَّكَ لَمْ تَزَلْ فِي نَفْسِ الْمَلِكِ وَالْجُنْدِ وَالْخَاصَّةِ وَالْعَامَّةِ
فَاضِلًا فِي رَأْيِكَ ، مُقْنِعًا فِي عَدْلِكَ ، مُرْضِيًا فِي حُكْمِكَ وَعَفَافِكَ
وَفَضْلِكَ ، وَإِنَّمَا الْبَلَاءُ كَيْفَ أَنْسَيْتَ ذَلِكَ فِي أَمْرِي .

فَلَمَّا سَمِعَ الْقَاضِيَ ذَلِكَ مِنْ لَفْظِ دِمْنَةَ ، نَهَضَ فَرَفَعَهُ إِلَى
الْأَسَدِ عَلَى وَجْهِهِ فَنَظَرَ فِيهِ الْأَسَدُ ، ثُمَّ دَعَا امْرَأَتَهُ فَعَرَضَهُ عَلَيْهَا .
فَقَالَتْ حِينَ تَدَبَّرْتُ كَلَامَ دِمْنَةَ لِلْأَسَدِ : لَقَدْ صَارَ اهْتِمَامِي بِمَا
أَتَّخِذُ مِنْ أَحْتِيَالِ دِمْنَةَ لَكَ بِمَكْرِهِ وَدَهَائِهِ حَتَّى يَقْتُلَكَ أَوْ
يُفْسِدَ عَلَيْكَ أَمْرَكَ ، أَعْظَمَ مِنْ اهْتِمَامِي بِمَا سَلَفَ مِنْ ذَنْبِهِ
إِلَيْكَ فِي الْغِشِّ وَالسَّعَايَةِ ، حَتَّى قَتَلْتَ صَدِيقَكَ بِغَيْرِ ذَنْبٍ .
فَوَقَعَ قَوْلُهَا فِي نَفْسِهِ . فَقَالَ لَهَا : أَخْبِرِيْنِي عَنِ الَّذِي أَخْبَرَكَ
عَنْ دِمْنَةَ بِمَا أَخْبَرَكَ ، فَيَكُونُ حُجَّةً لِي فِي قَتْلِي دِمْنَةَ . فَقَالَتْ :
إِنِّي لَا أَكْزُهُ أَنْ أَفْشِيَ سِرَّ مَنْ اسْتَكْتَمْنِيهِ ، فَلَا يَهْنُئُنِي سُرُورِي
بِقَتْلِ دِمْنَةَ إِذَا تَذَكَّرْتُ أَنَّي اسْتَظْهَرْتُ عَلَيْهِ بِرُكُوبِ مَا نَهَيْتُ
عَنْهُ الْعُلَمَاءُ مِنْ كَشْفِ السِّرِّ ، وَلَكِنِّي أَطَالِبُ الَّذِي اسْتَوْدَعَنِيهِ
أَنْ يَجْعَلَنِي فِي حِلٍّ مِنْ ذِكْرِهِ لَكَ ، وَيَقُومَ هُوَ بِعَلْبِهِ وَمَا سَمِعَ
مِنْهُ . ثُمَّ انْصَرَفَتْ ، وَأَرْسَلَتْ إِلَى النَّمِرِ ، وَذَكَرَتْ لَهُ مَا يَحِقُّ
عَلَيْهِ مِنْ حُسْنِ مُعَاوَنَتِهِ الْأَسَدَ عَلَى الْحَقِّ ، وَإِخْرَاجِ نَفْسِهِ مِنَ
الشَّهَادَةِ الَّتِي لَا يَكْتُمُهَا مِثْلُهُ ، مَعَ مَا يَحِقُّ عَلَيْهِ مِنْ نَصْرِ الْمَظْلُومِينَ ،

وَتَثْبِيَتْ حُجَّةَ الْحَقِّ فِي الْحَيَاةِ وَالْمَمَاتِ : فَإِنَّهُ قَدْ قَالَتِ الْعُلَمَاءُ :
 مَنْ كَتَمَ حُجَّةَ مَيِّتٍ أَخْطَأَ حُجَّتَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ . فَلَمْ تَزَلْ بِهِ ، حَتَّى
 قَامَ فَدَخَلَ عَلَى الْأَسَدِ ، فَشَهِدَ عِنْدَهُ بِمَا سَمِعَ مِنْ إِقْرَارِ دِمْنَةَ .
 فَلَمَّا شَهِدَ النَّمِرُ بِذَلِكَ ، أَرْسَلَ النَّفْهَدُ الْمُحْبُسُ الَّذِي سَمِعَ إِقْرَارَ
 دِمْنَةَ وَحَفِظَهُ إِلَى الْأَسَدِ فَقَالَ : إِنَّ عِنْدِي شَهَادَةً . فَأَخْرَجُوهُ .
 فَشَهِدَ عَلَى دِمْنَةَ بِمَا سَمِعَ مِنْ إِقْرَارِهِ . فَقَالَ لَهُمَا الْأَسَدُ :
 مَا مَنَعَكُمَا أَنْ تَقُومَا بِشَهَادَتِكُمَا ، وَقَدْ عَلِمْتُمَا أَمْرَنَا وَاهْتِمَامَنَا
 بِالْفَحْصِ عَنْ أَمْرِ دِمْنَةَ ، فَقَالَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا : قَدْ عَلِمْنَا
 أَنَّ شَهَادَةَ الْوَاحِدِ لَا تُوجِبُ حُكْمًا فَكَّرْهُنَا التَّعَرُّضُ لِغَيْرِ مَا يَمْنَعُنِي
 بِهِ الْحُكْمُ ، حَتَّى إِذَا شَهِدَ أَحَدُنَا قَامَ الْآخَرُ بِشَهَادَتِهِ ، فَقَبِلَ
 الْأَسَدُ قَوْلَهُمَا . وَأَمَرَ بِدِمْنَةَ أَنْ يُقْتَلَ فِي حَبْسِهِ : فَقُتِلَ أَشْنَعُ
 قِتْلَةٍ . فَمَنْ نَظَرَ فِي هَذَا فَلْيَعْلَمْ أَنَّ مَنْ أَرَادَ مَنَفْعَةً نَفْسِهِ
 بِضَرِّ غَيْرِهِ بِالْخِلَابَةِ وَالْمَكْرِ ، فَإِنَّهُ سَيُجْرَى عَلَى خِلَابَتِهِ وَمَكْرِهِ .
 (١)

(انقضى باب الفحص عن أمر دمنة)

البر

بَابُ الْحَمَامَةِ الْمُطَوَّقَةِ

قَالَ دَبْسَلِيمُ الْمَلِكُ لِبَيْدَبَا، الْفَيْلَسُوفِ : قَدْ سَمِعْتُ مَثَلَ
 الْمُتَحَابِّينِ كَيْفَ قَطَعَ بَيْنَهُمَا الْكَذُوبُ ، وَإِلَى مَاذَا صَارَ عَاقِبَةُ
 أَمْرِهِ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ . فَحَدَّثَنِي ، إِنَّ رَأَيْتَ ، عَنْ إِخْوَانِ الصِّفَاءِ
 كَيْفَ يُبْتَدَأُ تَوَاصُلُهُمْ وَيَسْتَمْتَعُ بَعْضُهُمْ بِبَعْضٍ ؟ قَالَ
 الْفَيْلَسُوفُ : إِنَّ الْعَاقِلَ لَا يُعْدِلُ بِالْإِخْوَانِ شَيْئًا . فَإِلَّا إِخْوَانُ
 هُمُ الْأَعْوَانُ عَلَى الْخَيْرِ كُلِّهِ ، وَالْمُؤَاسُونَ عِنْدَ مَا يَنْوِبُ مِنْ
 الْمَكْرُوهِ . وَمِنْ أَمْثَالِ ذَلِكَ مَثَلُ الْحَمَامَةِ الْمُطَوَّقَةِ وَالْجُرَذِ
 وَالظَّبْيِ وَالْغُرَابِ . قَالَ الْمَلِكُ : وَكَيْفَ كَانَ ذَلِكَ ؟

قَالَ بَيْدَبَا : زَعَمُوا أَنَّهُ كَانَ بِأَرْضِ سَكَاوَنْدَجِينَ ، عِنْدَ مَدِينَةِ
 دَاهَرٍ ، مَكَانٌ كَثِيرُ الصَّيْدِ ، يَنْتَابُهُ الصَّيَّادُونَ ، وَكَانَ فِي ذَلِكَ
 الْمَكَانِ شَجَرَةٌ كَثِيرَةُ الْأَغْصَانِ مُلْتَفَّةُ الْوَرِقِ . فِيهَا وَكُرُ غُرَابٍ .
 فَبَيْنَمَا هُوَ ذَاتَ يَوْمٍ سَاقِطٌ فِي وَكْرِهِ إِذْ بَصُرَ بِصَيَّادٍ قَبِيحِ الْمَنْظَرِ ،

Net

لبرق

سَيِّئِ الْحَقِّ ، عَلَى عَاتِقِهِ شَبَكَةٌ ، وَفِي يَدِهِ عَصَا ، مُقْبِلًا نَحْوَ
 لَشَجَرَةٍ ؛ فِدُعِرَ مِنْهُ الْغُرَابُ (١) ؛ وَقَالَ : لَقَدْ سَاقَ هَذَا الرَّجُلُ
 إِلَى هَذَا الْمَكَانِ : إِمَّا حِينِي وَإِمَّا حِينَ غَيْرِي . فَلَا تُثَبِّتَنَّ مَكَانِي
 حَتَّى أَنْظُرَ مَاذَا يَصْنَعُ . ثُمَّ إِنَّ الصَّيَّادَ نَصَبَ شَبَكَتَهُ ، وَنَثَرَ
 عَلَيْهَا الْحَبَّ ، وَكَمَنَ قَرِيبًا مِنْهَا ؛ فَلَمْ يَلْبَثْ إِلَّا قَلِيلًا ، حَتَّى
 مَرَّتْ بِهِ حَمَامَةٌ يُقَالُ لَهَا الْمُطَوَّقَةُ ، وَكَانَتْ سَيِّدَةَ الْحَمَامِ ،
 وَمَعَهَا حَمَامٌ كَثِيرٌ ؛ فَعَمِيَتْ هِيَ وَصَوَّاحِبُهَا عَنِ الشَّرِكِ ، فَوَقَعَنَّ
 عَلَى الْحَبِّ يَلْتَقِظُنَّهُ ، فَعَلِقَنَّ فِي الشَّبَكَةِ كُلَّهُنَّ ؛ وَأَقْبَلَ الصَّيَّادُ
 فَرِحًا مَسْرُورًا . فَجَعَلَتْ كُلُّ حَمَامَةٍ تَضْطَرِبُ فِي حَبَائِلِهَا ،
 وَتَلْتَمِسُ الْخُلَاصَ لِنَفْسِهَا . قَالَتِ الْمُطَوَّقَةُ : لَا تَخَازِلَنَّ (٢)
 فِي الْمُعَالَجَةِ ، وَلَا تَكُنْ نَفْسٌ إِحْدَاكُنَّ أَهْمٌ إِلَيْهَا مِنْ نَفْسِ
 صَاحِبَتِهَا ؛ وَلَكِنْ نَتَّعَاوُنُ جَمِيعًا ، فَتَقْلَعُ الشَّبَكَةَ ، فَيَنْجُو
 بَعْضُنَا بِبَعْضٍ ؛ فَقْلَعَنَّ الشَّبَكَةَ جَمِيعُهُنَّ بِتَعَاوُنٍ ، وَعَلَوْنَ
 فِي الْجَوِّ ، وَلَمْ يَقْطَعْ الصَّيَّادُ رِجَاءَهُ مِنْهُنَّ وَظَنَّ أَنَّهُنَّ لَا يُجَاوِزْنَ

(١) خاف . (٢) توارى . (٣) لا تتركن مساعدة بعضكن بعضا .

إِلَّا قَرِيبًا وَيَقَعْنَ . فَقَالَ الْغَرَابُ : لَا تَتَّبِعُونِي وَأَنْظُرُوا مَا يَكُونُ
 مِنْهُنَّ . فَالْتَفَتَتِ الْمُطَوَّقَةُ فَرَأَتْ الصَّيَّادَ يَتَّبِعُهُنَّ . فَقَالَتْ
 لِلْحَمَامِ : هَذَا الصَّيَّادُ مُجِدُّ فِي طَلَبِكُنَّ ، فَإِنْ نَحْنُ أَخَذْنَا
 فِي الْفَضَاءِ لَمْ يَخَفْ عَلَيْهِ أَمْرُنَا ، وَلَمْ يَزَلْ يَتَّبِعُنَا ، وَإِنْ نَحْنُ
 تَوَجَّهْنَا إِلَى الْعُمَرَانِ خَفِيَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا ، وَانْصَرَفَ . وَبِمَكَانٍ كَذَا
 جَرَدُ هَوَلي أَخٍ ، فَلَوْ انْتَهَيْنَا إِلَيْهِ قَطَعَ عَنَّا هَذَا الشَّرَكَ .
 ففَعَلْنَ ذَلِكَ . وَإِسَ الصَّيَّادُ مِنْهُنَّ وَانْصَرَفَ . وَتَبِعَهُنَّ الْغَرَابُ .
 فَلَمَّا انْتَهَتِ الْحَمَامَةُ الْمُطَوَّقَةُ إِلَى الْجُرْدِ ، أَمَرَتِ الْحَمَامُ أَنْ
 يَسْقُطْنَ ، فَوَقَعْنَ ، وَكَانَ لِلْجُرْدِ مِائَةُ جُحْرٍ لِلْمَخَافِيفِ ، فَنَادَتْهُ
 الْمُطَوَّقَةُ بِأَنِّمِهِ ، وَكَانَ أَسْمُهُ زِيرَكَ ، فَأَجَابَهَا الْجُرْدُ مِنْ جُحْرِهِ :
 مَنْ أَنْتِ ؟ قَالَتْ : أَنَا خَلِيلَتُكَ الْمُطَوَّقَةُ . فَأَقْبَلَ إِلَيْهَا الْجُرْدُ
 يَسْعَى ، فَقَالَ لَهَا : مَا أَوْقَعَكَ فِي هَذِهِ الْوَرْطَةِ ؟ قَالَتْ لَهُ : أَلَمْ
 تَعْلَمْ أَنَّهُ لَيْسَ مِنَ الْخَيْرِ وَالشَّرِّ شَيْءٌ إِلَّا وَهُوَ مُقَدَّرٌ عَلَيَّ مِنْ تَصْيِيهِ
 الْمَقَادِيرُ ، وَهِيَ الَّتِي أَوْقَعَتْنِي فِي هَذِهِ الْوَرْطَةِ ، فَقَدْ لَا يَمْتَنِعُ

مِنَ الْقَدْرِ مَنْ هُوَ أَقْوَى مِنِّي وَأَعْظَمُ أَمْرًا ؛ وَقَدْ تَنَكَّسَ الشَّمْسُ
 وَالْقَمَرُ إِذَا قُضِيَ ذَلِكَ عَلَيْهِمَا . ثُمَّ إِنَّ الْجُرْدَ أَخَذَ فِي قَرْضِ
 الْعَقْدِ الَّذِي فِيهِ الْمُطَوَّةُ . فَقَالَتْ لَهُ الْمُطَوَّةُ : أَبَدًا يَقْطَعُ
 عَقْدَ سَائِرِ الْجَمَامِ ، وَبَعْدَ ذَلِكَ أَقْبَلَ عَلَى عَقْدِي ؛ وَأَعَادَتْ
 ذَلِكَ عَلَيْهِ مَرَارًا ، وَهُوَ لَا يَلْتَفِتُ إِلَى قَوْلِهَا ؛ فَلَمَّا أَكْثَرَتْ
 عَلَيْهِ الْقَوْلَ وَكَرَّرَتْ ، قَالَ لَهَا : لَقَدْ كَرَّرْتَ الْقَوْلَ عَلَى
 كَأَنَّكَ لَيْسَ لَكَ فِي نَفْسِكَ حَاجَةٌ ، وَلَا لَكَ عَلَيْهَا شَفَقَةٌ ،
 وَلَا تَرَعِينَ لَهَا حَقًّا . قَالَتْ : إِنِّي أَخَافُ ، إِنْ أَنْتَ بَدَأْتَ
 بِقَطْعِ عَقْدِي أَنْ تَمَلَّ وَتَنكَسِلَ عَنْ قَطْعِ مَا بَقِيَ ؛ وَعَرَفْتُ أَنَّكَ
 إِنْ بَدَأْتَ بِهِنَ قَبْلِي ، وَكُنْتُ أَنَا الْأَخِيرَةَ ، لَمْ تَرْضَ ، وَإِنْ أَدْرَكَكَ
 الْفُتُورُ ، أَنْ أَبْقَى فِي الشَّرِكِ ، قَالَ الْجُرْدُ : هَذَا مِمَّا يَزِيدُ الرِّغْبَةَ
 وَالْمُودَّةَ فِيكَ . ثُمَّ إِنَّ الْجُرْدَ أَخَذَ فِي قَرْضِ الشَّبَكَةِ حَتَّى فَرَّغَ
 مِنْهَا ، فَانْطَلَقَتِ الْمُطَوَّةُ وَحَمَاهَا مَعَهَا .

فَلَمَّا رَأَى الْغُرَابُ صُنْعَ الْجُرْدِ ، رَغِبَ فِي مُصَادَقَتِهِ ؛ بَجَاءَ
 وَنَادَاهُ بِاسْمِهِ ، فَأَخْرَجَ الْجُرْدُ رَأْسَهُ ، فَقَالَ لَهُ : مَا حَاجَتُكَ ؟

قَالَ : إِنِّي أُرِيدُ مُصَادَقَتَكَ . قَالَ الْجُرَذُ : لَيْسَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ
 تَوَاصُلٌ ؛ وَإِنَّمَا الْعَاقِلُ يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَلْتَمِسَ مَا يَجِدُ إِلَيْهِ سَبِيلًا ،
 وَيَتْرَكَ التَّمَاسَ مَا لَيْسَ إِلَيْهِ سَبِيلٌ ؛ فَلَيْتَ مَا أَنْتَ إِلَّا كَلٌّ ،
 وَأَنَا طَعَامٌ لَكَ . قَالَ الْغُرَابُ : إِنَّ أَكْلِي إِيَّاكَ ، وَإِنْ كُنْتَ لِي
 طَعَامًا ، مِمَّا لَا يَغْنِي عَنِّي شَيْئًا ؛ وَإِنْ مَوَدَّتْكَ آنَسُ لِي مِمَّا
 ذَكَرْتَ ؛ وَلَسْتُ بِمُحَقِّقٍ ، إِذَا جِئْتُ أَطْلُبُ مَوَدَّتَكَ ، أَنْ تُرَدِّنِي
 خَائِبًا . فَإِنَّهُ قَدْ ظَهَرَ لِي مِنْكَ مِنْ حُسْنِ الْخُلُقِ مَا رَغِبْتَنِي فِيكَ ،
 وَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَلْتَمِسُ إِظْهَارَ ذَلِكَ : فَإِنَّ الْعَاقِلَ لَا يَخْفَى فَضْلُهُ ،
 وَإِنْ هُوَ أَخْفَاهُ ؛ كَالْمِسْكِ الَّذِي يُسَكَّمُ ثُمَّ لَا يَمْنَعُهُ ذَلِكَ مِنَ النَّشْرِ
 الطَّيِّبِ وَالْأَرْجِ الْفَاحِشِ . قَالَ الْجُرَذُ . إِنَّ أَشَدَّ الْعَدَاوَةِ عَدَاوَةُ
 الْجَوْهَرِ : وَهِيَ عَدَاوَتَانِ : مِنْهَا مَا هُوَ مُتَكَافٍ كَعَدَاوَةِ الْفِيلِ
 وَالْأَسَدِ . فَإِنَّهُ رُبَّمَا قَتَلَ الْأَسَدُ الْفِيلَ أَوِ الْفِيلُ الْأَسَدَ ؛ وَمِنْهَا
 مَا قُوَّتُهُ مِنْ أَحَدِ الْجَانِبَيْنِ عَلَى الْآخَرِ كَعَدَاوَةِ مَا بَيْنِي وَبَيْنَ السِّنُورِ
 وَبَيْنِي وَبَيْنَكَ : فَإِنَّ الْعَدَاوَةَ الَّتِي بَيْنَنَا لَيْسَتْ تَضُرُّكَ ؛ وَإِنَّمَا
 ضَرُّهَا عَائِدٌ عَلَيَّ : فَإِنَّ الْمَاءَ لَوْ أُطِيلَ إِسْتِخَانُهُ لَمْ يَمْنَعَهُ ذَلِكَ مِنْ

إِظْفَانِهِ النَّارَ إِذَا صَبَّ عَلَيْهَا ، وَإِنَّمَا مُصَاحِبُ الْعَدُوِّ وَمُصَاحِبُهُ
كَصَاحِبِ الْحَيَّةِ يَجْمَلُهَا فِي كُمِّهِ ، وَالْعَاقِلُ لَا يَسْتَأْذِنُ إِلَى الْعَدُوِّ
الْأَرِيبِ !

قَالَ الْغُرَابُ : قَدْ فَهِمْتُ مَا تَقُولُ ، وَأَنْتَ خَلِيقٌ أَنْ تَأْخُذَ
بِفَضْلِ خَلِيقَتِكَ ، وَتَعْرِفَ صِدْقَ مَقَالَتِي ، وَلَا تُضْعِبَ عَلَى
الْأَمْرِ يَقُولَكَ : لَيْسَ إِلَى التَّوَاصُلِ بَيْنَنَا سَبِيلٌ : فَإِنَّ الْعُقَلَاءَ
الْكِرَامَ لَا يَتَبَغَّوْنَ عَلَى مَعْرُوفٍ جَزَاءً ، وَالْمُودَّةُ بَيْنَ الصَّالِحِينَ
سَرِيعٌ اتِّصَالُهَا بِطَيِّءٍ انْقِطَاعُهَا . وَمِثْلُ ذَلِكَ مِثْلُ الْكُوزِ مِنْ
الذَّهَبِ : بِطَيِّءٍ الانكِسَارِ ، سَرِيعُ الْإِعَادَةِ ، هَيْنُ الْإِصْلَاحِ ،
إِنْ أَصَابَهُ ثَلَمٌ أَوْ كَسْرٌ ، وَالْمُودَّةُ بَيْنَ الْأَشْرَارِ سَرِيعٌ انْقِطَاعُهَا ،
بِطَيِّءٍ اتِّصَالِهَا . وَمِثْلُ ذَلِكَ مِثْلُ الْكُوزِ مِنَ الْفَخَّارِ ، سَرِيعُ
الْانكِسَارِ ، يَنْكَسِرُ مِنْ أَذْنَى عَيْبٍ ، وَلَا وَضِلَ لَهُ أَبَدًا . وَالْكَرِيمُ
يُودُّ الْكَرِيمَ ، وَاللَّيِّمُ لَا يُودُّ أَحَدًا إِلَّا عَنْ رَغْبَةٍ أَوْ رَهْبَةٍ . وَأَنَا
إِلَى وَدِّكَ وَمَعْرُوفِكَ مُحْتَاجٌ : لِأَنَّكَ كَرِيمٌ ، وَأَنَا مُلَازِمٌ لِبَابِكَ ،
غَيْرَ ذَائِقٍ طَعَامًا ، حَتَّى تُوَاعِظَنِي . قَالَ الْجُرَذُ : قَدْ قَبِلْتُ إِخَاءَكَ :

فَإِنِّي لَمْ أَرِذُّ أَحَدًا عَنْ حَاجَةٍ قَطُّ ، وَإِنَّمَا بَدَأْتُكَ بِمَا بَدَأْتُكَ
بِهِ إِرَادَةَ التَّوَقُّعِ لِنَفْسِي ، فَإِنِ أَنْتَ غَدَرْتَ بِي لَمْ تَقُلْ : إِنِّي
وَجَدْتُ الْجُرْدُ سَرِيعَ الْإِثْخَادِ . ثُمَّ خَرَجَ مِنْ بَحْرِهِ ، فَوَقَفَ
عِنْدَ الْبَابِ . فَقَالَ لَهُ الْغُرَابُ : مَا يَمْنَعُكَ مِنَ الْخُرُوجِ إِلَى ،
وَالْإِسْتِنَاسِ بِي ؟ فَهَلْ فِي نَفْسِكَ بَعْدَ ذَلِكَ مِنِّي رِيْبَةٌ ؟ قَالَ
الْجُرْدُ : إِنَّ أَهْلَ الدُّنْيَا يَتَعَاطَوْنَ فِيمَا بَيْنَهُمْ أَمْرَيْنِ ، وَيَتَوَاصِلُونَ
عَلَيْهِمَا ، وَهُمَا ذَاتُ النَّفْسِ ، وَذَاتُ الْيَدِ . فَاَلْمُتَبَادُلُونَ
ذَاتَ النَّفْسِ هُمُ الْأَصْفِيَاءُ ، وَأَمَّا الْمُتَبَادُلُونَ ذَاتَ الْيَدِ فَهُمْ
الْمُتَعَاوِنُونَ الَّذِينَ يَلْتَمِسُ بَعْضُهُمُ الْإِثْفَاعَ بِبَعْضٍ . وَمَنْ كَانَ
يَضَعُ الْمَعْرُوفَ لِبَعْضِ مَنَافِعِ الدُّنْيَا ، فَإِنَّمَا مَثَلُهُ فِيمَا يَبْدُلُ
وَيُعْطِي كَمَثَلِ الصَّيَّادِ وَالْقَائِمِ الْحَبَّ لِلطَّيْرِ ، لَا يُرِيدُ بِذَلِكَ نَفْعَ
الطَّيْرِ ، وَإِنَّمَا يُرِيدُ نَفْعَ نَفْسِهِ . فَتَعَاطَى ذَاتُ النَّفْسِ أَفْضَلُ مِنْ
تَعَاطَى ذَاتِ الْيَدِ . وَإِنِّي وَثِقْتُ مِنْكَ بِذَاتِ نَفْسِكَ ، وَمِنْحَتُكَ
مِنْ نَفْسِي مِثْلَ ذَلِكَ . وَلَيْسَ يَمْنَعُنِي مِنَ الْخُرُوجِ إِلَيْكَ سُوءُ ظَنِّي
بِكَ ، وَلَكِنْ قَدْ عَرَفْتُ أَنَّ لَكَ أَصْحَابًا جَوْهَرُهُمْ كَجَوْهَرِكَ ،
وَلَيْسَ رَأْيُهُمْ فِي كَرَائِكَ .

قَالَ الْغُرَابُ : إِنَّ مِنْ عَلَامَةِ الصَّدِيقِ أَنْ يَكُونَ لِصَدِيقِ
 صَدِيقِهِ صَدِيقًا ، وَلِعَدُوِّ صَدِيقِهِ عَدُوًّا ؛ وَلَيْسَ لِي بِصَاحِبِ
 وَلَا صَدِيقٍ مَنْ لَا يَكُونُ لَكَ مُحِبًّا ؛ وَإِنَّهُ يَهْوَنُ عَلَى قِطِيعَةٍ مِنْ
 كَانَ كَذَلِكَ مِنْ جَوْهَرِي . ثُمَّ إِنَّ الْجُرَذَ خَرَجَ إِلَى الْغُرَابِ ،
 فَتَصَاحَفَا وَتَصَافَيَا ، وَأَلَسَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا بِصَاحِبِهِ ؛ حَتَّى إِذَا
 مَضَتْ لهُمَا أَيَّامٌ قَالَ الْغُرَابُ لِلْجُرَذِ : إِنَّ جُحْرَكَ قَرِيبٌ مِنْ طَرِيقِ
 النَّاسِ ، وَأَخَافُ أَنْ يَرْمِيكَ بَعْضُ الصَّبْيَانِ بِحَجَرٍ ؛ وَلِي مَكَانٌ
 فِي عُرْلَةٍ ، وَلِي فِيهِ صَدِيقٌ مِنَ السَّلَاحِفِ ، وَهُوَ مُخَصَّبٌ مِنْ
 السَّمَكِ ، وَنَحْنُ وَاجِدُونَ هُنَاكَ مَا نَأْكُلُ ، فَأُرِيدُ أَنْ أَنْطَلِقَ بِكَ
 إِلَى هُنَاكَ لِنَعِيشَ آمِنِينَ . قَالَ الْجُرَذُ : إِنَّ لِي أَخْبَارًا وَقِصَصًا
 سَاقِصَةً عَلَيْكَ إِذَا أَنْتَهَيْنَا حَيْثُ تُرِيدُ ، فَأَفْعَلُ مَا تَشَاءُ . فَأَخَذَ
 الْغُرَابُ بِذَنْبِ الْجُرَذِ ، وَطَارَ بِهِ حَتَّى بَلَغَ بِهِ حَيْثُ أَرَادَ . فَلَمَّا
 دَنَا مِنَ الْعَيْنِ الَّتِي فِيهَا السَّلَحَفَةُ ، بَصُرَتِ السَّلَحَفَةُ بِغُرَابٍ وَمَعَهُ
 جُرَذٌ ، فَذَعِرَتْ مِنْهُ ، وَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّهُ صَاحِبُهَا ؛ فَنَادَاهَا ، فَخَرَجَتْ
 إِلَيْهِ ، وَسَأَلَتْهُ مِنْ أَيْنَ أَقْبَلْتَ ؟ فَأَخْبَرَهَا بِقِصَّتِهِ حِينَ تَبَعَ

لِحَمَامٍ ، وَمَا كَانَ مِنْ أَمْرِهِ وَأَمْرِ الْجُرَذِ حَتَّى انْتَهَى إِلَيْهَا .
 فَلَمَّا سَمِعَتْ السُّلْحَفَةُ شَأْنَ الْجُرَذِ ، عَجِبَتْ مِنْ عَقْلِهِ وَوَفَائِهِ ،
 وَرَحَّبَتْ بِهِ ، وَقَالَتْ لَهُ : مَا سَأَلَكَ إِلَى هَذِهِ الْأَرْضِ ؟ قَالَ
 الْغُرَابُ لِلْجُرَذِ : أَفْضُضْ عَلَيَّ الْأَخْبَارَ الَّتِي زَعَمْتَ أَنَّكَ تُحَدِّثُنِي
 بِهَا ، فَأُخْبِرَنِي بِهَا مَعَ جَوَابِ مَا سَأَلْتَ السُّلْحَفَةَ : فَإِنَّهَا
 عِنْدَكَ بِمَنْزِلَتِي ، فَبَدَأَ الْجُرَذُ وَقَالَ :

كَانَ مَنْزِلِي أَوَّلَ أَمْرِي بِمَدِينَةِ مَارُوتَ فِي بَيْتِ رَجُلٍ نَاسِكٍ ،
 وَكَانَ خَالِيًا مِنَ الْأَهْلِ وَالْعِيَالِ ، وَكَانَ يَوْتِي فِي كُلِّ يَوْمٍ بِسَلَّةٍ
 مِنَ الطَّعَامِ فَيَأْكُلُ مِنْهَا حَاجَتَهُ وَيُعَلِّقُ الْبَاقِي ، وَكُنْتُ أَرْصِدُ
 النَّاسِكَ ، حَتَّى يَخْرُجَ وَائْتِبُ إِلَى السَّلَّةِ ، فَلَا أَدْعُ فِيهَا طَعَامًا إِلَّا
 أَكَلْتُهُ ، وَأَزِمِّي بِهِ إِلَى الْجُرَذَانِ . فَجَهَدَ النَّاسِكُ مِرَارًا أَنْ يُعَلِّقَ
 السَّلَّةَ مَكَانًا لَا أَنَالَهُ فَلَمْ يَقْدِرْ عَلَى ذَلِكَ ، حَتَّى نَزَلَ بِهِ ذَاتَ لَيْلَةٍ
 ضَيْفٌ ، فَأَكَلَا جَمِيعًا ، ثُمَّ أَخَذَا فِي الْحَدِيثِ ، فَقَالَ النَّاسِكُ
 لِلضَّيْفِ : مِنْ أَيِّ أَرْضٍ أَقْبَلْتَ ؟ وَأَيْنَ تُرِيدُ الْآنَ ؟ وَكَانَ الرَّجُلُ
 قَدْ جَابَ الْآفَاقَ ، وَرَأَى عَجَائِبَ ، فَأَنْشَأَ يُحَدِّثُ النَّاسِكَ عَمَّا

^{عَلَى كَلْبِهِ}
 وَطَى مِنَ الْبِلَادِ ، وَرَأَى مِنَ الْعَجَائِبِ ؛ وَجَعَلَ النَّاسُكَ خِلَالَ
 ذَلِكَ يَصْفُقُ بِيَدَيْهِ ^{كَمَا يُوجَانَا} ، لِيَنْفِرَنِي عَنِ السَّلَةِ ؛ فَغَضِبَ الضَّيْفُ
 وَقَالَ : أَنَا أَحَدُكَ وَأَنْتَ تَهْزَأُ بِحَدِيثِي ! فَمَا حَمَلَكَ عَلَى أَنْ
 سَأَلْتَنِي ؟ فَاعْتَذَرَ إِلَيْهِ النَّاسُكَ ، وَقَالَ : إِنَّمَا أَصْفُقُ بِيَدَيَّ
 لِأَنْفَرُ جُرْذَا قَدْ تَحَيَّرْتُ فِي أَمْرِهِ ، وَلَسْتُ أَضْعُ فِي الْبَيْتِ شَيْئًا
 إِلَّا أَكَلَهُ ، فَقَالَ الضَّيْفُ : جُرْذٌ وَاحِدٌ يَفْعَلُ ذَلِكَ أَمْ جُرْذَانُ
 كَثِيرَةٌ ؟ فَقَالَ النَّاسُكَ : جُرْذَانُ الْبَيْتِ كَثِيرَةٌ ، وَلَكِنْ فِيهَا جُرْذٌ
 وَاحِدٌ هُوَ الَّذِي غَلَبَنِي ، فَمَا اسْتَطِيعَ لَهُ حِيلَةٌ . قَالَ الضَّيْفُ :
 لَقَدْ ذَكَّرْتَنِي قَوْلَ الَّذِي قَالَ : لِأَمْرِ مَا بَاعَتْ هَذِهِ الْمَرْأَةُ ^{بِئْسَ} سِنْمًا
 مَقْشُورًا بَغِيرِ مَقْشُورٍ ! قَالَ النَّاسُكَ : وَكَيْفَ كَانَ ذَلِكَ ؟

قَالَ الضَّيْفُ : نَزَلْتُ مَرَّةً عَلَى رَجُلٍ بِمَكَانٍ كَذَا ، فَتَعَشَيْتُنَا ،
 ثُمَّ فَرَشَ لِي . وَانْقَلَبَ الرَّجُلُ عَلَى فِرَاشِهِ ، فَسَمِعْتُهُ يَقُولُ فِي آخِرِ
 اللَّيْلِ لِأَمْرَأَتِهِ : إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أَدْعُو غَدًا رَهْطًا لِيَأْكُلُوا عِنْدَنَا ،
 فَنَاصِنِي لَهُمْ طَعَامًا . فَقَالَتِ الْمَرْأَةُ : كَيْفَ تَدْعُو النَّاسَ إِلَى

طَعَامِكَ ، وَلَيْسَ فِي يَدِكَ فَضْلٌ ^{بِحَاجَةٍ} عَنْ عِيَالِكَ ؟ وَأَنْتَ رَجُلٌ
لَا تُتْبِقُ شَيْئًا وَلَا تَدَّخِرُهُ . قَالَ الرَّجُلُ : لَا تَتَدَمَّى عَلَى شَيْءٍ أَطْعَمَنَاهُ
وَأَنْفَقَنَاهُ : فَإِنَّ الْجَمْعَ وَالْإِدْخَارَ رُبَّمَا كَانَتْ عَاقِبَتُهُ كَعَاقِبَةِ الذَّنْبِ .
قَالَتِ الْمَرْأَةُ وَكَيْفَ كَانَ ذَلِكَ ؟

قَالَ الرَّجُلُ : زَعَمُوا أَنَّهُ خَرَجَ ذَاتَ يَوْمٍ رَجُلٌ قَانِصٌ ، وَمَعَهُ
قَوْسُهُ وَلِسَابُهُ فَلَمْ يُجَاوِزْ غَيْرَ بَعِيدٍ ، حَتَّى رَمَى ظَبْيًا ^{سَارًّا بِهَرْلٍ} ، فَحَمَلَهُ وَرَجَعَ
طَالِبًا مَنْزِلَهُ ، فَاعْتَرَضَهُ خَنْزِيرٌ بَرِيٌّ فَرَمَاهُ بِنَشَابَةٍ نَفَذَتْ فِيهِ ؛
فَادْرَكَهُ الْخَنْزِيرُ وَضَرَبَهُ بِأَنْبِيَاهِهِ ضَرْبَةً أَطَارَتْ مِنْ يَدِهِ الْقَوْسُ ،
وَوَقَعَ مَيِّتِينَ ؛ فَأَتَى عَلَيْهِمْ ذَنْبٌ فَقَالَ : هَذَا الرَّجُلُ وَالظَّبْيُ
وَالْخَنْزِيرُ يَكْفِينِي أَكْلَهُمْ مَدَّةً ؛ وَلَكِنْ أَبْدَأُ بِهَذَا الْوَتَرِ فَأَكْلُهُ ،
فَيَكُونُ قُوَّتَ يَوْمِي ؛ فَعَالَجَ الْوَتَرَ حَتَّى قَطَعَهُ ؛ فَلَمَّا انْقَطَعَ
طَارَتْ سِيَةُ الْقَوْسِ ^(١) ، فَضْرَبَتْ حَلْقَهُ قَاتَ . وَإِنَّمَا ضَرَبْتُ
لَكَ هَذَا الْمَثَلَ لِتَعْلَى أَنْ الْجَمْعَ وَالْإِدْخَارَ وَخَيْمُ الْعَاقِبَةِ . فَقَالَتْ

الْمَرَأَةُ: نَعِمَ مَا قُلْتَ! وَعِنْدَنَا مِنَ الْأُرْزِ وَالسِّمِمْ مَا يَكْفِي سِتَّةَ
 زَهْرٍ أَوْ سَبْعَةٍ، فَأَنَا غَادِيَةٌ عَلَى اضْطِنَاعِ الطَّعَامِ؛ فَادْعُ مَنْ أَحْبَبْتَ .
 وَأَخَذَتِ الْمَرَأَةُ حِينَ أَصْبَحَتْ سِمِمًْا فَقَشَرَتْهُ، وَبَسَطَتْهُ فِي الشَّمْسِ
 لِيَجْفَ ، وَقَالَتْ لِغُلَامٍ لَهُمْ : اطْرُدْ عَنْهُ الطَّيْرَ وَالْكِلَابَ ،
 وَتَفَرَّغَتِ الْمَرَأَةُ لِصُنْعِهَا ، وَتَغَافَلَ الْغُلَامُ عَنِ السِّمِمْ ، بِخَاءِ
 كَلْبٍ ، فَعَاقَبَتْ فِيهِ ، فَاسْتَقْدَرَتْهُ الْمَرَأَةُ ، وَكَرِهَتْ أَنْ تَصْنَعَ مِنْهُ
 طَعَامًا مَا ، فَذَهَبَتْ بِهِ إِلَى السُّوقِ ، فَأَخَذَتْ بِهِ مُقَايِضَةً سِمِمًْا
 غَيْرَ مَقْشُورٍ : مِثْلًا بِمِثْلِ ، وَأَنَا وَاقِفٌ فِي السُّوقِ ، فَقَالَ رَجُلٌ :
 لِأَمْرِ مَا بَاعَتْ هَذِهِ الْمَرَأَةُ سِمِمًْا مَقْشُورًا بِغَيْرِ مَقْشُورٍ . وَكَذَلِكَ
 قَوْلِي فِي هَذَا الْجُرْدِ الَّذِي ذَكَرْتُ أَنَّهُ عَلَى غَيْرِ عِلَّةٍ مَا يَقْدِرُ عَلَى
 مَا شَكُوتَ مِنْهُ . فَالْتِمَسْ لِي فَأَسْأَلُ لَعَلِّي أُحْتَفَرُ بِجُرْدِهِ فَأُطْلَعَ عَلَى
 بَعْضِ شَأْنِهِ ! فَاسْتَعَارَ النَّاسِكُ مِنْ بَعْضِ حِيرَانِهِ فَأَسْأَلُ ، فَأَتَى
 بِهَا الضَّيْفَ ، وَأَنَا حِينَئِذٍ فِي جُحْرٍ غَيْرِ جُحْرِي أَسْمَعُ كَلَامَهُمَا ،
 وَفِي جُحْرِي كَيْسٌ فِيهِ مِائَةُ دِينَارٍ ، لَا أَذْرِي مَنْ وَضَعَهَا ، فَاحْتَفَرَ

الضَّيْفُ حَتَّى أَنْتَهَى إِلَى الدَّنَانِيرِ فَأَخَذَهَا وَقَالَ لِلنَّاسِكِ : مَا كَانَ
هَذَا الْجُرْدُ يَقْوَى عَلَى الْوُثُوبِ حَيْثُ كَانَ يَثْبُ إِلَّا بِهَذِهِ
الدَّنَانِيرِ : فَإِنَّ الْمَالَ جَعَلَ لَهُ قُوَّةً وَزِيَادَةً فِي الرَّأْيِ وَالتَّمَكُّنِ .
وَسَتَرَى بَعْدَ هَذَا أَنَّهُ لَا يَقْدِرُ عَلَى الْوُثُوبِ حَيْثُ كَانَ يَثْبُ .
فَلَمَّا كَانَ مِنَ الْغَدِ اجْتَمَعَ الْجُرْدَانُ الَّتِي كَانَتْ مَعِيَ فَقَالَتْ :
قَدْ أَصَابَنَا الْجُوعُ ، وَأَنْتَ رَجَاؤُنَا . فَانْطَلَقْتُ وَمَعِيَ الْجُرْدَانُ إِلَى
الْمَكَانِ الَّذِي كُنْتُ أَثْبُ مِنْهُ إِلَى السَّلَّةِ ، فَحَاوَلْتُ ذَلِكَ مِرَارًا :
فَلَمْ أَقْدِرْ عَلَيْهِ . فَاسْتَبَانَ لِلْجُرْدَانِ نَقْصُ حَالِي ؛ فَسَمِعْتُهُنَّ يَقُلْنَ :
أَنْصَرِفْنَ عَنْهُ ، وَلَا تَطْمَعْنَ فِيمَا عِنْدَهُ : فَإِنَّا نَرَى لَهُ حَالًا
لَا نَحْسَبُهُ إِلَّا قَدْ احْتَجَّاجَ مَعَهَا إِلَى مَنْ يَعُولُهُ . فَتَرَكْنِي ، وَلَحِقْنَ
بِأَعْدَائِي وَجَفَوْنَنِي ، وَأَخَذْنَ فِي غِيْبَتِي عِنْدَ مَنْ يُعَادِينِي وَيَحْسُدُونِي .
فَقُلْتُ فِي نَفْسِي : مَا الْإِخْوَانُ وَلَا الْأَعْوَانُ وَلَا الْأَصْدِقَاءُ إِلَّا
بِالْمَالِ وَوَجَدْتُ مَنْ لَا مَالَ لَهُ ، إِذَا أَرَادَ أَمْرًا ، قَعَدَ بِهِ الْعُدْمُ
عَمَّا يُرِيدُهُ : كَالْمَاءِ الَّذِي يَبْقَى فِي الْأَوْدِيَةِ مِنْ مَطَرِ الشَّتَاءِ :
لَا يَمُرُّ إِلَى نَهْرٍ وَلَا يَجْرِي إِلَى مَكَانٍ ، فَتَشْرَبُهُ أَرْضُهُ . وَوَجَدْتُ

مَنْ لَا إِخْوَانَ لَهُ لَا أَهْلَ لَهُ ، وَمَنْ لَا وَلَدَ لَهُ لَا ذِكْرَ لَهُ ، وَمَنْ لَا
 مَالَ لَهُ لَا عَقْلَ لَهُ ، وَلَا دُنْيَا وَلَا آخِرَةَ لَهُ : لِأَنَّ الرَّجُلَ إِذَا افْتَقَرَ
 قَطَعَهُ أَقَارِبُهُ وَإِخْوَانُهُ : فَإِنَّ الشَّجَرَةَ النَّابِتَةَ فِي السَّبَاحِ ، الْمَأْكُولَةَ
 مِنْ كُلِّ جَانِبٍ ، كَحَالِ الْفَقِيرِ الْمُحْتَاجِ إِلَى مَا فِي أَيْدِي النَّاسِ .
 وَوَجَدْتُ الْفَقْرَ رَأْسَ كُلِّ بَلَاءٍ ، وَجَالِبًا إِلَى صَاحِبِهِ كُلِّ مَقْتٍ ،
 وَمَعْدَنَ النَّمِيمَةِ . وَوَجَدْتُ الرَّجُلَ إِذَا افْتَقَرَ أَتَمَّهُ مِنْ كَانَ لَهُ
 مَوْتِمًا ، وَاسَاءَ بِهِ الظَّنُّ مَنْ كَانَ يَظُنُّ فِيهِ حَسَنًا : فَإِنْ أَذِنَ
 غَيْرُهُ كَانَ هُوَ لِلتَّهْمَةِ مَوْضِعًا . وَلَيْسَ مِنْ خَلَّةٍ هِيَ لِلْغَنِيِّ مَذْحٌ
 إِلَّا وَهِيَ لِلْفَقِيرِ ذَمٌّ ، فَإِنْ كَانَ شُجَاعًا قِيلَ : أَهْوَجُ ، وَإِنْ كَانَ
 جَوَادًا سُمِّيَ مُبَذِّرًا ، وَإِنْ كَانَ حَلِيمًا سُمِّيَ ضَعِيفًا ، وَإِنْ كَانَ
 وَقُورًا سُمِّيَ لَمِيدًا . فَالْمَوْتُ أَهْوَنُ مِنَ الْحَاجَةِ الَّتِي تُخْرِجُ صَاحِبَهَا
 إِلَى الْمَسْأَلَةِ ، وَلَا سِوَا مَسْأَلَةِ الْأَشْيَاءِ وَاللَّسَامِ : فَإِنَّ الْكَرِيمَ لَوْ
 كَلَّفَ أَنْ يَدْخُلَ يَدُهُ فِي فَمِ الْأَفْعَى ، فَيُخْرِجَ مِنْهُ سَمًا فَيَبْتَلِعَهُ ،
 كَانَ ذَلِكَ أَهْوَنَ عَلَيْهِ ، وَأَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ مَسْأَلَةِ الْبَخِيلِ اللَّئِيمِ .
 وَقَدْ كُنْتُ رَأَيْتُ الضَّعِيفَ حِينَ أَخَذَ الدَّنَانِيرَ فَقَاسَمَهَا النَّاسُكَ ،

فَفَعَلَ النَّاسُكَ نَصِيْبَهُ فِي خَرِيْطَةٍ عِنْدَ رَأْسِهِ لَمَّا جَنَّ اللَّيْلُ ،
فَطَمِعْتُ أَنْ أُصِيبَ مِنْهَا شَيْئًا فَأَرَدَهُ إِلَى جُحْرِي ، وَرَجَوْتُ أَنْ
يَزِيدَ ذَلِكَ فِي قُوَّتِي ، وَيُرَاجِعَنِي بِسَبَبِهِ بَعْضُ أَصْدِقَائِي . فَأَنْطَلَقْتُ
إِلَى النَّاسُكَ وَهُوَ نَائِمٌ ، حَتَّى انْتَهَيْتُ عِنْدَ رَأْسِهِ ، وَوَجَدْتُ
الضَّيْفَ يَقْظَانٌ ، وَبِيَدِهِ قَضِيبٌ ، فَضَرَبَنِي عَلَى رَأْسِي ضَرْبَةً
مَوْجَعَةً ، فَسَعَيْتُ إِلَى جُحْرِي . فَلَمَّا سَكَنَ عَنِّي الْأَلَمُ ، هَيَّجَنِي
الْحِرْصُ وَالشَّرُّ ، فَخَرَجْتُ طَمَعًا كَطَمَعِي الْأَوَّلِ ، وَإِذَا الضَّيْفُ
يَرْصُدُنِي ، فَضَرَبَنِي ضَرْبَةً أَسَالَتْ مِنِّي الدَّمَ ، فَتَقَابَلْتُ ظَهْرًا
لِبَطْنٍ إِلَى جُحْرِي ، فَخَرَزْتُ مَغْشِيًّا عَلَى ، فَأَصَابَنِي مِنَ الْوَجَعِ
مَا بَغَضَ إِلَى الْمَالِ ، حَتَّى لَا أَسْمَعَ بِذِكْرِهِ إِلَّا تَدَاخَلَنِي مِنْ ذِكْرِ
الْمَالِ رِعْدَةٌ وَهَيْبَةٌ . ثُمَّ تَذَكَّرْتُ فَوَجَدْتُ الْبَلَاءَ فِي الدُّنْيَا إِنَّمَا
يُسَوِّقُهُ الْحِرْصُ وَالشَّرُّ ، وَلَا يَزَالُ صَاحِبُ الدُّنْيَا فِي بَلِيَّةٍ وَتَعَبٍ
وَنَصَبٍ ، وَوَجَدْتُ تَجَشُّمَ الْأَسْفَارِ الْبَعِيدَةِ فِي طَلَبِ الدُّنْيَا
أَهْوَنَ عَلَى مَنْ بَسَطَ الْيَدَ إِلَى السَّخِيِّ بِالْمَالِ ، وَلَمْ أَرَ كَالرُّضَا

شَيْئًا ، فَصَارَ أَمْرِي إِلَى أَنْ رَضِيتُ وَقَعْتُ ، وَانْتَقَلْتُ مِنْ
بَيْتِ النَّاسِكِ إِلَى الْبَرِيَّةِ ، وَكَانَ لِي صَدِيقٌ مِنَ الْحَمَامِ ، فَسِيقَتْ
إِلَى بِصَدَاقَتِهِ صَدَاقَةٌ . ثُمَّ ذَكَرَ لِي الْغُرَابُ مَا بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ مِنَ
الْمُودَّةِ ، وَأَخْبَرَنِي أَنَّهُ يُرِيدُ إِتْيَانِكَ ، فَأَحْبَبْتُ أَنْ آتِيكَ مَعَهُ ،
فَكَرِهْتُ الْوَحْدَةَ ، فَإِنَّهُ لَا شَيْءَ مِنْ سُرُورِ الدُّنْيَا يَعْدِلُ صُحْبَةَ
الْإِخْوَانِ ، وَلَا غَمٌّ فِيهَا يَعْدِلُ الْبُعْدَ عَنْهُمْ . وَجَرَّبْتُ : فَعَلِمْتُ
أَنَّهُ لَا يَنْبَغِي لِلْعَاقِلِ أَنْ يَلْتَمَسَ مِنَ الدُّنْيَا غَيْرَ الْكَفَافِ الَّذِي
يَدْفَعُ بِهِ الْأَذَى عَنْ نَفْسِهِ : وَهُوَ الْيَسِيرُ مِنَ الْمَطْعَمِ وَالْمَشْرَبِ ،
إِذَا اشْتَمَلَ عَلَى صِحَّةِ الْبَدَنِ وَرَفَاهَةِ الْبَالِ . وَلَوْ أَنَّ رَجُلًا وَهَبَتْ لَهُ
الدُّنْيَا بِمَا فِيهَا ، لَمْ يَكُ يَنْتَفِعُ مِنْ ذَلِكَ إِلَّا بِالْقَلِيلِ الَّذِي
يَدْفَعُ بِهِ عَنْ نَفْسِهِ الْحَاجَةَ : فَأَقْبَلْتُ مَعَ الْغُرَابِ إِلَيْكَ عَلَى هَذَا
الرَّأْيِ ، وَأَنَا لَكَ أَخٌ ، فَلَتَكُنْ مَنَزِلَتِي عِنْدَكَ كَذَلِكَ .

فَلَمَّا فَرَغَ الْجُرُذُ مِنْ كَلَامِهِ أَجَابَتْهُ السُّلْحَفَةُ بِكَلَامٍ رَقِيقٍ
عَذِيبٍ ، وَقَالَتْ : قَدْ سَمِعْتُ كَلَامَكَ ، وَمَا أَحْسَنَ مَا تَحَدَّثْتَ بِهِ !
إِلَّا أَنِّي رَأَيْتُكَ تَذْكُرُ بَقَايَا أُمُورِهِ فِي نَفْسِكَ . وَاعْلَمْ أَنَّ

حُسْنَ الْكَلَامِ لَا يَتِمُّ إِلَّا بِحُسْنِ الْعَمَلِ ، وَأَنَّ الْمَرِيضَ الَّذِي قَدْ
 عَلِمَ دَوَاءَ مَرَضِهِ إِنْ لَمْ يَتَدَاوِ بِهِ ، لَمْ يُغْنِ عِلْمُهُ بِهِ شَيْئًا ، وَلَمْ يَجِدْ
 لِدَائِهِ رَاحَةً وَلَا خَفَّةً . فَاسْتَعْمِلْ رَأْيَكَ ، وَلَا تَحْزَنْ لِقَلَّةِ الْمَالِ :
 فَإِنَّ الرَّجُلَ ذَا الْمُرُوءَةِ قَدْ يُكْرَمُ عَلَى غَيْرِ مَالٍ : كَالْأَسَدِ الَّذِي
 يَهَابُ ، وَإِنْ كَانَ رَاضِيًا ، وَالْغَنِيِّ الَّذِي لَا مُرُوءَةَ لَهُ يَهَانُ ،
 وَإِنْ كَانَ كَثِيرَ الْمَالِ : كَالْكَلْبِ لَا يُحْفَلُ بِهِ ، وَإِنْ طَوَّقَ
 وَخُلِخِلَ بِالذَّهَبِ . فَلَا تَكْبُرَنَّ عَلَيْكَ غُرْبَتُكَ : فَإِنَّ الْعَاقِلَ
 لَا غُرْبَةَ لَهُ : كَالْأَسَدِ الَّذِي لَا يَنْقَابُ إِلَّا وَمَعَهُ قُوَّتُهُ . فَلْتُحْسِنْ
 لِعَاهِدِكَ لِنَفْسِكَ : فَإِنَّكَ إِذَا فَعَلْتَ ذَلِكَ جَاءَكَ الْخَيْرُ يَطْلُبُكَ
 كَمَا يَطْلُبُ الْمَاءُ الْخِدَارَهُ . وَإِنَّمَا جَعَلَ الْفَضْلُ لِلْحَازِمِ الْبَصِيرِ
 بِالْأُمُورِ ، وَمَا الْكَسْلَانُ الْمُسْتَرِدُّ فَإِنَّ الْفَضْلَ لَا يَصْحَبُهُ . وَقَدْ
 قِيلَ فِي أَشْيَاءَ لَيْسَ لَهَا ثَبَاتٌ وَلَا بَقَاءٌ : ظِلُّ الْغَمَامَةِ فِي الصَّيْفِ ،
 وَخَلَّةُ الْأَشْرَارِ ، وَالْبِنَاءُ عَلَى غَيْرِ أُسَاسٍ ، وَالْمَالُ الْكَثِيرُ :

(١) يذكر أن يكون مأخوذاً من المحلل وهو موضع الخنخال ولا فان كلمة خاغل لم ترد صريحاً إلا في معنى خاغل اعظم أخذ ما عليه من الغم والخنخال مشتق فهو يشعر أن له فعلاً وإن لم تذكره المعاجم لأنها لا تعرض للقياس أو هو مما أميت من الكلام .

فَالْعَاقِلُ لَا يَحْزَنُ لِقَلَّتِهِ ، وَإِنَّمَا مَالُ الْعَاقِلِ عَقْلُهُ ، وَمَا قَدِيمٌ
 مِنْ صَالِحِ عَمَلِهِ ، فَهُوَ وَاثِقٌ بِأَنَّهُ لَا يَسْلُبُ مَا عَمِلَ ، وَلَا يُؤَاخِذُ
 بِشَيْءٍ لَمْ يَعْمَلْهُ ، وَهُوَ خَلِيقٌ إِلَّا يَغْفُلَ عَنْ أَمْرِ آخِرَتِهِ : فَإِنَّ
 الْمَوْتَ لَا يَأْتِي إِلَّا بَغْتَةً ، لَيْسَ لَهُ وَقْتُ مُعَيَّنٌ . وَأَنْتَ عَنْ
 مَوْعِظَتِي غَنِيٌّ بِمَا عِنْدَكَ مِنَ الْعِلْمِ . وَلَكِنْ رَأَيْتُ أَنَّ أَقْصَى
 مَالِكَ مِنْ حَقِّ قَبْلَنَّا : لِأَنَّكَ أَخُونَا ، وَمَا عِنْدَنَا مِنَ النَّصِيحِ
 مَبْذُولٌ لَكَ .

فَلَمَّا سَمِعَ الْغُرَابُ كَلَامَ السُّلْحَفَةِ لِلْجُرَذِ ، وَرَدَّهَا عَلَيْهِ ،
 وَمَلَّاطَفَتَهَا إِيَّاهُ فَرِحَ بِذَلِكَ ، وَقَالَ : لَقَدْ سَرَرْتَنِي ، وَأَنْعَمْتَ
 عَلَيَّ ، وَأَنْتَ جَدِيرٌ أَنْ تُسَرِّيَ نَفْسِي بِمِثْلِ مَا سَرَرْتَنِي بِهِ . وَإِنْ
 أَوْلَى أَهْلِ الدُّنْيَا بِشِدَّةِ السُّرُورِ مَنْ لَا يَزَالُ رُبْعُهُ مِنْ إِخْوَانِهِ
 وَأَصْدِقَانِهِ مِنَ الصَّالِحِينَ مَعْمُورًا ، وَلَا يَزَالُ عِنْدَهُ مِنْهُمْ جَمَاعَةٌ
 يَسْرُهُمْ وَيُسْرُونَهُ ، وَيَكُونُ مِنْ وَرَاءِ أُمُورِهِمْ وَحَاجَاتِهِمْ
 بِالْمُرْصَادِ : فَإِنَّ الْكَرِيمَ إِذَا عَثَرَ لَا يَأْخُذُ بِيَدِهِ إِلَّا الْكَرَامُ :
 كَالْفِيلِ إِذَا وَحَلَ لَا تُخْرِجُهُ إِلَّا الْفَيْلَةُ .

فَبَيْنَمَا الْغُرَابُ فِي كَلَامِهِ ، إِذْ أَقْبَلَ نَحْوَهُمْ ظَبْيٌ يَسْعَى ،
فَدُعِرَتْ مِنْهُ السُّلْحَفَاءُ ، فَغَاصَتْ فِي الْمَاءِ ، وَخَرَجَ الْجُرُذُ
إِلَى جُحْرِهِ ، وَطَارَ الْغُرَابُ ، فَوَقَعَ عَلَى شَجَرَةٍ . ثُمَّ إِنَّ الْغُرَابَ حَلَقَ
فِي السَّمَاءِ لِيَنْظُرَ هَلْ لِلظَّبْيِ طَالِبٌ ؟ فَظَرَ فَلَمْ يَرْ شَيْئًا ، فَنَادَى
الْجُرُذَ وَالسُّلْحَفَاءَ ، وَخَرَجَا ، فَقَالَتِ السُّلْحَفَاءُ لِلظَّبْيِ ، حِينَ
رَأَتْهُ يَنْظُرُ إِلَى الْمَاءِ : أَشْرَبَ إِنْ كَانَ بِكَ عَطَشٌ ، وَلَا تَخَفْ :
فَإِنَّهُ لَا خَوْفَ عَلَيْكَ . فَدَنَا الظَّبْيُ ، فَرَحَّبَتْ بِهِ السُّلْحَفَاءُ
وَحَيْتُهُ ، وَقَالَتْ لَهُ : مِنْ أَيْنَ أَقْبَلْتَ ؟ قَالَ : كُنْتُ أُسْنَحُ^(١)
بِهَذِهِ الصَّحَارَى . فَلَمْ تَزَلِ الْأَسَاوِرُ تَطْرُدُنِي مِنْ مَكَانٍ إِلَى
مَكَانٍ . حَتَّى رَأَيْتُ الْيَوْمَ شَبَعًا . نَخِفْتُ أَنْ يَكُونَ قَانِصًا .
قَالَتْ : لَا تَخَفْ : فَإِنَّا لَمْ نَرَهَا هُنَا قَانِصًا قَطُّ ، وَنَحْنُ نَبْدُلُ
لَكَ وَدُنَا وَمَكَانَنَا ، وَالْمَاءَ وَالْمَرْعَى كَثِيرَانِ عِنْدَنَا : فَارْغَبْ
فِي صُحْبَتِنَا . فَأَقَامَ الظَّبْيُ مَعَهُمْ ، وَكَانَ لَهُمْ عَرِيشٌ يَجْتَمِعُونَ^(٢)

(١) اسنح من الصيد : مامر من الميامر الى الميامر . والبارح صده ، والمراد هنا مطلق الرتوع .

(٢) جمع إسوار وهو الرامي بالسهم .

(٣) مكان يستظل به .

فِيهِ ، وَيتَذَكَّرُونَ الْأَحَادِيثَ وَالْأَخْبَارَ . فَبَيْنَمَا الْغُرَابُ وَالْجُرُذُ
وَالسُّلْحَفَاءُ ذَاتَ يَوْمٍ فِي الْعَرِيشِ ، غَابَ الظَّنِيُّ ، فَتَوَقَّعُوهُ سَاعَةً ،
فَلَمْ يَأْتِ . فَلَمَّا أَبْطَأَ أَشْفَقُوا ^(١) أَنْ يَكُونَ قَدْ أَصَابَهُ عَنَتٌ ^(٢) ،
فَقَالَ الْجُرُذُ وَالسُّلْحَفَاءُ لِلْغُرَابِ : أَنْظِرْ هَلْ تَرَى مِمَّا يَلِينَا شَيْئًا ؟
فَخَلَقَ الْغُرَابُ فِي السَّمَاءِ فَنَظَرَ : فَلِذَا الظَّنِيُّ فِي الْحَبَائِلِ مُقْتَنَصًا ،
فَانْقَضَ مُسِرًّا ، فَأَخْبَرَهُمَا بِذَلِكَ ، فَقَالَتِ السُّلْحَفَاءُ وَالْغُرَابُ
لِلْجُرُذِ : هَذَا أَمْرٌ لَا يُرْجَى فِيهِ غَيْرُكَ ، فَأَغِثْ أَخَاكَ . فَسَعَى
الْجُرُذُ مُسِرًّا ، فَأَتَى الظَّنَّيَّ ، فَقَالَ لَهُ : كَيْفَ وَقَعْتَ فِي هَذِهِ
الْوَرْطَةِ وَأَنْتَ مِنَ الْأَكْيَاسِ ^(٣) ؟ قَالَ الظَّنِيُّ : هَلْ يُغْنِي الْكَئِيسُ
مَعَ الْمَقَادِيرِ شَيْئًا ، فَبَيْنَمَا هُمَا فِي الْحَدِيثِ إِذْ وَافَتْهُمَا السُّلْحَفَاءُ ،
فَقَالَ لَهَا الظَّنِيُّ . مَا أَصَبَتْ بِمَجِئِكَ إِلَيْنَا : فَإِنَّ الْقَانِصَ لَوْ
انْتَهَى إِلَيْنَا وَقَدْ قَطَعَ الْجُرُذُ الْحَبَائِلَ اسْتَبَقَتْهُ عَذْوًا ، وَلِلْجُرُذِ
أَجْحَارٌ كَثِيرَةٌ ، وَالْغُرَابُ يَطِيرُ ، وَأَنْتَ ثَقِيلَةٌ : لَا سَعَى لَكَ
وَلَا حَرَكَةٌ ، وَأَخَافُ عَلَيْكَ الْقَانِصَ . قَالَتْ : لَا عَيْشَ مَعَ

(١) خافوا . (٢) وقوع في أمر شاق . (٣) جمع كئيس وهو الفطن الظريف .

فِرَاقِ الْأَحِبَّةِ ، وَإِذَا فَارَقَ الْأَلِيفُ أَلِيفَهُ فَقَدْ سَلِبَ فُؤَادَهُ ،
وَحَرِمَ سُرُورَهُ ، وَغَشِيَ بَصَرَهُ . فَلَمْ يَنْتَهِ كَلَامُهَا حَتَّى وَافَى
الْقَانِصُ ، وَوَافَقَ ذَلِكَ فَرَاغَ الْجُرْدِ مِنْ قَطْعِ الشَّرِكِ ؛ فَنَجَا
الظَّبْيُ بِنَفْسِهِ ، وَطَارَ الْغُرَابُ مُحَلِّقًا ، وَدَخَلَ الْجُرْدُ بَعْضَ
الْأَجْحَارِ ، وَلَمْ يَبْقَ غَيْرُ السَّلْحَفَةِ ؛ وَدَنَا الصَّيَّادُ فَوَجَدَ حَبَالَتَهُ
مُقَطَّعَةً ، فَنَظَرَ يَمِينًا وَشِمَالًا فَلَمْ يَجِدْ غَيْرَ السَّلْحَفَةِ تَدْبُ ، فَأَخَذَهَا
وَرَبَطَهَا ، فَلَمْ يَلْبَثِ الْغُرَابُ وَالْجُرْدُ وَالظَّبْيُ أَنْ اجْتَمَعُوا فَنَظَرُوا
الْقَانِصَ قَدْ رَبَطَ السَّلْحَفَةَ ، فَاشْتَدَّ حُزْنُهُمْ ، وَقَالَ الْجُرْدُ :
مَا أَرَانَا نُجَاوِزُ عَقَبَةَ مِنَ الْبَلَاءِ إِلَّا صِرْنَا فِي أَشَدِّ مِنْهَا . وَلَقَدْ
صَدَقَ الَّذِي قَالَ : لَا يَزَالُ الْإِنْسَانُ مُسْتَمِرًّا فِي إِقْبَالِهِ مَا لَمْ يَغْتَرْ ؛
فَإِذَا عَثَرَ لَجَّ بِهِ الْعِثَارُ ، وَإِنْ مَشَى فِي جَدَدِ الْأَرْضِ ^(٢) . وَحَذَرِي
عَلَى السَّلْحَفَةِ خَيْرَ الْأَصْدِقَاءِ الَّتِي خُلَّتْهَا لَيْسَتْ لِلْمُجَازَةِ وَلَا
لِالْتِمَاسِ مُكَافَأَةٍ ، وَلَكِنَّهَا خُلَّةُ الْكَرَمِ وَالشَّرَفِ ، خُلَّةٌ هِيَ

أَفْضَلُ مِنْ خُلَّةِ الْوَالِدِ لِوَلَدِهِ ، خُلَّةٌ لَا يُزِيلُهَا إِلَّا الْمَوْتُ . وَيَحْ
 لَهَذَا الْجَسَدِ الْمُوَكَّلِ بِهِ الْبَلَاءُ الَّذِي لَا يَزَالُ فِي تَصَرُّفٍ وَتَقَلُّبٍ ،
 وَلَا يَدُومُ لَهُ شَيْءٌ ، وَلَا يَلْبَثُ مَعَهُ أَمْرٌ : كَمَا لَا يَدُومُ لِلطَّالِعِ
 مِنَ النُّجُومِ طُلُوعٌ ، وَلَا لِلْأَفِلِّ مِنْهَا أَفُولٌ ، لَكِنْ لَا يَزَالُ الطَّالِعُ
 مِنْهَا أَفِلًا ، وَالْأَفِلُ طَالِعًا ، وَكَمَا تَكُونُ آلَامُ الْكُلُومِ ^(١) وَانْتِقَاضُ
 الْجِرَاحَاتِ ، كَذَلِكَ مَنْ قَرِحَتْ كُلُّومُهُ يَفْقِدُ إِخْوَانَهُ بَعْدَ
 اجْتِمَاعِهِ بِهِمْ . فَقَالَ الظُّبِّيُّ وَالْغُرَابُ لِلْجُرُذِ : إِنَّ حَذَرَنَا وَحَذَرَكَ
 وَكَلَامَكَ ، وَإِنْ كَانَ بَلِيغًا ، كُلُّ مِنْهَا لَا يُغْنِي عَنِ السَّلْحَفَةِ
 شَيْئًا . وَإِنَّهُ كَمَا يُقَالُ : إِيَّمَا يُخْتَبَرُ النَّاسُ عِنْدَ الْبَلَاءِ ، وَذُو
 الْأَمَانَةِ عِنْدَ الْأَخْذِ وَالْعَطَاءِ ، وَالْأَهْلُ وَالْبَوْلُ عِنْدَ الْفَاقَةِ ؛ كَذَلِكَ
 يُخْتَبَرُ الْإِخْوَانُ عِنْدَ النَّوَائِبِ . قَالَ الْجُرُذُ : أَرَى مِنَ الْحِيلَةِ أَنْ
 تَذَهَبَ ، أَيُّهَا الظُّبِّيُّ ، فَتَقَعَ بِمَنْظَرٍ مِنَ الْقَانِصِ : كَأَنَّكَ جَرِيحٌ ،
 وَيَقَعُ الْغُرَابُ عَلَيْكَ كَأَنَّهُ يَأْكُلُ مِنْكَ ، وَأَسْعَى أَنَا فَأَكُونُ قَرِيبًا
 مِنَ الْقَانِصِ ، مُرَاقِبًا لَهُ ، فَعَلَّهُ أَنْ يَرِمِي مَا مَعَهُ مِنَ الْآلَةِ ،

(١) جمع كلم وهو المرح

وَيَضَعُ السَّاحِفَاةَ ، وَيَقْصِدُكَ طَامِعًا فِيكَ ، رَاجِيًا تَحْصِيلَكَ .
فَإِذَا دَنَا مِنْكَ فَفَرَّ عَنْهُ رُويْدًا : بِحَيْثُ لَا يَنْقَطِعُ طَمَعُهُ مِنْكَ ،
وَمَكَنَّهُ مِنْ أَخْذِكَ مَرَّةً بَعْدَ مَرَّةٍ ، حَتَّى يَبْعُدَ عَنَّا ، وَأَنْحُ مِنْهُ
هَذَا النَّخْوَ مَا اسْتَطَعْتَ : فَإِنِّي أَرْجُو إِلَّا يَنْصَرِفَ إِلَّا وَقَدْ
قَطَعْتُ الْحَبَائِلَ عَنِ السَّلْحَفَاةِ ، وَأَنْجُو بِهِمَا . فَفَعَلَ الْغُرَابُ
وَالظَّبْيُ مَا أَمَرَهُمَا بِهِ الْجُرْدُ ، وَتَبِعَهُمَا الْقَانِصُ ، فَاسْتَجَرَهُ الظَّبْيُ ،
حَتَّى أَبْعَدَهُ عَنِ الْجُرْدِ وَالسَّلْحَفَاةِ ، وَالْجُرْدُ مُقْبِلٌ عَلَى قَطْعِ
الْحَبَائِلِ ، حَتَّى قَطَعَهَا ، وَنَجَا بِالسَّلْحَفَاةِ ، وَعَادَ الْقَانِصُ
مَجْهُودًا لَا غِبًا ^(١) فَوَجَدَ حِبَالَتَهُ مُقَطَّعَةً . فَفَكَرَ فِي أَمْرِهِ مَعَ الظَّبْيِ
الْمُنْتَظَالِجِ ^(٢) ، فَظَنَّ أَنَّهُ خُوِلَطَ فِي عَقْلِهِ ، وَفَكَرَ فِي أَمْرِ الظَّبْيِ
وَالْغُرَابِ الَّذِي كَانَهُ يَأْكُلُ مِنْهُ ، وَقَرَضَ حِبَالَتَهُ ، فَاسْتَوْحَشَ
مِنَ الْأَرْضِ وَقَالَ : هَذِهِ أَرْضُ جِنٍّ أَوْ سَحَرَةٍ . فَرَجَعَ مُوَلِّيًا
لَا يَلْتَمِسُ شَيْئًا ، وَلَا يَلْتَفِتُ إِلَيْهِ . وَاجْتَمَعَ الْغُرَابُ وَالظَّبْيُ
وَالْجُرْدُ وَالسَّلْحَفَاةُ إِلَى عَرِيشِهِمْ سَا لِمِينَ آمِنِينَ كَأَحْسَنِ
مَا كَانُوا عَلَيْهِ .

(١) تعباً . (٢) المتظاهرين بالظَّلَع وهو مشى شبه بالمرج .

فَإِذَا كَانَ هَذَا الْخَلْقُ مَعَ صِغَرِهِ وَضَعْفِهِ قَدْ قَدَّرَ عَلَى التَّخَلُّصِ
 مِنْ مَرَابِطِ الْهَلَكَةِ مَرَّةً بَعْدَ أُخْرَى بِمَوَدَّتِهِ وَخُلُوصِهَا ، وَثَبَاتِ
 قَلْبِهِ عَلَيْهَا ، وَاسْتِمْتَاعِهِ مَعَ أَصْحَابِهِ بَعْضِهِمْ بِبَعْضٍ ، فَالْإِنْسَانُ
 الَّذِي قَدْ أُعْطِيَ الْعَقْلَ وَالْفَهْمَ . وَالْهَمَّ الْخَيْرَ وَالشَّرَّ ، وَمُنَحَّ
 التَّمْيِيزَ وَالْمَعْرِفَةَ ، أَوَّلَى وَأُخْرَى بِالتَّوَاصُلِ وَالتَّعَاوُدِ . فَهَذَا مَثَلُ
 إِخْوَانِ الصَّفَاءِ وَاتِّلَافِهِمْ فِي الصَّحْبَةِ .

(اقصى باب الجماعة المطوقة)

بَابُ الْبُومِ وَالْغُرَبَانِ

قَالَ دَبْشَلِيمُ الْمَلِكُ لِبَيْدَبَا الْفَيْلَسُوفِ : قَدْ سَمِعْتُ مَثَلُ إِخْوَانِ
 الصَّفَاءِ وَتَعَاوُنِهِمْ ، فَاضْرِبْ لِي مَثَلَ الْعَدُوِّ الَّذِي لَا يَنْبَغِي أَنْ
 يُغْتَرَّ بِهِ ، وَإِنْ أَظْهَرَ تَضَرُّعًا وَمَلَقًا . قَالَ الْفَيْلَسُوفُ : مَنْ أَغْتَرَّ
 بِالْعَدُوِّ الَّذِي لَمْ يَزَلْ عَدُوًّا ، أَصَابَهُ مَا أَصَابَ الْبُومَ مِنَ الْغُرَبَانِ .
 قَالَ الْمَلِكُ : وَكَيْفَ كَانَ ذَلِكَ ؟

قَالَ بَيْدَبَا : زَعَمُوا أَنَّهُ كَانَ فِي جَبَلٍ مِنَ الْجِبَالِ شَجَرَةٌ مِنْ شَجَرِ
 الدَّوْحِ ، فِيهَا وَكْرُ أَلْفِ غُرَابٍ ، وَعَلَيْهِنَّ وَالٍ مِنْ أَنْفُسِهِنَّ ؛
 (١)

وَكَانَ عِنْدَ هَذِهِ الشَّجَرَةِ كَهْفٌ فِيهِ أَلْفُ بَوْمَةٍ ، وَعَلَيْهِنَّ وَالِ
 مِنْهُنَّ . فَخَرَجَ مَلِكُ الْبُومِ لِبَعْضِ غُدُوَاتِهِ ^(١) وَرَوْحَاتِهِ ؛ وَفِي نَفْسِهِ
 الْعَدَاوَةُ لِمَلِكِ الْغُرَبَانِ ؛ وَفِي نَفْسِ الْغُرَبَانِ وَمَلِكِهَا مِثْلُ ذَلِكَ
 لِلْبُومِ ؛ فَأَعَارَ مَلِكُ الْبُومِ فِي أَصْحَابِهِ عَلَى الْغُرَبَانِ فِي أَوْكَارِهَا ،
 فَقَتَلَ وَسَبَى مِنْهَا خَلْقًا كَثِيرًا ، وَكَانَتْ الْغَارَةُ لَيْلًا ؛ فَلَمَّا
 أَصْبَحَتِ الْغُرَبَانُ اجْتَمَعَتْ إِلَى مَلِكِهَا فَقُلْنَ لَهُ : قَدْ عَلِمْتَ
 مَا لَقِينَا اللَّيْلَةَ مِنْ مَلِكِ الْبُومِ ، وَمَا مِنَّا إِلَّا مَنْ أَصْبَحَ قَتِيلًا
 أَوْ جَرِيحًا أَوْ مَكْسُورَ الْجَنَاحِ أَوْ مَتُوفَ الرِّيشِ أَوْ مَقْطُوفَ الدَّنْبِ
 وَأَشَدُّ مِمَّا أَصَابَنَا ضَرًّا عَلَيْنَا جَرَاءَتُهُنَّ عَلَيْنَا ، وَعَلَيْهِنَّ بِمَكَانِنَا ،
 وَهُنَّ عَائِدَاتٌ إِلَيْنَا غَيْرُ مُنْقَطِعَاتٍ عَنَّا : لِعَلَّيْهِنَّ بِمَكَانِنَا : فَلِئِمَّا
 نَحْنُ لَكَ ، وَلَكَ الرَّأْيُ ، أَيُّهَا الْمَلِكُ ، فَانْظُرْنَا وَلِنَفْسِكَ .
 وَكَانَ فِي الْغُرَبَانِ خَمْسَةٌ مُعْتَرِفُونَ بِحُسْنِ الرَّأْيِ ، يُسْنَدُ إِلَيْهِنَّ
 فِي الْأُمُورِ ، وَيُلْقَى عَلَيْهِنَّ أَرْمَةٌ الْأَحْوَالِ . وَكَانَ الْمَلِكُ كَثِيرًا
 مَا يُسْأَرُهُنَّ فِي الْأُمُورِ ، وَيَأْخُذُ آرَاءَهُنَّ فِي الْحَوَادِثِ
 وَالنَّوَازِلِ .

(١) جمع غُدوة وهي الذهاب في البكرة .

فَقَالَ الْمَلِكُ لِلأَوَّلِ مِنَ الْخَمْسَةِ : مَا رَأَيْكَ فِي هَذَا الأَمْرِ ؟
 قَالَ : رَأَيْي قَدْ سَبَقْتَنَا إِلَيْهِ الْعُلَمَاءُ ، وَذَلِكَ أَنَّهُمْ قَالُوا : لَيْسَ
 لِلْعَدُوِّ الْحَقُّ إِلَّا الْهَرَبُ مِنْهُ ^(١) . قَالَ الْمَلِكُ لِلثَّانِي : مَا رَأَيْكَ
 أَنْتَ فِي هَذَا الأَمْرِ ؟ قَالَ : رَأَيْي مَا رَأَى هَذَا مِنَ الْهَرَبِ .
 قَالَ الْمَلِكُ : لَا أَرَى لَكُمْ ذَلِكَ رَأْيًا ، أَنْ نَرْحَلَ عَنْ أَوْطَانِنَا
 وَنُخْلِهَا لِعَدُونِنَا مِنْ أَوَّلِ نَكْبَةٍ أَصَابَتْنا مِنْهُ ، وَلَا يَنْبَغِي لَنَا ذَلِكَ ،
 وَلَكِنْ نُجْمِعُ أَمْرَنَا ، وَنُسْتَعِدُّ لِعَدُونِنَا ، وَنُذِكِّي نَارَ الْحَرْبِ فِيمَا ^(٢)
 بَيْنَنَا وَبَيْنَ عَدُونِنَا ، وَنُخْتَرِسُ مِنَ الْغَرَةِ إِذَا أَقْبَلَ إِلَيْنَا ، فَنَلْقَاهُ ^(٣)
 مُسْتَعِدِّينَ ، وَنُقَاتِلُهُ قِتَالًا غَيْرَ مُرَاجِعِينَ فِيهِ ، وَلَا مُقْصِرِينَ
 عَنْهُ ، وَتَلْقَى أَطْرَافُنَا أَطْرَافَ الْعَدُوِّ ، وَنُحَرِّزُ بِحُصُونِنَا ، وَنُدَافِعُ
 عَدُونَنَا : بِالْأَنَاءِ مَرَّةً ، وَبِالْجَلَادِ أُخْرَى ^(٤) ، حَيْثُ نَصِيبُ فُرْصَتَنَا
 وَبُغْيَتَنَا ، وَقَدْ ثَنَيْنَا عَدُونَنَا عَنَّا .

ثُمَّ قَالَ الْمَلِكُ لِلثَّلَاثِ : مَا رَأَيْكَ أَنْتَ ؟ قَالَ : مَا أَرَى مَا قَالَا
 رَأْيًا . وَلَكِنْ نَبُثُ الْعُيُونَ ، وَنَبْعَثُ الْجَوَاسِيسَ ، وَنُرْسِلُ

الطَّلَائِعَ بَيْنَنَا وَبَيْنَ عَدُونَا ؛ فَنَعْلَمُ أَيْرِيدُ صَلَاحَنَا أَمْ يُرِيدُ حَرْبَنَا
 أَمْ يُرِيدُ الْفِدْيَةَ ؟ فَإِنْ رَأَيْنَا أَمْرَهُ أَمَرَ طَامِعٍ فِي مَالٍ ، لَمْ نَنْكَرْهُ
 الصُّلْحَ عَلَى خَرَايِجٍ نُؤَدِّيهِ إِلَيْهِ فِي كُلِّ سَنَةٍ ، نَدْفَعُ بِهِ عَنْ أَنْفُسِنَا .
 وَنَظْمِنُ فِي أَوْطَانِنَا : فَإِنَّ مِنْ آرَاءِ الْمُلُوكِ إِذَا اشْتَدَّتْ شَوْكَةُ
 عَدُوِّهِمْ ، نَحَافُوهُ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَبِلَادِهِمْ ، أَنْ يَجْعَلُوا الْأَمْوَالَ
 جَنَّةَ الْبِلَادِ وَالْمَلِكِ وَالرَّعِيَّةِ . قَالَ الْمَلِكُ لِلرَّابِعِ : فَمَا رَأَيْكَ
 فِي هَذَا الصُّلْحِ ؟ قَالَ لَا أَرَاهُ رَأْيًا ، بَلْ أَنْ نُفَارِقَ أَوْطَانَنَا
 وَنَضْبِرَ عَلَى الْغُرْبَةِ وَشِدَّةِ الْمَعِيشَةِ خَيْرٌ مِنْ أَنْ نَضِيعَ أَحْسَابَنَا
 وَنَخْضَعَ لِلْعَدُوِّ الَّذِي نَحْنُ أَشْرَفُ مِنْهُ ، مَعَ أَنَّ الْيَوْمَ لَوْ عَرَضْنَا
 ذَلِكَ عَلَيْهِمْ لَمَا رَضِينَ مِنَّا إِلَّا بِالشَّطِطِ ^(١) . وَيُقَالُ فِي الْأَمْثَالِ :
 قَارِبَ عَدُوِّكَ بَعْضَ الْمُقَارَبَةِ : لِتَنَالَ حَاجَتَكَ . وَلَا تُقَارِبْهُ
 كُلَّ الْمُقَارَبَةِ : فَيَجْتَرِيَّ عَلَيْكَ ، وَيُضْعِفَ جُنْدَكَ ، وَتَدَلَّ
 نَفْسُكَ . وَمَثَلُ ذَلِكَ مَثَلُ الْخَشْبَةِ الْمَنْصُوبَةِ فِي الشَّمْسِ : إِذَا

أَمَلَتْهَا قَلِيلًا زَادَ ظِلُّهَا ، وَإِذَا جَاوَزَتْ بِهَا الْحَدَّ فِي إِمَالَتِهَا نَقَصَ
الظِّلُّ . وَلَيْسَ عَدُونًا رَاضِيًا مِنَّا بِالذُّونِ فِي الْمُقَارَبَةِ . فَالْأَرَأَيْ
لَنَا وَلَكَ الْمُحَارَبَةُ .

قَالَ الْمَلِكُ لِلْخَامِسِ : مَا تَقُولُ أَنْتَ ؟ وَمَاذَا تَرَى : الْقِتَالَ
أَمْ الصُّلْحَ أَمْ الْجَلَاءَ عَنِ الْوَطَنِ ؟ قَالَ : أَمَّا الْقِتَالُ فَلَا سَبِيلَ
لِلْمَرءِ إِلَى قِتَالِ مَنْ لَا يَقْوَى عَلَيْهِ ، وَقَدْ يُقَالُ : إِنَّهُ مَنْ لَا يَعْرِفُ
نَفْسَهُ وَعَدُوَّهُ ، وَقَاتَلَ مَنْ لَا يَقْوَى عَلَيْهِ ، حَمَلَ نَفْسَهُ عَلَى
حَتْفِهَا ، مَعَ أَنَّ الْعَاقِلَ لَا يَسْتَضَعِرُ عَدُوًّا : فَإِنَّ مَنْ اسْتَضَعَرَ
عَدُوَّهُ اغْتَرَبَ بِهِ ، وَمَنْ اغْتَرَبَ بِعَدُوِّهِ لَمْ يَسْلَمْ مِنْهُ . وَأَنَا لِلْيَوْمِ شَدِيدُ
الْهَيْبَةِ ، وَإِنْ أَضْرَبَنَ عَن قِتَالِنَا ، وَقَدْ كُنْتُ أَهَابُهَا قَبْلَ ذَلِكَ ،
فَإِنَّ الْحَازِمَ لَا يَأْمَنُ عَدُوَّهُ عَلَى كُلِّ حَالٍ ، فَإِنْ كَانَ بَعِيدًا
لَمْ يَأْمَنَ سَطْوَتَهُ ، وَإِنْ كَانَ مُكْتَبًا ^(١) لَمْ يَأْمَنَ وَثْبَتَهُ ، وَإِنْ كَانَ وَحِيدًا
لَمْ يَأْمَنَ مَكْرَهُ . وَأَحْزَمُ الْأَقْوَامِ وَأَكْيَسُهُمْ مَنْ كَرِهَ الْقِتَالَ لِأَجْلِ
النَّفَقَةِ فِيهِ : فَإِنَّ مَا دُونَ الْقِتَالِ النَّفَقَةُ فِيهِ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْقَوْلِ

وَالْعَمَلِ ، وَالْقِتَالِ النَّفَقَةُ فِيهِ مِنَ الْأَنْفُسِ وَالْأَبْدَانِ . فَلَا
يَكُونَنَّ الْقِتَالُ لِلْبُومِ مِنْ رَأْيِكَ ، أَيُّهَا الْمَلِكُ : فَإِنَّ مَنْ قَاتَلَ
مَنْ لَا يَقْوَى عَلَيْهِ فَقَدْ غَرَّرَ بِنَفْسِهِ ^(١) . فَإِذَا كَانَ الْمَلِكُ مُحْصَنًا
لِلْأَسْرَارِ ، مُتَخَيِّرًا لِلْوُزَرَاءِ ، مَهِيْبًا فِي أَعْيُنِ النَّاسِ ، بَعِيدًا مِنْ
أَنْ يُقَدَّرَ عَلَيْهِ ، كَانَ خَلِيقًا إِلَّا يُسَلَّبَ صَحِيحَ مَا أُوتِيَ مِنْ
الْخَيْرِ . وَأَنْتَ ، أَيُّهَا الْمَلِكُ ، كَذَلِكَ . وَقَدْ اسْتَشَرْتَنِي فِي أَمْرِ
جَوَابِكَ مِنِّي عَنْهُ ، فِي بَعْضِهِ عِلَانِيَةً ، وَفِي بَعْضِهِ سِرًّا
وَلِلْأَسْرَارِ مَنَازِلُ : مِنْهَا مَا يَدْخُلُ فِيهِ الرَّهْطُ ^(٢) ، وَمِنْهَا مَا يُسْتَعَانُ
فِيهِ بِالْقَوْمِ ، وَمِنْهَا مَا يَدْخُلُ فِيهِ الرِّجَالَانِ . وَلَسْتُ أَرَى لِهَذَا
السُّرْعَى قَدْرَ مَنْزِلَتِهِ أَنْ يُشَارَكَ فِيهِ إِلَّا أَرْبَعُ آذَانٍ وَلِسَانَانِ .
فَنَهَضَ الْمَلِكُ مِنْ سَاعَتِهِ ، وَخَلَا بِهِ ، فَاسْتَشَارَهُ ، فَكَانَ أَوَّلَ
مَا سَأَلَهُ عَنْهُ الْمَلِكُ أَنَّهُ قَالَ : هَلْ تَعْلَمُ ابْتِدَاءَ عِدَاوَةِ مَا بَيْنَنَا
وَبَيْنَ الْبُومِ ؟ قَالَ : نَعَمْ : كَلِمَةً تَكَلَّمَ بِهَا غُرَابٌ . قَالَ
الْمَلِكُ : وَكَيْفَ كَانَ ذَلِكَ ؟

(١) عرضها للهلكة . (٢) قوم الرجل وقيلته .

قَالَ الْغُرَابُ : زَعُمُوا أَنَّ جَمَاعَةً مِنَ الْكَرَّاكِيِّ لَمْ يُكُنْ لَهَا
مَلِكٌ ، فَأَجْمَعْتُ أَمْرَهَا عَلَى أَنْ يُمْلِكُنَ عَلَيْهِنَّ مَلِكُ الْيَوْمِ ،
فَبَيْنَمَا هِيَ فِي جَمْعِهَا إِذْ وَقَعَ لَهَا غُرَابٌ ، فَقَالَتْ : لَوْ جَاءَنَا
هَذَا الْغُرَابُ لَأَسْتَشِرَّنَاهُ فِي أَمْرِنَا ، فَلَمْ يَلْبَثَنَّ دُونَ أَنْ جَاءَهُنَّ
الْغُرَابُ . فَاسْتَشَرْنَهُ ، فَقَالَ : لَوْ أَنَّ الطَّيْرَ بَادَتْ مِنَ الْأَقَالِيمِ ،
وَفَقِدَ الطَّاوُسُ وَالْبَطَّ وَالنَّعَامُ وَالْحَمَامُ مِنَ الْعَالَمِ لَمَا أَضْطَرِرَّتْ
إِلَى أَنْ تُمْلِكُنَ عَلَيْكِنَّ الْيَوْمَ الَّتِي هِيَ أَقْبَحُ الطَّيْرِ مَنَظَرًا ،
وَأَسْوَأُهَا خُلُقًا ، وَأَقْلَاهَا عَقْلًا ، وَأَشَدَّهَا غَضَبًا ، وَأَبْعَدَهَا مِنْ
كُلِّ رَحْمَةٍ ، مَعَ عَمَاهَا وَمَا بَيْنَهَا مِنَ الْعَشَا بِالنَّهَارِ ؛ وَأَشَدُّ مِنْ ذَلِكَ
وَأَقْبَحُ أُمُورِهَا سَفَهُهَا وَسُوءُ أَخْلَاقِهَا ، إِلَّا أَنْ تَرَيْنَ أَنْ تُمْلِكَنَّهَا
وَتَكُنَّ أَنْتِ تَدِيرِنَ الْأُمُورَ دُونَهَا بِرَأْيِكِنَّ وَعُقُولِكِنَّ ؛ كَمَا فَعَلْتَ
الْأَرْنبُ الَّتِي زَعَمْتَ أَنَّ الْقَمَرَ مِلْكُهَا ، ثُمَّ عَمِلْتَ بِرَأْيِهَا . قَالَ
الطَّيْرُ : وَكَيْفَ كَانَ ذَلِكَ ؟

قَالَ الْغُرَابُ : زَعَمُوا أَنَّ أَرْضًا مِنْ أَرْضِي الْفِيلَةِ تَتَابَعَتْ عَلَيْهَا
 السُّنُونُ ، وَأَجْدَبَتْ ، وَقَلَّ مَآوُهَا ، وَغَارَتْ عَيْونُهَا ، وَذَوَى
 نَبْتُهَا ، وَيَسِسَ شَجَرُهَا ؛ فَأَصَابَ الْفِيلَةَ عَطَشٌ شَدِيدٌ : فَشَكَّوْنَ
 ذَلِكَ إِلَى مَلِكِهِمْ ؛ فَأَرْسَلَ الْمَلِكُ رُسُلَهُ وَرَوَّادَهُ فِي طَلَبِ
 الْمَاءِ ؛ فِي كُلِّ نَاحِيَةٍ . فَرَجَعَ إِلَيْهِ بَعْضُ الرُّسُلِ ، فَأَخْبَرَهُ
 إِنِّي قَدْ وَجَدْتُ بِمَكَانٍ كَذَا عَيْنًا يُقَالُ لَهَا عَيْنُ الْقَمَرِ ، كَثِيرَةٌ
 الْمَاءِ . فَتَوَجَّهَ مَلِكُ الْفِيلَةِ بِأَصْحَابِهِ إِلَى تِلْكَ الْعَيْنِ لِيَشْرَبَ مِنْهَا
 هُوَ وَفِيلَتُهُ . وَكَانَتِ الْعَيْنُ فِي أَرْضٍ لِلْأَرَانِبِ ؛ فَوَطَّنَ
 الْأَرَانِبُ فِي أَجْحَارِهِمْ ، فَأَهْلَكَنَ مِنْهُمْ كَثِيرًا . فَاجْتَمَعَتِ
 الْأَرَانِبُ إِلَى مَلِكِهَا فَقُلْنَ لَهُ : قَدْ عَلِمْتَ مَا أَصَابَنَا مِنَ الْفِيلَةِ
 فَقَالَ : لِيُحْضَرْ مِنْكُمْ كُلُّ ذِي رَأْيٍ رَأْيَهُ . فَتَقَدَّمَتْ أَرْنَبٌ
 مِنَ الْأَرَانِبِ يُقَالُ لَهَا فَيْرُوزُ . وَكَانَ الْمَلِكُ يَعْرِفُهَا بِحُسْنِ
 الرَّأْيِ وَالْأَدَبِ ؛ فَقَالَتْ : إِنْ رَأَى الْمَلِكُ أَنْ يَبْعَثَنِي إِلَى الْفِيلَةِ
 وَيُرْسِلَ مَعِيَ أَمِينًا ، لِيرَى وَيَسْمَعَ مَا أَقُولُ ، وَيَرْفَعَهُ إِلَى الْمَلِكِ .
 فَقَالَ لَهَا الْمَلِكُ : أَنْتِ أَمِينَةٌ ، وَنَرْضَى بِقَوْلِكَ ؛ فَانْطَلَقِي إِلَى

الْفِيلَةِ ، وَبَلَغَنِي عَنِّي مَا تُرِيدِينَ . وَاعْلَمِي أَنَّ الرَّسُولَ بِرَأْيِهِ
وَعَقْلِهِ ، وَلِينِهِ وَفَضْلِهِ ، يُخْبِرُ عَنْ عَقْلِ الْمُرْسَلِ . فَعَلَيْكَ بِاللَّيْنِ
وَالرِّفْقِ ، وَالْحِلْمِ وَالتَّائِي : فَإِنَّ الرَّسُولَ هُوَ الَّذِي يُلِينُ الصُّدُورَ
إِذَا رَفَقَ ، وَيُحْسِنُ الصُّدُورَ إِذَا خَرَقَ ^(١) . ثُمَّ إِنَّ الْأَرْبَبَ
انْطَلَقَتْ فِي لَيْلَةٍ قَرَاءً ، حَتَّى انْتَهَتْ إِلَى الْفِيلَةِ ، وَكَرِهَتْ أَنْ
تَدْنُو مِنْهُنَّ : خَافَةَ أَنْ يَطَأَنَّهَا بِأَرْجُلِهِنَّ ، فَيَقْتُلْنَهَا ، وَإِنْ كُنَّ
غَيْرَ مُتَعَمِّدَاتٍ . ثُمَّ أَشْرَفَتْ عَلَى الْجَبَلِ ، وَنَادَتْ مَلِكَ الْفِيلَةِ ،
وَقَالَتْ لَهُ : إِنَّ الْقَمَرَ أَرْسَلَنِي إِلَيْكَ ، وَالرَّسُولُ غَيْرُ مَلُومٍ فِيمَا
يُبَلِّغُ ، وَإِنْ أَغْلَظَ فِي الْقَوْلِ . قَالَ مَلِكُ الْفِيلَةِ : فَمَا الرِّسَالَةُ ؟
قَالَتْ : يَقُولُ لَكَ : إِنَّ مَنْ عَرَفَ فَضْلَ قُوَّتِهِ عَلَى الضُّعْفَاءِ ،
فَاغْتَرَّ بِذَلِكَ فِي شَأْنِ الْأَقْوِيَاءِ ، قِيَاسًا لَهُمْ عَلَى الضُّعْفَاءِ ، كَانَتْ
قُوَّتُهُ وَبَالًا عَلَيْهِ . وَأَنْتَ قَدْ عَرَفْتَ فَضْلَ قُوَّتِكَ عَلَى الدَّوَابِّ ،
فَغَرَّكَ ذَلِكَ ، فَعَمَدْتَ إِلَى الْعَيْنِ الَّتِي تُسَمَّى بِاسْمِي ، فَشَرِبْتَ
مِنْهَا ، وَكَدَّرْتَهَا . فَأَرْسَلَنِي إِلَيْكَ : فَأَنْذِرُكَ أَلَّا تَعُودَ إِلَى مِثْلِ

ذَلِكَ . وَإِنَّكَ إِنْ فَعَلْتَ أَغْشَى بَصْرَكَ ، وَأَتْلَفَ نَفْسَكَ .
وإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِنْ رِسَالَتِي ، فَهَلُمَّ إِلَى الْعَيْنِ مِنْ سَاعَتِكَ :
فَإِنِّي مُوَافِيكَ بِهَا . فَعَجِبَ مَلِكُ الْفِيلَةِ مِنْ قَوْلِ الْأَرْنبِ ،
فَانْطَلَقَ إِلَى الْعَيْنِ مَعَ فَيْرُوزِ الرَّسُولِ . فَلَمَّا نَظَرَ إِلَيْهَا ، رَأَى
ضَوْءَ الْقَمَرِ فِيهَا . فَقَالَتْ لَهُ فَيْرُوزُ الرَّسُولِ : خُذْ بِخُرْطُومِكَ
مِنَ الْمَاءِ فَأَغْسِلْ بِهِ وَجْهَكَ ، وَاسْجُدْ لِلْقَمَرِ . فَأَدْخَلَ الْفِيلُ
خُرْطُومَهُ فِي الْمَاءِ ، فَتَحَرَّكَ نَحِيلٌ لِلْفِيلِ أَنَّ الْقَمَرَ ارْتَعَدَ .
فَقَالَ : مَا شَأْنُ الْقَمَرِ ارْتَعَدَ ؟ أَتَرَاهُ غَضِبَ مِنْ إِدْخَالِي
الْخُرْطُومَ فِي الْمَاءِ ؟ قَالَتْ فَيْرُوزُ الْأَرْنبِ : نَعَمْ . فَسَجَدَ الْفِيلُ
لِلْقَمَرِ مَرَّةً أُخْرَى ، وَتَابَ إِلَيْهِ مِمَّا صَنَعَ ، وَشَرَطَ لَأَلَّا يَعُودَ
إِلَى مِثْلِ ذَلِكَ هُوَ وَلَا أَحَدٌ مِنْ فِيلَتِهِ . قَالَ الْغُرَابُ : وَمَعَ
مَا ذَكَرْتُ مِنْ أَمْرِ الْيَوْمِ إِنْ فِيهَا الْغُبَّ وَالْمَكْرَ وَالْخَدِيعَةَ ، وَشَرُّ
الْمُلُوكِ الْخُنَادِعُ ، وَمَنْ ابْتُلِيَ بِسُلْطَانٍ مُخَادِعٍ ، وَخَدَمَهُ ، أَصَابَهُ
مَا أَصَابَ الْأَرْنبَ وَالصِّفْرِدَ حِينَ اخْتَكَمَا إِلَى السُّنُورِ . قَالَتْ
الْكِرَاكِيُّ : وَكَيْفَ كَانَ ذَلِكَ ؟

قَالَ الْغُرَابُ : كَانَ لِي جَارٌ مِنَ الصَّفَارِدَةِ ، فِي أَصْلِ شَجَرَةٍ
 قَرِيبَةٍ مِنْ وَكْرِي ، وَكَانَ يُكْثِرُ مُوَاصَلَتِي ؛ ثُمَّ فَقَدْتُهُ ، فَلَمْ أَعْلَمْ
 أَيْنَ غَابَ ، وَطَلَّاتْ غَيْبَتُهُ عَنِّي . فَجَاءَتْ أَرْبُ إِلَى مَكَانِ
 الصِّفْرِدِ . فَسَكَنَتْهُ ، فَكَرِهَتْ أَنْ أَخْصِمَ الْأَرْبَ ، فَلَبِثَتْ
 فِيهِ زَمَانًا . ثُمَّ إِنَّ الصِّفْرِدَ عَادَ بَعْدَ زَمَانٍ ، فَأَتَى مَنْزِلَهُ ، فَوَجَدَ
 فِيهِ الْأَرْبَ . فَقَالَ لَهَا : هَذَا الْمَكَانُ لِي ، فَانْتَقِلِي عَنْهُ .
 قَالَتِ الْأَرْبُ : الْمَسْكُنُ لِي ، وَتَحْتَ يَدِي ؛ وَأَنْتِ مُدْعٍ لَهُ .
 فَإِنْ كَانَ لَكَ حَقٌّ فَاسْتَعِدِّي بِإثْبَاتِهِ عَلَيَّ . قَالَ الصِّفْرِدُ : الْقَاضِي
 مِنَّا قَرِيبٌ : فَهَلُمَّيْ بِنَا إِلَيْهِ . قَالَتِ الْأَرْبُ : وَمَنِ الْقَاضِي ؟
 قَالَ الصِّفْرِدُ : إِنَّ بِسَاحِلِ الْبَحْرِ سَنُورًا مُتَعِدِّدًا ، يَصُومُ النَّهَارَ ،
 وَيَقُومُ اللَّيْلَ كُلَّهُ ؛ وَلَا يُؤْذِي دَابَّةً ، وَلَا يُهْرِيقُ دَمًا ؛ عَيْشُهُ
 مِنَ الْحَشِيشِ وَمِمَّا يَقْذِفُهُ إِلَيْهِ الْبَحْرُ . فَإِنْ أَحْبَبْتَ تَحَاكُمَنَا
 إِلَيْهِ ، وَرَضِينَا بِهِ . قَالَتِ الْأَرْبُ : مَا أَرْضَانِي بِهِ إِذَا كَانَ كَمَا
 وَصَفْتَ ! فَاذْطَلَقَا إِلَيْهِ ، فَتَبِعْتُهُمَا لِأَنْظُرَ إِلَى حُكُومَةِ الصَّوَامِ
 الْقَوَامِ . ثُمَّ إِنَّهُمَا ذَهَبَا إِلَيْهِ ، فَلَمَّا بَصُرَ السَّنُورَ بِالْأَرْبِ وَالصِّفْرِدِ

مُقْبِلِينَ نَحْوَهُ ، انْتَصَبَ قَائِمًا يُصَلِّي ، وَأَظْهَرَ الْخُشُوعَ
وَالْتَّنَسُّكَ . فَعَجِبَا لِمَا رَأَيَا مِنْ حَالِهِ ، وَدَنَوَا مِنْهُ هَائِبِينَ لَهُ ،
وَسَلَّمَا عَلَيْهِ ، وَسَأَلَاهُ أَنْ يَقْضِيَ بَيْنَهُمَا . فَأَمَرَهُمَا أَنْ يَقْضَا
عَلَيْهِ الْقِصَّةَ ، فَفَعَلَا . فَقَالَ لَهُمَا : قَدْ بَلَغَنِي الْكِبَرُ ، وَثَقُلَتْ
أُذُنَايَ : فَادْنُوا مِنِّي ، فَأَسْمِعَانِي مَا تَقُولَانِ . فَدَنَوَا مِنْهُ ، وَأَعَادَا
عَلَيْهِ الْقِصَّةَ ، وَسَأَلَاهُ الْحُكْمَ . فَقَالَ قَدْ فَهِمْتُ مَا قُلْتُمَا ، وَأَنَا
مُبْتَدِئُكُمَا بِالنَّصِيحَةِ قَبْلَ الْحُكْمَةِ بَيْنَكُمَا : فَأَنَا أَمْرُكُمَا بِتَقْوَى
اللَّهِ وَالْأَلَا تَطْلُبَا إِلَّا الْحَقَّ : فَإِنَّ طَالِبَ الْحَقِّ هُوَ الَّذِي يُفْلِحُ ،
وَإِنْ قُضِيَ عَلَيْهِ ، وَطَالِبَ الْبَاطِلِ مُخْصُومٌ ، وَإِنْ قُضِيَ لَهُ .
وَلَيْسَ لِصَاحِبِ الدُّنْيَا مِنْ دُنْيَاهُ شَيْءٌ ، لَا مَالٌ وَلَا صَدِيقٌ
سِوَى الْعَمَلِ الصَّالِحِ يُقَدِّمُهُ ، فَذُو الْعَقْلِ حَقِيقٌ أَنْ يَكُونَ
سَعْيُهُ فِي طَلَبِ مَا يَبْقَى وَيَعُودُ نَفْعُهُ عَلَيْهِ غَدًا ، وَأَنْ يُمْقَتَ
بِسَعْيِهِ فِيمَا سِوَى ذَلِكَ مِنْ أُمُورِ الدُّنْيَا : فَإِنَّ مَنَزِلَةَ الْمَالِ عِنْدَ
الْعَاقِلِ بِمَنَزِلَةِ الْمَدَرِ^(١) ، وَمَنَزِلَةَ النَّاسِ عِنْدَهُ فِيمَا يُحِبُّ لَهُمْ مِنَ الْخَيْرِ
وَيَكْرَهُ مِنَ الشَّرِّ بِمَنَزِلَةِ نَفْسِهِ . ثُمَّ إِنَّ السُّورَ لَمْ يَزَلْ يَقْصُ

(١) واحدته مدرة وهو قطع العطين اليابس والحجارة .

عَلَيْهِمَا مِنْ جِنْسِ هَذَا وَأَشْبَاهِهِ ، حَتَّى أَنْسَا إِلَيْهِ ، وَأَقْبَلَا عَلَيْهِ ،
وَدَنَوَا مِنْهُ ، ثُمَّ وَثَبَ عَلَيْهِمَا فَقَتَلَهُمَا .

قَالَ الْغُرَابُ : ثُمَّ إِنَّ الْبُومَ تَجَمَّعَ — مَعَ مَا وَصَفْتُ لَكُنَّ
مِنَ الشُّومِ — سَائِرَ الْعُيُوبِ : فَلَا يَكُونَنَّ تَمْلِيكَ الْبُومِ مِنْ
رَأْيِكَ . فَلَمَّا سَمِعَ الْكَرَّاءِيُّ ذَلِكَ مِنْ كَلَامِ الْغُرَابِ أَضْرَبَ
عَنْ تَمْلِيكَ الْبُومِ . وَكَانَ هُنَاكَ بَوْمٌ حَاضِرٌ قَدْ سَمِعَ مَا قَالُوا ،
فَقَالَ لِلْغُرَابِ : لَقَدْ وَتَرْتَنِي أَعْظَمَ التَّرَةِ ، وَلَا أَعْلَمُ أَنَّهُ سَلَفَ مِنِّي
إِلَيْكَ سُوءٌ أَوْجَبَ هَذَا . وَبَعْدُ فَاعْلَمْ أَنَّ الْفَأْسَ يَقْطَعُ بِهِ الشَّجَرُ ،
فَيَعُودُ يَنْبُتُ ، وَالسَّيْفُ يَقْطَعُ اللَّحْمَ ، ثُمَّ يَعُودُ فَيَنْدَمِلُ ، وَاللِّسَانَ
لَا يَنْدَمِلُ جُرْحُهُ وَلَا تُؤَسَّى مَقَاطِعُهُ ^(٢) . وَالنَّضْلُ مِنَ السَّهْمِ
يَغِيبُ فِي اللَّحْمِ ، ثُمَّ يُنْزَعُ فَيُخْرِجُ ، وَأَشْبَاهُ النَّضْلِ مِنَ الْكَلَامِ
إِذَا وَصَلَتْ إِلَى الْقَلْبِ لَمْ تُنْزَعْ وَلَمْ تُسْتَخْرَجْ . وَلِكُلِّ حَرِيقٍ
مُطْفِئٌ : فَلِلنَّارِ الْمَاءُ ، وَلِلسَّمِّ الدَّوَاءُ ، وَلِلْحَزَنِ الصَّبْرُ ، وَنَارُ
الْحَقْدِ لَا تَخْبُو أَبَدًا . وَقَدْ غَرَسْتُمْ ، مَعَاشِرَ الْغُرَبَانِ ، بَيْنَنَا
وَبَيْنَكُمْ شَجَرَ الْحَقْدِ وَالْعَدَاوَةِ وَالْبَغْضَاءِ .

(١) أصبغني بأذى عظيم : جعل لك في قلبي عداوة لا تمحي وحقدا لا يزول . (٢) تداوى .

فَلَمَّا قَضَى النَّبُومُ مَقَالَتَهُ ، وَلَّى مُغْضِبًا ، فَأَخْبَرَ مَلِكَ النَّبُومِ
بِمَا جَرَى وَبِكُلِّ مَا كَانَ مِنْ قَوْلِ الْغُرَابِ ؛ ثُمَّ إِنَّ الْغُرَابَ نَدِمَ
عَلَى مَا فَرَطَ مِنْهُ ، وَقَالَ : وَاللَّهِ لَقَدْ نَحَرْتُ فِي قَوْلِي الَّذِي
جَلَبْتُ بِهِ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ عَلَى نَفْسِي وَقَوْمِي ! وَلَيْتَنِي لَمْ أَخْبِرِ
الْكِرَاكِي بِهَذِهِ الْحَالِ ! وَلَا أَعْلَمْتُهَا بِهَذَا الْأَمْرِ ! وَلَعَلَّ أَكْثَرَ الطَّيْرِ
قَدْ رَأَى أَكْثَرَ مِمَّا رَأَيْتُ ، وَعَلِمَ أَضْعَافَ مَا عَلِمْتُ ، فَمَنْعَهَا
مِنَ الْكَلَامِ بِمِثْلِ مَا تَكَلَّمْتُ اتِّقَاءُ مَا لَمْ آتَنِ ، وَالنَّظَرُ فِيمَا
لَمْ أَنْظُرْ فِيهِ مِنْ حِذَارِ الْعَوَاقِبِ ، لَا سِيَّمَا إِذَا كَانَ الْكَلَامُ أَفْطَحَ
كَلَامَ ، يَلْتَقِي مِنْهُ سَامِعُهُ وَقَائِلُهُ الْمَكْرُوهَ مِمَّا يُورِثُ الْحِقْدَ
وَالضَّغِينَةَ ، فَلَا يَنْبَغِي لِأَشْبَاهِ هَذَا الْكَلَامِ أَنْ تُسَمَّى كَلَامًا ،
وَلَكِنْ سِهَامًا . وَالْعَاقِلُ ، وَإِنْ كَانَ وَاثِقًا بِقُوَّتِهِ وَفَضْلِهِ ،
لَا يَنْبَغِي أَنْ يَخْمَلَهُ ذَلِكَ عَلَى أَنْ يَجْلِبَ الْعَدَاوَةَ عَلَى نَفْسِهِ اتِّكَالًا
عَلَى مَا عِنْدَهُ مِنَ الرَّأْيِ وَالْقُوَّةِ ؛ كَمَا أَنَّهُ وَإِنْ كَانَ عِنْدَهُ التَّرْيَاقُ^(١)
لَا يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَشْرَبَ السَّمَّ اتِّكَالًا عَلَى مَا عِنْدَهُ . وَصَاحِبُ

حُسْنِ الْعَمَلِ ، وَإِنْ قَصَرَبِهِ الْقَوْلُ فِي مُسْتَقْبَلِ الْأَمْرِ ، كَانَ فَضْلُهُ
بَيْنَنَا وَاضِحًا فِي الْعَاقِبَةِ وَالْإِخْتِبَارِ ، وَصَاحِبُ حُسْنِ الْقَوْلِ ،
وَإِنْ أَعْجَبَ النَّاسَ مِنْهُ حُسْنُ صِفَتِهِ لِلْأُمُورِ ، لَمْ تُنْجِ عَاقِبَةُ أَمْرِهِ .
وَأَنَا صَاحِبُ الْقَوْلِ الَّذِي لَا عَاقِبَةَ لَهُ مُخْمُودَةٌ . أَلَيْسَ مِنْ
سَفَهِي اجْتِرَائِي عَلَى التَّكَلُّمِ فِي الْأَمْرِ الْجَسِيمِ لَا اسْتِشِيرُ فِيهِ
أَحَدًا ، وَلَمْ أَعْمَلْ فِيهِ رَأْيًا ؟ وَمَنْ لَمْ يَسْتَشِرِ النَّصَحَاءَ الْأَوْلِيَاءَ ،
وَعَمِلَ بِرَأْيِهِ مِنْ غَيْرِ تَكَرُّارِ النَّظَرِ وَالرَّوْيَةِ ، لَمْ يَغْتَنِظْ بِمَوَاقِعِ رَأْيِهِ .
فَمَا كَانَ أَغْنَانِي عَمَّا كَسَبْتُ يَوْمِي هَذَا ، وَمَا وَقَعْتُ فِيهِ مِنْ الْهَمِّ !
وَعَاتَبَ الْغُرَابُ نَفْسَهُ بِهَذَا الْكَلَامِ وَأَشْبَاهِهِ وَذَهَبَ . فَهَذَا
مَا سَأَلْتَنِي عَنْهُ مِنْ ابْتِدَاءِ الْعَدَاوَةِ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْيَوْمِ .

وَأَمَّا الْقِتَالُ فَقَدْ عَلِمْتَ رَأْيِي فِيهِ ، وَكَرَاهَتِي لَهُ ، وَلَكِنْ عِنْدِي
مِنْ الرَّأْيِ وَالْحِيلَةِ غَيْرُ الْقِتَالِ مَا يَكُونُ فِيهِ الْفَرَجُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ
تَعَالَى : فَإِنَّهُ رَبُّ قَوْمٍ قَدْ آخَتَالُوا بِأَرَائِهِمْ حَتَّى ظَفِرُوا بِمَا
أَرَادُوا . وَمِنْ ذَلِكَ حَدِيثُ الْجَمَاعَةِ الَّذِينَ ظَفِرُوا بِالنَّاسِكِ ،
وَآخَذُوا عَرِيضَهُ^(١) . قَالَ الْمَلِكُ : وَكَيْفَ كَانَ ذَلِكَ ؟

(١) العريض من العز : ما أتى غلبه سعة .

قَالَ الْغُرَابُ : زَعَمُوا أَنَّ نَاسِكًا اشْتَرَى عَرِيضًا ضَخْمًا لِيَجْعَلَهُ
 قُرْبَانًا ، فَأَنْطَلَقَ بِهِ يَقُودُهُ . فَبَصُرَ بِهِ قَوْمٌ مِنَ الْمَكْرَةِ ، فَأَتَمَرُوا
 بَيْنَهُمْ أَنْ يَأْخُذُوهُ مِنَ النَّاسِكِ . فَعَرَضَ لَهُ أَحَدُهُمْ فَقَالَ لَهُ :
 أَيُّهَا النَّاسِكُ ، مَا هَذَا الْكَلْبُ الَّذِي مَعَكَ ؟ ثُمَّ عَرَضَ لَهُ الْآخَرُ
 فَقَالَ لِصَاحِبِهِ : مَا هَذَا نَاسِكٌ ، لِأَنَّ النَّاسِكَ لَا يَقُودُ كَلْبًا .
 فَلَمْ يَزَالُوا مَعَ النَّاسِكِ عَلَى هَذَا وَمِثْلِهِ حَتَّى لَمْ يَشْكُ أَنَّ الَّذِي
 يَقُودُهُ كَلْبٌ ، وَأَنَّ الَّذِي بَاعَهُ إِيَّاهُ سَحَرَّ عَيْنَهُ ، فَأَطْلَقَهُ مِنْ يَدِهِ ،
 فَأَخَذَهُ الْجَمَاعَةُ الْمُحْتَالُونَ وَمَضُوا بِهِ . وَإِنَّمَا ضَرَبْتُ لَكَ هَذَا
 الْمَثَلَ لِمَا أَرْجُو أَنْ نُصِيبَ مِنْ حَاجَتِنَا بِالرَّفِيقِ وَالْحِيلَةِ . وَإِذَا
 أُرِيدُ مِنَ الْمَلِكِ أَنْ يَنْقُرَنِي عَلَى رُءُوسِ الْأَشْهَادِ ، وَيَنْتِفَ رِيشِي
 وَذَنَبِي ، ثُمَّ يَطْرَحَنِي فِي أَصْلِ هَذِهِ الشَّجَرَةِ ، وَيَرْتَحِلَ الْمَلِكُ هُوَ
 وَجُنُودُهُ إِلَى مَكَانٍ كَذَا . فَأَرْجُو أَنِّي أَصِيرُ وَأَطَّلِعُ عَلَى أَحْوَالِهِمْ
 وَمَوَاضِعِ تَحْصِينِهِمْ وَأَبْوَابِهِمْ ، فَأُخَادِعُهُمْ وَأَتِي إِلَيْكُمْ لِنَهْجِ
 عَلَيْهِمْ ، وَنَنَالَ مِنْهُمْ غَرَضَنَا إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى .

قَالَ الْمَلِكُ : أَتَطِيبُ نَفْسُكَ لِذَلِكَ ؟ قَالَ : نَعَمْ ، وَكَيْفَ لَا تَطِيبُ نَفْسِي لِذَلِكَ وَفِيهِ أَعْظَمُ الرَّاحَاتِ لِلْمَلِكِ وَجُنُودِهِ ؟ فَفَعَلَ الْمَلِكُ بِالْغُرَابِ مَا ذَكَرَ ، ثُمَّ ارْتَحَلَ عَنْهُ . بِجَعَلِ الْغُرَابُ^(١) يَنْبُتُ وَيَهْمِسُ حَتَّى رَأَتْهُ الْبُومُ وَسَمِعَتْهُ يَنْبُتُ ، فَأَخْبَرَ نَ مَلِكُهَا بِذَلِكَ ، فَتَقَصَّدَ نَحْوَهُ لِيَسْأَلَهُ عَنِ الْغُرَبَانِ . فَلَمَّا دَنَا مِنْهُ أَمَرَ بَوْمًا أَنْ يَسْأَلَهُ فَقَالَ لَهُ : مَنْ أَنْتَ ؟ وَأَيْنَ الْغُرَبَانُ ؟ فَقَالَ : أَمَّا اسْمِي فَقُلَانٌ ، وَأَمَّا مَا سَأَلْتَنِي عَنْهُ فإِنِّي أَحْسَبُكَ تَرَى أَنَّ حَالِي حَالُ مَنْ لَا يَعْلَمُ الْأَسْرَارَ . فَقِيلَ لِلْمَلِكِ الْبُومُ : هَذَا وَزِيرُ الْمَلِكِ الْغُرَبَانِ وَصَاحِبُ رَأْيِهِ ، فَسَأَلَهُ بِأَيِّ ذَنْبٍ صُنِعَ بِهِ مَا صُنِعَ ؟ فَسُئِلَ الْغُرَابُ عَنْ أَمْرِهِ فَقَالَ : إِنَّ مَلِكَنَا اسْتَبْشَرَ جَمَاعَتَنَا فَيَكُنْ : وَكُنْتُ يَوْمَئِذٍ بِخَضِرٍ مِنَ الْأَمْرِ ، فَقَالَ : أَيُّهَا الْغُرَبَانُ ، مَا تَرَوْنَ فِي ذَلِكَ ؟ فَقُلْتُ : أَيُّهَا الْمَلِكُ لَا طَاقَةَ لَنَا بِقِتَالِ الْبُومِ : لِأَنَّهُنَّ أَشَدُّ بَطْشًا ، وَاحِدٌ قَلْبًا مِنَّا . وَلَكِنْ أَرَى أَنَّ نَلْتَمَسَ الصَّلْحَ ، ثُمَّ نَبْذُلَ الْفِدْيَةَ فِي ذَلِكَ ، فَإِنْ قَبِلَتِ الْبُومُ ذَلِكَ مِنَّا ، وَإِلَّا

هَرَبْنَا فِي الْبِلَادِ . وَإِذَا كَانَ الْقِتَالُ بَيْنَنَا وَبَيْنَ النَّبُومِ كَانَ
خَيْرًا لَّهِنَّ وَشَرًّا لَنَا ، فَالْضُّلْحُ أَفْضَلُ مِنَ الْخُصُومَةِ . وَأَمَرْتُهُنَّ
بِالرَّجُوعِ عَنِ الْحَرْبِ ، وَضَرَبْتُ لَهِنَّ الْأَمْثَالَ فِي ذَلِكَ ، وَقُلْتُ
لَهِنَّ : إِنَّ الْعَدُوَّ الشَّدِيدَ لَا يَرُدُّ بَأْسُهُ وَغَضَبُهُ مِثْلُ الْخُصُوعِ لَهُ :
أَلَا تَرَيْنَ إِلَى الْحَشِيشِ كَيْفَ يَسْلُمُ مِنْ عَاصِفِ الرِّيحِ لِلْيَنَةِ وَمِثْلِهِ
مَعَهَا حَيْثُ مَالَتْ . فَعَصَيْنِي فِي ذَلِكَ ، وَزَعَمْنَ أَنَّهُنَّ يَرُدْنَ
الْقِتَالَ وَاتَّهَمَنِي فِيمَا قُلْتُ ، وَقُلْنَ : إِنَّكَ قَدْ مَالَأْتَ النَّبُومَ^(١)
عَلَيْنَا ، وَرَدَدْنِ قَوْلِي وَنَصِيحَتِي ، وَعَذَّبَنِي بِهَذَا الْعَذَابِ ، وَتَرَكَتَنِي
الْمَلِكُ وَجُنُودُهُ وَارْتَحَلَ . وَلَا عِلْمَ لِي بِهِنَّ بَعْدَ ذَلِكَ :
فَلَمَّا سَمِعَ مَلِكَ النَّبُومِ مَقَالَةَ الْغُرَابِ قَالَ لِبَعْضِ وَزَرَانِهِ :
مَا تَقُولُ فِي الْغُرَابِ ؟ وَمَا تَرَى فِيهِ ؟ قَالَ : مَا أَرَى إِلَّا الْمُعَاجِلَةَ
لَهُ بِالْقَتْلِ : فَإِنَّ هَذَا أَفْضَلُ عُدَدِ الْغُرَبَانِ ، وَفِي قَتْلِهِ لَنَا رَاحَةٌ
مِنْ مَكْرِهِ ، وَفَقْدُهُ عَلَى الْغُرَبَانِ شَدِيدٌ . وَيُقَالُ : مَنْ ظَفِرَ
بِالسَّاعَةِ الَّتِي فِيهَا يَنْجَحُ الْعَمَلُ ، ثُمَّ لَا يُعَاجِلُهُ بِالَّذِي يَنْبَغِي لَهُ ،

فَلَيْسَ بِحَكِيمٍ . وَمَنْ طَلَبَ الْأَمْرَ الْجَسِيمَ ، فَأَمَكْنَهُ ذَلِكَ فَأَغْفَلَهُ .
فَإِنَّهُ الْأَمْرُ ؛ وَهُوَ خَلِيقٌ إِلَّا تَعُودَ لَهُ الْفُرْصَةُ ثَانِيَةً . وَمَنْ وَجَدَ
عَدُوَّهُ ضَعِيفًا وَلَمْ يُنْجِزْ قَتْلَهُ ، نَدِمَ إِذَا اسْتَقْوَى وَلَمْ يَقْدِرْ عَلَيْهِ .
قَالَ الْمَلِكُ لِيُوزِيرٍ آخَرَ : مَا تَرَى أَنْتَ فِي هَذَا الْغُرَابِ ؟ قَالَ :
أَرَى إِلَّا تَقْتُلَهُ : فَإِنَّ الْعَدُوَّ الدَّلِيلَ الَّذِي لَا نَاصِرَ لَهُ أَهْلٌ لِأَنَّ
يُسْتَبَقُ وَيُرْحَمُ وَيُضْفَحُ عَنْهُ ، لَا سِيَّمَا الْمُسْتَجِيرُ الْخَائِفُ :
فَإِنَّهُ أَهْلٌ لِأَنَّ يَوْمَهُ .

قَالَ مَلِكُ الْيَوْمِ لِيُوزِيرٍ آخَرَ مِنْ وَزَرَانِهِ : مَا تَقُولُ فِي الْغُرَابِ ؟
قَالَ : أَرَى أَنَّ تَسْتَبْقِيَهُ وَتُحْسِنَ إِلَيْهِ : فَإِنَّهُ خَلِيقٌ أَنْ يَنْصَحَكَ .
وَالْعَاقِلُ يَرَى مُعَادَاةَ بَعْضِ أَعْدَائِهِ بَعْضًا ظَفَرًا حَسَنًا ؛ وَيَرَى
أَشْتِغَالَ بَعْضِ الْأَعْدَاءِ بِبَعْضِ خَلَاصًا لِنَفْسِهِ مِنْهُمْ ، وَنَجَاةً
كُنْجَاةِ النَّاسِكِ مِنَ اللَّصِّ وَالشَّيْطَانِ حِينَ اخْتَلَفَا عَلَيْهِ .
قَالَ الْمَلِكُ لَهُ : وَكَيْفَ كَانَ ذَلِكَ ؟

قَالَ الْوَزِيرُ : زَعَمُوا أَنَّ نَاسِكًا أَصَابَ مِنْ رَجُلٍ بَقَرَةً حُلُوبًا ،
فَانْطَلَقَ بِهَا يَقُودُهَا إِلَى مَنْزِلِهِ ، فَعَرَضَ لَهُ لِيَصُ أَرَادَ سَرِقَتَهَا ،

وَاتَّبَعَهُ شَيْطَانٌ يُرِيدُ اخْتِطَافَهُ . فَقَالَ الشَّيْطَانُ لِلصُّ : مَنْ
أَنْتَ ؟ قَالَ : أَنَا اللَّصُّ ، أُرِيدُ أَنْ أَسْرِقَ هَذِهِ الْبَقْرَةَ مِنَ النَّاسِكِ
إِذَا نَامَ . فَمَنْ أَنْتَ ؟ قَالَ : أَنَا الشَّيْطَانُ أُرِيدُ اخْتِطَافَهُ إِذَا نَامَ
وَأَذْهَبُ بِهِ . فَانْتَهَيَا عَلَى هَذَا إِلَى الْمَنْزِلِ ، فَدَخَلَ النَّاسِكُ مَنْزِلَهُ ،
وَدَخَلَ خَلْفَهُ ، وَأَدْخَلَ الْبَقْرَةَ فَرَبَطَهَا فِي زَاوِيَةِ الْمَنْزِلِ ، وَتَعَشَّى
وَنَامَ . فَأَقْبَلَ اللَّصُّ وَالشَّيْطَانُ يَأْتُمِرَانِ فِيهِ ، وَاخْتَلَفَا عَلَى مَنْ
يَبْدَأُ بِشُغْلِهِ أَوَّلًا ، فَقَالَ الشَّيْطَانُ لِلصُّ : إِنْ أَنْتَ بَدَأْتَ بِأَخْذِ
الْبَقْرَةِ فَرُبَّمَا اسْتَيْقِظَ وَصَاحَ ، وَاجْتَمَعَ النَّاسُ : فَلَا أَقْدِرُ
عَلَى أَخْذِهِ . فَأَنْظِرْنِي رَيْثَمَا أَخْذُهُ ، وَشَأْنُكَ وَمَا تُرِيدُ . فَأَشْفَقَ
اللصُّ إِنْ بَدَأَ الشَّيْطَانُ بِاخْتِطَافِهِ فَرُبَّمَا اسْتَيْقِظَ ، فَلَا يَقْدِرُ
عَلَى أَخْذِ الْبَقْرَةِ ، فَقَالَ : لَا ، بَلْ أَنْظِرْنِي أَنْتَ حَتَّى أَخْذَ
الْبَقْرَةَ ، وَشَأْنُكَ وَمَا تُرِيدُ . فَلَمْ يَزَالَا فِي الْمَجَادَلَةِ هَكَذَا ، حَتَّى
نَادَى اللَّصُّ : أَيُّهَا النَّاسِكُ انْتَبِهْ : فَهَذَا الشَّيْطَانُ يُرِيدُ
اخْتِطَافَكَ ، وَنَادَى الشَّيْطَانُ : أَيُّهَا النَّاسِكُ انْتَبِهْ : فَهَذَا اللَّصُّ
يُرِيدُ أَنْ يَسْرِقَ بِقَرَّتِكَ . فَانْتَبَهَ النَّاسِكُ وَجِيرَانُهُ بِأَصْوَاتِهِمَا ،

وَهَرَبَ الْحَبِيثَانِ . قَالَ الْوَزِيرُ الْأَوَّلُ الَّذِي أَشَارَ بِقَتْلِ
الْغُرَابِ : أَظُنُّ أَنَّ الْغُرَابَ قَدْ خَدَعَكُنَّ ، وَوَقَعَ كَلَامُهُ فِي نَفْسِ
الْغَبِيِّ مِنْكَنَّ مَوْقِعُهُ ، فَتَرِدْنَ أَنَّ تَضَعْنَ الرَّأْيَ فِي غَيْرِ مَوْضِعِهِ .
فَمَهْلًا مَهْلًا أَيُّهَا الْمَلِكُ عَنْ هَذَا الرَّأْيِ . فَلَمْ يَلْتَفِتِ الْمَلِكُ
إِلَى قَوْلِهِ وَأَمَرَ بِالْغُرَابِ أَنْ يُجْمَلَ إِلَى مَنَازِلِ الْيَوْمِ ، وَيُكْرَمَ
وَيُسْتَوْصَى بِهِ خَيْرًا

ثُمَّ إِنَّ الْغُرَابَ قَالَ لِلْمَلِكِ يَوْمًا ، وَعِنْدَهُ جَمَاعَةٌ مِنَ الْيَوْمِ ،
وَفِيهِنَّ الْوَزِيرُ الَّذِي أَشَارَ بِقَتْلِهِ : أَيُّهَا الْمَلِكُ ، قَدْ عَلِمْتَ مَا جَرَى
عَلَيَّ مِنَ الْغُرَبَانِ ، وَانَّهُ لَا يَسْتَرِيحُ قَلْبِي دُونَ أَخَذِي بِشَأْرِي
مِنْهُنَّ ، وَإِنِّي قَدْ نَظَرْتُ فِي ذَلِكَ ، فَإِذَا بِي لَا أَقْدِرُ عَلَى مَا
رُمْتُ : لِأَنِّي غُرَابٌ . وَقَدْ رَوَى عَنِ الْعُلَمَاءِ أَنَّهُمْ قَالُوا :
مَنْ طَابَتْ نَفْسُهُ بِأَنْ يَحْرِقَهَا ، فَقَدْ قَرَّبَ لِلَّهِ أَكْثَرَ الْقُرْبَانِ .
لَا يَدْعُو عِنْدَ ذَلِكَ بِدَعْوَةٍ إِلَّا اسْتَجِيبَ لَهُ ^(١) . فَإِنْ رَأَى الْمَلِكُ
أَنْ يَأْمُرَنِي فَأَحْرِقَ نَفْسِي ، وَأَدْعُو رَبِّي أَنْ يُحَوِّلَنِي يَوْمًا ، فَأَكُونُ

(١) هذا في اعتقاد الهند الذين لم يستضيئوا بنور الإسلام .

أَشَدَّ عَدَاوَةً وَأَقْوَى بَأْسًا عَلَى الْغُرَبَانِ ، لَعَلِّي أَنْتَقِمُ مِنْهُنَّ ! قَالَ
الْوَزِيرُ الَّذِي أَشَارَ بِقَتْلِهِ : مَا أَشْبَهَكَ فِي خَيْرٍ مَا تُظْهَرُ وَشَرًّا مَا
تُخْفِي إِلَّا بِالْخَمْرَةِ الطَّيِّبَةِ الطَّعِيمِ وَالرَّيْحِ الْمُنْقَعِ فِيهَا السُّمُّ . أَرَأَيْتَ
لَوْ أَحْرَقْنَا جِسْمَكَ بِالنَّارِ كَانَ جَوْهَرُكَ وَطِبَاعُكَ مُتَغَيِّرَةً ! أَلَيْسَتْ
أَخْلَاقُكَ تَدُورُ مَعَكَ حَيْثُمَا دُرْتَ ، وَتَصِيرُ بَعْدَ ذَلِكَ إِلَى أَصْلِكَ
وَطَوِيرَتِكَ ؟ كَالْفَارَةِ الَّتِي خَيْرَتْ فِي الْأَزْوَاجِ بَيْنَ الشَّمْسِ وَالرَّيْحِ
وَالسَّحَابِ وَالْجَبَلِ فَلَمْ يَقَعْ اخْتِيَارُهَا إِلَّا عَلَى الْجُرَذِ . قِيلَ لَهُ :
وَكَيْفَ كَانَ ذَلِكَ ؟

قَالَ : زَعَمُوا أَنَّهُ كَانَ نَاسِكٌ مُسْتَجَابُ الدَّعْوَةِ ، فَبَيْنَمَا هُوَ ذَاتَ
يَوْمٍ جَالِسٌ عَلَى سَاحِلِ الْبَحْرِ إِذْ مَرَّتْ بِهِ حَدَاةٌ فِي رِجْلِهَا
دِرْصُ فَارَةٍ ^(١) . فَوَقَعَتْ مِنْهَا عِنْدَ النَّاسِكِ ، وَادْرَكَتْهَا لَهَا رَحْمَةٌ ،
فَأَخَذَهَا وَلَفَّهَا فِي وَرْقَةٍ ، وَذَهَبَ بِهَا إِلَى مَنْزِلِهِ ، ثُمَّ خَافَ أَنْ
تَسْقَى عَلَى أَهْلِ تَرْبِيَّتِهَا ، فَدَعَا رَبَّهُ أَنْ يُحَوِّلَهَا جَارِيَةً : فَتَحَوَّلَتْ
جَارِيَةً حَسَنَاءَ . فَأَنْطَلَقَ بِهَا إِلَى امْرَأَتِهِ ، فَقَالَ لَهَا : هَذِهِ ابْنَتِي ،

(١) ولد الفارة .

فَاصْنَعِي مَعَهَا صَنِيعَكَ بَوْلَدِي . فَلَمَّا كَبُرَتْ قَالَ لَهَا النَّاسِكُ :
يَا بَنِيَّةُ اخْتَارِي مَنْ أَحْبَبْتَ حَتَّى أَزُوجَكَ بِهِ . فَقَالَتْ ، أَمَّا إِذَا
خَيْرَتَنِي فَلِيَّ اخْتَارُ زَوْجًا يَكُونُ أَقْوَى الْأَشْيَاءِ . فَقَالَ النَّاسِكُ
لَعَلَّكَ تُرِيدِينَ الشَّمْسَ ! ثُمَّ انْطَلَقَ إِلَى الشَّمْسِ فَقَالَ : أَيُّهَا
الْخَلْقُ الْعَظِيمُ ، لِي جَارِيَةٌ ، وَقَدْ طَلَبْتُ زَوْجًا يَكُونُ أَقْوَى
الْأَشْيَاءِ ، فَهَلْ أَنْتَ مُتَزَوِّجُهَا ؟ فَقَالَتِ الشَّمْسُ : أَنَا أَدُلُّكَ
عَلَى مَنْ هُوَ أَقْوَى مِنِّي : السَّحَابُ الَّذِي يُغْطِينِي ، وَيُرْدَحُ
شُعَاعِي ، وَيَكْسِفُ أَشْعَةَ أَنْوَارِي . فَذَهَبَ النَّاسِكُ إِلَى السَّحَابِ
فَقَالَ لَهُ مَا قَالِ لِلشَّمْسِ ، فَقَالَ السَّحَابُ : وَأَنَا أَدُلُّكَ عَلَى مَنْ
هُوَ أَقْوَى مِنِّي : فَأَذْهَبُ إِلَى الرِّيحِ الَّتِي تُقْبِلُ بِي وَتُدْبِرُ ، وَتَذْهَبُ
بِي شَرْقًا وَغَرْبًا . بِخَاءِ النَّاسِكِ إِلَى الرِّيحِ فَقَالَ لَهَا كَقَوْلِ
لِلسَّحَابِ . فَقَالَتْ : وَأَنَا أَدُلُّكَ عَلَى مَنْ هُوَ أَقْوَى مِنِّي ، وَهُوَ
الْجَبَلُ الَّذِي لَا أَقْدِرُ عَلَى تَحْرِيكِهِ . فَمَضَى إِلَى الْجَبَلِ فَقَالَ لَهُ
الْقَوْلَ الْمَذْكُورَ . فَأَجَابَهُ الْجَبَلُ وَقَالَ لَهُ : أَنَا أَدُلُّكَ عَلَى مَنْ هُوَ
أَقْوَى مِنِّي : الْجُرْدُ الَّذِي لَا اسْتَطِيعُ الْإِمْتِنَاعَ مِنْهُ إِذَا ثَقَبَنِي .

وَاتَّخَذَنِي مَسْكًا . فَانْطَلَقَ النَّاسُكَ إِلَى الْجُرْدِ فَقَالَ لَهُ : هَلْ
 أَنْتَ مُتَزَوِّجٌ هَذِهِ الْجَارِيَةُ ؟ فَقَالَ : وَكَيْفَ أَتَزَوَّجُهَا وَجُحْرِي
 ضَيْقٌ ؟ وَإِنَّمَا يَتَزَوَّجُ الْجُرْدُ الْفَارَةَ . فَدَعَا النَّاسُكَ رَبَّهُ أَنْ
 يُحَوِّلَهَا فَارَةً كَمَا كَانَتْ وَذَلِكَ بِرِضَا الْجَارِيَةِ ؛ فَأَعَادَهَا اللَّهُ إِلَى
 عُنْصُرِهَا الْأَوَّلِ فَانْطَلَقَتْ مَعَ الْجُرْدِ . فَهَذَا مَثَلُكَ : أَيُّهَا الْمُخَادِعُ .
 فَلَمْ يَلْتَفِتْ مَلِكُ الْبُومِ إِلَى ذَلِكَ الْقَوْلِ ، وَرَفَقَ بِالْغُرَابِ ، وَلَمْ
 يَزِدْ لَهُ إِلَّا إِكْرَامًا ، حَتَّى إِذَا طَابَ عَيْشُهُ ، وَنَبَتَ رِيشُهُ ؛
 وَأَطْلَعَ عَلَى مَا أَرَادَ أَنْ يَطْلُعَ عَلَيْهِ ، رَاغَ رَوْغَةً . فَأَتَى أَصْحَابَهُ
 بِمَا رَأَى وَسَمِعَ . فَقَالَ لِلْمَلِكِ : إِنِّي قَدْ فَرَعْتُ مِمَّا كُنْتُ
 أُرِيدُ ، وَلَمْ يَبْقَ إِلَّا أَنْ تَسْمَعَ وَتُطِيعَ ، قَالَ لَهُ : أَنَا وَالْجُنْدُ
 تَحْتَ أَمْرِكَ ، فَاحْتَكِمْ كَيْفَ شِئْتَ .

قَالَ الْغُرَابُ : إِنَّ الْبُومَ بِمَكَانٍ كَذَا ، فِي جَبَلٍ كَثِيرِ الْحَطَبِ ،
 وَفِي ذَلِكَ الْمَوْضِعِ قَطِيعٌ مِنَ الْغَنَمِ ، مَعَ رَجُلٍ رَاغٍ ؛ وَنَحْنُ
 مُصِيبُونَ هُنَاكَ نَارًا ، وَنُلْقِيهَا فِي أَنْقَابِ الْبُومِ ، وَنَقْذِفُ عَلَيْهَا

(١) جمع ثقب أو ثقب بمعنى الثقب أو الطريق ، والمراد بها مساكن البوم .

مِنْ يَاسِسِ الحَطَبِ ، وَنَتَرَاوَحُ عَلَيْهَا ضَرْبًا بِأَجْنَحَتِنَا ، حَتَّى
تَضْطَرِمَ النَّارُ فِي الحَطَبِ : فَمَنْ خَرَجَ مِنْهُنَّ احْتَرَقَ وَمَنْ لَمْ يَخْرُجْ
مَاتَ بِالدُّخَانِ مَوْضِعَهُ . فَفَعَلَ الغَرَبَانُ ذَلِكَ : فَأَهْلَكَنَّ الْيَوْمَ
قَاطِبَةً ، وَرَجَعْنَ إِلَى مَنَازِلِهِنَّ سَالِمَاتٍ آمِنَاتٍ .

ثُمَّ إِنَّ مَلِكَ الغَرَبَانِ قَالَ لِذَلِكَ الغُرَابِ : كَيْفَ صَبَرْتَ عَلَى
صُحْبَةِ الْيَوْمِ ، وَلَا صَبَرَ لِلْأَخْيَارِ عَلَى صُحْبَةِ الْأَشْرَارِ ؟ فَقَالَ الغُرَابُ :
إِنَّ مَا قُتِلْتُ ، أَيُّهَا الْمَلِكُ لَكَذَلِكَ . وَلَكِنَّ الْعَاقِلَ إِذَا أَتَاهُ الْأَمْرُ
الْفَظِيعُ الْعَظِيمُ الَّذِي يَخَافُ مِنْ عَدَمِ تَحْمُلِهِ الْجَاهِلَةُ ^(١) عَلَى نَفْسِهِ
وَقَوْمِهِ ، لَمْ يَجْزَعْ مِنْ شِدَّةِ الصَّبْرِ عَلَيْهِ ، لِمَا يَرْجُو مِنْ أَنْ يُعْقِبَهُ
صَبْرُهُ حُسْنَ الْعَاقِبَةِ وَكَثِيرَ الْخَيْرِ فَلَمْ يَجِدْ لِذَلِكَ أَلَمًا ، وَلَمْ
تَكْرَهُ نَفْسُهُ الْخُضُوعَ لِمَنْ هُوَ دُونُهُ ، حَتَّى يَبْلُغَ حَاجَتَهُ . فَيَغْتَبِطُ
بِخَاتِمَةِ أَمْرِهِ ، وَعَاقِبَةِ صَبْرِهِ . فَقَالَ الْمَلِكُ : أَخْبِرْنِي عَنْ عُقُولِ
الْيَوْمِ : قَالَ الغُرَابُ : لَمْ أَجِدْ فِيهِنَّ عَاقِلًا إِلَّا الَّذِي كَانَ يُحْشِنُ
عَلَى قَتْلِي ، وَكَانَ حَرَضُنَّ عَلَى ذَلِكَ مَرَارًا ، فَكُنَّ أَوْضَعُ شَيْءٍ

رَأْيَا ! فَلَمْ يَنْظُرَنَّ فِي أَمْرِي ، وَيَذْكُرَنَّ أَنِّي قَدْ كُنْتُ ذَا مَنْزِلَةٍ
 فِي الْغُرَبَانِ ، وَأَنِّي أُعَدُّ مِنْ ذَوِي الرَّأْيِ ، وَلَمْ يَخَوْفَنَّ مَكْرِي
 وَحِيلَتِي ، وَلَا قَبْلَنَ مِنَ النَّاصِحِ الشَّفِيقِ ، وَلَا أَخْفَيْنَ دُونِي
 أَسْرَارَهُنَّ . وَقَدْ قَالَ الْعُلَمَاءُ : يَنْبَغِي لِلْمَلِكِ أَنْ يُحَصِّنَ أُمُورَهُ
 مِنْ أَهْلِ النَّمِيمَةِ ، وَلَا يُطْلِعَ أَحَدًا مِنْهُمْ عَلَى مَوَاضِعِ سِرِّهِ .
 فَقَالَ الْمَلِكُ : مَا أَهْلَكَ الْيَوْمَ فِي نَفْسِي إِلَّا الْبَغْيُ ، وَضَعْفُ رَأْيِي
 الْمَلِكِ ، وَمُوَافَقَتُهُ زُرَّاءَ السُّوءِ . فَقَالَ الْغُرَابُ : صَدَقْتَ أَيُّهَا
 الْمَلِكُ ، إِنَّهُ قَلَمًا ظَفِرَ أَحَدٌ بِبَغْيِي وَلَمْ يُطْعَ ، وَقَلَّ مَنْ أَكْثَرَ
 مِنَ الطَّعَامِ إِلَّا مَرِضَ . وَقَلَّ مَنْ وَثِقَ بِزُرَّاءِ السُّوءِ وَسَلِمَ مِنْ
 أَنْ يَقَعَ فِي الْمَهَالِكِ . وَكَانَ يُقَالُ : لَا يَطْمَعَنَّ ذُو الْكِبَرِ
 فِي حُسْنِ الثَّنَاءِ ، وَلَا الْخُبُّ فِي كَثْرَةِ الصَّدِيقِ ، وَلَا السَّيِّئُ
 الْأَدَبِ فِي الشَّرَفِ ، وَلَا الشَّحِيحُ فِي الْبِرِّ ، وَلَا الْحَرِيصُ
 فِي قِلَّةِ الذُّنُوبِ ، وَلَا الْمَلِكُ الْمُخْتَالُ ، الْمُتَهَاوِنُ بِالْأُمُورِ ،
 الضَّعِيفُ الْوُزَرَاءِ فِي ثَبَاتِ مُلْكِهِ ، وَصَلَاحُ رَعِيَّتِهِ . قَالَ
 الْمَلِكُ : لَقَدْ اخْتَمَلْتُ مَشَقَّةً شَدِيدَةً فِي تَصْنِيعِكَ لِلْيَوْمِ ،

وَتَضَرَّعَكَ لَهْنٌ . قَالَ الْغُرَابُ : إِنَّهُ مِنْ اخْتِمَلٍ مَشَقَّةٍ يَرْجُو
نَفْعَهَا ، وَنَحَى عَنْ نَفْسِهِ الْأَنْفَةَ وَالْحِمِيَّةَ ، وَوَطَّنَهَا عَلَى الصَّبْرِ
حَمْدَ غِبِّ رَأْيِهِ ^(١) ؛ كَمَا صَبَرَ الْأَسْوَدُ عَلَى حَمْلِ مَلِكِ الضَّفَادِعِ عَلَى
ظَهْرِهِ ، وَشَبَعَ بِذَلِكَ وَعَاشَ . قَالَ الْمَلِكُ : وَكَيْفَ كَانَ ذَلِكَ ؟

قَالَ الْغُرَابُ : زَعَمُوا أَنَّ أَسْوَدَ مِنَ الْحَيَّاتِ كَبَرَ ، وَضَعُفَ
بَصَرُهُ . وَذَهَبَتْ قُوَّتُهُ : فَلَمْ يَسْتَطِعْ صَيْدًا ، وَلَمْ يَقْدِرْ عَلَى طَعَامٍ ،
وَأَنَّهُ انْسَابَ يَلْتَمِسُ شَيْئًا يَعِيشُ بِهِ ، حَتَّى انْتَهَى إِلَى عَيْنٍ كَثِيرَةٍ
الضَّفَادِعِ ، قَدْ كَانَ يَأْتِيهَا قَبْلَ ذَلِكَ ، فَيُصِيبُ مِنْ ضَفَادِعِهَا
رِزْقَهُ ، فَرَمَى نَفْسَهُ قَرِيبًا مِنْهُنَّ مُظْهِرًا لِلْكَاذِبَةِ وَالْحُزْنِ . فَقَالَ لَهُ
ضَفْدَعٌ ^(٢) : مَا لِي أَرَاكَ ، أَيُّهَا الْأَسْوَدُ ، كَثِيبًا حَزِينًا ؟ قَالَ : وَمَنْ
أُخْرَى بِطُولِ الْحُزْنِ مِنِّي ! وَإِنَّمَا كَانَ أَكْثَرُ مَعِيشَتِي مِمَّا كُنْتُ
أَصِيبُ مِنَ الضَّفَادِعِ ، فَابْتُلَيْتُ بِبَلَاءٍ ، وَحُرِمْتُ عَلَى الضَّفَادِعِ
مِنْ أَجَلِهِ ؛ حَتَّى إِنِّي إِذَا التَّقَيْتُ بِبَعْضِهَا ، لَا أَقْدِرُ عَلَى إِمْسَاكِهَا .

(١) عاقبة . (٢) بكسر أوله وثالثه أو فتحهما أو ضم الأول وفتح الثالث الواحدة بها .

فَانْطَلَقَ الضَّفَدِعُ إِلَى مَلِكِ الضَّفَادِعِ ، فَبَشَّرَهُ بِمَا سَمِعَ مِنَ
الْأَسْوَدِ . فَأَتَى مَلِكُ الضَّفَادِعِ إِلَى الْأَسْوَدِ . فَقَالَ لَهُ : كَيْفَ
كَانَ أَمْرُكَ ؟ قَالَ : سَعَيْتُ مُنْذُ أَيَّامٍ فِي طَلَبِ ضِفْدِعٍ . وَذَلِكَ
عِنْدَ الْمَسَاءِ ، فَاضْطَرَرْتُ إِلَى بَيْتِ نَاسِكٍ ، وَدَخَلْتُ فِي أَثَرِهِ
فِي الظُّلْمَةِ وَفِي الْبَيْتِ ابْنُ النَّاسِكِ ، فَأَصَبْتُ إَصْبَعَهُ ، فَظَنَنْتُ
أَنَّهَا الضَّفَدِعُ ، فَلَدَغْتُهُ فَكَاتَ . فَخَرَجْتُ هَارِبًا ، فَتَبِعَنِي
النَّاسِكُ فِي أَثَرِي ، وَدَعَا عَلَيَّ ، وَلَعَنَنِي . وَقَالَ : كَمَا قَتَلْتَ ابْنِي
الْبَرِيءَ ظُلْمًا وَتَعَدِّيًا ، أَذْعُو عَلَيْكَ أَنْ تَذِلَّ وَتَصِيرَ مَرْكَبًا
لِمَلِكِ الضَّفَادِعِ ، فَلَا تَسْتَطِيعُ أَخْذَهَا ، وَلَا أَكُلَ شَيْءٍ مِنْهَا ،
إِلَّا مَا يَتَصَدَّقُ بِهِ عَلَيْكَ مَلِكُهَا . فَأَتَيْتُ إِلَيْكَ لِتَرْكَبَنِي ، مُقِرًّا
بِذَلِكَ ، رَاضِيًا بِهِ . فَارْتَبَعَ مَلِكُ الضَّفَادِعِ فِي رُكُوبِ الْأَسْوَدِ ،
وَوَظَنَ أَنَّ ذَلِكَ نَحْرُهُ وَشَرَفُهُ ، وَرِفْعَتُهُ ، فَارْتَبَعَ وَاسْتَطَابَ ذَلِكَ .
فَقَالَ لَهُ الْأَسْوَدُ ، قَدْ عَلِمْتَ أَيُّهَا الْمَلِكُ أَنِّي مُحْرَمٌ ، فَاجْعَلْ لِي
رِزْقًا أَعِيشُ بِهِ . قَالَ مَلِكُ الضَّفَادِعِ : لَعَمْرِي لَا بُدَّ لَكَ مِنْ
رِزْقٍ يَقُومُ بِكَ ، إِذْ كُنْتَ مَرْكَبِي . فَأَمَرَ لَهُ بِضِفْدَعَيْنِ

يُؤْخَذَانِ فِي كُلِّ يَوْمٍ ، وَيُدْفَعَانِ إِلَيْهِ . فَعَاشَ بِذَلِكَ ، وَلَمْ
يُضَرَّهُ خُضُوعُهُ لِلْعُدُوِّ الدَّلِيلِ ؛ بَلِ انْتَفَعَ بِذَلِكَ ، وَصَارَ لَهُ رِزْقًا
وَمَعِيشَةً . وَكَذَلِكَ كَانَ صَبْرِي عَلَى مَا صَبَرْتُ عَلَيْهِ ، التِمَاسًا
لِهَذَا النِّفْعِ الْعَظِيمِ الَّذِي اجْتَمَعَ لَنَا فِيهِ الْأَمْنُ وَالظَّفَرُ ، وَهَلَاكُ
الْعُدُوِّ وَالرَّاحَةُ مِنْهُ . وَوَجَدْتُ صَرْعَةَ اللَّيْنِ وَالرَّفْقِ أَسْرَعَ وَأَشَدَّ
اسْتِنْصَافًا لِلْعُدُوِّ مِنْ صَرْعَةِ الْمُسْكَابَرَةِ : فَإِنَّ النَّارَ لَا تَزِيدُ بِمُحَدَّتِهَا
وَحَرَّهَا إِذَا أَصَابَتِ الشَّجَرَةَ عَلَى أَنْ تُحْرِقَ مَا فَوْقَ الْأَرْضِ مِنْهَا .
وَالْمَاءُ يَبْرِدُهُ وَلِينُهُ يَسْتَأْصِلُ مَا تَحْتَ الْأَرْضِ مِنْهَا . وَيُقَالُ
أَرْبَعَةُ أَشْيَاءَ لَا يُسْتَقَلُّ قَلِيلُهَا : النَّارُ وَالْمَرَضُ وَالْعُدُوُّ وَالذِّينُ .
قَالَ الْغُرَابُ : وَكُلُّ ذَلِكَ كَانَ مِنْ رَأْيِ الْمَلِكِ وَأَدْبِهِ وَسَعَادَةِ
جَدِّهِ . وَإِنَّهُ كَانَ يُقَالُ : إِذَا طَلَبَ اثْنَانِ أَمْرًا ظَفَرِيهِ مِنْهُمَا
أَفْضَلُهُمَا مُرُوءَةً . فَإِنْ اعْتَدَلَا فِي الْمُرُوءَةِ ، فَأَشَدُّهُمَا عَزْمًا .
فَإِنْ اسْتَوَيَا فِي الْعَزْمِ ، فَأَسْعَدُهُمَا جَدًّا . وَكَانَ يُقَالُ : مَنْ
خَارَبَ الْمَلِكَ الْخَازِمَ الْأَرِيْبَ الْمُتَضَرِّعَ الَّذِي لَا تُبْطِرُهُ السَّرَّاءُ ،
وَلَا تُدْهِشُهُ الضَّرَّاءُ ، كَانَ هُوَ دَاعِيَ الْخُتْفِ إِلَى نَفْسِهِ ، وَلَا سِيَّمَا

إِذَا كَانَ مِثْلَكَ ، أَيُّهَا الْمَلِكُ الْعَالِمُ بِفُرُوضِ الْأَعْمَالِ ، وَمَوَاضِعِ
الشَّدَّةِ وَاللَّيْنِ ، وَالْغَضَبِ وَالرَّضَا ، وَالْمُعَاجَلَةِ وَالْأَنَاءَةِ ؛ النَّاطِرُ
فِي أَمْرِ يَوْمِهِ وَغَدِهِ ، وَعَوَاقِبِ أَعْمَالِهِ . قَالَ الْمَلِكُ لِلْغُرَابِ :
بَلْ بَرَأَيْكَ وَعَقْلِكَ وَنَصِيحَتِكَ وَيُمْنِ طَالِعِكَ كَانَ ذَلِكَ ، فَإِنَّ
رَأَى الرَّجُلَ الْوَاحِدَ ، الْعَاقِلِ الْحَازِمِ ، أَبْلَغُ فِي هَلَاكِ الْعَدُوِّ مِنَ
الْجُنُودِ الْكَثِيرَةِ ، مِنْ ذَوِي الْبَأْسِ وَالنَّجْدَةِ ، وَالْعَدَدِ وَالْعُدَّةِ .
وَإِنَّ مِنْ عَجِيبِ أَمْرِكَ عِنْدِي طُولَ لُبْنِكَ بَيْنَ ظَهْرَانِي الْيَوْمِ
تَسْمَعُ الْكَلَامَ الْغَلِيظَ ، ثُمَّ لَمْ تَسْقُطْ بَيْنَهُنَّ بِكَلِمَةٍ ! قَالَ الْغُرَابُ :
لَمْ أَزَلْ مُتَمَسِّكًا بِأَدَبِكَ ، أَيُّهَا الْمَلِكُ : أَصْحَبُ الْبَعِيدَ وَالْقَرِيبَ ،
بِالرَّفْقِ وَاللَّيْنِ ، وَالْمُبَالَغَةِ وَالْمَوَاتَاةِ . قَالَ الْمَلِكُ : أَصْبَحْتُ
وَقَدْ وَجَدْتُكَ صَاحِبَ الْعَمَلِ ، وَوَجَدْتُ غَيْرَكَ مِنَ الْوُزَرَاءِ
أَصْحَابَ أَقَاوِيلَ : لَيْسَ لَهَا عَاقِبَةٌ حَمِيدَةٌ فَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا
بِكَ مِنَّةً عَظِيمَةً لَمْ نَكُنْ قَبْلَهَا نَجِدُ لَذَّةَ الطَّعَامِ وَلَا الشَّرَابِ ،
وَلَا النَّوْمَ وَلَا الْقَرَارَ . وَكَانَ يُقَالُ : لَا يَجِدُ الْمَرِيضُ لَذَّةَ الطَّعَامِ
وَالنَّوْمَ حَتَّى يَبْرَأَ ، وَلَا الرَّجُلُ الشَّرَّ الَّذِي قَدْ أَطْمَعَهُ سُلْطَانُهُ

فِي مَالٍ وَعَمَلٍ فِي يَدِهِ ، حَتَّى يُنْجِزَهُ لَهُ ، وَلَا الرَّجُلُ الَّذِي قَدْ أَلْحَ
عَلَيْهِ عَدُوُّهُ ، وَهُوَ يَخَافُهُ صَبَاحًا وَمَسَاءً حَتَّى يَسْتَرِيحَ مِنْهُ قَلْبُهُ .
وَمَنْ وَضَعَ الْحِمْلَ الثَّقِيلَ عَنْ يَدَيْهِ أَرَأَحَ نَفْسَهُ . وَمَنْ أَمِنَ عَدُوَّهُ
ثَلَجَ صَدْرُهُ ^(١) .

قَالَ الْغُرَابُ : أَسْأَلُ اللَّهَ الَّذِي أَهْلَكَ عَدُوَّكَ أَنْ يُمَتِّعَكَ
بِسُلْطَانِكَ ، وَأَنْ يَجْعَلَ فِي ذَلِكَ صَلاَحَ رَعِيَّتِكَ ، وَيُشْرِكُهُمْ
فِي قُرَّةِ الْعَيْنِ بِمُلْكِكَ ! فَإِنَّ الْمَلِكَ إِذَا لَمْ يَكُنْ فِي مُلْكِهِ قُرَّةَ
عُيُونٍ رَعِيَّتِهِ ، فَشَلُّهُ ^(٢) مِثْلَ زَنْمَةِ الْعَنْزِ الَّتِي يَمْتَصُّهَا ، وَهُوَ يَحْسِبُهَا
حَلْمَةَ الضَّرْعِ ، فَلَا يُصَادِفُ فِيهَا خَيْرًا . قَالَ الْمَلِكُ : أَيُّهَا
الْوَزِيرُ الصَّالِحُ ، كَيْفَ كَانَتْ سِيرَةُ الْيَوْمِ وَمَلِكُهَا فِي حُرُوبِهَا ،
وَفِيمَا كَانَتْ فِيهِ مِنْ أُمُورِهَا ؟ قَالَ الْغُرَابُ : كَانَتْ سِيرَتُهُ سِيرَةً
بَطَرٍ ، وَأَشْرٍ وَخِيَلَاءٍ ، وَعَجْزٍ ، وَنَقَرٍ ، مَعَ مَا فِيهِ مِنَ الصِّفَاتِ
الدِّمِيَّةِ . وَكُلُّ أَصْحَابِهِ وَوُزَرَائِهِ شَبِيهُ بِهِ ، إِلَّا الْوَزِيرَ الَّذِي
كَانَ يُشِيرُ عَلَيْهِ بِقَتْلِي : فَإِنَّهُ كَانَ حَكِيمًا أَرِيبًا ، فَيَأْسُوفًا حَازِمًا

عَالِمًا ، قَلَمَّا يُرَى مِثْلُهُ فِي عُلُوِّ الْهِمَّةِ ، وَكَمَالِ الْعَقْلِ ، وَجَوْدَةِ
الرَّأْيِ . قَالَ الْمَلِكُ : وَأَيُّ خَصْلَةٍ رَأَيْتَ مِنْهُ كَانَتْ أَدَلَّ عَلَى عَقْلِهِ ؟
قَالَ : خَلَّتَانِ : إِحْدَاهُمَا رَأَيْتُ فِي قَتْلِي ، وَالْأُخْرَى أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ
يَكْتُمُ صَاحِبَهُ نَصِيحَتَهُ ، وَإِنْ اسْتَقْلَاهَا ، وَلَمْ يَكُنْ كَلَامُهُ مُكَلِّمًا
عُنْفٍ وَقَسْوَةً ، وَلَكِنَّهُ كَلَامٌ رَفِيقٌ وَلِينٌ حَتَّى إِنَّهُ رُبَّمَا أَخْبَرَهُ
بِبَعْضِ عُيُوبِهِ ، وَلَا يُصْرِحُ بِحَقِيقَةِ الْحَالِ بَلْ يَضْرِبُ لَهُ الْأَمْثَالَ ،
وَيُحَدِّثُهُ بِعَيْبِ غَيْرِهِ ، فَيَعْرِفُ عَيْبَهُ . فَلَا يَجِدُ مَلِكُهُ إِلَى الْغَضَبِ
عَلَيْهِ سَبِيلًا . وَكَانَ مِمَّا سَمِعْتُهُ يَقُولُ لِمَلِكِهِ : إِنَّهُ لَا يَنْبَغِي
لِلْمَلِكِ أَنْ يَغْفَلَ عَنْ أَمْرِهِ ، فَإِنَّهُ أَمْرٌ جَسِيمٌ ، لَا يَظْفَرُ بِهِ مِنَ
النَّاسِ إِلَّا قَلِيلٌ ، وَلَا يُدْرِكُ إِلَّا بِالْحَزْمِ ، فَإِنَّ الْمَلِكَ عَزِيزٌ ،
فَمَنْ ظَفَرِ بِهِ فَلْيُحْسِنْ حِفْظَهُ وَتَحْصِينَهُ ، فَإِنَّهُ قَدْ قِيلَ : إِنَّهُ
فِي قِلَّةِ بَقَائِهِ بِمَنْزِلَةِ قِلَّةِ بَقَاءِ الظِّلِّ عَنْ وَرَقِ النَّيْلُوفَرِ ، وَهُوَ
فِي خِفَّةِ زَوَالِهِ ، وَسُرْعَةِ إِقْبَالِهِ وَإِدْبَارِهِ كَالرَّيْحِ ، وَفِي قِلَّةِ
ثَبَاتِهِ كَاللَّيْبِ مَعَ اللَّثَامِ ، وَفِي سُرْعَةِ اضْمِحْلَالِهِ كَحَبَابِ الْمَاءِ مِنْ
وَقْعِ الْمَطَرِ . فَهَذَا مِثْلُ أَهْلِ الْعَدَاوَةِ الَّذِينَ لَا يَنْبَغِي أَنْ يُعْتَرَبَ بِهِمْ ،
وَإِنْ هُمْ أَظْهَرُوا تَوَدُّدًا وَتَضَرُّعًا .

بَابُ الْقِرْدِ وَالْغَيْلِمِ^(١)

قَالَ دَبْشَلِيمُ الْمَلِكُ لِبَيْدَبَا الْفِيلَسُوفِ : قَدْ سَمِعْتُ هَذَا الْمَثَلَ ،
فَاضْرِبْ لِي مَثَلَ الرَّجُلِ الَّذِي يَطْلُبُ الْحَاجَةَ ، فَإِذَا ظَفَرَ بِهَا ،
أَضَاعَهَا . قَالَ الْفِيلَسُوفُ : إِنَّ طَلَبَ الْحَاجَةِ أَهْوَنُ مِنَ
الِإِحْتِفَازِ بِهَا ، وَمَنْ ظَفَرَ بِحَاجَةٍ ثُمَّ لَمْ يُحْسِنِ الْقِيَامَ بِهَا ،
أَصَابَهُ مَا أَصَابَ الْغَيْلِمَ . قَالَ الْمَلِكُ : وَكَيْفَ كَانَ ذَلِكَ ؟

قَالَ بَيْدَبَا : زَعَمُوا أَنَّ قِرْدًا يُقَالُ لَهُ مَاهِرٌ ، كَانَ مَلِكَ الْقِرَدَةِ ،
وَكَانَ قَدْ كَبِرَ وَهَرِمَ ، فَوَثَبَ عَلَيْهِ قِرْدٌ شَابٌّ مِنْ بَيْتِ الْمَمْلَكَةِ
فَتَغَلَّبَ عَلَيْهِ ، وَأَخَذَ مَكَانَهُ . فَخَرَجَ هَارِبًا عَلَى وَجْهِهِ ، حَتَّى
انْتَهَى إِلَى السَّاحِلِ ، فَوَجَدَ شَجَرَةً مِنْ شَجَرِ التِّينِ ، فَارْتَقَى إِلَيْهَا
وَجَعَلَهَا مُقَامَهُ . فَبَيْنَمَا هُوَ ذَاتَ يَوْمٍ يَأْكُلُ مِنْ ذَلِكَ التِّينِ ،
إِذْ سَقَطَتْ مِنْ يَدِهِ تِينَةٌ فِي الْمَاءِ ، فَسَمِعَ لَهَا صَوْتًا وَإِيقَاعًا ،
بِفَعْلٍ يَأْكُلُ وَيَرْمِي فِي الْمَاءِ ، فَأَطْرَبَهُ ذَلِكَ : فَأَكْثَرَ مِنْ طَرَجِ
التِّينِ فِي الْمَاءِ ، وَثُمَّ غَيْلِمَ ، كُلَّمَا وَقَعَتْ تِينَةٌ أَكَلَهَا . فَلَمَّا

كَثُرَ ذَلِكَ ظَنًّا أَنَّ الْقِرْدَ إِنَّمَا يَفْعَلُ ذَلِكَ لِأَجْلِهِ ، فَرَغِبَ
 فِي مُصَادَقَتِهِ ، وَأَسَسَ إِلَيْهِ ، وَكَلَّمَهُ ، وَالْفَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا
 صَاحِبُهُ . وَطَالَتْ غَيْبَةُ الْغَيْلِمِ عَنْ زَوْجَتِهِ : فَجَزَعَتْ عَلَيْهِ ،
 وَشَكَتْ ذَلِكَ إِلَى جَارَةٍ لَهَا ، وَقَالَتْ : قَدْ خِفْتُ أَنْ يَكُونَ
 قَدْ عَرَضَ لَهُ عَارِضُ سُوءٍ فَاغْتَالَهُ . فَقَالَتْ لَهَا : إِنَّ زَوْجَكَ
 بِالسَّاحِلِ قَدْ أَلِفَ قِرْدًا وَالْفَهُ الْقِرْدُ : فَهُوَ مُوَأَكَلُهُ وَمُشَارِبُهُ ،
 وَهُوَ الَّذِي قَطَعَهُ عَنْكَ ، وَلَا يَقْدِرُ أَنْ يُقِيمَ عِنْدَكَ حَتَّى تَحْتَالِي
 لِهَلَاكِ الْقِرْدِ . قَالَتْ : وَكَيْفَ أَصْنَعُ ؟ . قَالَتْ جَارَتُهَا : إِذَا
 وَصَلَ إِلَيْكَ فَتَمَارَضِي ، فَإِذَا سَأَلَكَ عَنْ حَالِكَ فَقُولِي : إِنَّ
 الْحُكَمَاءَ وَصَفُوا لِي قَلْبَ قِرْدٍ . ثُمَّ إِنَّ الْغَيْلِمَ انْطَاقَ بَعْدَ مُدَّةٍ
 إِلَى مَنْزِلِهِ ، فَوَجَدَ زَوْجَتَهُ سَيِّئَةَ الْحَالِ مَهْمُومَةً ، فَقَالَ لَهَا
 الْغَيْلِمُ : مَا لِي أَرَاكِ هَكَذَا ، فَأَجَابَتْهُ جَارَتُهَا ، وَقَالَتْ : إِنَّ
 زَوْجَتَكَ مَرِيضَةٌ مِسْكِينَةٌ . وَقَدْ وَصَفَ لَهَا الْأَطِبَّاءُ قَلْبَ قِرْدٍ ،
 وَلَيْسَ لَهَا دَوَاءٌ سِوَاهُ . قَالَ الْغَيْلِمُ : هَذَا أَمْرٌ عَسِيرٌ . مِنْ أَيْنَ
 لَنَا قَلْبُ قِرْدٍ ، وَنَحْنُ فِي الْمَاءِ ؟ لَكِنْ سَأَحْتَالُ لِصَدِيقِي .

ثُمَّ انْطَلَقَ إِلَى سَاحِلِ الْبَحْرِ : فَقَالَ لَهُ الْقِرْدُ يَا أُنْحَى ، مَا حَبَسَكَ عَنِّي ؟ قَالَ لَهُ الْغَيْلِمُ : مَا حَبَسَنِي عَنْكَ إِلَّا حَيَاتِي : فَلَمْ أَعْرِفْ كَيْفَ أَجَازِيكَ عَلَى إِحْسَانِكَ إِلَيَّ ؟ وَارِيدُ أَنْ تُتِمَّ إِحْسَانَكَ إِلَيَّ بِزِيَارَتِكَ لِي فِي مَنْزِلِي : فَإِنِّي سَاكِنٌ فِي جَزِيرَةٍ طَيِّبَةِ الْفَاكِهَةِ . فَأَرْكَبَ ظَهْرِي لِأَسْبَحَ بِكَ . فَرَغَبَ الْقِرْدُ فِي ذَلِكَ ، وَنَزَلَ فَرَكَبَ ظَهْرَ الْغَيْلِمِ ، فَسَبَحَ بِهِ ، حَتَّى إِذَا سَبَحَ بِهِ ، عَرَضَ لَهُ قُبْحُ مَا أَصْمَرَ فِي نَفْسِهِ مِنَ الْغَدْرِ ، فَتَكَسَّرَ رَأْسُهُ ، فَقَالَ لَهُ الْقِرْدُ : مَا لِي أَرَاكَ مُهْتَمًّا ؟ قَالَ الْغَيْلِمُ : إِنَّمَا هُمِّي لِأَنِّي ذَكَرْتُ أَنَّ زَوْجَتِي شَدِيدَةُ الْمَرَضِ ، وَذَلِكَ يَمْنَعُنِي مِنْ كَثِيرٍ مِمَّا أُرِيدُ أَنْ أَبْلُغَهُ مِنْ كَرَامَتِكَ وَمُلَاطَفَتِكَ . قَالَ الْقِرْدُ : إِنَّ الَّذِي أَعْرِفُ مِنْ حِرْصِكَ عَلَى كَرَامَتِي يَكْفِيكَ مَوْنَةَ التَّكَلُّفِ . قَالَ الْغَيْلِمُ : أَجَلٌ . وَمَضَى بِالْقِرْدِ سَاعَةً ، ثُمَّ تَوَقَّفَ بِهِ ثَانِيَةً : فَسَاءَ ظَنُّ الْقِرْدِ وَقَالَ فِي نَفْسِهِ : مَا احْتِبَاسُ الْغَيْلِمِ وَإِبْطَاؤُهُ إِلَّا لِأَمْرٍ ! وَلَسْتُ آمِنًا أَنْ يَكُونَ قَلْبُهُ قَدْ تَغَيَّرَ لِي ، وَحَالَ عَن مَوَدَّتِي ، فَأَرَادَ بِي سُوءًا : فَإِنَّهُ لَا شَيْءَ أَخْفَ وَأَسْرَعُ تَقَلُّبًا

مِنَ الْقَلْبِ . وَقَدْ يُقَالُ : يَنْبَغِي لِلْعَاقِلِ أَلَّا يَغْفَلَ عَنِ التِّمَاسِ
مَا فِي نَفْسِ أَهْلِهِ وَوَلَدِهِ وَإِخْوَانِهِ وَصَدِيقِهِ ، عِنْدَ كُلِّ أَمْرٍ ،
وَفِي كُلِّ لَحْظَةٍ وَكَلِمَةٍ ، وَعِنْدَ الْقِيَامِ وَالْقُعُودِ ، وَعَلَى كُلِّ حَالٍ
فَإِنَّ ذَلِكَ كُلَّهُ يَشْهَدُ عَلَى مَا فِي الْقُلُوبِ . وَقَدْ قَالَتِ الْعُلَمَاءُ
إِذَا دَخَلَ قَلْبُ الصَّدِيقِ مِنْ صَدِيقِهِ رَيْبَةً فَلْيَأْخُذْ بِالْحَزْمِ
فِي التَّحْفِظِ مِنْهُ ، وَلْيَتَفَقَّدْ ذَلِكَ فِي لَحْظَاتِهِ وَحَالَاتِهِ . فَإِنْ كَانَ
مَا يُظُنُّ حَقًّا ظَفَرَ بِالسَّلَامَةِ ، وَإِنْ كَانَ بَاطِلًا ظَفَرَ بِالْحَزْمِ ، وَلَمْ
يَضُرَّهُ ذَلِكَ ، ثُمَّ قَالَ لِلْغَيْلِمِ : مَا الَّذِي يُجْبِسُكَ ؟ وَمَالِي أَرَاكَ
مُهْتَمًّا ، كَأَنَّكَ تُحَدِّثُ نَفْسَكَ مَرَّةً أُخْرَى ؟ قَالَ : يَهْمُنِي أَنَّكَ
تَأْتِي مَنَزِلِي فَلَا تَجِدُ أَمْرِي كَمَا أُحِبُّ : لِأَنَّ زَوْجَتِي مَرِيضَةٌ .
قَالَ الْقِرْدُ : لَا تَهْتَمَّ ، فَإِنَّ الِهْمَّ لَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا . وَلَكِنْ
التَّمَسَّ مَا يُصْلِحُ زَوْجَتَكَ مِنَ الْأَدْوِيَةِ وَالْأَغْذِيَةِ : فَإِنَّهُ يُقَالُ
لِيَبْدُلَ ذُو الْمَالِ مَالَهُ فِي أَرْبَعَةِ مَوَاضِعَ : فِي الصَّدَقَةِ ، وَفِي
وَقْتِ الْحَاجَةِ ، وَعَلَى الْبُسَيْنِ ، وَعَلَى الْأَزْوَاجِ . قَالَ الْغَيْلِمُ :
صَدَقْتَ . وَقَدْ قَالَتِ الْأَطِبَّاءُ : إِنَّهُ لَا دَوَاءَ لَهَا إِلَّا قَلْبُ
قِرْدٍ . فَقَالَ الْقِرْدُ فِي نَفْسِهِ : وَأَسْفَاهُ ! لَقَدْ أَدْرَكَنِي الْحَرَصُ

وَالشَّهْرُ عَلَى كِبَرِ سِنِي : حَتَّى وَقَعْتُ فِي شَرِّ وَرْطَةٍ ! وَلَقَدْ صَدَقَ
الَّذِي قَالَ : يَعِيشُ الْقَانِعُ الرَّاضِي مُسْتَرِيحًا مُطْمَئِنًّا ، وَذُو
الْحَرِصِ وَالشَّهْرِ يَعِيشُ مَا عَاشَ فِي تَعَبٍ وَنَصَبٍ . وَإِنِّي قَدْ
اِخْتَجْتُ الْآنَ إِلَى عَقْلِي فِي التَّمَاسِ الْمَخْرَجِ مِمَّا وَقَعْتُ فِيهِ .
ثُمَّ قَالَ لِلْغَيْلِمِ : وَمَا مَنَعَكَ أَنْ تُعَلِّمَنِي عِنْدَ مَنْزِلِي ، حَتَّى كُنْتُ
أَحْمِلُ قَلْبِي مَعِي ؟ فَهَذِهِ سُنَّةٌ فِينَا ، مَعَاشِرَ الْقِرَدَةِ ، إِذَا خَرَجَ
أَحَدُنَا لِرِيَاةِ صَدِيقٍ ، خَلَفَ قَلْبَهُ عِنْدَ أَهْلِهِ ، أَوْ فِي مَوْضِعِهِ ،
لِنَنْتَظِرَ إِذَا نَظَرْنَا إِلَى حُرَمِ الْمَزُورِ وَلَيْسَ قُلُوبُنَا مَعَنَا . قَالَ
الْغَيْلِمُ : وَأَيْنَ قَلْبُكَ الْآنَ ؟ قَالَ : خَلَفْتُهُ فِي الشَّجَرَةِ . فَإِنْ شِئْتَ
فَارْجِعْ بِي إِلَى الشَّجَرَةِ ، حَتَّى آتِيكَ بِهِ . فَفَرِحَ الْغَيْلِمُ بِذَلِكَ .
وَقَالَ : لَقَدْ وَافَقَنِي صَاحِبِي بِدُونِ أَنْ أَغْدِرَ بِهِ . ثُمَّ رَجَعَ بِالْقِرْدِ
إِلَى مَكَانِهِ . فَلَمَّا قَارَبَ السَّاحِلَ ، وَثَبَ عَنْ ظَهْرِهِ ، فَارْتَقَى
الشَّجَرَةَ . فَلَمَّا أَبْطَأَ عَلَى الْغَيْلِمِ ، نَادَاهُ : يَا خَلِيلِي ، اِخْمِلْ قَلْبَكَ
وَانْزِلْ ، فَقَدْ حَبَسْتَنِي . فَقَالَ الْقِرْدُ : هَيْهَاتَ ! أَتَظُنُّ أَنِّي
كَالْحِمَارِ الَّذِي زَعَمَ ابْنُ آوَى أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ لَهُ قَلْبٌ وَلَا أُذُنَانِ :
قَالَ الْغَيْلِمُ : وَكَيْفَ كَانَ ذَلِكَ ؟

قَالَ الْقِرْدُ : زَعُمُوا أَنَّهُ كَانَ أَسَدٌ فِي أَجَمَةٍ ، وَكَانَ مَعَهُ ابْنُ
 آوَى يَأْكُلُ مِنْ فَوَاضِلِ طَعَامِهِ ، فَأَصَابَ الْأَسَدَ جَرَبٌ ،
 وَضَعْفٌ شَدِيدٌ ، وَجَهْدٌ ، فَلَمْ يَسْتَطِعِ الصَّيْدَ . فَقَالَ لَهُ
 ابْنُ آوَى : مَا بَالُكَ ، يَا سَيِّدَ السَّبَاعِ ، قَدْ تَغَيَّرَتْ أَحْوَالُكَ ؟
 قَالَ : هَذَا الْجَرَبُ الَّذِي قَدْ أَجْهَدَنِي ، وَلَيْسَ لَهُ دَوَاءٌ إِلَّا قَابُ
 حِمَارٍ وَأَذُنَاهُ . قَالَ ابْنُ آوَى : مَا أَيْسَرَ هَذَا ! وَقَدْ عَرَفْتُ
 بِمَكَانٍ كَذَا حِمَارًا مَعَ قَصَّارٍ يَحْمِلُ عَلَيْهِ ثِيَابَهُ ، وَأَنَا آتِيكَ بِهِ ،
 ثُمَّ دَلَفَ إِلَى الْحِمَارِ فَأَتَاهُ وَسَلَّمَ عَلَيْهِ فَقَالَ لَهُ : مَا لِي أَرَاكَ مَهْزُولًا ؟
 قَالَ مَا يُطْعِمُنِي صَاحِبِي شَيْئًا . فَقَالَ لَهُ : وَكَيْفَ تَرْضَى الْمَقَامَ
 مَعَهُ عَلَى هَذَا ؟ قَالَ : فَأَلِي حِيلَةٌ فِي الْهَرَبِ مِنْهُ ، لَسْتُ
 أَتَوَجَّهُ إِلَى جِهَةٍ إِلَّا أَضْرَبَنِي إِنْسَانٌ فَكَدَّنِي وَأَجَاعَنِي . قَالَ
 ابْنُ آوَى : فَأَنَا أَدُلُّكَ عَلَى مَكَانٍ مَغْزُولٍ عَنِ النَّاسِ ، لَا يَمُرُّ
 بِهِ إِنْسَانٌ ، خَصِيبُ الْمَرْعَى ، فِيهِ قِطِيعٌ مِنَ الْحُمْرِ لَمْ تَرَ عَيْنٌ
 مِثْلَهَا حُسْنًا وَسِمْنًا . قَالَ الْحِمَارُ : وَمَا يَحْبِسُنَا عَنْهَا ؟ فَاَنْطَلَقَ

بِنَا إِلَيْهَا ، فَانْطَلَقَ بِهِ ابْنُ آوَى نَحْوَ الْأَسَدِ ، وَتَقَدَّمَ ابْنُ آوَى ،
وَدَخَلَ الْغَابَةَ عَلَى الْأَسَدِ ، فَأَخْبَرَهُ بِمَكَانِ الْحِمَارِ . فَخَرَجَ إِلَيْهِ
وَأَرَادَ أَنْ يَذِّبَ عَلَيْهِ ، فَلَمْ يَسْتَطِعْ لَضَعْفِهِ ، وَتَخَلَّصَ الْحِمَارُ
مِنْهُ . فَأَقْلَتَ هَلَعًا عَلَى وَجْهِهِ ^(١) . فَلَمَّا رَأَى ابْنُ آوَى أَنَّ الْأَسَدَ
لَمْ يَقْدِرْ عَلَى الْحِمَارِ ، قَالَ لَهُ : اعْجَزْتَ يَا سَيِّدَ السَّبَاعِ إِلَى هَذِهِ
الْغَايَةِ ؟ فَقَالَ لَهُ : إِنْ جِئْتَنِي بِهِ مَرَّةً أُخْرَى ، فَلَنْ يَنْجُو مِنِّي
أَبَدًا . فَمَضَى ابْنُ آوَى إِلَى الْحِمَارِ فَقَالَ لَهُ : مَا الَّذِي جَرَى
عَلَيْكَ ؟ إِنَّ أَحَدَ الْحُمُرِ رَاكَ غَرِيبًا ، فَخَرَجَ يَتَلَقَّاكَ مُرَحِّبًا بِكَ ،
وَلَوْ ثَبَّتَ لَهُ لَا تَسَكَ ، وَمَضَى بِكَ إِلَى أَصْحَابِهِ . فَلَمَّا سَمِعَ
الْحِمَارُ كَلَامَ ابْنِ آوَى ، وَلَمْ يَكُنْ رَأَى أَسَدًا قَطُّ ، صَدَّقَهُ ،
وَأَخَذَ طَرِيقَهُ إِلَى الْأَسَدِ ، فَسَبَقَهُ ابْنُ آوَى إِلَى الْأَسَدِ ، وَأَعْلَمَهُ
بِمَكَانِهِ . وَقَالَ لَهُ : اسْتَعِدَّ لَهُ ، فَقَدْ خَدَعْتُهُ لَكَ : فَلَا يُدْرِكُكَ
الضَّعْفُ فِي هَذِهِ النَّوْبَةِ : فَإِنَّهُ إِنْ أَقْلَتَ فَلَنْ يَعُودَ مَعِيَ أَبَدًا .
فَحَاشَ جَاشُ الْأَسَدِ لِتَحْرِيطِ ابْنِ آوَى لَهُ ، وَخَرَجَ إِلَى مَوْضِعِ ^(٢)

(١) اخلع : أفض الجزع . (٢) غلى والجلش ، وقد لا يهزم ، من معانيه النفس .

الْحِمَارِ . فَلَمَّا بَصُرَ بِهِ عَاجِلُهُ بُوْثَبَةٌ افْتَرَسَهُ بِهَا . ثُمَّ قَالَ : قَدْ
ذَكَّرْتُ الْأَطِبَاءَ أَنَّهُ لَا يُؤْكَلُ إِلَّا بَعْدَ الْغَسْلِ وَالطُّهُورِ : فَاحْتَفِظْ
بِهِ حَتَّى أَعُودَ فَأَكُلْ قَلْبَهُ وَأُذْنَيْهِ ، وَأَتْرِكَ مَا سِوَى ذَلِكَ قُوْتًا
لَكَ . فَلَمَّا ذَهَبَ الْأَسَدُ لِيَغْتَسِلَ ، عَمَدَ ابْنُ آوَى إِلَى الْحِمَارِ
فَأَكَلَ قَلْبَهُ وَأُذْنَيْهِ ، رَجَاءً أَنْ يَطْيِرَ الْأَسَدُ مِنْهُ ، فَلَا يَأْكُلُ مِنْهُ
شَيْئًا . ثُمَّ إِنَّ الْأَسَدَ رَجَعَ إِلَى مَكَانِهِ ، فَقَالَ لِابْنِ آوَى : أَيْنَ
قَلْبِ الْحِمَارِ وَأُذُنَاهُ ؟ قَالَ ابْنُ آوَى : أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّهُ لَوْ كَانَ لَهُ
قَلْبٌ يَفْقَهُ بِهِ ، وَأُذْنَانِ يَسْمَعُ بِهِمَا ، لَمْ يَرْجِعْ إِلَيْكَ بَعْدَ مَا أَفَاتَ
وَنَجَا مِنَ الْهَلَكَةِ :

وَأَمَّا ضَرَبْتُ لَكَ هَذَا الْمَثَلَ لِتَعْلَمَ أَنِّي لَسْتُ كَذَلِكَ الْحِمَارِ
الَّذِي زَعَمَ ابْنُ آوَى أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ لَهُ قَلْبٌ وَأُذُنَانِ ، وَلَكِنَّكَ
اخْتَلْتَ عَلَى ، وَخَدَعْتَنِي ، نَحْدَعْتُكَ بِمِثْلِ خَدِيعَتِكَ ،
وَأَسْتَدْرَكْتُ فَارِطَ أَمْرِي . وَقَدْ قِيلَ : إِنَّ الَّذِي يُفْسِدُهُ الْحِلْمُ
لَا يُصْلِحُهُ إِلَّا الْعِلْمُ . قَالَ الْغَيْلَمُ : صَدَقْتَ ، إِلَّا أَنَّ الرَّجُلَ
الصَّالِحَ يَعْتَرِفُ بِزَلَّتِهِ ، وَإِذَا أَذْنَبَ ذَنْبًا لَمْ يَسْتَحْيِ أَنْ يُودَبَ :

لِصِدْقِهِ فِي قَوْلِهِ وَفِعْلِهِ ، وَإِنْ وَقَعَ فِي وَرْطَةٍ أَمَكَّنَهُ التَّخَلُّصُ مِنْهَا
بِحِيلَتِهِ وَعَقْلِهِ : كَالرَّجُلِ الَّذِي يَعْتَرُّ عَلَى الْأَرْضِ ، ثُمَّ يَنْهَضُ
عَلَيْهَا مُعْتَمِدًا . فَهَذَا مَثَلُ الرَّجُلِ الَّذِي يَطْلُبُ الْحَاجَةَ فَإِذَا
ظَفَرَ بِهَا أَضَاعَهَا .

(انقضى باب القرد والغيلم)

بَابُ النَّاسِكِ وَابْنِ عَرِسٍ

قَالَ دَبْشَلِيمُ الْمَلِكُ لِبَيْدَبَا الْفَيْلَسُوفِ : قَدْ سَمِعْتُ هَذَا الْمَثَلَ .
فَاضْرِبْ لِي مَثَلَ الرَّجُلِ الْعَجَلَانَ فِي أَمْرِهِ ، مِنْ غَيْرِ رَوِيَّةٍ وَلَا
نَظَرٍ فِي الْعَوَاقِبِ . قَالَ الْفَيْلَسُوفُ : إِنَّهُ مَنْ لَمْ يَكُنْ فِي أَمْرِهِ
مُتَثَبِّتًا ، لَمْ يَزَلْ نَادِمًا ، وَيَصِيرُ أَمْرُهُ إِلَى مَا صَارَ إِلَيْهِ النَّاسِكُ
مَنْ قَتَلَ ابْنَ عَرِسٍ . وَقَدْ كَانَ لَهُ وَدُودًا . قَالَ الْمَلِكُ :
وَكَيْفَ كَانَ ذَلِكَ ؟

قَالَ الْفَيْلَسُوفُ : زَعَمُوا أَنَّ نَاسِكًا مِنَ النَّسَاكِ كَانَ بِأَرْضِ
جُرْجَانَ وَكَانَتْ لَهُ امْرَأَةٌ جَمِيلَةٌ ^(١) ، فَكُنَّا زَمَانًا لَمْ يُرْزَقَا وَلَدًا ،

ثُمَّ حَمَلَتْ مِنْهُ بَعْدَ الْإِيَّاسِ . فَسَرَّتِ الْمَرْأَةُ وَسَرَّ النَّاسُكَ بِذَلِكَ ،
 فَحَمِدَ اللَّهُ تَعَالَى ، وَسَأَلَهُ أَنْ يَكُونَ الْحَمْلُ ذَكَرًا . وَقَالَ
 لِزَوْجَتِهِ : أَبْشِرِي : فَإِنِّي أَرْجُو أَنْ يَكُونَ غُلَامًا ، لَنَا فِيهِ
 مَنَافِعُ ، وَقُرَّةُ عَيْنٍ ، اخْتَارُ لَهُ أَحْسَنَ الْأَسْمَاءِ ، وَأَخْضَرُ لَهُ
 سَائِرَ الْأَدْبَاءِ . فَقَالَتِ الْمَرْأَةُ : مَا يَخْمِلُكَ أَيُّهَا الرَّجُلُ عَلَى أَنْ
 تَتَكَلَّمَ بِمَا لَا تَدْرِي أَيْكُونُ أَمْ لَا ؟ وَمَنْ فَعَلَ ذَلِكَ أَصَابَهُ
 مَا أَصَابَ النَّاسُكَ الَّذِي أَرَأَقَ عَلَى رَأْسِهِ السَّمْنَ وَالْعَسَلَ .
 قَالَ لَهَا : وَكَيْفَ كَانَ ذَلِكَ ؟

قَالَتْ : زَعَمُوا أَنَّ نَاسِكًا كَانَ يَجْرِي عَلَيْهِ مِنْ بَيْتِ رَجُلٍ
 تَاجِرٍ ، فِي كُلِّ يَوْمٍ ، رِزْقٌ مِنَ السَّمَنِ وَالْعَسَلِ ، وَكَانَ يَأْكُلُ
 مِنْهُ قُوَّتَهُ وَحَاجَتَهُ ، وَيَرْفَعُ الْبَاقِي ، وَيَجْعَلُهُ فِي جَرَّةٍ ، فَيَعْلِقُهَا
 فِي وَتِدٍ فِي نَاحِيَةِ الْبَيْتِ ، حَتَّى امْتَلَأَتْ . فَيَيْنَمَا النَّاسُكَ ذَاتَ
 يَوْمٍ مُسْتَلْقٍ عَلَى ظَهْرِهِ ، وَالْعُكَّازَةُ فِي يَدِهِ ، وَالْجَرَّةُ مُعَلَّقَةٌ عَلَى
 رَأْسِهِ ، تَفَكَّرَ فِي غَلَاءِ السَّمَنِ وَالْعَسَلِ ، فَقَالَ : سَأَبِيعُ مَا فِي
 هَذِهِ الْجَرَّةِ بِدِينَارٍ ، وَأَشْتَرِي بِهِ عَشْرَةَ أَغْنُرٍ ؛ فَيُخْبِلُنَّ وَيَلْدُنَّ

فِي كُلِّ خَمْسَةِ أَشْهُرٍ بَطْنًا ، وَلَا تَلْبَثُ إِلَّا قَلِيلًا حَتَّى تَصِيرَ غَنَمًا
كَثِيرَةً ، إِذَا وَلَدَتْ أَوْلَادُهَا ؛ ثُمَّ حَرَّرَ عَلَى هَذَا النَّحْوِ بَسِينِينَ
فَوَجَدَ ذَلِكَ أَكْثَرَ مِنْ أَرْبَعِمِائَةِ عَنَزٍ ؛ فَقَالَ : أَنَا أَشْتَرِي بِهَا
مِائَةً مِنَ الْبَقَرِ ، بِكُلِّ أَرْبَعَةِ أَغْنُزٍ ثَوْرًا أَوْ بَقْرَةً ، وَأَشْتَرِي أَرْضًا
وَبَذْرًا ، وَأَسْتَأْجِرُ أَكْرَةً ^(١) وَأَزْرَعُ عَلَى الشِّرَانِ ، وَأَنْتَفِعُ بِالْبَنِ
الْإِنَاثِ وَنِتَاجِهَا فَلَا يَأْتِي عَلَى خَمْسِ سِنِينَ إِلَّا وَقَدْ أَصَبْتُ
مِنَ الزَّرْعِ مَا لَا كَثِيرًا : فَأَبْنَيْ بَيْتًا فَانْحَرًا ، وَأَشْتَرِي إِمَاءً وَعَبِيدًا ،
وَأَتَزَوَّجُ امْرَأَةً جَمِيلَةً ذَاتَ حُسْنٍ ؛ ثُمَّ تَأْتِي بِغُلَامٍ سَرِيٍّ نَجِيبٍ ؛
فَأَخْتَارُ لَهُ أَحْسَنَ الْأَسْمَاءِ ؛ فَإِذَا تَرَعَّرَعَ أَدَّبْتُهُ ، وَأَحْسَنْتُ
تَأْدِيبَهُ ، وَأَشَدَّدُ عَلَيْهِ فِي ذَلِكَ ، فَإِنْ يَقْبَلُ مِنِّي ، وَإِلَّا ضَرَبْتُهُ
بِهَذِهِ الْعُكَّازَةِ ، وَأَشَارَ بِيَدِهِ إِلَى الْجَحْرَةِ فَكَسَرَهَا ، فَسَالَ مَا كَانَ
فِيهَا عَلَى وَجْهِهِ . وَإِنَّمَا ضَرَبْتُ لَكَ هَذَا الْمَثَلَ لِكَيْ لَا تَعْجَلَ
بَذِكْرِ مَا لَا يَنْبَغِي ذِكْرُهُ ، وَمَا لَا تَدْرِي أَيَصَحُّ أَمْ لَا يَصَحُّ .
فَاتَعَطَّ النَّاسِكُ بِمَا حَكَتْ زَوْجَتُهُ . ثُمَّ إِنَّ الْمَرْأَةَ وَلَدَتْ غُلَامًا

(١) جمع أَكْرٍ وهو الحراث .

جَمِيلًا فَفَرِحَ بِهِ أَبُوهُ . وَبَعْدَ أَيَّامٍ حَانَ لَهَا أَنْ تَتَطَهَّرَ فَقَالَتْ
 الْمَرْأَةُ لِلنَّاسِكِ : اقْعُدْ عِنْدَ ابْنِكَ حَتَّى أَذْهَبَ إِلَى الْحَمَّامِ فَأَعْتَسِلَ
 وَأَعُودَ . ثُمَّ إِنَّهَا أَنْطَلَقَتْ إِلَى الْحَمَّامِ ، وَخَلَفَتْ زَوْجَهَا وَانْغَلَامَ .
 فَلَمْ يَلْبَثْ أَنْ جَاءَهُ رَسُولُ الْمَلِكِ ^(١) يَسْتَدْعِيهِ ، وَلَمْ يَجِدْ مَنْ يَخْلُفُهُ
 عِنْدَ ابْنِهِ ، غَيْرَ ابْنِ عَرِسٍ دَاجِنٍ عِنْدَهُ ، كَانَ قَدْ رَبَّاهُ صَغِيرًا
 فَهُوَ عِنْدَهُ عَدِيلٌ وَلَدِهِ . فَتَرَكَهُ النَّاسِكُ عِنْدَ الصَّبِيِّ ، وَأَغْلَقَ
 عَلَيْهِمَا الْبَيْتَ ، وَذَهَبَ مَعَ الرَّسُولِ . فَخَرَجَ مِنْ بَعْضِ أَجْحَارِ
 الْبَيْتِ حَيَّةٌ سَوْدَاءُ ، فَدَنَتْ مِنَ الْغُلَامِ ، فَضَرَبَهَا ابْنُ عَرِسٍ ،
 ثُمَّ وَثَبَ عَلَيْهَا فَقَتَلَهَا ، ثُمَّ قَطَعَهَا وَامْتَلَأَ قُفُوهُ مِنْ دَمِهَا ، ثُمَّ جَاءَ
 النَّاسِكُ ، وَفَتَحَ الْبَابَ ، فَالْتَقَاهُ ابْنُ عَرِسٍ ، كَأَلْمُبَشِّرِ لَهُ بِمَا
 صَنَعَ مِنْ قَتْلِ الْحَيَّةِ . فَلَمَّا رَأَاهُ مُلَوَّنًا بِالدِّمِّ ، وَهُوَ مَذْعُورٌ ،
 طَارَ عَقْلُهُ ، وَظَنَّ أَنَّهُ قَدْ خَنَقَ وَلَدَهُ . وَلَمْ يَتَثَبَّتْ فِي أَمْرِهِ ،
 وَلَمْ يَتَرَوَّ فِيهِ ، حَتَّى يَعْلَمَ حَقِيقَةَ الْحَالِ ، وَيَعْمَلَ بِغَيْرِ مَا ظَنَّ
 مِنْ ذَلِكَ . وَلَكِنْ عَجَلَ عَلَى ابْنِ عَرِسٍ ، وَضَرَبَهُ بِعُكَّازَةٍ كَانَتْ

فِي يَدِهِ ، عَلَى أُمِّ رَأْسِهِ ، فَمَاتَ . وَدَخَلَ النَّاسُكَ فَرَأَى الْغُلَامَ
 سَلِيمًا حَيًّا ، وَعِنْدَهُ أَسْوَدٌ مُقَطَّعٌ . فَلَمَّا عَرَفَ الْقِصَّةَ ، وَتَبَيَّنَ
 لَهُ سُوءُ فِعْلِهِ فِي الْعَجَلَةِ ، لَطَمَ عَلَى رَأْسِهِ . وَقَالَ : لَيْتَنِي لَمْ أَرْزُقْ
 هَذَا الْوَلَدَ ، وَلَمْ أَغْدِرْ هَذَا الْغَدْرَ ! وَدَخَلَتْ امْرَأَتُهُ ، فَوَجَدَتْهُ
 عَلَى تِلْكَ الْحَالِ . فَقَالَتْ لَهُ : مَا شَأْنُكَ ؟ فَأَخْبَرَهَا بِالْخَبَرِ مِنْ
 حُسْنِ فِعْلِ ابْنِ عَرِيسٍ وَسُوءِ مُكَافَأَتِهِ لَهُ . فَقَالَتْ : هَذِهِ ثَمَرَةُ
 الْعَجَلَةِ ! فَهَذَا مِثْلُ مَنْ لَا يَتَثَبَّتُ فِي أَمْرِهِ ، بَلْ يَفْعَلُ أَغْرَاضَهُ
 بِالسَّرْعَةِ وَالْعَجَلَةِ .

(انقضى باب الناسك وابن عرس)

بَابُ الْجُرْدِ وَالسَّنُورِ

قَالَ دَبْشَلِيمُ الْمَلِكُ لِبَيْدَبَا الْفَيْلَسُوفِ : قَدْ سَمِعْتُ هَذَا الْمَثَلَ ،
 فَأَضْرِبْ لِي مِثْلَ رَجُلٍ كَثُرَ أَعْدَاؤُهُ ، وَأَخَذَ قَوَائِمَهُ مِنْ كُلِّ
 جَانِبٍ ، فَأَشْرَفَ مَعَهُمْ عَلَى الْهَلَاكِ ، فَالْتَمَسَ النِّجَاةَ وَالْمَخْرَجَ
 بِمَوَالَاةِ بَعْضِ أَعْدَائِهِ وَمُصَالَحَتِهِ ، فَسَلِمَ مِنَ الْخَوْفِ وَأَمِنَ ، ثُمَّ
 وَفَى لِمَنْ صَالَحَهُ مِنْهُمْ . قَالَ الْفَيْلَسُوفُ : إِنَّ الْمَوَدَّةَ وَالْعَدَاوَةَ

لَا تَتَّبِعَنَّ عَلَى حَالَةٍ وَاحِدَةٍ أَبَدًا . وَرُبَّمَا حَالَتِ الْمَوَدَّةُ إِلَى
الْعَدَاوَةِ ، وَصَارَتِ الْعَدَاوَةُ وَلَايَةً وَصَدَاقَةً . وَلِهَذَا حَوَادِثُ
وَعِلَلٌ وَتَجَارِبُ ، وَذُو الرَّأْيِ يُحْدِثُ لِكُلِّ مَا يَحْدُثُ مِنْ ذَلِكَ
رَأْيًا جَدِيدًا : أَمَّا مِنْ قِبَلِ الْعَدُوِّ فَبِالْبَاسِ ، وَأَمَّا مِنْ قِبَلِ الصَّدِيقِ
فَبِالِاسْتِنَاسِ . وَلَا تَمْنَعُ ذَا الْعَقْلِ عَدَاوَةٌ كَانَتْ فِي نَفْسِهِ لِعَدُوِّهِ
مِنْ مُقَارَبَتِهِ وَالِاسْتِنْجَادِ بِهِ عَلَى دَفْعِ مَخُوفٍ أَوْ جَرِّ مَرْغُوبٍ .
وَمَنْ عَمِلَ فِي ذَلِكَ بِالْحَزْمِ ظَفَرَ بِحَاجَتِهِ . وَمَثَلُ ذَلِكَ مَثَلُ
الْجُرَذِ وَالسَّنُورِ حِينَ وَقَعَا فِي الْوَرْطَةِ ، فَجَنَّوَا بِاصْطِلَاحِهِمَا
بِجَمِيعَا مِنَ الْوَرْطَةِ وَالشَّدَةِ . قَالَ الْمَلِكُ : وَكَيْفَ كَانَ ذَلِكَ ؟
قَالَ بَيْدَبَا : زَعَمُوا أَنَّ شَجَرَةً عَظِيمَةً كَانَتْ فِي أَصْلِهَا جُحْرُ سَنُورٍ
يُقَالُ لَهُ رُومِي ، وَكَانَ قَرِيبًا مِنْهُ جُحْرُ جُرَذٍ يُقَالُ لَهُ فَرِيدُونُ ،
وَكَانَ الصَّيَّادُونَ كَثِيرًا يَتَدَاوُلُونَ ذَلِكَ الْمَكَانَ ، يَصِيدُونَ فِيهِ
الْوَحْشَ وَالطَّيْرَ ، فَتَزَلُ ذَاتَ يَوْمٍ صَيَّادٌ ، فَنَصَبَ حَبَاتَهُ
قَرِيبًا مِنْ مَوْضِعِ رُومِي ، فَلَمْ يَلْبَثْ أَنْ وَقَعَ فِيهَا . فَخَرَجَ الْجُرَذُ
يَدُبُّ ، وَيَطْلُبُ مَا يَأْكُلُ ، وَهُوَ حَذِرٌ مِنْ رُومِي . فَبَيْنَمَا هُوَ

يَسْعَى إِذْ بَصُرَ بِهِ فِي الشَّرِكِ ، فَسَرَّ وَاسْتَبَشَرَ . ثُمَّ انْتَفَتَ فَرَأَى
خَلْفَهُ ابْنَ عَرِسٍ ، يُرِيدُ أَخْذَهُ ، وَفِي الشَّجَرَةِ بَوْمًا ، يُرِيدُ
اِخْتِطَافَهُ ، فَتَحِيرَ فِي أَمْرِهِ ، وَخَافَ إِنْ رَجَعَ وَرَأَاهُ أَخْذَهُ ابْنَ
عَرِسٍ ، وَإِنْ ذَهَبَ يَمِينًا أَوْ شِمَالًا اِخْتِطَفَهُ الْبَوْمُ ، وَإِنْ تَقَدَّمَ
أَمَامَهُ أَفْتَرَسَهُ السُّنُورُ . فَقَالَ فِي نَفْسِهِ : هَذَا بَلَاءٌ قَدْ اكْتَنَفَنِي ،
وَشُرُورٌ تَظَاهَرَتْ عَلَيَّ ، وَمِحْنٌ قَدْ أَحَاطَتْ بِي . وَبَعْدَ ذَلِكَ
فَمَعِيَ عَقْلِي ، فَلَا يُفْزِعُنِي أَمْرِي ، وَلَا يَهُولُنِي شَأْنِي ، وَلَا يَلْحَقُنِي
الدَّهْشُ ، وَلَا يَذْهَبُ قَلْبِي شِعَاعًا : فَالْعَاقِلُ لَا يَفْرُقُ عِنْدَ سَدَادِ
رَأْيِهِ ، وَلَا يَعْزُبُ عَنْهُ ذِهْنُهُ عَلَى حَالٍ . وَإِنَّمَا الْعَقْلُ شَيْبَةٌ
بِالْبَحْرِ الَّذِي لَا يَذْرُكُ غَوْرَهُ . وَلَا يَبْلُغُ الْبَلَاءُ مِنْ ذِي الرَّأْيِ
مُجْهُودَهُ فِيهِلِكَهُ ، وَتَحَقُّقُ الرَّجَاءِ لَا يَنْبَغِي أَنْ يَبْلُغَ مِنْهُ مَبْلَغًا
يُبْطِرُهُ وَيُسْكِرُهُ : فَيَعْمَى عَلَيْهِ أَمْرُهُ . وَلَسْتُ أَرَى لِي مِنْ هَذَا
الْبَلَاءِ مَخْلَصًا إِلَّا مُصَالِحَةَ السُّنُورِ : فَإِنَّهُ قَدْ نَزَلَ بِهِ مِنَ الْبَلَاءِ
مِثْلُ مَا قَدْ نَزَلَ بِي أَوْ بَعْضُهُ . وَلَعَلَّهُ إِنْ سَمِعَ كَلَامِي الَّذِي أَكَلَّمُهُ بِهِ ،

وَوَعَى عَنِّي فَصِيحَ خَطَابِي ، وَمَحْضَ صِدْقِي الَّذِي لَا خِلَافَ فِيهِ ،
وَلَا خِدَاعَ مَعَهُ فَفَهِمَهُ ، وَطَمَعَ فِي مَعُونَتِي إِيَّاهُ ، نَحْلُصُ
جَمِيعًا .

ثُمَّ إِنَّ الْجُرَذَ دَنَا مِنَ السَّنُورِ فَقَالَ لَهُ : كَيْفَ حَالُكَ ؟ قَالَ لَهُ
السَّنُورُ : كَمَا تُحِبُّ : فِي ضَنْكِ وَضِيقٍ . قَالَ : وَأَنَا الْيَوْمَ
شَرِيكَكَ فِي الْبَلَاءِ ، وَلَسْتُ أَرْجُو لِنَفْسِي خَلَاصًا إِلَّا بِالَّذِي
أَرْجُو لَكَ فِيهِ الْخَلَاصَ . وَكَلَامِي هَذَا لَيْسَ فِيهِ كَذِبٌ وَلَا
خَدِيعَةٌ . وَابْنُ عِرْسٍ هَا هُوَ كَامِنٌ لِي ، وَالنُّبُومُ يَرْصُدُنِي ،
وَكِلَاهُمَا لِي وَلَكَ عَدُوٌّ . فَإِنْ جَعَلْتَ لِي الْأَمَانَ ، قَطَعْتُ
حَبَائِلَكَ ، وَخَلَصْتُكَ مِنْ هَذِهِ الْوَرْطَةِ . فَإِذَا كَانَ ذَلِكَ تَخَلَّصَ
كُلُّ وَاحِدٍ مِنَّا بِسَبَبِ صَاحِبِهِ : كَالسَّفِينَةِ وَالرَّكَّابِ فِي الْبَحْرِ :
فَبِالسَّفِينَةِ يَنْجُونَ ، وَبِهِمْ تَنْجُو السَّفِينَةُ . فَلَمَّا سَمِعَ السَّنُورُ
كَلَامَ الْجُرَذِ ، وَعَرَفَ أَنَّهُ صَادِقٌ ، قَالَ لَهُ : إِنَّ قَوْلَكَ هَذَا
لَشَبِيهِ بِالْحَقِّ ، وَأَنَا أَيْضًا رَاغِبٌ فِيمَا أَرْجُو لَكَ وَلِنَفْسِي بِهِ

الْخِلَاصَ . ثُمَّ إِنَّكَ إِنْ فَعَلْتَ ذَلِكَ فَسَأَشْكُرُ لَكَ مَا بَقِيتُ .
 قَالَ الْجُرَذُ : فَإِنِّي سَادُّنُو مِنْكَ ، فَأَقْطَعُ الْحَبَائِلَ كُلَّهَا إِلَّا حَبَلًا
 وَاحِدًا أَبْقِيهِ لِأَسْتَوْثِقَ لِنَفْسِي مِنْكَ . ثُمَّ أَخَذَ فِي قَرْضِ حَبَائِلِهِ
 ثُمَّ إِنَّ الْيَوْمَ وَابْنَ عَرِسٍ لَمَّا رَأَىا دُنُوَ الْجُرَذِ مِنَ السَّنُورِ أَيْسَأَ
 مِنْهُ وَانْصَرَفَا . ثُمَّ إِنَّ الْجُرَذَ أَبْطَأَ عَلَى رُومِي فِي قَطْعِ الْحَبَائِلِ
 فَقَالَ لَهُ : مَا لِي لَا أَرَاكَ مُجِدًّا فِي قَطْعِ حَبَائِلِي ؟ فَإِنْ كُنْتَ قَدْ
 ظَفِرْتَ بِحَاجَتِكَ : فَتَغَيَّرْتَ عَمَّا كُنْتَ عَلَيْهِ ، وَتَوَانَيْتَ فِي حَاجَتِي ،
 فَمَا ذَلِكَ مِنْ فِعْلِ الصَّالِحِينَ : فَإِنَّ الْكَرِيمَ لَا يَتَوَانَى فِي حَقِّ
 صَاحِبِهِ . وَقَدْ كَانَ لَكَ فِي سَابِقِ مَوَدَّتِي مِنَ الْفَائِدَةِ وَالنَّفْعِ
 مَا قَدْ رَأَيْتَ . وَأَنْتَ حَقِيقٌ أَنْ تُكَافِئَنِي بِذَلِكَ ، وَلَا تَذْكُرَ
 الْعَدَاوَةَ الَّتِي بَيْنِي وَبَيْنَكَ : فَالَّذِي حَدَّثَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ مِنَ
 الصُّلْحِ حَقِيقٌ أَنْ يُنْسِيكَ ذَلِكَ ، مَعَ مَا فِي الْوَفَاءِ مِنَ الْفَضْلِ
 وَالْأَجْرِ ، وَمَا فِي الْغَدْرِ مِنْ سُوءِ الْعَاقِبَةِ : فَإِنَّ الْكَرِيمَ لَا يَكُونُ
 إِلَّا شُكُورًا غَيْرَ حَقُودٍ ، تُنْسِيهِ الْخَلَّةَ الْوَاحِدَةَ مِنَ الْإِحْسَانِ

الْخِلَالِ الْكَثِيرَةِ مِنَ الْإِسَاءَةِ . وَقَدْ يُقَالُ : إِنَّ أَجَلَ الْعُقُوبَةِ
عُقُوبَةُ الْغَدْرِ . وَمَنْ إِذَا تَضَرَّعَ إِلَيْهِ ، وَسُئِلَ الْعَفْوَ ، فَلَمْ يَرْحَمْ ،
وَلَمْ يَعْفُ ، فَقَدْ غَدَرَ ، قَالَ الْجُرُذُ : إِنَّ الصَّدِيقَ صَدِيقَانِ :
طَائِعٌ وَمُضْطَرٌّ . وَكِلَاهُمَا يَلْتَمِسَانِ الْمَنْفَعَةَ ، وَيَخْتَرِسَانِ مِنَ
الْمُضَرَّةِ . فَأَمَّا الطَّائِعُ فَيُسْتَرْسَلُ إِلَيْهِ ، وَيَوْمَنْ فِي جَمِيعِ
الْأَحْوَالِ . وَأَمَّا الْمُضْطَرُّ فَنَفِي بَعْضِ الْأَحْوَالِ يُسْتَرْسَلُ إِلَيْهِ ،
وَفِي بَعْضِهَا يُخَذَّرُ مِنْهُ . وَلَا يَزَالُ الْعَاقِلُ يَرْتَهِنُ مِنْهُ بَعْضَ حَاجَاتِهِ ،
لِبَعْضِ مَا يَتَّقِي وَيَخَافُ . وَلَيْسَ عَاقِبَةُ التَّوَاصُلِ مِنَ الْمُتَوَاصِلِ
إِلَّا طَلَبَ عَاجِلِ النَّفْعِ وَبُلُوغَ مَأْمُولِهِ . وَأَنَا وَافٍ لَكَ بِمَا
جَعَلْتُ لَكَ ، وَمُخْتَرِسٌ مِنْكَ مَعَ ذَلِكَ ، مِنْ حَيْثُ أَخَافُكَ
تَخَوُّفًا أَنْ يُصِيبَنِي مِنْكَ مَا أَلْجَأَنِي خَوْفُهُ إِلَى مُصَالَحَتِكَ ، وَالْجَاكُ
إِلَى قَبُولِ ذَلِكَ مِنِّي : فَإِنَّ لِكُلِّ عَمَلٍ حِينًا . فَكَلَمْ يَكُنْ مِنْهُ
فِي حِينِهِ ، فَلَا حُسْنَ لِعَاقِبَتِهِ . وَأَنَا قَاطِعٌ حَبَائِلَكَ كُلَّهَا ، غَيْرَ
أَنْ تَارِكَ عُقْدَةً وَاحِدَةً أَرْتَهِنُكَ بِهَا ، وَلَا أَقْطَعُهَا إِلَّا فِي السَّاعَةِ
الَّتِي أَعْلَمُ أَنَّكَ فِيهَا عَنِّي مَشْغُولٌ : وَذَلِكَ عِنْدَ مُعَايَنْتِي الصَّيَّادَ .

ثُمَّ إِنَّ الْجُرُذَ أَخَذَ فِي قَطْعِ حَبَائِلِ السَّنُورِ . فَبَيْنَمَا هُوَ كَذَلِكَ إِذْ وَافَى الصَّيَّادُ ، فَقَالَ لَهُ السَّنُورُ : الْآنَ جَاءَ الْجُدُّ فِي قَطْعِ حَبَائِلِي . فَأَجْهَدَ الْجُرُذُ نَفْسَهُ فِي الْقَرْضِ ؛ حَتَّى إِذَا فَرَغَ وَثَبَ السَّنُورُ إِلَى الشَّجَرَةِ عَلَى دَهْشٍ مِنَ الصَّيَّادِ ، وَدَخَلَ الْجُرُذُ بَعْضَ الْأَجْحَارِ ، وَجَاءَ الصَّيَّادُ فَأَخَذَ حَبَائِلَهُ مَقْطَعَةً ، ثُمَّ انْصَرَفَ خَائِبًا .

ثُمَّ إِنَّ الْجُرُذَ نَحَرَ بَعْدَ ذَلِكَ ، وَكَرِهَ أَنْ يَدْنُو مِنَ السَّنُورِ ، فَنَادَاهُ السَّنُورُ : أَيُّهَا الصَّدِيقُ النَّاصِحُ ، ذُو الْبَلَاءِ الْحَسَنِ عِنْدِي ، مَا مَنَعَكَ مِنَ الدُّنُوِّ إِلَيَّ ، لِأُجَازِيكَ بِأَحْسَنِ مَا أُسَدِّتُ إِلَيَّ ، هَلُمَّ إِلَيَّ وَلَا تَقْطَعْ إِخَائِي : فَإِنَّهُ مِنَ اتَّخَذَ صَدِيقًا ، وَقَطَعَ إِخَاءَهُ ، وَأَضَاعَ صَدَاقَتَهُ ، حُرِمَ ثَمَرَةَ إِخَائِهِ ، وَأَيْسَ مِنْ نَفْعِهِ الْإِخْوَانُ وَالْأَصْدِقَاءُ . وَإِنَّ يَدَكَ عِنْدِي لَا تُنْسَى ، وَأَنْتَ حَقِيقٌ أَنْ تَلْتَمِسَ مُكَافَأَةَ ذَلِكَ مِنِّي وَمِنْ إِخْوَانِي وَأَصْدِقَائِي . وَلَا تَخَافَنَّ مِنِّي شَيْئًا . وَاعْلَمْ أَنَّ مَا قَبْلِي لَكَ مَبْدُولٌ . ثُمَّ حَلَفَ وَاجْتَهَدَ عَلَى صِدْقِهِ فِيمَا قَالَ . فَنَادَاهُ الْجُرُذُ : رَبِّ صَدَاقَةٍ ظَاهِرَةٍ بَاطِنُهَا عَدَاوَةٌ كَامِنَةٌ . وَهِيَ أَشَدُّ مِنَ الْعَدَاوَةِ الظَّاهِرَةِ .

وَمَنْ لَمْ يَحْتَرَسْ مِنْهَا ، وَقَعَ مَوْقِعَ الرَّجُلِ الَّذِي يَرْكَبُ نَابَ الْفِيلِ
 الْمُغْتَلِمِ ، ثُمَّ يَغْلِبُهُ النَّعَاسُ ، فَيَسْتَقِظُ تَحْتَ فَرَاسِنِ الْفِيلِ ،
 فَيَدُوسُهُ وَيَقْتُلُهُ . وَإِنَّمَا سُمِّيَ الصَّدِيقُ صَدِيقًا : لِمَا يُرْجَى
 مِنْ نَفْعِهِ ، وَسُمِّيَ الْعَدُوُّ عَدُوًّا : لِمَا يُخَافُ مِنْ ضَرَرِهِ . وَالْعَاقِلُ
 إِذَا رَجَا نَفْعَ الْعَدُوِّ أَظْهَرَ لَهُ الصَّدَاقَةَ ، وَإِذَا خَافَ ضَرَّ الصَّدِيقِ
 أَظْهَرَ لَهُ الْعَدَاوَةَ . أَلَا تَرَى ؟ تَتَّبِعُ الْبَهَائِمُ أُمَّهَاتَهَا رَجَاءً أَلْبَانِهَا ،
 فَإِذَا انْقَطَعَ ذَلِكَ انْصَرَفَتْ عَنْهَا . وَرُبَّمَا قَطَعَ الصَّدِيقُ عَنْ
 صَدِيقِهِ بَعْضَ مَا كَانَ يَصِلُهُ ، فَلَمْ يَخَفْ شَرَّهُ : لِأَنَّ أَصْلَ
 أَمْرِهِ لَمْ يَكُنْ عَدَاوَةً . فَأَمَّا مَنْ كَانَ أَصْلُ أَمْرِهِ عَدَاوَةً جَوْهَرِيَّةً ،
 ثُمَّ أَحْدَثَ صَدَاقَةً لِحَاجَةٍ حَمَلَتْهُ عَلَى ذَلِكَ ، فَإِنَّهُ إِذَا زَالَتِ
 الْحَاجَةُ الَّتِي حَمَلَتْهُ عَلَى ذَلِكَ ، زَالَتْ صَدَاقَتُهُ ، فَتَحَوَّلَتْ
 عَدَاوَةً ، وَصَارَ إِلَى أَصْلِ أَمْرِهِ : كَالْمَاءِ الَّذِي يُسَخَّنُ بِالنَّارِ ،
 فَإِذَا رُفِعَ عَنْهَا عَادَ بَارِدًا . وَلَيْسَ مِنْ أَعْدَائِي عَدُوٌّ أَضُرُّ لِي
 مِنْكَ . وَقَدْ اضْطَرَّنِي وَإِيَّاكَ حَاجَةٌ إِلَى مَا أَخَذْتُمَا مِنَ الْمُصَالَحَةِ .
 وَقَدْ ذَهَبَ الْأَمْرُ الَّذِي اخْتَجْتُ إِلَيَّْ وَاخْتَجْتُ إِلَيْكَ فِيهِ ،

وَأَخَافُ أَنْ يَكُونَ مَعَ ذَهَابِهِ عَوْدُ الْعَدَاوَةِ . وَلَا خَيْرَ لِلضَّعِيفِ
فِي قُرْبِ الْعَدُوِّ الْقَوِيِّ ، وَلَا لِلذَّلِيلِ فِي قُرْبِ الْعَدُوِّ الْعَزِيزِ .
وَلَا أَعْلَمُ لَكَ قَبْلِي حَاجَةً ؛ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تُرِيدُ أَكْلِي ؛ وَلَا أَعْلَمُ
لِي قَبْلَكَ حَاجَةً ، وَلَيْسَ عِنْدِي بِكَ ثِقَةٌ : فَإِنِّي قَدْ عَلِمْتُ
أَنَّ الضَّعِيفَ الْمُخْتَرِسَ مِنَ الْعَدُوِّ الْقَوِيِّ أَقْرَبُ إِلَى السَّلَامَةِ
مِنَ الْقَوِيِّ إِذَا اغْتَرَّ بِالضَّعِيفِ وَاسْتَرْسَلَ إِلَيْهِ . وَالْعَاقِلُ
يُصَالِحُ عَدُوَّهُ إِذَا اضْطُرَّ إِلَيْهِ ، وَيُصَانِعُهُ ، وَيُظْهِرُ لَهُ وَدَهُ ،
وَيُؤَيِّدُهُ مِنْ نَفْسِهِ الْإِسْتِرْسَالَ إِلَيْهِ إِذَا لَمْ يَجِدْ مِنْ ذَلِكَ بُدًّا ،
ثُمَّ يَعْبَلُ الْإِنْصِرَافَ عَنْهُ ، حِينَ يَجِدُ إِلَى ذَلِكَ سَبِيلًا . وَأَعْلَمُ أَنَّ
سَرِيعَ الْإِسْتِرْسَالِ لَا تُقَالُ عَثْرَتُهُ . وَالْعَاقِلُ يَفِي لِمَنْ صَالَحَهُ
مِنْ أَعْدَائِهِ بِمَا جَعَلَ لَهُ مِنْ نَفْسِهِ ، وَلَا يَتَّقِي بِهِ كُلَّ الثَّقَةِ ،
وَلَا يَأْمَنُهُ عَلَى نَفْسِهِ مَعَ الْقُرْبِ مِنْهُ . وَيَذْبَغِي أَنْ يَبْعُدَ عَنْهُ
مَا اسْتَطَاعَ . وَأَنَا أَوْدُكَ مِنْ بَعِيدٍ ، وَأُحِبُّ لَكَ مِنَ الْبَقَاءِ
وَالسَّلَامَةِ ، مَا لَمْ أَكُنْ أُحِبُّهُ لَكَ مِنْ قَبْلُ . وَلَا عَلَيْكَ أَنْ تُجَازِيَنِي
عَلَى صَنِيعِي إِلَّا بِمِثْلِ ذَلِكَ : إِذَا لَا سَبِيلَ إِلَى اجْتِمَاعِنَا وَالسَّلَامِ .

بَابُ ابْنِ الْمَلِكِ وَالطَّائِرِ فَنَزَ

قَالَ دَبْشَلِيمُ الْمَلِكُ لِيَيْدَبَا الْفَيْلَسُوفُ : قَدْ سَمِعْتُ هَذَا
 الْمَثَلَ ، فَاضْرِبْ لِي مَثَلَ أَهْلِ التَّرَاتِ الَّذِينَ لَا يَدَّ لِبَعْضِهِمْ
 مِنْ اتِّقَاءِ بَعْضٍ . قَالَ بَيْدَبَا : زَعَمُوا أَنَّ مَلِكًا مِنْ مُلُوكِ الْهِنْدِ
 كَانَ يُقَالُ لَهُ بَرِيدُونُ ، وَكَانَ لَهُ طَائِرٌ يُقَالُ لَهُ فَنَزَةٌ ، وَكَانَ لَهُ فَرْخٌ
 وَكَانَ هَذَا الطَّائِرُ وَفَرْخُهُ يَنْطِقَانِ بِأَحْسَنِ مَنْطِقٍ ، وَكَانَ الْمَلِكُ
 بِهِمَا مُعْجَبًا . فَأَمَرَ بِهِمَا أَنْ يُجْعَلَا عِنْدَ امْرَأَتِهِ ، وَأَمَرَهَا بِالْحَافَظَةِ
 عَلَيْهِمَا . وَاتَّفَقَ أَنَّ امْرَأَةَ الْمَلِكِ وَلَدَتْ غُلَامًا ، فَأَلِفَ الْفَرْخُ
 الْغُلَامَ . وَكِلَاهُمَا طِفْلَانِ يَلْعَبَانِ جَمِيعًا . وَكَانَ فَنَزَةٌ يَذْهَبُ
 إِلَى الْجَبَلِ كُلِّ يَوْمٍ ، فَيَأْتِي بِفَاكِهَةٍ لَا تُعْرَفُ ، فَيُطْعِمُ
 ابْنَ الْمَلِكِ شَطْرَهَا ، وَيُطْعِمُ فَرْخَهُ شَطْرَهَا . فَاسْرَعَ ذَلِكَ
 فِي نَشَأَتِهِمَا ، وَزَادَ فِي شَبَابِهِمَا ، وَبَانَ عَلَيْهِمَا أَثَرُهُ عِنْدَ الْمَلِكِ :
 فَازْدَادَ لِفَنَزَةٍ إِكْرَامًا وَتَعْظِيمًا وَمَحَبَّةً ، حَتَّى إِذَا كَانَ يَوْمٌ مِنْ
 الْأَيَّامِ وَفَنَزَةٌ غَائِبٌ فِي اجْتِنَاءِ الثَّمَرَةِ ، وَفَرْخُهُ فِي حِجْرِ الْغُلَامِ ،

(١) جمع نزة وهي النار .

ذَرَقَ فِي حِجْرِهِ ، فَغَضِبَ الْغُلَامُ ، وَأَخَذَ الْفَرْخَ فَضَرَبَ بِهِ
الْأَرْضَ فَمَاتَ . ثُمَّ إِنَّ فَنَزَةَ أَقْبَلَ فَوَجَدَ فَرْخَهُ مَقْتُولًا ،
فَصَاحَ وَحَزَنَ ، وَقَالَ : قُبْحًا لِلْمُلُوكِ الَّذِينَ لَا عَهْدَ لَهُمْ وَلَا وِفَاءَ !
وَيَلُ لِمَنْ ابْتُلِيَ بِصُحْبَةِ الْمُلُوكِ الَّذِينَ لَا حِمِيَّةَ لَهُمْ وَلَا حُرْمَةَ ،
وَلَا يُجِبُونَ أَحَدًا وَلَا يَكْرُمُ عَلَيْهِمْ إِلَّا إِذَا طَمِعُوا فِيمَا عِنْدَهُ مِنْ
غَنَاءٍ ، وَاحْتَأَجُّوا إِلَى مَا عِنْدَهُ مِنْ عِلْمٍ : فَيُكْرِمُونَهُ لِدَلِكِ ،
فَإِذَا ظَفِرُوا بِحَاجَتِهِمْ مِنْهُ ، فَلَا وَدَّ ، وَلَا إِخَاءَ ، وَلَا إِحْسَانَ ،
وَلَا غُفْرَانَ ذَنْبٍ ، وَلَا مَعْرِفَةَ حَقِّ ! هُمُ الَّذِينَ أَمْرُهُمْ مَبْنِيٌّ
عَلَى الرِّيَاءِ وَالْفُجُورِ . وَهُمْ يَسْتَصْغِرُونَ مَا يَرْتَكِبُونَهُ مِنْ عَظِيمِ
الدُّنُوبِ ، وَيَسْتَعْظِمُونَ الْيُسِيرَ إِذَا خُولِفَتْ فِيهِ أَهْوَاؤُهُمْ .
وَمِنْهُمْ هَذَا الْكَفُورُ الَّذِي لَا رَحْمَةَ لَهُ ، الْغَادِرُ بِالْيَفَةِ وَأَخِيهِ .
ثُمَّ وَثَبَ فِي شِدَّةِ حَنَقِهِ عَلَى وَجْهِ الْغُلَامِ فَفَقَّقَا عَيْنَهُ ، وَطَارَ فَوْقَ
عَلَى شُرْفَةِ الْمَنْزِلِ . ثُمَّ إِنَّهُ بَلَغَ الْمَلِكَ ذَلِكَ ، فَخَرَعَ أَشَدَّ الْخَرْجِ ،
ثُمَّ طَمِعَ أَنْ يَحْتَالَ لَهُ ، فَوَقَفَ قَرِيبًا مِنْهُ ، وَنَادَاهُ ، وَقَالَ لَهُ :
إِنَّكَ آمِنٌ ، فَأَنْزِلْ يَا فَنَزَةُ . فَقَالَ لَهُ : أَيُّهَا الْمَلِكُ إِنَّ الْغَادِرَ

مَأْخُودٌ بِغَدْرِهِ ، وَإِنَّهُ إِنِ أَخْطَاهُ عَاجِلُ الْعُقُوبَةِ ، لَمْ يُخْطِئْهُ
الْأَجَلُ ؛ حَتَّى إِنَّهُ يَذْرُكُ الْأَعْقَابَ وَأَعْقَابَ الْأَعْقَابِ . وَإِنَّ
ابْنَكَ غَدَرَ بِابْنِي ، فَعَجَلْتُ لَهُ الْعُقُوبَةَ . قَالَ الْمَلِكُ : لَعَمْرِي
قَدْ غَدَرْنَا بِابْنِكَ ، فَانْتَقَمْتَ مِنَّا : فَلَيْسَ لَكَ قِبَلْنَا ، وَلَا لَنَا
قِبْلَكَ وَتُرْمَطُوبٌ . فَارْجِعْ إِلَيْنَا آمِنًا . قَالَ فَتَزَعُ : لَسْتُ
بِرَاجِعٍ إِلَيْكَ أَبَدًا : فَإِنَّ ذَوِي الرَّأْيِ قَدْ نَهَوْا عَنْ قُرْبِ الْمَوْتُورِ^(١)
فَإِنَّهُ لَا يَزِيدُكَ لُطْفَ الْحَقُودِ وَلِسِنُهُ وَتَكْرِمَتُهُ إِيَّاكَ إِلَّا وَحْشَةً
مِنْهُ ، وَسُوءَ ظَنٍّ بِهِ : فَإِنَّكَ لَا تَجِدُ لِلْحَقُودِ الْمَوْتُورِ أَمَانًا هُوَ
أَوْثَقُ لَكَ مِنَ الدُّعْرِ مِنْهُ ، وَلَا أَجُودُ مِنَ الْبُعْدِ عَنْهُ ،
وَالْإِحْتِرَاسُ مِنْهُ أَوْلَى . وَقَدْ كَانَ يُقَالُ : إِنَّ الْعَاقِلَ يَعُدُّ أَبَوَيْهِ
أَصْدِقَاءَ ، وَالْإِخْوَةَ رُفَقَاءَ ، وَالْأَزْوَاجَ أَلْفَاءَ ، وَالْبَنِينَ ذِكْرًا ،
وَالْبَنَاتِ خُصَمَاءَ ، وَالْأَقَارِبَ غُرَمَاءَ وَيَعُدُّ نَفْسَهُ فَرِيدًا . وَأَنَا
الْفَرِيدُ الْوَحِيدُ الْغَرِيبُ الطَّرِيدُ ، قَدْ تَزَوَّدْتُ مِنْ عِنْدِكُمْ مِنَ
الْحُزْنِ عَيْنًا ثَقِيلًا ، لَا يَخْمِلُهُ مَعِيَ أَحَدٌ . وَأَنَا ذَاهِبٌ . فَعَلَيْكَ
مِنِّي السَّلَامُ .

(١) من قتل له قتيلا فلم يدرك بدمه .

قَالَ لَهُ الْمَلِكُ : إِنَّكَ لَوْ لَمْ تَكُنْ اجْتَرَيْتَ مِنَّا فِيمَا صَنَعْنَاهُ
 بِكَ ، بَلْ كَانَ صَنِيعُكَ بِنَا مِنْ غَيْرِ ابْتِدَاءٍ مِنَّا بِالْغَدْرِ ، كَانَ
 الْأَمْرُ كَمَا ذَكَرْتَ . وَأَمَّا إِذْ كُنَّا نَحْنُ بِدَائِنَاكَ ، فَمَا ذَنْبُكَ ؟
 وَمَا الَّذِي يَمْنَعُكَ مِنَ الثِّقَةِ بِنَا ؟ هَلُمَّ فَارْجِعْ : فَإِنَّكَ آمِنٌ .
 قَالَ فَنَزَعُ : اعْلَمْ أَنَّ الْأَحْقَادَ لَهَا فِي الْقُلُوبِ مَوَاقِعُ مُمَكَّنَةٌ
 مُوجِعَةٌ . فَالْأَلْسُنُ لَا تَصْدُقُ فِي خَبَرِهَا عَنِ الْقُلُوبِ ،
 وَالْقَلْبُ أَعْدَلُ شَهَادَةً مِنَ اللِّسَانِ عَلَى الْقَلْبِ . وَقَدْ عَلِمْتَ أَنَّ
 قَلْبِي لَا يَشْهَدُ لِلْسَانِ ، وَلَا قَلْبُكَ لِلْسَانِي . قَالَ الْمَلِكُ : أَلَمْ
 تَعْلَمْ أَنَّ الضَّغَائِنَ وَالْأَحْقَادَ تَكُونُ بَيْنَ كَثِيرٍ مِنَ النَّاسِ : فَمَنْ
 كَانَ ذَا عَقْلٍ ، كَانَ عَلَى إِمَاتَةِ الْحَقْدِ أَحْرَصَ مِنْهُ عَلَى تَرْبِيَّتِهِ .
 قَالَ فَنَزَعُ : إِنَّ ذَلِكَ لَكَمَا ذَكَرْتَ ؛ وَلَكِنْ لَيْسَ يَدْبِغِي لِذِي
 الرَّأْيِ مَعَ ذَلِكَ أَنْ يَظُنَّ أَنَّ الْمُؤْتَوَرَ الْحُقُودَ نَاسٍ مَا وَتَرِيهِ ،
 مَصْرُوفٌ عَنْهُ فِكْرُهُ فِيهِ . وَذُو الرَّأْيِ يَخْوَفُ الْمَكْرَ وَالْحَدِيدَةَ
 وَالْحَيْلَ ، وَيَعْلَمُ أَنَّ كَثِيرًا مِنَ الْعَدُوِّ لَا يُسْتَطَاعُ بِالشَّدَّةِ

وَالْمُكَابَرَةُ ، حَتَّى يُصَادَ بِالرُّفِقِ وَالْمَلَايِنَةِ : كَمَا يُصَادُ الْفِيلُ
 الْوَحْشِيُّ بِالْفِيلِ الدَّاجِنِ . قَالَ الْمَلِكُ : إِنَّ الْعَاقِلَ الْكَرِيمَ
 لَا يَتْرُكُ إِلْفَهُ ، وَلَا يَقْطَعُ إِخْوَانَهُ وَلَا يُضَيِّعُ الْحِفَاطَ ، وَإِنْ
 هُوَ خَافَ عَلَى نَفْسِهِ ؛ حَتَّى إِنْ هَذَا الْخَلْقُ يَكُونُ فِي أَوْضَعِ
 الدَّوَابِّ مَنَزَلَةً : فَقَدْ عَلِمْتُ أَنَّ اللَّعَّابِينَ يَلْعَبُونَ بِالْكِلَابِ ،
 ثُمَّ يَذْبَحُونَهَا وَيَأْكُلُونَهَا . وَيَرَى الْكَلْبُ الَّذِي قَدْ أَلْفَهُمْ ذَلِكَ ،
 فَلَا يَدْعُوهُ إِلَى مُفَارَقَتِهِمْ ، وَلَا يَمْنَعُهُ مِنَ الْفَتْهِ إِيَّاهُمْ .
 قَالَ فَتْرَةٌ : إِنَّ الْأَحْقَادَ مَخُوفَةً حَيْثُمَا كَانَتْ . فَأَخَوْفُهَا وَأَشَدُّهَا
 مَا كَانَ فِي أَنْفُسِ الْمُلُوكِ : فَإِنَّ الْمُلُوكَ يَدِينُونَ بِالْإِنْتِقَامِ ،
 وَيَرَوْنَ الدَّرَكَ وَالطَّلَبَ بِالْوَتْرِ مَكْرَمَةً وَنَجْرًا . وَإِنَّ الْعَاقِلَ لَا يَغْتَرُّ
 بِسُكُونِ الْحَقْدِ إِذَا سَكَنَ فَإِنَّمَا مَثَلُ الْحَقْدِ فِي الْقَلْبِ ، إِذَا لَمْ
 يَجِدْ مُحَرَّرًا ، مَثَلُ الْجَمْرِ الْمَكْنُونِ ، مَا لَمْ يَجِدْ حَطْبًا ، فَلَيْسَ
 يَنْفَكُ الْحَقْدُ مُتَطَلِّعًا إِلَى الْعِلَلِ ، كَمَا تَبْتَغِي النَّارُ الْحَطَبَ :
 فَإِذَا وَجَدَ عِلَّةً اسْتَعَرَّ اسْتِعَارَ النَّارِ : فَلَا يُطْفِئُهُ حُسْنُ كَلَامٍ ،
 وَلَا لِينٌ وَلَا رِفْقٌ ، وَلَا خُضُوعٌ وَلَا تَضَرُّعٌ وَلَا مُصَانَعَةٌ ، وَلَا شَيْءٌ

دُونَ تَلَفِ الْأَنْفُسِ . مَعَ أَنَّهُ رَبٌّ وَاتِرٌ يَظْمَعُ فِي مُرَاجَعَةِ
 الْمُوتُورِ بِمَا يَرْجُو أَنَّ يَقْدِرَ عَلَيْهِ مِنَ النَّفْعِ لَهُ ، وَالِدَفْعِ عَنْهُ .
 وَلَكِنِّي أَنَا أضعِفُ عَنْ أَنَّ أَقْدِرَ عَلَى شَيْءٍ يَذْهَبُ بِهِ مَا فِي
 نَفْسِكَ . وَلَوْ كَانَتْ نَفْسُكَ مُنْطَوِيَةً لِي عَلَى مَا تَقُولُ مَا كَانَ
 ذَلِكَ عَنِّي مُغْنِيًا . وَلَا أَزَالُ فِي خَوْفٍ وَوَحْشَةٍ ، وَسُوءِ ظَنٍّ ،
 مَا اضْطَحَبْنَا . فَلَيْسَ الرَّأْيُ بَيْنِي وَبَيْنَكَ إِلَّا الْفِرَاقُ .
 وَأَنَا أَقْرَأُ عَلَيْكَ السَّلَامَ .

قَالَ الْمَلِكُ : لَقَدْ عَلِمْتَ أَنَّهُ لَا يَسْتَطِيعُ أَحَدٌ لِأَحَدٍ ضَرًا
 وَلَا نَفْعًا ، وَأَنَّهُ لَا شَيْءَ مِنَ الْأَشْيَاءِ صَغِيرًا وَلَا كَبِيرًا ، يُصِيبُ
 أَحَدًا ، إِلَّا بِقَضَاءٍ وَقَدَرٍ مَعْلُومٍ . وَكَأَنَّ خَلْقَ مَا يُخْلَقُ ،
 وَوِلَادَةَ مَا يُوَلَدُ ، وَبَقَاءَ مَا يَبْقَى ، لَيْسَ إِلَى الْخَلَائِقِ مِنْهُ
 شَيْءٌ ، كَذَلِكَ فَنَاءُ مَا يَفْنَى ، وَهَلَاكُ مَا يَهْلِكُ . وَلَيْسَ لَكَ
 فِي الَّذِي صَنَعْتَ بِإِبْنِي ذَنْبٌ ، وَلَا لِإِبْنِي فِيمَا صَنَعَ بِإِبْنِكَ ذَنْبٌ .
 إِنَّمَا كَانَ ذَلِكَ كُلُّهُ قَدَرًا مَقْدُورًا ، وَكَلَانَا لَهُ عِلَّةٌ : فَلَا
 نُوَاخِذُ بِمَا أَتَانَا بِهِ الْقَدَرُ . قَالَ فَنَزَعُ : إِنَّ الْقَدَرَ لَكَمَا ذَكَرْتَ ،
 لَكِنِ لَا يَمْنَعُ ذَلِكَ الْحَارِمَ مِنْ تَوَقُّيِ الْخَوَافِ ، وَالِاحْتِرَاسِ

مِنَ الْمَكَارِهِ . وَلَكِنَّهُ يَجْمَعُ تَصَدِيقًا بِالْقَدَرِ وَأَخْذًا بِالْحَزْمِ
وَالْقُوَّةِ . وَأَنَا أَعْلَمُ أَنَّكَ تُكَلِّمُنِي بِغَيْرِ مَا فِي نَفْسِكَ . وَالْأَمْرُ
بَيْنِي وَبَيْنَكَ غَيْرُ صَغِيرٍ : لِأَنَّ ابْنَكَ قَتَلَ ابْنِي ، وَأَنَا فَقَاتُ عَيْنَ
ابْنِكَ ، وَأَنْتَ تُرِيدُ أَنْ تَشْتَفِيَ بِقَتْلِي ، وَتَحْتُلِنِي عَنْ نَفْسِي ؛
وَالنَّفْسُ تَأْتِي الْمَوْتَ . وَقَدْ كَانَ يُقَالُ : الْفَاقَةُ بَلَاءٌ ، وَالْحُزْنُ
بَلَاءٌ ، وَقُرْبُ الْعَدُوِّ بَلَاءٌ ، وَفِرَاقُ الْأَحِبَّةِ بَلَاءٌ ، وَالسَّقَمُ بَلَاءٌ ،
وَالْهَرَمُ بَلَاءٌ ؛ وَرَأْسُ الْبَلَايَا كُلِّهَا الْمَوْتُ . وَلَيْسَ أَحَدٌ بِأَعْلَمَ
بِمَا فِي نَفْسِ الْمَوْجِعِ الْحَزِينِ مِمَّنْ ذَاقَ مِثْلَ مَا بِهِ . فَأَنَا
بِمَا فِي نَفْسِي عَالِمٌ بِمَا فِي نَفْسِكَ : لِلْمِثْلِ الَّذِي عِنْدِي مِنْ
ذَلِكَ . وَلَا خَيْرَ لِي فِي صُحْبَتِكَ : فَإِنَّكَ لَنْ تَتَذَكَّرَ صَنِيعِي
بِابْنِكَ ، وَلَنْ أَتَذَكَّرَ صَنِيعَ ابْنِكَ بِابْنِي ، إِلَّا أَحْدَثَ ذَلِكَ
لِقُلُوبِنَا تَغْيِيرًا .

قَالَ الْمَلِكُ : لَا خَيْرَ فِيمَنْ لَا يَسْتَطِيعُ الْإِغْرَاضَ عَمَّا
فِي نَفْسِهِ ، وَيَنْسَاهُ وَيُهْمِلُهُ ، حَتَّى لَا يَذْكُرَ مِنْهُ شَيْئًا ، وَلَا يَكُونَ
لَهُ فِي نَفْسِهِ مَوْقِعٌ . قَالَ فَتَزُهُ : إِنَّ الرَّجُلَ الَّذِي فِي بَاطِنِ

قَدَمِهِ قُرْحَةً ، إِنَّهُ هُوَ حَرَصَ عَلَى الْمَشْيِ ، فَلَا بُدَّ أَنَّهُ لَا يَزَالُ
 يَسْتَكِي قُرْحَتَهُ . وَالرَّجُلَ الْأَرْمَدَ الْعَيْنِ إِذَا اسْتَقْبَلَ بِهَا الرِّيحَ ،
 تَعَرَّضَ لِأَن تَزْدَادَ رَمْدًا . وَكَذَلِكَ الْوَاتِرُ إِذَا دَنَا مِنَ الْمُوتُورِ ،
 فَقَدْ عَرَّضَ نَفْسَهُ لِلْهَلَاكِ . وَلَا يَنْبَغِي لِصَاحِبِ الدُّنْيَا
 إِلَّا تَوَقَّى الْمَهَالِكِ وَالْمَتَالِفِ ، وَتَقَدَّرُ الْأُمُورُ وَقِيلَةً لَا تَكَالُ
 عَلَى الْحَوْلِ وَالْقُوَّةِ ، وَقِيلَةً الْإِغْتِرَارِ بِمَنْ لَا يَأْمَنُ : فَإِنَّهُ مِنْ
 اتَّكَلَ عَلَى قُوَّتِهِ ، فَحَمَلَهُ ذَلِكَ عَلَى أَنْ يَسْلُكَ الطَّرِيقَ الْمَخُوفَ ،
 فَقَدْ سَعَى فِي حَتْفِ نَفْسِهِ . وَمَنْ لَا يَقْدِرُ لِبَاقَتِهِ طَعَامَهُ
 وَشَرَابَهُ ، وَحَمَلَ نَفْسَهُ مَا لَا تُطِيقُ وَلَا تَحْمِلُ ، فَقَدْ قَتَلَ نَفْسَهُ .
 وَمَنْ لَا يَقْدِرُ لِقَمَّتِهِ ، وَعَظَمَهَا فَوْقَ مَا يَسْعُ فُوهُ ، فَرُبَّمَا
 غَصَّ بِهَا فَمَّاتَ . وَمَنْ اغْتَرَّ بِكَلَامِ عَدُوِّهِ ، وَانْخَدَعَ لَهُ ،
 وَضَيَعَ الْحَزْمَ ، فَهُوَ أَعْدَى لِنَفْسِهِ مِنْ عَدُوِّهِ . وَلَيْسَ لِأَحَدٍ
 النَّظَرُ فِي الْقَدَرِ الَّذِي لَا يَدْرِي مَا يَأْتِيهِ مِنْهُ وَلَا مَا يُصْرَفُ
 عَنْهُ ؛ وَلَكِنْ عَلَيْهِ الْعَمَلُ بِالْحَزْمِ وَالْإِخْذُ بِالْقُوَّةِ وَمُحَاسَبَةُ نَفْسِهِ
 فِي ذَلِكَ . وَالْعَاقِلُ لَا يَشْتُقُّ بِأَحَدٍ مَا اسْتَطَاعَ ، وَلَا يُقِيمُ عَلَى
 خَوْفٍ وَهُوَ يُجِدُّ عَنْهُ مَذْهَبًا . وَأَنَا كَثِيرُ الْمَذَاهِبِ ، وَأَرْجُو

أَلَّا أَذْهَبَ وَجْهًا إِلَّا أَصَبْتُ فِيهِ مَا يُغْنِينِي : فَإِنَّ خِلَالَ نَحْسًا
 مِنْ تَزَوَّدَهُنَّ كَفَيْنَهُ فِي كُلِّ وَجْهِ ، وَأَتَسَّنَهُ فِي كُلِّ غُرْبَةٍ ،
 وَقَرَّبَنَ لَهُ الْبَعِيدَ ، وَأَكْسَبَنَهُ الْمَعَاشَ وَالْإِخْوَانَ : أَوْلَهُنَّ كَفُّ
 الْأَذَى ، وَالثَّانِيَةُ حُسْنُ الْأَدَبِ ، وَالثَّلَاثَةُ مَجَانِبَةُ الرِّيبِ ،
 وَالرَّابِعَةُ كَرَمُ الْخُلُقِ ، وَالْخَامِسَةُ الثَّبَلُ فِي الْعَمَلِ . وَإِذَا خَافَ
 الْإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ شَيْئًا طَابَتْ نَفْسُهُ عَنِ الْمَالِ وَالْأَهْلِ وَالْوَلَدِ
 وَالْوَطَنِ : فَإِنَّهُ يَرْجُو الْخَلْفَ مِنْ ذَلِكَ كُلِّهِ وَلَا يَرْجُو عَنِ النَّفْسِ
 خَلْفًا . وَشَرُّ الْمَالِ مَا لَا إِنْفَاقَ مِنْهُ ، وَشَرُّ الْأَزْوَاجِ الَّتِي
 لَا تُوَاتِي بَعْلَهَا ، وَشَرُّ الْوَلَدِ الْعَاصِي الْعَاقَ لِوَالِدَيْهِ ، وَشَرُّ
 الْإِخْوَانِ الْخَادِلُ لِأَخِيهِ عِنْدَ النَّكَبَاتِ وَالشَّدَائِدِ ، وَشَرُّ الْمُلُوكِ
 الَّذِي يَخَافُهُ الْبَرِيُّ ، وَلَا يُوَاظِبُ عَلَى حِفْظِ أَهْلِ مَمْلَكَتِهِ ،
 وَشَرُّ الْبِلَادِ بِلَادٌ لَا خِصْبَ فِيهَا وَلَا أَمْنًا ، وَإِنَّهُ لَا أَمْنَ لِي
 عِنْدَكَ أَيُّهَا الْمَلِكُ وَلَا طُمَأْنِينَةً لِي فِي جَوَارِكَ . ثُمَّ وَدَعَ الْمَلِكُ
 وَطَارَ . فَهَذَا مِثْلُ ذَوِي الْأَوْتَارِ الَّذِينَ لَا يَنْبَغِي لِبَعْضِهِمْ أَنْ
 يَشُقَّ بَعْضُ .

بَابُ الْأَسَدِ وَالشَّعْبِ النَّاسِكِ وَهُوَ ابْنُ آوَى

قَالَ دَبْشَلِيمُ الْمَلِكُ لِيَدَبَا الْفَيْلَسُوفُ : قَدْ سَمِعْتُ هَذَا
 الْمَثَلَ ، فَأَضْرِبْ لِي مَثَلَ الْمَلِكِ الَّذِي يُرَاجِعُ ^(١) مِنْ أَصَابَتِهِ مِنْهُ عَقُوبَةً
 مِنْ غَيْرِ جُرْمٍ ، أَوْ جَفَوَةً مِنْ غَيْرِ ذَنْبٍ . قَالَ الْفَيْلَسُوفُ :
 إِنَّ الْمَلِكَ لَوْ لَمْ يُرَاجِعْ مِنْ أَصَابَتِهِ مِنْهُ جَفَوَةً عَنْ ذَنْبٍ أَوْ عَنْ
 غَيْرِ ذَنْبٍ ، ظَلِمَ أَوْ لَمْ يَظْلَمْ ، لَا أَضَرَّ ذَلِكَ بِالْأُمُورِ ، وَلَكِنَّ الْمَلِكَ
 حَقِيقٌ أَنْ يَنْظُرَ فِي حَالِ مَنْ ابْتُلِيَ بِذَلِكَ ، وَيُخْبِرَ مَا عِنْدَهُ مِنْ
 الْمَنَافِعِ : فَإِنْ كَانَ مِمَّنْ يُوثِقُ بِهِ فِي رَأْيِهِ وَأَمَانَتِهِ ، فَإِنَّ الْمَلِكَ
 حَقِيقٌ بِالْحَرِصِ عَلَى مُرَاجَعَتِهِ : فَإِنَّ الْمَلِكَ لَا يُسْتَطَاعُ ضَبْطُهُ
 إِلَّا مَعَ ذَوِي الرَّأْيِ وَهُمْ الْوُزَرَاءُ وَالْأَعْوَانُ وَلَا يُنْتَفَعُ بِالْوُزَرَاءِ
 وَالْأَعْوَانِ إِلَّا بِالْمُودَّةِ وَالنَّصِيحَةِ ، وَلَا مُودَّةَ وَلَا نَصِيحَةَ إِلَّا لِلذَّوِي
 الرَّأْيِ وَالْعَفَافِ . وَأَعْمَالُ السُّلْطَانِ كَثِيرَةٌ ، وَالَّذِينَ يَحْتَاجُ إِلَيْهِمْ
 مِنَ الْعُمَالِ وَالْأَعْوَانِ كَثِيرُونَ . وَمَنْ يَجْمَعُ مِنْهُمْ مَا ذَكَرْتُ مِنْ
 النَّصِيحَةِ وَالْعَفَافِ قَلِيلٌ . وَالْمَثَلُ فِي ذَلِكَ مَثَلُ الْأَسَدِ
 وَابْنِ آوَى . قَالَ الْمَلِكُ : وَكَيْفَ كَانَ ذَلِكَ ؟

قَالَ الْفَيْلَسُوفُ : زَعَمُوا أَنَّ ابْنَ آوَى كَانَ يَسْكُنُ فِي بَعْضِ
الدَّحَالِ ^(١) ، وَكَانَ مُتَزَهِّدًا مُتَعَفِّفًا ، مَعَ بَنَاتِ آوَى وَذِيئَابِ
وِثْعَالِبَ . وَلَمْ يَكُنْ يَصْنَعُ مَا يَصْنَعْنَ ، وَلَا يُغَيِّرُ كَمَا يُغَيِّرْنَ ،
وَلَا يَهْرِيقُ دَمًا ، وَلَا يَأْكُلُ لَحْمًا . فَخَاصَمَهُ تِلْكَ السَّبَاعُ ، وَقَالَ :
لَا نَرْضَى بِسِيرَتِكَ وَلَا رَأْيِكَ الَّذِي أَنْتَ عَلَيْهِ مِنْ تَزَهُّدِكَ :
مَعَ أَنَّ تَزَهُّدَكَ لَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا . وَأَنْتَ لَا تَسْتَطِيعُ أَنْ تَكُونَ
إِلَّا كَأَحَدِنَا : تَسْعَى مَعَنَا ، وَتَفْعَلُ فِعْلَنَا فَمَا الَّذِي كَفَّكَ عَنِ
الدَّمَاءِ وَعَنْ أَكْلِ اللَّحْمِ ؟ قَالَ ابْنُ آوَى : إِنَّ صُحْبَتِي إِيَّاكُنَّ
لَا تَوْثِقُنِي إِذَا لَمْ أَؤْتُمْ نَفْسِي : لِأَنَّ الْآثَامَ لَيْسَتْ مِنْ قَبْلِ
الْأَمَاكِينِ وَالْأَصْحَابِ ؛ وَلَكِنَّهَا مِنْ قَبْلِ الْقُلُوبِ وَالْأَعْمَالِ .
وَلَوْ كَانَ صَاحِبُ الْمَكَانِ الصَّالِحِ يَكُونُ عَمَلُهُ فِيهِ صَالِحًا ،
وَصَاحِبُ الْمَكَانِ السَّيِّئِ يَكُونُ عَمَلُهُ فِيهِ سَيِّئًا ، كَانَ حِينَئِذٍ
مَنْ قَتَلَ النَّاسِكَ فِي مِحْرَابِهِ لَمْ يَأْثُمَّ ، وَمَنْ اسْتَحْيَاهُ فِي مَعْرَكَةٍ
الْقِتَالِ أَثِمَ . وَإِنِّي إِنَّمَا صَحَبْتُكَ نَفْسِي ، وَلَمْ أَصْحَبْكَ بِقَلْبِي
وَأَعْمَالِي : لِأَنِّي أَعْرِفُ ثَمَرَةَ الْأَعْمَالِ : فَلَزِمْتُ حَالِي . وَثَبَتَ

(١) نَقَبَ صِيقَ فِهِ ، مَتَسَعِ أَسْفَلَهُ .

ابن آوى على حاله تلك ، واشتهر بالنسك والزهد ، حتى بلغ ذلك أسداً كان ملك تلك الناحية ، فرغب فيه : لما بلغه عنه من العفاف والزهادة والزهد والأمانة ، فأرسل إليه يستدعيه . فلما حضر كلمه وأنسه فوجده في جميع الأمور وفق غرضه . ثم دعاه بعد أيام إلى صُحبته وقال له : تعلم أن عمالي كثير ، وأعواني جم غفير ، وأنا مع ذلك إلى الأعوان محتاج . وقد بلغني عنك عفاف وأدب وعقل ودين ، فازدت فيك رغبة . وأنا موليك من عملي جسيماً ورافعك إلى منزلة شريفة ، وجاعلك من خاصتي . قال ابن آوى : إن الملوك أحقاء باختيار الأعوان فيما يهتمون به من أعمالهم وأموالهم . وهم أحرى ألا يكرهوا على ذلك أحداً : فإن المكره لا يستطيع المبالغة في العمل . وإنني لعمل السلطان كاره . وليس لي به تجربة ، ولا بالسلطان رفق . وأنت ملك السباع ، وعندك من أجناس الوحوش عدد كثير ، فيهم أهل نبلي وقوة ، ولهم على العمل حرص ، وعندهم به وبالسلطان رفق : فإن استعملتهم أغنوا عنك ، واغبطوا لأنفسهم .

بِمَا أَصَابَهُمْ مِنْ ذَلِكَ . قَالَ الْأَسَدُ : دَع عَنْكَ هَذَا : فَإِنِّي غَيْرُ
مُغْنِيكَ مِنَ الْعَمَلِ . قَالَ ابْنُ آوَى : إِنَّمَا يَسْتَطِيعُ خِدْمَةُ
السُّلْطَانِ رَجُلَانِ لَسْتُ بِوَاحِدٍ مِنْهُمَا : إِمَّا فَاجِرٌ مُصَانِعٌ ، يَنَالُ
حَاجَتَهُ بِفُجُورِهِ ، وَيَسْلُمُ بِمُصَانَعَتِهِ ؛ وَإِمَّا مُغْفَلٌ لَا يَحْسُدُ
أَحَدًا . فَمَنْ أَرَادَ أَنْ يَخْدُمَ السُّلْطَانَ بِالْصِّدْقِ وَالْعَفَافِ فَلَا يَخِطُ
ذَلِكَ بِمُصَانَعَتِهِ ، وَحِينَئِذٍ قُلَّ أَنْ يَسْلَمَ عَلَى ذَلِكَ : لِأَنَّهُ يَجْتَمِعُ
عَلَيْهِ عَدُوُّ السُّلْطَانِ وَصَدِيقُهُ بِالْعَدَاوَةِ وَالْحَسَدِ . أَمَّا الصِّدِّيقُ
فِيَنَافِسُهُ فِي مَنَزَلَتِهِ ، وَيَبْغِي عَلَيْهِ فِيهَا ، وَيُعَادِيهِ لِأَجْلِهَا ،
وَأَمَّا عَدُوُّ السُّلْطَانِ فَيُضْطَغِنُ عَلَيْهِ ، لِنَصِيحَتِهِ لِسُلْطَانِهِ ، وَإِغْنَانِهِ
عَنْهُ . فَإِذَا اجْتَمَعَ عَلَيْهِ هَذَانِ الصِّنْفَانِ فَقَدْ تَعَرَّضَ لِلْهَلَاكِ .
قَالَ الْأَسَدُ : لَا يَكُونَنَّ بَغْيُ أَصْحَابِي عَلَيْكَ ، وَحَسَدُهُمْ إِيَّاكَ
مِمَّا يَعْزِضُ فِي نَفْسِكَ : فَأَنْتَ مَعِيَ ، وَأَنَا أَكْفِيكَ ذَلِكَ ،
وَأَبْلُغُ بِكَ مِنْ دَرَجَاتِ الْكِرَامَةِ وَالْإِحْسَانِ عَلَى قَدْرِ هِمَّتِكَ .
قَالَ ابْنُ آوَى : إِنْ كَانَ الْمَلِكُ يُرِيدُ الْإِحْسَانَ إِلَيَّ ، فَلْيَدْعُنِي
فِي هَذِهِ الْبَرِّيَّةِ أَعِيشْ أَمِنًا ، قَلِيلَ الْهَمِّ ، رَاضِيًا بِعَيْشِي مِنَ الْمَاءِ

وَالْعُشْبُ : فَإِنِّي قَدْ عَلِمْتُ أَنَّ صَاحِبَ السُّلْطَانِ يَصِلُ إِلَيْهِ مِنَ
الْأَذَى وَالْخَوْفِ فِي سَاعَةٍ وَاحِدَةٍ مَا لَا يَصِلُ إِلَى غَيْرِهِ فِي طُولِ
عُمُرِهِ ؛ وَإِنَّ قَلِيلًا مِنَ الْعَيْشِ فِي أَمْنٍ وَطُمَأْنِينَةٍ خَيْرٌ مِنْ كَثِيرٍ
مِنَ الْعَيْشِ فِي خَوْفٍ وَنَصَبٍ . قَالَ الْأَسَدُ : قَدْ سَمِعْتُ
مَقَالَاتِكَ ، فَلَا تَخَفْ شَيْئًا مِمَّا أَرَاكَ تَخَافُ مِنْهُ . وَلَسْتُ
أَجِدُ بَدَأًا مِنَ الْإِسْتِعَانَةِ بِكَ فِي أَمْرِي . قَالَ ابْنُ آوَى : أَمَّا إِذَا
أَبَى الْمَلِكُ إِلَّا ذَلِكَ فَلْيَجْعَلْ لِي عَهْدًا ، إِنْ بَغَى عَلَى أَحَدٍ مِنْ
أَصْحَابِهِ عِنْدَهُ ، مِمَّنْ هُوَ فَوْقِي : مَخَافَةً عَلَى مَنْزِلَتِهِ ، أَوْ مِمَّنْ هُوَ
دُونِي : لِيُنَازِعَنِي فِي مَنْزِلَتِي ، فَذَكَرَ عِنْدَ الْمَلِكِ مِنْهُمْ ذَاكِرٌ
بِلِسَانِهِ ، أَوْ عَلَى لِسَانِ غَيْرِهِ مَا يُرِيدُ بِهِ تَحْمِيلَ الْمَلِكِ عَلَى ، أَلَّا
يَعْجَلَ فِي أَمْرِي ، وَأَنْ يَتَشَبَّثَ فِيمَا يُرْفَعُ إِلَيْهِ وَيَذْكَرُ عِنْدَهُ
مِنْ ذَلِكَ ، وَيَفْحَصَ عَنْهُ ، ثُمَّ لِيَصْنَعَ مَا بَدَأَ لَهُ . فَإِذَا وَثِقْتُ
مِنْهُ بِذَلِكَ ، أَعْنَتُهُ بِنَفْسِي فِيمَا يُحِبُّ ، وَعَمِلْتُ لَهُ فِيمَا أَوْلَانِي
بِنَصِيحَةٍ وَاجْتِهَادٍ ، وَحَرَضْتُ عَلَى أَلَّا أَجْعَلَ لَهُ عَلَى نَفْسِي
سَبِيلًا . قَالَ الْأَسَدُ : لَكَ ذَلِكَ عَلَى وَزِيَادَةٍ . ثُمَّ وَلَاهُ خَزَائِنَهُ ،
وَأَخْتَصَّ بِهِ دُونَ أَصْحَابِهِ ، وَزَادَ فِي كَرَامَتِهِ .

فَلَمَّا رَأَى أَصْحَابُ الْأَسَدِ ذَلِكَ ، غَاظَهُمْ وَسَاءَهُمْ . فَاجْتَمَعُوا
كَيْدَهُمْ ، وَاتَّفَقُوا كُلُّهُمْ عَلَى أَنْ يَحْمِلُوا عَلَيْهِ الْأَسَدَ . وَكَانَ الْأَسَدُ
قَدْ اسْتَطَابَ لَحْمًا فَعَزَلَ مِنْهُ مِقْدَارًا ، وَأَمَرَهُ بِالِاخْتِفَاطِ بِهِ ،
وَأَنْ يَرْفَعَهُ فِي أَحْصَنِ مَوْضِعٍ طَعَامِهِ وَأَحْرَزِهِ : لِيُعَادَ عَلَيْهِ ،
فَأَخَذُوهُ مِنْ مَوْضِعِهِ ، وَحَمَلُوهُ إِلَى بَيْتِ ابْنِ آوَى ، فَحَبَّبُوهُ فِيهِ ،
وَلَا عِلْمَ لَهُ بِهِ ، ثُمَّ حَضَرُوا يُكَذِّبُونَهُ إِنْ جَرَتْ فِي ذَلِكَ حَالٌ .
فَلَمَّا كَانَ مِنَ الْغَدِ ، وَدَعَا الْأَسَدُ بِغَدَائِهِ ، فَقَدَّ ذَلِكَ اللَّحْمَ ،
فَالْتَمَسَهُ وَلَمْ يَجِدْهُ ، وَابْنُ آوَى لَمْ يَشْعُرْ بِمَا صُنِعَ فِي حَقِّهِ مِنْ
الْمَكِيدَةِ . فَحَضَرَ الَّذِينَ عَمِلُوا الْمَكِيدَةَ ، وَقَعَدُوا فِي الْمَجْلِسِ .
ثُمَّ إِنَّ الْمَلِكَ سَأَلَ عَنِ اللَّحْمِ ، وَشَدَّدَ فِيهِ ، وَفِي الْمَسْأَلَةِ عَنْهُ ،
فَنَظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ ، فَقَالَ أَحَدُهُمْ قَوْلَ الْمُخْبِرِ النَّاصِحِ :
إِنَّهُ لَا بُدَّ لَنَا مِنْ أَنْ نُخْبِرَ الْمَلِكَ بِمَا يَضُرُّهُ وَيَنْفَعُهُ ، وَإِنْ شَقَّ
ذَلِكَ عَلَى مَنْ يَشُقُّ عَلَيْهِ . وَإِنَّهُ بَلَّغَنِي أَنَّ ابْنَ آوَى هُوَ الَّذِي
ذَهَبَ بِاللَّحْمِ إِلَى مَنْزِلِهِ . قَالَ الْآخَرُ : لَا أَرَاهُ يَفْعَلُ هَذَا ، وَلَكِنْ
انْظُرُوا وَافْخَصُوا : فَإِنَّ مَعْرِفَةَ الْخَلَائِقِ شَدِيدَةٌ . فَقَالَ الْآخَرُ :

لَعَمْرِي مَا تَكَادُ السَّرَائِرُ تُعْرِفُ ، وَأَظُنُّكُمْ إِنْ فَخَصْتُمْ عَنْ هَذَا
وَجَدْتُمْ اللَّحْمَ بَيْتِ ابْنِ آوَى ؛ وَكُلُّ شَيْءٍ يُذَكِّرُ مِنْ عُيُوبِهِ وَخِيَانَتِهِ
نَحْنُ أَحَقُّ أَنْ نُصَدِّقَهُ . قَالَ الْآخَرُ : لَيْنَ وَجَدْنَا هَذَا حَقًّا
فَلَيْسَتْ بِالْخِيَانَةِ فَقَطْ ، وَلَكِنْ مَعَ الْخِيَانَةِ كُفْرُ النِّعْمَةِ ، وَالْجَرَائِةُ
عَلَى الْمَلِكِ . قَالَ الْآخَرُ : أَنْتُمْ أَهْلُ الْعَدْلِ وَالْفَضْلِ ، لَا اسْتَطِيعُ
أَنْ أَكْذِبَكُمْ ، وَلَكِنْ سَيَبِينُ هَذَا لَوْ أَرْسَلَ الْمَلِكُ إِلَى بَيْتِهِ مَنْ
يُفْتِّشُهُ . قَالَ آخَرُ : إِنْ كَانَ الْمَلِكُ مُفْتِّشًا مَنَزَلَهُ فَلْيُعْجَلْ :
فَإِنَّ عِيُونَهُ وَجَوَاسِيسَهُ مَبْثُوثَةٌ بِكُلِّ مَكَانٍ . وَلَمْ يَزَالُوا فِي هَذَا
الْكَلَامِ وَأَشْبَاهِهِ ، حَتَّى وَقَعَ فِي نَفْسِ الْأَسَدِ ذَلِكَ ؛ فَأَمَرَ بِابْنِ
آوَى فُخْضَرَ ، فَقَالَ لَهُ : أَيُّنَ اللَّحْمِ الَّذِي أَمَرْتُكَ بِالْإِحْتِفَازِ بِهِ ،
قَالَ : دَفَعْتُهُ إِلَى صَاحِبِ الطَّعَامِ لِيُقَرِّبَهُ إِلَى الْمَلِكِ . فدعا
الْأَسَدُ بِصَاحِبِ الطَّعَامِ ؛ وَكَانَ مِنْ شَائِعٍ وَبَايَعَ مَعَ الْقَوْمِ عَلَى
ابْنِ آوَى . فَقَالَ : مَا دَفَعَ إِلَى شَيْئًا . فَأَرْسَلَ الْأَسَدُ أَمِينًا إِلَى بَيْتِ
ابْنِ آوَى لِيُفْتِّشَهُ ، فَوَجَدَ فِيهِ ذَلِكَ اللَّحْمَ ؛ فَأَتَى بِهِ الْأَسَدُ .
فَدَنَا مِنَ الْأَسَدِ ذُبُّ لَمْ يَكُنْ تَكَلَّمَ فِي شَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ . وَكَانَ

يُظْهِرُ أَنَّهُ مِنَ الْعُدُولِ الَّذِينَ لَا يَتَكَلَّمُونَ فِيهَا لَا يَعْلَمُونَ ، حَتَّى
يَتَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ . فَقَالَ : بَعْدَ أَنْ اطَّلَعَ الْمَلِكُ عَلَى خِيَانَةِ ابْنِ
آوَى فَلَا يَعْفُونَ عَنْهُ : فَإِنَّهُ إِنْ عَفَا عَنْهُ لَمْ يَطَّلِعِ الْمَلِكُ بَعْدَهَا
عَلَى خِيَانَةِ خَائِنٍ ، وَلَا ذَنْبٍ مُذْنِبٍ . فَأَمَرَ الْأَسَدُ بِابْنِ آوَى أَنْ
يُخْرَجَ ، وَيُحْتَفَظَ بِهِ . فَقَالَ بَعْضُ جُلَسَاءِ الْمَلِكِ : إِنِّي لَا أُعْجِبُ
بِـنِ رَأْيِ الْمَلِكِ وَمَعْرِفَتِهِ بِالْأُمُورِ كَيْفَ يَخْفَى عَلَيْهِ أَمْرٌ هَذَا ،
وَلَمْ يَعْرِفْ خَبْرَهُ وَمُخَادَعَتَهُ ؟ وَاعْجَبُ مِنْ هَذَا أُنَى أَرَاهُ سَيَصْفَحُ
عَنْهُ ، بَعْدَ الَّذِي ظَهَرَ مِنْهُ . فَأَرْسَلَ الْأَسَدُ بَعْضَهُمْ رَسُولًا إِلَى
ابْنِ آوَى يَلْتَمِسُ مِنْهُ الْعُذْرَ ، فَرَجَعَ إِلَيْهِ الرَّسُولُ بِرِسَالَةٍ كَاذِبَةٍ
اخْتَرَعَهَا ، فَعْظَبَ الْأَسَدُ مِنْ ذَلِكَ ، وَأَمَرَ بِابْنِ آوَى أَنْ يُقْتَلَ .
فَعَلِمَتْ أُمُّ الْأَسَدِ أَنَّهُ قَدْ عَجَلَ فِي أَمْرِهِ ، فَأَرْسَلَتْ إِلَى الَّذِينَ أَمَرُوا
بِقَتْلِهِ أَنْ يُوَحِّرُوهُ ، وَدَخَلَتْ عَلَى ابْنِهَا ، فَقَالَتْ : يَا بُنَى يَا ذَنْبِ
أَمَرْتُ بِقَتْلِ ابْنِ آوَى ؟ فَأَخْبَرَهَا بِالْأَمْرِ . فَقَالَتْ : يَا بُنَى
عَجَلْتُ . وَإِنَّمَا يَسْلَمُ الْعَاقِلُ مِنَ النَّدَامَةِ بِتَرْكِ الْعَجَلَةِ
وَبِالتَّثَبُّتِ . وَالْعَجَلَةُ لَا يَزَالُ صَاحِبُهَا يَجْتَنِي ثَمَرَةَ النَّدَامَةِ ،

بِسَبَبِ ضَعْفِ الرَّأْيِ . وَلَيْسَ أَحَدٌ أَحْوَجَ إِلَى التَّوَدَةِ وَالتَّثَبُّتِ
 مِنَ الْمُلُوكِ : فَإِنَّ الْمَرْأَةَ بِزَوْجِهَا ، وَالْوَلَدَ بِوَالِدَيْهِ ، وَالْمُتَعَلِّمَ
 بِالْمُعَلِّمِ ، وَالْجُنْدَ بِالْقَائِدِ ، وَالنَّاسِكَ بِالَّذِينَ ، وَالْعَامَّةَ
 بِالْمُلُوكِ ، وَالْمُلُوكَ بِالتَّقْوَى ، وَالتَّقْوَى بِالْعَقْلِ ، وَالْعَقْلَ
 بِالتَّثَبُّتِ وَالْأَنَانَةِ ؛ وَرَأْسُ الْكُلِّ الْحَزْمُ ، وَرَأْسُ الْحَزْمِ لِلْمَلِكِ
 مَعْرِفَةُ أَصْحَابِهِ ، وَإِنْزَالُهُمْ مَنَازِلَهُمْ عَلَى طَبَقَاتِهِمْ ، وَاتِّهَامُهُ بَعْضَهُمْ
 عَلَى بَعْضٍ . فَإِنَّهُ لَوْ وَجَدَ بَعْضُهُمْ إِلَى هَلَاكِ بَعْضٍ سَبِيلًا
 لَفَعَلَ . وَقَدْ جَرَّبَتْ ابْنُ آوَى ، وَبَلَوَتْ رَأْيَهُ وَأَمَانَتَهُ وَمُرُوءَتَهُ ،
 ثُمَّ لَمْ تَزَلْ مَادِحًا لَهُ رَاضِيًا عَنْهُ . وَلَيْسَ يَنْبَغِي لِلْمَلِكِ أَنْ يُخَوِّنَهُ
 بَعْدَ ارْتِضَائِهِ إِيَّاهُ وَأَتِمَّانِهِ لَهُ ، وَمُنْذُ مَجِيئِهِ إِلَى الْآنَ لَمْ يُطَاعَ لَهُ
 عَلَى خِيَانَةٍ إِلَّا عَلَى الْعِفَّةِ وَالنَّصِيحَةِ . وَمَا كَانَ رَأْيُ الْمَلِكِ
 أَنْ يُعْجَلَ عَلَيْهِ لِأَجْلِ طَائِفٍ لَحْمٍ . وَأَنْتَ أَيُّهَا الْمَلِكُ حَقِيقٌ أَنْ
 تَنْظُرَ فِي حَالِ ابْنِ آوَى : لِتَعْلَمَ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ لِيَتَعَرَّضَ لِلْحِمِّ
 اسْتَوْدَعَتْهُ إِيَّاهُ . وَلَعَلَّ الْمَلِكَ إِنْ فَحَصَ عَنْ ذَلِكَ ظَهَرَ لَهُ أَنَّ
 ابْنَ آوَى لَهُ خُصَمَاءُ هُمُ الَّذِينَ أَتَمَرُوا بِهَذَا الْأَمْرِ . وَهُمْ الَّذِينَ

ذَهَبُوا بِاللَّحْمِ إِلَى بَيْتِهِ فَوَضَعُوهُ فِيهِ : فَإِنَّ الْحِدَاةَ إِذَا كَانَ فِي رِجْلِهَا قِطْعَةً لَحْمٍ اجْتَمَعَ عَلَيْهَا سَائِرُ الطَّيْرِ ، وَالْكَلْبُ إِذَا كَانَ مَعَهُ عَظْمٌ اجْتَمَعَتْ عَلَيْهِ الْكِلَابُ . وَابْنُ آوَى مُنْذُ كَانَ إِلَى الْيَوْمِ نَافِعٌ ، وَكَانَ مُحْتَمِلًا لِكُلِّ ضَرَرٍ فِي جَنْبٍ مَنْفَعَةٍ تَصِلُ إِلَيْكَ ، وَلِكُلِّ عَنَاءٍ يَكُونُ لَكَ فِيهِ رَاحَةٌ ، وَلَمْ يَكُنْ يَطْوِي دُونَكَ سِرًّا .

فَبَيْنَمَا أُمُّ الْأَسَدِ تَقْصُ عَلَيْهِ هَذِهِ الْمَقَالَةَ ، إِذْ دَخَلَ عَلَى الْأَسَدِ بَعْضُ ثِقَاتِهِ ، فَأَخْبَرَهُ بِبَرَاءَةِ ابْنِ آوَى . فَقَالَتْ أُمُّ الْأَسَدِ ، بَعْدَ أَنْ أَطَّلَعَ الْمَلِكُ عَلَى بَرَاءَةِ ابْنِ آوَى : إِنَّ الْمَلِكَ حَقِيقٌ أَلَّا يُرَخِّصَ لِمَنْ سَعَى بِهِ لِئَلَّا يَنْجَرَّوْا عَلَى مَا هُوَ أَعْظَمُ مِنْ ذَلِكَ ؛ بَلْ يُعَاقِبُهُمْ عَلَيْهِ لِكُنِيَ لَا يَعُودُوا إِلَى مِثْلِهِ : فَإِنَّهُ لَا يَنْبَغِي لِلْعَاقِلِ أَنْ يُرَاجِعَ فِي أَمْرِ الْكَفُورِ لِلْحُسْنَى ، الْجَرِيءِ عَلَى الْغَدْرِ ، الزَّاهِدِ فِي الْخَيْرِ ، الَّذِي لَا يُوقِنُ بِالْآخِرَةِ . وَيَنْبَغِي أَنْ يُجْزَى بِعَمَلِهِ ، وَقَدْ عَرَفَتْ سُرْعَةَ الْغَضَبِ وَفَرَطَ الْهَفْوَةِ ؛ وَمَنْ سَخَطَ بِالْيَسِيرِ لَمْ يَبْلُغْ رِضَاهُ بِالْكَثِيرِ . وَالْأَوَّلَى لَكَ أَنْ تُرَاجِعَ ابْنَ آوَى ،

وَتَعْطِفَ عَلَيْهِ ؛ وَلَا يُوسِّنَنَّكَ مِنْ مُنَاصَحَتِهِ مَا فَرَطَ مِنْكَ إِلَيْهِ
 مِنَ الْإِسَاءَةِ : فَإِنَّ مِنَ النَّاسِ مَنْ لَا يَنْبَغِي تَرْكُهُ عَلَى حَالٍ مِنَ
 الْأَحْوَالِ ، وَهُوَ مَنْ عُرِفَ بِالصَّلَاحِ وَالْكَرَمِ وَحُسْنِ الْعَهْدِ
 وَالشُّكْرِ وَالْوَفَاءِ وَالْمَحَبَّةِ لِلنَّاسِ وَالسَّلَامَةِ مِنَ الْحَسَدِ وَالْبُعْدِ
 مِنَ الْأَذَى وَالِاحْتِمَالِ لِلْإِخْوَانِ وَالْأَصْحَابِ وَإِنْ ثَقُلْتَ عَلَيْهِ
 مِنْهُمْ الْمَثُونَةُ . وَأَمَّا مَنْ يَنْبَغِي تَرْكُهُ فَهُوَ مَنْ عُرِفَ بِالشَّرَاسَةِ وَلَوْمْ
 الْعَهْدِ وَقِلَّةِ الشُّكْرِ وَالْوَفَاءِ وَالْبُعْدِ مِنَ الرَّحْمَةِ وَالْوَرَعِ ، وَانْتَصَفَ
 بِالْجُحُودِ لِثَوَابِ الْآخِرَةِ وَعِقَابِهَا . وَقَدْ عَرَفْتَ ابْنَ آوَى وَجَرَبْتَهُ
 وَأَنْتَ حَقِيقٌ بِمَوَاصِلَتِهِ .

فَدَعَا الْأَسَدُ بِابْنِ آوَى وَاعْتَذَرَ إِلَيْهِ مِمَّا كَانَ مِنْهُ وَوَعَدَهُ
 خَيْرًا ، وَقَالَ : إِنِّي مُعْتَذِرٌ إِلَيْكَ وَرَادُّكَ إِلَى مَزَلَّتِكَ . فَقَالَ
 ابْنُ آوَى : إِنَّ شَرَّ الْأَخْلَاءِ مِنَ الَّتِي تَمَسُّ مَنْفَعَةَ نَفْسِهِ بِضُرِّ أَخِيهِ ،
 وَمَنْ كَانَ غَيْرَ نَازِلٍ لَهُ كَنَظَرِهِ لِنَفْسِهِ ، أَوْ كَانَ يُرِيدُ أَنْ يُرْضِيَهُ
 بِغَيْرِ الْحَقِّ لِأَجْلِ اتِّبَاعِ هَوَاهُ . وَكَثِيرًا مَا يَقَعُ ذَلِكَ بَيْنَ

الْأَخْلَاءُ . وَقَدْ كَانَ مِنَ الْمَلِكِ إِلَى مَا عَلِمَ ، فَلَا يَغْلُظَنَّ عَلَى
 نَفْسِهِ مَا أَخْبَرَهُ بِهِ أَنِّي بِهِ غَيْرُ وَائِقٍ ، وَأَنَّهُ لَا يَنْبَغِي لِي أَنْ أَصْحَبَهُ :
 فَإِنَّ الْمُلُوكَ لَا يَنْبَغِي أَنْ يَصْحَبُوا مَنْ عَاقَبُوهُ أَشَدَّ الْعِقَابِ ،
 وَلَا يَنْبَغِي لَهُمْ أَنْ يَرْفُضُوهُ أَصْلًا : فَإِنَّ ذَا السُّلْطَانِ إِذَا عَزَلَ
 كَانَ مُسْتَحِقًّا لِلْكَرَامَةِ فِي حَالَةِ إِبْعَادِهِ وَالْإِفْصَاءِ لَهُ . فَلَمْ يَلْتَفِتْ
 الْأَسَدُ إِلَى كَلَامِهِ . ثُمَّ قَالَ لَهُ : إِنِّي قَدْ بَلَوْتُ طِبَاعَكَ
 وَأَخْلَاقَكَ ، وَجَرَّبْتُ أَمَانَتَكَ وَوَفَاءَكَ وَصِدْقَكَ ، وَعَرَفْتُ
 كَذِبَ مَنْ تَمَحَّلَ الْحِيلَ لِتَحْمَلِي عَلَيْكَ . وَإِنِّي مُنْزِلُكَ مِنْ نَفْسِي
 مَنْزِلَةَ الْأَخْيَارِ الْكَرَمَاءِ ، وَالْكَرِيمِ تُذْسِيهِ الْخَلَّةُ الْوَاحِدَةُ مِنَ
 الْإِحْسَانِ ، الْخِلَالِ الْكَثِيرَةِ مِنَ الْإِسَاءَةِ . وَقَدْ عُدْنَا إِلَى الثِّقَةِ
 بِكَ ، فَعُدْ إِلَى الثِّقَةِ بِنَا : فَإِنَّ لَنَا وَلَكَ بِذَلِكَ غِبْطَةً وَسُرُورًا .
 فَعَادَ ابْنُ آوَى إِلَى وَلَايَةِ مَا كَانَ يَلِي ، وَضَاعَفَ لَهُ الْمَلِكُ
 الْكَرَامَةَ ، وَلَمْ تَزِدْهُ الْآيَامُ إِلَّا تَقَرُّبًا مِنَ السُّلْطَانِ .

بَابُ إِيْلَاذَ وَبِلَاذَ وَإِرَاخَتَ

قَالَ دَبْشَلِيمُ الْمَلِكُ لِسَيِّدَبَا الْفَيْلَسُوفِ : قَدْ سَمِعْتُ هَذَا
الْمَثَلَ ، فَاضْرِبْ لِي مَثَلًا فِي الْأَشْيَاءِ الَّتِي يَجِبُ عَلَى الْمَلِكِ أَنْ
يُلْزِمَ بِهَا نَفْسَهُ ، وَيَحْفَظَ مُلْكَهُ وَيُثَبِّتَ سُلْطَانَهُ ، وَيَكُونَ ذَلِكَ
رَأْسَ أَمْرِهِ وَمِلَاكَهُ : أَبِالْحِلْمِ أَمْ بِالْمُرُوءَةِ أَمْ بِالشَّجَاعَةِ أَمْ
بِالْجُودِ ؟ قَالَ بَيِّدَبَا : إِنَّ أَحَقَّ مَا يَحْفَظُ بِهِ الْمَلِكُ مُلْكَهُ
الْحِلْمُ ، وَبِهِ تُثَبِّتُ السُّلْطَنَةُ ، وَالْحِلْمُ رَأْسُ الْأُمُورِ وَمِلَاكُهَا ،
وَأَجُودُ مَا كَانَ فِي الْمُلُوكِ : كَالَّذِي زَعَمُوا مِنْ أَنَّهُ كَانَ مَلِكٌ يُدْعَى
بِلَاذَ ، وَكَانَ لَهُ وَزِيرٌ يُدْعَى إِيْلَاذَ . وَكَانَ مُتَعَبِّدًا نَاسِكًا .
فَنَامَ الْمَلِكُ ذَاتَ لَيْلَةٍ ، فَرَأَى فِي مَنَامِهِ ثَمَانِيَةَ أَحْلَامٍ أَفْزَعَتْهُ ،
فَاسْتَيْقَظَ مَرْعُوبًا . فَدَعَا الْبَرَاهِمَةَ ، وَهُمْ النَّسَّاكُ لِيَعْبُرُوا
رُؤْيَاهُ . فَلَمَّا حَضَرُوا بَيْنَ يَدَيْهِ قَصَّ عَلَيْهِمْ مَا رَأَى . فَقَالُوا
بِاجْمَعِهِمْ : لَقَدْ رَأَى الْمَلِكُ عَجَبًا فَإِنْ أَهْلَنَّا سَبْعَةَ أَيَّامٍ جِئْنَاهُ
بِتَأْوِيلِهِ . قَالَ الْمَلِكُ : قَدْ أَهْلَنْتُكُمْ نَخَرَجُوا مِنْ عِنْدِهِ

ثُمَّ اجْتَمَعُوا فِي مَنْزِلِ أَحَدِهِمْ وَأَتَمُّرُوا بَيْنَهُمْ . وَقَالُوا : قَدْ وَجَدْتُمْ
 عَلِمًا وَاسِعًا تُدْرِكُونَ بِهِ ثَارَكُمْ وَتُبْتَقِمُونَ بِهِ مِنْ عَدُوِّكُمْ ؛ وَقَدْ عَلِمْتُمْ
 أَنَّهُ قَتَلَ مِنَّا بِالْأَمْسِ اثْنَيْ عَشَرَ نَفْسًا . وَهَذَا هُوَ قَدْ أَطْلَعَنَا
 عَلَى سِرِّهِ وَسَأَلْنَا تَفْسِيرَ رُؤْيَاهُ : فَهَلَلُوا نُغْلِظَ لَهُ الْقَوْلَ وَنُخَوِّفَهُ
 حَتَّى يَحْمِلَهُ الْفَرْقُ وَالْجَزَعُ عَلَى أَنْ يَفْعَلَ الَّذِي نُرِيدُ وَنَأْمُرُ .
 فَنَقُولُ : اذْفَعْ إِلَيْنَا أَحِبَّاءَكَ وَمَنْ يَكْرُمُ عَلَيْكَ حَتَّى نُقَتِّلَهُمْ :
 فَإِنَّا قَدْ نَظَرْنَا فِي كُتُبِنَا فَلَمْ نَرَ أَنَّ يُدْفَعَ عَنْكَ مَا رَأَيْتَ لِنَفْسِكَ
 وَمَا وَقَعَتْ فِيهِ مِنْ هَذَا الشَّرِّ إِلَّا بِقَتْلِ مَنْ نُسَمِّي لَكَ . فَإِنْ
 قَالَ الْمَلِكُ : وَمَا تُرِيدُونَ أَنْ تَقْتُلُوا ؟ سَمَوْهُمْ لِي . قُلْنَا :
 نُرِيدُ الْمَلِكَةَ إِيرَاخْتَ أُمَّ جَوِيرِ الْمُحْمُودَةِ أَكْرَمَ نِسَائِكَ عَلَيْكَ .
 وَنُرِيدُ جَوِيرَ أَحَبِّ بَنِيكَ إِلَيْكَ وَأَفْضَلَهُمْ عِنْدَكَ . وَنُرِيدُ ابْنَ
 أَخِيكَ الْكَرِيمِ ، وَإِيلَاذَ خَالِكَ وَصَاحِبَ أَمْرِكَ . وَنُرِيدُ كَالَا
 الْكَاتِبَ صَاحِبَ سِرِّكَ وَسَيْفَكَ الَّذِي لَا يُوجَدُ مِثْلُهُ ، وَالْفِيلَ
 الْأَبْيَضَ الَّذِي لَا تَلْحَقُهُ الْخَيْلُ ، وَالْفَرَسَ الَّذِي هُوَ مَرَكَبُكَ
 فِي الْقِتَالِ . وَنُرِيدُ الْفَيَّائِينَ الْآخَرِينَ الْعَظِيمِينَ الَّذِينَ يَكُونَانِ

مَعَ الْفِيلِ الذَّكَرِ . وَنُرِيدُ الْبُخْتِيَ السَّرِيعَ الْقَوِيَّ . وَنُرِيدُ
 كِبَارِيُونَ الْحَكِيمَ الْفَاضِلَ الْعَالِمَ بِالْأُمُورِ لِنَنْتَقِمَ مِنْهُ بِمَا فَعَلَ بِنَا .
 ثُمَّ نَقُولُ : إِنَّمَا يَنْبَغِي لَكَ أَيُّهَا الْمَلِكُ أَنْ تَقْتُلَ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ
 سَمَيْنَاهُمْ لَكَ ، ثُمَّ تَجْعَلَ دِمَاءَهُمْ فِي حَوْضٍ تَمْلُوهُ ، ثُمَّ تَقْعُدُ فِيهِ .
 فَإِذَا خَرَجْتَ مِنَ الْحَوْضِ اجْتَمَعْنَا نَحْنُ مَعَاشِرَ الْبَرَاهِمَةِ مِنَ
 الْأَفَاقِ الْأَرْبَعَةِ نَجُولُ حَوْلَكَ فَنَرْقِيكَ وَنَنْقُلُ عَلَيْكَ وَنَمْسَحُ
 عَنْكَ الدَّمَ وَنَغْسِلُكَ بِالْمَاءِ وَالذَّهْنِ الطَّيِّبِ . ثُمَّ تَقُومُ إِلَى مَنْزِلِكَ
 الْبَهِيِّ فَيَدْفَعُ اللَّهُ بِذَلِكَ الْبَلَاءِ الَّذِي نَخَوِّفُهُ عَلَيْكَ . فَإِنْ
 صَبَرْتَ ، أَيُّهَا الْمَلِكُ ، وَطَابَتْ نَفْسُكَ عَنْ أَحِبَّائِكَ الَّذِينَ ذَكَرْنَا
 لَكَ ، وَجَعَلْتَهُمْ فِدَاءَكَ ، تَخَلَّصْتَ مِنَ الْبَلَاءِ ، وَاسْتَقَامَ لَكَ
 مُلْكُكَ وَسُلْطَانُكَ ، وَاسْتَخْلَفْتَ مِنْ بَعْدِهِمْ مَنْ أَحْبَبْتَ .
 وَإِنْ أَنْتَ لَمْ تَفْعَلْ نَخَوِّفْنَا عَلَيْكَ أَنْ يُغْصَبَ مُلْكُكَ أَوْ تَهْلِكَ .
 فَإِنْ هُوَ أَطَاعَنَا فِيمَا نَأْمُرُهُ قَتَلْنَاهُ أَوْ قَتَلَهُ شِدْنَا .

فَلَمَّا أَجْمَعُوا عَلَى مَا أُمِّرُوا بِهِ رَجَعُوا إِلَيْهِ فِي الْيَوْمِ السَّابِعِ .
 وَقَالُوا لَهُ : أَيُّهَا الْمَلِكُ ، إِنَّا نَظَرْنَا فِي كُتُبِنَا فِي تَفْسِيرِ مَا رَأَيْتَ ،
 وَفَحَصْنَا عَنِ الرَّأْيِ فِيمَا بَيْنَنَا . فَلَتَكُنْ لَكَ أَيُّهَا الْمَلِكُ الطَّاهِرُ

الصَّالِحُ الْكَرَّامَةُ . وَلَسْنَا نَقْدِرُ أَنْ نُعْلِكَ بِمَا رَأَيْنَا إِلَّا أَنْ
تَحْلُوَ بِنَا . فَأَخْرَجَ الْمَلِكُ مَنْ كَانَ عِنْدَهُ وَخَلَا بِهِمْ . فَحَدَّثُوا
بِالَّذِي اتَّمَرُوا بِهِ . فَقَالَ لَهُمْ : أَلَمُوتُ خَيْرٌ لِي مِنَ الْحَيَاةِ
إِنْ أَنَا قَتَلْتُ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ هُمْ عَدِيلُ نَفْسِي . وَأَنَا مَيِّتٌ لَا مُحَالَةَ ،
وَالْحَيَاةُ قَصِيرَةٌ ، وَلَسْتُ كُلَّ الدَّهْرِ مَلِكًا ، وَإِنَّ الْمَوْتَ عِنْدِي
وَفِرَاقَ الْأَحْبَاءِ سَوَاءٌ . قَالَ لَهُ الْبَرَاهِمَةُ : إِنْ أَنْتَ لَمْ تَغْضَبْ
أَخْبَرْنَاكَ . فَأَذِنَ لَهُمْ . فَقَالُوا : أَيُّهَا الْمَلِكُ إِنَّكَ لَمْ تَقُلْ
صَوَابًا حِينَ تَجْعَلُ نَفْسَ غَيْرِكَ أَعَزَّ عِنْدَكَ مِنْ نَفْسِكَ . فَاحْتَفِظْ
بِنَفْسِكَ وَمُلْكِكَ ، وَاعْمَلْ هَذَا الَّذِي لَكَ فِيهِ الرَّجَاءُ الْعَظِيمُ
عَلَى ثِقَةٍ وَيَقِينٍ . وَقَرَّ عَيْنًا بِمُلْكِكَ فِي وُجُوهِ أَهْلِ مَمْلَكَتِكَ
الَّذِينَ شَرُفَتْ وَكَرُمَتْ بِهِمْ . وَلَا تَدْعُ الْأَمْرَ الْعَظِيمَ وَتَأْخُذْ
بِالضَّعِيفِ فَتُهْلِكَ نَفْسَكَ إِثَارًا لِمَنْ يُحِبُّ . وَاعْلَمْ أَيُّهَا الْمَلِكُ
أَنَّ الْإِنْسَانَ إِنَّمَا يُحِبُّ الْحَيَاةَ مُحَبَّةً لِنَفْسِهِ . وَأَنَّهُ لَا يُحِبُّ
مَنْ أَحَبَّ مِنَ الْأَحْبَابِ إِلَّا لِيَتَمَتَّعَ بِهِمْ فِي حَيَاتِهِ . وَإِنَّمَا
قَوَامُ نَفْسِكَ بَعْدَ اللَّهِ تَعَالَى بِمُلْكِكَ . وَإِنَّكَ لَمْ تَنْلِ مُلْكَكَ

إِلَّا بِالمُشَقَّةِ وَالْعَنَاءِ الْكَثِيرِ فِي الشُّهُورِ وَالسِّنِينَ . وَلَيْسَ
يَنْبَغِي أَنْ تَرْفُضَهُ وَيَهُونَ عَلَيْكَ . فَاسْتَمِعْ كَلَامَنَا . فَاَنْظُرْ
لِنَفْسِكَ مِنْهَا ، وَدَعْ مَا سِوَاهَا : فَإِنَّهُ لَا خَطَرَ لَهُ . فَلَمَّا
رَأَى الْمَلِكُ أَنَّ الْبَرَاهِمَةَ قَدْ أَغْلُظُوا لَهُ فِي الْقَوْلِ وَاجْتَرَأُوا
عَلَيْهِ فِي الْكَلَامِ اشْتَدَّ غَمُّهُ وَحُزْنُهُ . وَقَامَ مِنْ بَيْنِ ظَهْرَانِيهِمْ
وَدَخَلَ إِلَى جُجْرَتِهِ نَحَرَ عَلَى وَجْهِهِ يَبْكِي وَيَتَقَلَّبُ كَمَا تَتَقَلَّبُ
السَّمَكَةُ إِذَا خَرَجَتْ مِنَ الْمَاءِ ، وَجَعَلَ يَقُولُ فِي نَفْسِهِ :
مَا أَذْرِي أَيْ الْأَمْرَيْنِ أَعْظَمُ فِي نَفْسِي ؟ الْمَمْلَكَةُ أَمْ قَتْلُ أَحِبَّائِي ؟
وَلَنْ أَتَالَ الْفَرَحَ مَا عِشْتُ . وَلَيْسَ مُلْكِي بِبَاقٍ عَلَيَّ
إِلَى الْأَبَدِ . وَلَسْتُ بِالْمُصِيبِ سُؤْلِي فِي مُلْكِي . وَإِنِّي لَزَاهِدٌ
فِي الْحَيَاةِ إِذَا لَمْ أَرِ إِيرَاخْتَ . وَكَيْفَ أَقْدِرُ عَلَى الْقِيَامِ بِمُلْكِي
إِذَا هَلَكَ وَزِيرِي إِيلَاذُ ؟ وَكَيْفَ أَضِيطُّ أَمْرِي إِذَا هَلَكَ فِيلِي
الْأَبْيَضُ وَفَرَسِي الْجَوَادُ ؟ وَكَيْفَ أَدْعَى مَلِكًا وَقَدْ قَتَلْتُ
مَنْ أَشَارَ الْبَرَاهِمَةَ بِقَتْلِهِ ؟ وَمَا أَصْنَعُ بِالدُّنْيَا بَعْدَهُمْ ؟ ثُمَّ إِنَّ
الْحَدِيثَ فَشَا فِي الْأَرْضِ بِحُزْنِ الْمَلِكِ وَهَمِّهِ . فَلَمَّا رَأَى

إِيلَاذُ مَا نَالَ الْمَلِكَ مِنَ الْهَمِّ وَالْحُزْنِ فَكَرَّ بِحِكْمَتِهِ وَنَظَرَ وَقَالَ :
 مَا يَنْبَغِي لِي أَنْ أَسْتَقْبِلَ الْمَلِكَ فَأَسْأَلَهُ عَنْ هَذَا الْأَمْرِ الَّذِي قَدْ
 نَالَهُ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَدْعُونِي . ثُمَّ انْطَلَقَ إِلَى إِيْرَاخَتْ فَقَالَ :
 إِنِّي مُنْذُ خَدَمْتُ الْمَلِكَ إِلَى الْآنَ لَمْ يَعْمَلْ عَمَلًا إِلَّا بِمَشُورَتِي
 وَرَأْيِي . وَأَرَاهُ يَكْتُمُ عَنِّي أَمْرًا لَا أَعْلَمُ مَا هُوَ . وَلَا أَرَاهُ
 يُظْهِرُ مِنْهُ شَيْئًا . وَإِنِّي رَأَيْتُهُ خَالِيًا مَعَ جَمَاعَةِ الْبَرَّهَمِيِّينَ
 مُنْذُ لَيَالٍ . وَقَدْ اخْتَجَبَ عَنَّا فِيهَا . وَأَنَا خَائِفٌ أَنْ يَكُونَ
 قَدْ أَطْلَعَهُمْ عَلَى شَيْءٍ مِنْ أَسْرَارِهِ . فَلَسْتُ آمَنُهُمْ أَنْ يُسِيرُوا
 عَلَيْهِ بِمَا يَضُرُّهُ وَيَدْخُلُ عَلَيْهِ مِنْهُ السُّوءُ . فَقَوْمِي وَادْخُلِي
 عَلَيْهِ فَاسْأَلِيهِ عَنْ أَمْرِهِ وَشَأْنِهِ . وَأَخْبِرْنِي بِمَا هُوَ عَلَيْهِ
 وَأَعْلِمْنِي : فَإِنِّي لَسْتُ أَقْدِرُ عَلَى الدُّخُولِ عَلَيْهِ . فَلَعَلَّ الْبَرَّهَمِيِّينَ
 قَدْ زَيَّنُوا لَهُ أَمْرًا أَوْ حَمَلُوهُ عَلَى خُطَّةٍ قَبِيحَةٍ . وَقَدْ عَلِمْتُ أَنَّ مِنْ
 خُلُقِ الْمَلِكِ أَنَّهُ إِذَا غَضِبَ لَا يَسْأَلُ أَحَدًا . وَسَوَاءٌ عِنْدَهُ صَغِيرُ
 الْأُمُورِ وَكَبِيرُهَا . فَقَالَتْ إِيْرَاخَتْ : إِنَّهُ كَانَ بَيْنِي وَبَيْنَ الْمَلِكِ
 بَعْضُ الْعِتَابِ فَلَسْتُ بِدَاخِلَةٍ عَلَيْهِ فِي هَذِهِ الْحَالِ . فَقَالَ لَهَا
 إِيلَاذُ : لَا تَحْمِلِي عَلَيْهِ الْحَقْدَ فِي مِثْلِ هَذَا . وَلَا يَخْطُرَنَّ ذَلِكَ

عَلَى بَالِكَ فَلَيْسَ يَقْدِرُ عَلَى الدُّخُوبِ عَلَيْهِ أَحَدٌ سِوَاكَ . وَقَدْ سَمِعْتَهُ
كَثِيرًا يَقُولُ : مَا اشْتَدَّ غَمِّي وَدَخَلْتُ عَلَى إِيْرَاخْتُ إِلَّا سُرِّي
عَنِّي ، فَقُومِي إِلَيْهِ وَاصْفَحِي عَنْهُ . وَكَلِمِهِ بِمَا تَعْلَمِينَ أَنَّهُ
تَطِيبُ بِهِ نَفْسُهُ وَيَذْهَبُ الَّذِي يَجِدُهُ . وَأَعْلِمْنِي بِمَا يَكُونُ
جَوَابُهُ : فَإِنَّهُ لَنَا وَلِأَهْلِ الْمَمْلَكَةِ أَكْثَرُ الرَّاحَةِ . فَانْطَلَقْتُ
إِيْرَاخْتُ فَدَخَلْتُ عَلَى الْمَلِكِ بَجَلَسْتُ عِنْدَ رَأْسِهِ . فَقَالَتْ :
مَا الَّذِي بِكَ أَيُّهَا الْمَلِكُ الْحَمُودُ ؟ وَمَا الَّذِي سَمِعْتَ مِنَ الْبَرَاهِمَةِ ؟
فَإِنِّي أَرَاكَ مُحْزُونًا . فَأَعْلِمْنِي مَا بِكَ ، فَقَدْ يَنْبَغِي لَنَا أَنْ نَحْزَنَ
مَعَكَ وَنَوَاسِيكَ بِأَنْفُسِنَا . فَقَالَ الْمَلِكُ : أَيُّهَا السَّيِّدَةُ لَا تَسْأَلِينِي
عَنْ أَمْرِي فَتَزِيدِينِي غَمًّا وَحُزْنًا : فَإِنَّهُ أَمْرٌ لَا يَنْبَغِي أَنْ تَسْأَلَنِي
عَنْهُ . قَالَتْ : أَوْ قَدْ نَزَلْتُ عِنْدَكَ مَنْزِلَةً مِنْ يَسْتَحِقُّ هَذَا ؟
إِنَّمَا أَحْمَدُ النَّاسَ عَقْلًا مَنْ إِذَا نَزَلَتْ بِهِ النَّازِلَةُ كَانَ لِنَفْسِهِ
أَشَدَّ ضَبْطًا ، وَأَكْثَرَهُمْ اسْتِمَاعًا مِنْ أَهْلِ النَّصِيحِ حَتَّى يَنْجُو مِنْ
تِلْكَ النَّازِلَةِ بِالْحَيَلَةِ وَالْعَقْلِ وَالْبَحْثِ وَالْمُشَاوَرَةِ . فَعَظِيمُ
الذَّنْبِ لَا يَقْنَطُ مِنَ الرَّحْمَةِ . وَلَا تُدْخِلَنَّ عَلَيْكَ شَيْئًا مِنْ الْهَمِّ
وَالْحُزْنِ . فَإِنَّهُمَا لَا يَرُدَّانِ شَيْئًا مَقْضِيًّا . إِلَّا أَنَّهُمَا يُنْخِلَانِ

الْجَنَسَ وَيَشْفِيَانِ الْعُدُو . قَالَ لَهَا الْمَلِكُ : لَا تَسْأَلِينِي عَنْ شَيْءٍ فَقَدْ شَقَقْتُ عَلَيَّ^(١) . وَالَّذِي تَسْأَلِينِي عَنْهُ لَا خَيْرَ فِيهِ : لِأَنَّ عَاقِبَتَهُ هَلَاكِي وَهَلَاكُكَ وَهَلَاكُ كَثِيرٍ مِنْ أَهْلِ مَمْلَكَتِي وَمَنْ هُوَ عَدِيلُ نَفْسِي . وَذَلِكَ أَنَّ الْبَرَاهِمَةَ زَعَمُوا أَنَّهُ لَا بَدَّ مِنْ قَتْلِكَ وَقَتْلِ كَثِيرٍ مِنْ أَهْلِ مَوَدَّتِي . وَلَا خَيْرَ فِي الْعَيْشِ بَعْدَكُمْ . وَهَلْ أَحَدٌ يَسْمَعُ بِهَذَا إِلَّا اعْتَرَاهُ الْحُزْنُ ؟

فَلَمَّا سَمِعَتْ ذَلِكَ إِيرَاخْتُ جَزِعَتْ . وَمَنْعَهَا عَقْلُهَا أَنْ تُظْهِرَ لِلْمَلِكِ جَزَعًا . فَقَالَتْ : أَيُّهَا الْمَلِكُ لَا تَجْزَعْ فَتُخْزِنُ لَكَ الْفِدَاءَ . وَلَكَ فِي سِوَايَ وَمِثْلِي مِنَ الْجَوَارِي مَا تَقْرُبُهُ عَيْنُكَ . وَلَكِنِّي أَطْلُبُ مِنْكَ ، أَيُّهَا الْمَلِكُ ، حَاجَةً يَحْمِلُنِي عَلَى طَلِبِهَا حُبِّي لَكَ وَإِثَارِي إِيَّاكَ . وَهِيَ نَصِيحَتِي لَكَ . قَالَ الْمَلِكُ : وَمَا هِيَ ؟ قَالَتْ : أَطْلُبُ مِنْكَ أَلَّا تَشُقَّ بَعْدَهَا بِأَحَدٍ مِنَ الْبَرَاهِمَةِ . وَلَا تُسَاوِرَهُمْ فِي أَمْرِ حَتَّى تَتَشَبَّثَ فِي أَمْرِكَ . ثُمَّ تُسَاوِرُ فِيهِ ثِقَاتِكَ مِرَارًا : فَإِنَّ الْقَتْلَ أَمْرٌ عَظِيمٌ ، وَلَسْتُ تَقْدِرُ عَلَى أَنْ تُنْجِي مَنْ

قَتَلَتْ . وَقَدْ قِيلَ فِي الْحَدِيثِ : إِذَا لَقِيتَ جَوْهَرًا لَا خَيْرَ فِيهِ
 فَلَا تُلْقِهِ مِنْ يَدِكَ حَتَّى تُرِيَهُ مَنْ يَعْرِفُهُ . وَأَنْتَ أَيُّهَا الْمَلِكُ
 لَا تَعْرِفُ أَعْدَاءَكَ . وَاعْلَمْ أَنَّ الْبَرَاهِمَةَ لَا يُحِبُّونَكَ . وَقَدْ قَتَلَتْ
 مِنْهُمْ بِالْأَمْسِ اثْنَيْ عَشَرَ أَلْفًا . وَلَا تَظُنَّ أَنَّ هَؤُلَاءِ لَيْسُوا مِنْ
 أَوْلِيكَ . وَلَعَمْرِي مَا كُنْتُ جَدِيرًا أَنْ تُخْبِرَهُمْ بِرُؤْيَاكَ ، وَلَا أَنْ
 تُطْلِعَهُمْ عَلَيْهَا . وَإِنَّمَا قَالُوا لَكَ مَا قَالُوا لِأَجْلِ الْحَقْدِ الَّذِي
 بَيْنَكَ وَبَيْنَهُمْ : لَعَلَّهُمْ يَهْلِكُونَكَ وَيُهْلِكُونَ أَحِبَّاءَكَ وَوَزِيرَكَ :
 فَيَبْلُغُوا قَصْدَهُمْ مِنْكَ . فَأَظُنُّكَ لَوْ قِيلَتْ مِنْهُمْ فَقَتَلَتْ مَنْ
 أَشَارُوا بِقَتْلِهِ ظَفَرُوا بِكَ وَغَلَبُوكَ عَلَى مُلْكِكَ ، فَيَعُودُ الْمَلِكُ
 إِلَيْهِمْ كَمَا كَانَ . فَاَنْطَلِقْ إِلَى كَبَارِيُونَ الْحَكِيمِ ، فَهُوَ عَالِمٌ فِطْنٍ ،
 فَأَخْبِرْهُ عَمَّا رَأَيْتَ فِي رُؤْيَاكَ وَاسْأَلْهُ عَنْ وَجْهِهَا وَتَأْوِيلِهَا .
 فَلَمَّا سَمِعَ الْمَلِكُ ذَلِكَ سَرَى عَنْهُ مَا كَانَ يَحْجِدُهُ مِنَ الْغَمِّ .
 فَأَمَرَ بِفَرَسِهِ فَأَسْرَجَ فَركَبَهُ ثُمَّ انْطَلَقَ إِلَى كَبَارِيُونَ الْحَكِيمِ .
 فَلَمَّا انْتَهَى إِلَيْهِ نَزَلَ عَنْ فَرَسِهِ وَسَجَدَ لَهُ ، وَقَامَ مُطَاطِبًا
 الرَّأْسَ بَيْنَ يَدَيْهِ . فَقَالَ لَهُ الْحَكِيمُ : مَا بِالْكَ أَيُّهَا الْمَلِكُ ؟ وَمَا لِي

أَرَاكَ مُتَغَيِّرَ اللَّوْنِ ؟ فَقَالَ لَهُ الْمَلِكُ إِنِّي رَأَيْتُ فِي الْمَنَامِ ثَمَانِيَةَ
أَحْلَامٍ فَقَصَصْتُهَا عَلَى الْبَرَاهِمَةِ . وَأَنَا خَائِفٌ أَنْ يُصَيِّبَنِي مِنْ
ذَلِكَ عَظِيمٌ أَمْرٌ مِمَّا سَمِعْتُ مِنْ تَغْيِيرِهِمْ لِرُؤْيَايَ . وَأَخْشَى أَنْ
يُغْصَبَ مِنِّي مُلْكِي أَوْ أَنْ أُغْلَبَ عَلَيْهِ . فَقَالَ لَهُ الْحَكِيمُ : إِنْ
شِئْتَ فَاقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَيَّ . فَلَمَّا قَصَّ عَلَيْهِ الْمَلِكُ رُؤْيَاهُ .
قَالَ : لَا يَحْزُنُكَ أَيُّهَا الْمَلِكُ هَذَا الْأَمْرُ وَلَا تَخَفْ مِنْهُ : أَمَّا
السَّمَكَتَانِ الْحُمْرَاوَانِ اللَّتَانِ رَأَيْتُهُمَا قَائِمَتَيْنِ عَلَى أَذْنَابِهِمَا
فَإِنَّهُ يَأْتِيكَ رَسُولٌ مِنْ مَلِكٍ نَهَاوَنَدَ بَعْلَبَةِ فِيهَا عِقْدَانِ مِنَ الدَّرِّ
وَالْيَاقُوتِ الْأَحْمَرِ ، قِيمَتُهُمَا أَرْبَعَةُ آلَافِ رِطْلٍ مِنْ ذَهَبٍ فَيَقُومُ
بَيْنَ يَدَيْكَ . وَأَمَّا الْوَرَتَانِ اللَّتَانِ رَأَيْتُهُمَا طَارَتَا مِنْ وَرَاءِ ظَهْرِكَ
فَوَقَعَتَا بَيْنَ يَدَيْكَ : فَإِنَّهُ يَأْتِيكَ مِنْ مَلِكٍ بَلَنُجٍ فَرَسَانِ لَيْسَ عَلَى
الْأَرْضِ مِثْلُهُمَا فَيَقُومَانِ بَيْنَ يَدَيْكَ . وَأَمَّا الْحَيَّةُ الَّتِي رَأَيْتَهَا
تَدْبُ عَلَى رِجْلِكَ الْيُسْرَى : فَإِنَّهُ يَأْتِيكَ مِنْ مَلِكٍ صَنْجِينٍ مَنْ
يَقُومُ بَيْنَ يَدَيْكَ بِسَيْفٍ خَالِصِ الْحَدِيدِ لَا يُوجَدُ مِثْلُهُ .
وَأَمَّا الدَّمُ الَّذِي رَأَيْتَ كَأَنَّهُ خُضِبَ بِهِ جَسَدُكَ : فَإِنَّهُ يَأْتِيكَ مِنْ
مَلِكٍ كَازِرُونَ مَنْ يَقُومُ بَيْنَ يَدَيْكَ بِلِبَاسٍ مُعْجَبٍ يُسَمَّى حُلَّةَ

أَرْجَوَانٍ يُضِيءُ فِي الظُّلْمَةِ . وَأَمَّا مَا رَأَيْتَ مِنْ غَسَلِكَ جِسْمَكَ
 بِالْمَاءِ : فَإِنَّهُ يَأْتِيكَ مِنْ مَلِكٍ رَهْزَيْنٍ مَنْ يَقُومُ بَيْنَ يَدَيْكَ
 بِثِيَابٍ كَأَنَّ مِنْ لِبَاسِ الْمُلُوكِ . وَأَمَّا مَا رَأَيْتَ مِنْ أَنَّكَ
 عَلَى جَبَلٍ أَبْيَضَ : فَإِنَّهُ يَأْتِيكَ مِنْ مَلِكٍ كِيدُورٍ مَنْ يَقُومُ بَيْنَ
 يَدَيْكَ بِفِيلٍ أَبْيَضَ لَا تَلْحَقُهُ الْخَيْلُ . وَأَمَّا مَا رَأَيْتَ عَلَى رَأْسِكَ
 شَبِيهَاً بِالنَّارِ : فَإِنَّهُ يَأْتِيكَ مِنْ مَلِكٍ أَرْزَنٍ مَنْ يَقُومُ بَيْنَ يَدَيْكَ
 بِإِكْلِيلٍ مِنْ ذَهَبٍ مُكَلَّلٍ بِالذَّرِّ وَالْيَاقُوتِ . وَأَمَّا الطَّيْرُ الَّذِي
 رَأَيْتَهُ ضَرَبَ رَأْسَكَ بِمِنْقَارِهِ : فَلَسْتُ مُفَسِّرًا ذَلِكَ الْيَوْمَ .
 وَلَيْسَ بِضَارِكٍ ، فَلَا تَوَجَلَنَّ مِنْهُ . وَلَكِنْ فِيهِ بَعْضُ السُّخْطِ
 وَالْإِعْرَاضِ عَمَّنْ يُحِبُّهُ : فَهَذَا تَفْسِيرُ رُؤْيَاكَ أَيُّهَا الْمَلِكُ ، وَأَمَّا
 هَذِهِ الرُّسُلُ وَالْبُرْدُ فَإِنَّهُمْ يَأْتُونَكَ بَعْدَ سَبْعَةِ أَيَّامٍ جَمِيعًا فَيَقُومُونَ
 بَيْنَ يَدَيْكَ . فَلَمَّا سَمِعَ الْمَلِكُ ذَلِكَ سَجَدَ لِكِبَارِيُونَ وَرَجَعَ إِلَى
 مَنْزِلِهِ .

(١) إجراء هذه الحكمة على وزن فعليل أو فعلين كقطمير وغسلين ليكون لها نظير في العربية هو الذي دعاه إلى ضبطها هكذا ومثلها صنجين .

فَلَمَّا كَانَ بَعْدَ سَبْعَةِ أَيَّامٍ جَاءَتْ الْبَشَائِرُ بِقُدُومِ الرُّسُلِ فَخَرَجَ
 الْمَلِكُ بَجَلَسَ عَلَى التَّخْتِ ، وَأَذِنَ لِلْأَشْرَافِ ، وَجَاءَتْهُ الْهَدَايَا
 كَمَا أَخْبَرَهُ بَكَارِيُونُ الْحَكِيمُ . فَلَمَّا رَأَى الْمَلِكُ ذَلِكَ اشْتَدَّ عَجْبُهُ
 وَفَرَحُهُ مِنْ عِلْمِ بَكَارِيُونِ . وَقَالَ : مَا وَفَّقْتُ حِينَ قَصَصْتُ
 رُؤْيَايَ عَلَى الْبَرَاهِمَةِ فَأَمْرُونِي بِمَا أَمُرُونِي بِهِ . وَلَوْلَا أَنَّ اللَّهَ
 تَعَالَى تَدَارَكَنِي بِرَحْمَتِهِ لَكُنْتُ قَدْ هَلَكْتُ وَأَهْلَكْتُ ؛ وَكَذَلِكَ
 لَا يَنْبَغِي لِكُلِّ أَحَدٍ أَنْ يَسْمَعَ إِلَّا مِنَ الْأَخِلَّاءِ ذَوِي الْعُقُولِ .
 وَإِنَّ إِيرَاخْتَ أَشَارَتْ بِالْخَيْرِ فَقَبِلْتُهُ . وَرَأَيْتُ بِهِ النَّجَاحَ . فَضَعُوا
 الْهَدِيَّةَ بَيْنَ يَدَيْهَا لَتَأْخُذَ مِنْهَا مَا اخْتَارَتْ . ثُمَّ قَالَ لِإِيلَادَ :
 خُذِ الْإِثْلِيلَ وَالثِّيَابَ وَاحْمِلْهَا وَاتَّبِعْنِي بِهَا إِلَى مَجْلِسِ النِّسَاءِ .
 ثُمَّ إِنَّ الْمَلِكَ دَعَا إِيرَاخْتَ وَحُورَقْنَاهُ أَكْرَمَ نِسَائِهِ بَيْنَ يَدَيْهِ .
 فَقَالَ لِإِيلَادَ : ضَعِ الْكُسُوَّةَ وَالْإِثْلِيلَ بَيْنَ يَدَيِ إِيرَاخْتَ
 لَتَأْخُذَ أَيَّهَا شَاءَتْ . فَوُضِعَتِ الْهَدَايَا بَيْنَ يَدَيِ إِيرَاخْتَ .
 فَأَخَذَتْ مِنْهَا الْإِثْلِيلَ ، وَأَخَذَتْ حُورَقْنَاهُ كُسُوَّةً مِنْ أَنْفَرِ
 الثِّيَابِ وَأَحْسَنَهَا . وَكَانَ مِنْ عَادَةِ الْمَلِكِ أَنْ يَكُونَ لَيْلَةً عِنْدَ

إِيرَاخَتْ وَلَيْلَةً عِنْدَ حُورَقْنَاهُ . وَكَانَ مِنْ سُنَّةِ الْمَلِكِ أَنْ تُهَيَّ لَهُ
الْمَرْأَةُ الَّتِي يَكُونُ عِنْدَهَا فِي لَيْلَتِهَا أَرْزًا بِجَلَاوَةٍ فَتُطْعِمَهُ إِيَّاهُ .
فَأَتَى الْمَلِكُ إِيرَاخَتْ فِي نَوْبَتِهَا . وَقَدْ صَنَعَتْ لَهُ أَرْزًا . فَدَخَلَتْ
عَلَيْهِ بِالصَّخْفَةِ وَالْإِكْلِيلِ عَلَى رَأْسِهَا . فَعَلِمَتْ حُورَقْنَاهُ بِذَلِكَ
فَفَارَتْ مِنْ إِيرَاخَتْ . فَلَبِسَتْ تِلْكَ الْكُسُوَّةَ . وَمَرَّتْ بَيْنَ
يَدَيْ الْمَلِكِ وَتِلْكَ الثِّيَابُ تُضِيءُ عَلَيْهَا مَعَ نُورِ وَجْهِهَا
كَمَا تُضِيءُ الشَّمْسُ . فَلَمَّا رَأَاهَا الْمَلِكُ اعْجَبْتَهُ . ثُمَّ التَفَتَ
إِلَى إِيرَاخَتْ فَقَالَ : إِنَّكَ جَاهِلَةٌ حِينَ أَخَذْتِ الْإِكْلِيلَ وَتَرَكْتِ
الْكُسُوَّةَ الَّتِي لَيْسَ فِي خَزَائِنِنَا مِثْلَهَا . فَلَمَّا سَمِعَتْ إِيرَاخَتْ
مَدَحَ الْمَلِكِ لِحُورَقْنَاهُ وَثَنَاءَهُ عَلَيْهَا وَتَجْهِيلَهَا هِيَ وَذَمَّ رَأْيَهَا
أَخَذَهَا مِنْ ذَلِكَ الْغَيْرَةِ وَالْغَيْظُ . فَضْرَبَتْ بِالصَّخْفَةِ رَأْسَ الْمَلِكِ .
فَسَالَ الْأَرْزُ عَلَى وَجْهِهِ . فَقَامَ الْمَلِكُ مِنْ مَكَانِهِ وَدَعَا بِإِيلَاذَ .
فَقَالَ لَهُ : أَلَا تَرَى ، وَأَنَا مَلِكُ الْعَالَمِ ، كَيْفَ حَقَرْتَنِي هَذِهِ
الْجَاهِلَةُ ، وَفَعَلْتَ بِي مَا تَرَى ؟ فَأَنْطَلِقْ بِهَا فَأَقْتُلْهَا وَلَا
تَرْحَمَهَا . نَخْرَجَ إِيلَاذُ مِنْ عِنْدِ الْمَلِكِ وَقَالَ : لَا أَقْتُلُهَا حَتَّى
يَسْكُنَ عَنْهُ الْغَضَبُ . فَالْمَرْأَةُ عَاقِلَةٌ سَدِيدَةُ الرَّأْيِ مِنَ الْمَلِكَاتِ

الَّتِي لَيْسَ لَهَا عَدِيلٌ فِي النِّسَاءِ ، وَلَيْسَ الْمَلِكُ بِصَابِرٍ عَنْهَا .
 وَقَدْ خَلَصْتَهُ مِنَ الْمَوْتِ ، وَعَمِلْتَ أَعْمَالًا صَالِحَةً . وَرَجَاؤُنَا
 فِيهَا عَظِيمٌ . وَلَسْتُ آمَنُهُ أَنْ يَقُولَ : لِمَ لَمْ تُؤَخِّرْ قَتْلَهَا حَتَّى
 تُرَاجِعَنِي ؟ فَلَسْتُ قَاتِلَهَا حَتَّى أَنْظُرَ رَأْيَ الْمَلِكِ فِيهَا ثَانِيَةً :
 فَإِنْ رَأَيْتُهُ نَادِمًا حَزِينًا عَلَى مَا صَنَعَ جِئْتُ بِهَا حَيَّةً . وَكُنْتُ قَدْ
 عَمِلْتُ عَمَلًا عَظِيمًا . وَأَنْجَيْتُ إِيرَاخْتَ مِنَ الْقَتْلِ . وَحَفَظْتُ
 قَلْبَ الْمَلِكِ . وَأَتَّخَذْتُ عِنْدَ عَامَّةِ النَّاسِ بِذَلِكَ يَدًا . وَإِنْ رَأَيْتُهُ فَرِحًا
 مُسْتَرِيحًا مُصَوِّبًا رَأْيَهُ فِي الدِّيِّ فَعَلَهُ وَأَمَرَ بِهِ فَقَتْلَهَا لَا يَفُوتُ .

ثُمَّ أَنْطَلَقَ بِهَا إِلَى مَنْزِلِهِ ، وَوَكَّلَ بِهَا خَادِمًا مِنْ أُمَنَائِهِ ، وَأَمَرَهُ
 بِخِذْمَتِهَا وَحِرَاسَتِهَا ، حَتَّى يَنْظُرَ مَا يَكُونُ مِنْ أَمْرِهَا وَأَمْرِ الْمَلِكِ .
 ثُمَّ خَضَبَ سَيْفَهُ بِالدِّمِّ وَدَخَلَ عَلَى الْمَلِكِ كَالْكُتَيْبِ الْحَزِينِ .
 فَقَالَ أَيُّهَا الْمَلِكُ : إِنِّي قَدْ أَمْضَيْتُ أَمْرَكَ فِي إِيرَاخْتَ . فَلَمْ
 يَلْبَثِ الْمَلِكُ أَنْ سَكَنَ عَنْهُ الْغَضَبُ ، وَذَكَرَ جَمَالَ إِيرَاخْتَ
 وَحُسْنَهَا . وَاشْتَدَّ أَسْفُهُ عَلَيْهَا . وَجَعَلَ يُعْزِي نَفْسَهُ عَنْهَا .
 وَيَجْلَدُ وَهُوَ مَعَ ذَلِكَ يَسْتَحِي أَنْ يَسْأَلَ إِيلَادَ : أَحَقًّا أَمْضَى

أَمْرُهُ فِيهَا أَمْ لَا ؟ وَرَجَا - لِمَا عَرَفَ مِنْ عَقْلِ إِيْلَاذَ -
 أَلَّا يَكُونَ قَدْ فَعَلَ ذَلِكَ . وَنَظَرَ إِلَيْهِ إِيْلَاذُ بِفَضْلِ عَقْلِهِ فَعَلِمَ
 الَّذِي بِهِ ، فَقَالَ لَهُ : لَا تَهْتَمَّ وَلَا تَحْزَنْ أَيْهَا الْمَلِكُ : فَإِنَّهُ لَيْسَ
 فِي الْهَمِّ وَالْحُزْنِ مَنَفْعَةٌ . وَلَكِنَّهُمَا يُخْلِلَانِ الْجِسْمَ وَيُفْسِدَانِهِ .
 فَاصْبِرْ أَيْهَا الْمَلِكُ عَلَى مَا لَسْتَ بِقَادِرٍ عَلَيْهِ أَبَدًا . وَإِنْ أَحَبَّ
 الْمَلِكُ حَدَّثْتُهُ بِحَدِيثٍ يُسْلِيهِ . قَالَ : حَدِّثْنِي .

قَالَ إِيْلَاذُ : زَعَمُوا أَنَّ حَمَامَتَيْنِ ذَكَرًا وَأُنْثَى مَلَا عُشْمَهُمَا مِنْ
 الْحِنْطَةِ وَالشَّعِيرِ . فَقَالَ الذَّكَرُ لِلْأُنْثَى : إِنَّا إِذَا وَجَدْنَا فِي الصَّحَارَى
 مَا نَعِيشُ بِهِ فَلَسْنَا نَأْكُلُ مِمَّا هَاهُنَا شَيْئًا . فَإِذَا جَاءَ الشِّتَاءُ
 وَلَمْ يَكُنْ فِي الصَّحَارَى شَيْءٌ رَجَعْنَا إِلَى مَا فِي عُشِّنَا فَأَكَلْنَاهُ .
 فَرَضِيَتْ الْأُنْثَى بِذَلِكَ . وَقَالَتْ لَهُ : نِعَمَ مَا رَأَيْتَ . وَكَانَ ذَلِكَ
 الْحَبُّ نَدِيًّا حِينَ وَضَعَاهُ فِي عُشِّهِمَا . فَاِنْطَلَقَ الذَّكَرُ فَغَابَ .
 فَلَمَّا جَاءَ الصَّيْفُ يَبِسَ الْحَبُّ وَانْضَمَرَ^(١) . فَلَمَّا رَجَعَ الذَّكَرُ رَأَى
 الْحَبَّ نَاقِصًا . فَقَالَ لَهَا : أَلَيْسَ كَمَا أَجْمَعُنَا رَأَيْنَا عَلَى أَلَّا
 نَأْكُلَ مِنْهُ شَيْئًا ؟ فَلِمَ أَكَلْتِهِ ؟ فَجَعَلَتْ تَحْلِفُ أَنَّهَا مَا أَكَلَتْ مِنْهُ

(١) ذهب ماؤه ولم يذكروا الانفعال من ضمير إلا في هذا المعنى .

شَيْئًا . وَجَعَلَتْ تَعْتَزِرُ إِلَيْهِ . فَلَمْ يُصَدِّقْهَا . وَجَعَلَ يَنْقُرُهَا
 حَتَّى مَاتَتْ . فَلَمَّا جَاءَتِ الْأَمْطَارُ وَدَخَلَ الشَّتَاءُ تَنَدَّى الْحَبُّ
 وَأَمْتَلَأَ الْعُشُّ كَمَا كَانَ . فَلَمَّا رَأَى الذَّكَرُ ذَلِكَ نِدمَ . ثُمَّ اضْطَجَعَ
 إِلَى جَانِبِ حَمَامَتِهِ وَقَالَ : مَا يَنْفَعُنِي الْحَبُّ وَالْعَيْشُ بَعْدَكَ إِذَا
 طَلَبْتُكَ فَلَمْ أَجِدْكَ ، وَلَمْ أَقْدِرْ عَلَيْكَ ، وَإِذَا فَكَّرْتُ فِي أَمْرِكَ
 وَعَلِمْتُ أَنِّي قَدْ ظَلَمْتُكَ ، وَلَا أَقْدِرُ عَلَى تَدَارِكِ مَا فَاتَ .
 ثُمَّ اسْتَمَرَّ عَلَى حُزْنِهِ فَلَمْ يَطْعَمْ طَعَامًا وَلَا شَرَابًا حَتَّى مَاتَ
 إِلَى جَانِبِهَا . وَالْعَاقِلُ لَا يَعْجَلُ فِي الْعَذَابِ وَالْعُقُوبَةِ ،
 وَلَا سِيَّمَا مَنْ يَخَافُ النَّدَامَةَ ، كَمَا نِدمَ الْحَمَامُ الذَّكَرُ . وَقَدْ سَمِعْتُ
 أَيْضًا أَنَّ رَجُلًا دَخَلَ الْجَبَلَ وَعَلَى رَأْسِهِ كَارَةٌ^(١) مِنَ الْعَدَسِ
 . فَوَضَعَ الْكَارَةَ عَنْ ظَهْرِهِ لِيَسْتَرِيحَ . فَتَنَزَلَ قِرْدٌ مِنْ شَجَرَةٍ فَأَخَذَ
 مِلءَ كَفِّهِ مِنَ الْعَدَسِ وَصَعِدَ إِلَى الشَّجَرَةِ . فَسَقَطَتْ مِنْ
 يَدِهِ حَبَّةٌ فَتَنَزَلَ فِي طَلِبِهَا فَلَمْ يَجِدْهَا . وَانْتَثَرَ مَا كَانَ فِي يَدِهِ مِنَ
 الْعَدَسِ أَجْمَعُ . وَأَنْتَ أَيْضًا أَيُّهَا الْمَلِكُ عِنْدَكَ سِتَّةَ عَشَرَ أَلْفَ
 أَمْرًا تَدْعُ أَنْ تَلْهُو بِهِنَّ وَتَطْلُبُ الَّتِي لَا تَجِدُ ! فَلَمَّا سَمِعَ

الْمَلِكُ ذَلِكَ خَشِيَ أَنْ تَكُونَ إِيرَاخْتُ قَدْ هَلَكْتَ . فَقَالَ
لَا يِلَادُ : لِمَ لَا تَأْتِيَتْ وَتَثَبَّتْ ؟ بَلْ أَسْرَعْتَ عِنْدَ سَمَاعِ كَلِمَةِ
وَاحِدَةٍ فَتَعَلَّقْتَ بِهَا ، وَفَعَلْتَ مَا أَمَرْتُكَ بِهِ مِنْ سَاعَتِكَ ؟
قَالَ إِيلَادُ : إِنَّ الَّذِي قَوْلُهُ وَاحِدٌ لَا يَخْتَلِفُ هُوَ اللَّهُ الَّذِي
لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِهِ وَلَا اخْتِلَافَ لِقَوْلِهِ . قَالَ الْمَلِكُ : لَقَدْ
أَفْسَدْتَ أَمْرِي وَشَدَّدْتَ حُزْنِي بِقَتْلِ إِيرَاخْتَ . قَالَ إِيلَادُ :
اِثْنَانِ يَنْبَغِي لَهُمَا أَنْ يَخْزَنَا : الَّذِي يَعْمَلُ الْإِثْمَ فِي كُلِّ يَوْمٍ ،
وَالَّذِي لَمْ يَعْمَلْ خَيْرًا قَطُّ : لِأَنَّ فَرَحَهُمَا فِي الدُّنْيَا وَنَعِيمِهَا
قَلِيلٌ . وَنَدَامَتُهُمَا إِذْ يُعَايِنَانِ الْحِزَاءَ طَوِيلَةً لَا يُسْتَطَاعُ
إِحْصَاؤُهَا . قَالَ الْمَلِكُ : لَنْ رَأَيْتُ إِيرَاخْتَ حَيَّةً لَا أَحْزَنُ عَلَى
شَيْءٍ أَبَدًا . قَالَ إِيلَادُ : اِثْنَانِ لَا يَنْبَغِي لَهُمَا أَنْ يَخْزَنَا :
الْمُجْتَهِدُ فِي الْبِرِّ كُلِّ يَوْمٍ ، وَالَّذِي لَمْ يَأْتُمْ قَطُّ . قَالَ الْمَلِكُ :
مَا أَنَا بِنَاطِرٍ إِلَى إِيرَاخْتَ أَكْثَرِمًا نَظَرْتُ . قَالَ إِيلَادُ : اِثْنَانِ
لَا يَنْظُرَانِ : الْأَعْمَى وَالَّذِي لَا عَقْلَ لَهُ . وَكَمَا أَنَّ الْأَعْمَى لَا يَنْظُرُ
السَّمَاءَ وَجُومَهَا وَأَرْضَهَا وَلَا يَنْظُرُ الْقُرْبَ وَالْبُعْدَ ، كَذَلِكَ الَّذِي
لَا عَقْلَ لَهُ لَا يَعْرِفُ الْحَسَنَ مِنَ الْقَبِيحِ وَلَا الْمُحْسِنَ مِنَ الْمُسِيءِ .
قَالَ الْمَلِكُ : لَوْ رَأَيْتُ إِيرَاخْتَ لَأَشْتَدَّ فَرَحِي . قَالَ إِيلَادُ : اِثْنَانِ

هُمَا الْفَرِحَانِ : الْبَصِيرُ وَالْعَالِمُ . فَكَمَا أَنَّ الْبَصِيرَ يُبْصِرُ أُمُورَ الْعَالِمِ
وَمَا فِيهِ مِنَ الزِّيَادَةِ وَالنَّقْصَانِ وَالْقَرِيبِ وَالْبَعِيدِ ، فَكَذَلِكَ الْعَالِمُ
يُبْصِرُ الْبِرَّ وَالْإِثْمَ ، وَيَعْرِفُ عَمَلَ الْآخِرَةِ ، وَيَتَبَيَّنُ لَهُ نَجَاتُهُ ،
وَيَهْتَدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ . قَالَ الْمَلِكُ : يَنْبَغِي لَنَا أَنْ
نَتَّبَاعَدَ مِنْكَ يَا إِيْلَاذُ وَنَأْخُذَ الْحَذَرَ وَنَلْزِمَ الْإِتِّقَاءَ . قَالَ إِيْلَاذُ :
اِثْنَانِ يَنْبَغِي أَنْ يُتَّبَاعَدَ مِنْهُمَا : الَّذِي يَقُولُ لَا بَرَّ وَلَا إِثْمَ وَلَا
عِقَابَ وَلَا ثَوَابَ وَلَا شَيْءَ عَلَى مِمَّا أَنَا فِيهِ ، وَالَّذِي لَا يَكَادُ
يَصْرِفُ بَصَرَهُ عَمَّا لَيْسَ لَهُ بِمَحْرَمٍ ، وَلَا أُذُنُهُ عَنِ اسْتِمَاعِ
السُّوءِ ، وَلَا قَلْبُهُ عَمَّا تَهْمُ بِهِ نَفْسُهُ مِنَ الْإِثْمِ وَالْحَرِصِ .
قَالَ الْمَلِكُ : صَارَتْ يَدِي مِنْ إِيرَاخَتِ صِفْرًا . قَالَ إِيْلَاذُ :
ثَلَاثَةُ أَشْيَاءَ أَصْفَارٌ : النَّهْرُ الَّذِي لَيْسَ فِيهِ مَاءٌ ، وَالْأَرْضُ
الَّتِي لَيْسَ فِيهَا مَلِكٌ ، وَالْمَرْأَةُ الَّتِي لَيْسَ لَهَا بَعْلٌ . قَالَ الْمَلِكُ :
إِنَّكَ يَا إِيْلَاذُ لَتَلْقَى بِالْجَوَابِ ^(١) . قَالَ إِيْلَاذُ : ثَلَاثَةٌ يُلْقُونَ
بِالْجَوَابِ : الْمَلِكُ الَّذِي يُعْطَى وَيَقْسِمُ مِنْ خَزَائِنِهِ ، وَالْمَرْأَةُ
الْمُهْدَاةُ إِلَى مَنْ تَهْوَى مِنْ ذَوِي الْحَسَبِ ، وَالرَّجُلُ الْعَالِمُ
الْمَوْقُوفُ لِلْخَيْرِ .

(١) يُحَاجِّي بِهِ أَوْ تَوْحَى بِهِ وَتَوَى إِلَيْهِ .

ثُمَّ إِنَّ إِيْلَاذَ لَمَّا رَأَى الْمَلِكَ اشْتَدَّ بِهِ الْأَمْرُ، قَالَ : أَيُّهَا
 الْمَلِكُ، إِنَّ إِيْرَاخْتَ بِالْحَيَاةِ . فَلَمَّا سَمِعَ الْمَلِكُ ذَلِكَ اشْتَدَّ
 فَرَحُهُ . وَقَالَ إِيْلَاذُ : إِنَّمَا مَنَعَنِي مِنَ الْغَضَبِ مَا أَعْرِفُ
 مِنْ نَصِيحَتِكَ وَصِدْقِ حَدِيثِكَ . وَكُنْتُ أَرْجُو لِمَعْرِفَتِي بِعِلْمِكَ
 أَلَّا تَكُونَ قَدْ قَتَلْتَ إِيْرَاخْتَ . فَإِنَّهَا وَإِنْ كَانَتْ أَتَتْ عَظِيمًا
 وَأَغْلَظَتْ فِي الْقَوْلِ فَلَمْ تَأْتِهِ عَدَاوَةٌ وَلَا طَلَبَ مَضَرَّةٍ ؛ وَلَكِنَّهَا
 فَعَلَتْ ذَلِكَ لِلْغِيْرَةِ . وَقَدْ كَانَ يَنْبَغِي لِي أَنْ أُعْرِضَ عَنْ ذَلِكَ
 وَأُحْتَمِلَهُ . وَلَكِنَّكَ إِيْلَاذُ أَرَدْتَ أَنْ تُخَبِّرَنِي وَتَتْرُكَنِي فِي شَكٍّ
 مِنْ أَمْرِهَا . وَقَدْ اتَّخَذْتَ عِنْدِي أَفْضَلَ الْأَيْدِي . وَأَنَا لَكَ
 شَاكِرٌ . فَاَنْطَلِقْ فَأَتِنِي بِهَا . فَخَرَجَ مِنْ عِنْدِ الْمَلِكِ فَأَتَى إِيْرَاخْتَ
 وَأَمَرَهَا أَنْ تَتَرَيْنَ فَفَعَلَتْ ذَلِكَ . وَأَنْطَلَقَ بِهَا إِلَى الْمَلِكِ .
 فَلَمَّا دَخَلَتْ سَجَدَتْ لَهُ . ثُمَّ قَامَتْ بَيْنَ يَدَيْهِ . وَقَالَتْ : أَحْمَدُ
 اللَّهُ تَعَالَى ثُمَّ أَحْمَدُ الْمَلِكَ الَّذِي أَحْسَنَ إِلَيَّ : قَدْ أَذْنَبْتُ الذَّنْبَ
 الْعَظِيمَ الَّذِي لَمْ أَكُنْ لِلْبَقَاءِ أَهْلًا بَعْدَهُ ، فَوَسَّعَهُ حِلْمُهُ وَكَرَّمُ طَبْعِهِ
 وَرَأْفَتُهُ ؛ ثُمَّ أَحْمَدُ إِيْلَاذَ الَّذِي أَخَّرَ أَمْرِي ، وَأُنْجَانِي مِنَ الْهَلَكَةِ ،

لِعَلِّهِ بِرَأْفَةِ الْمَلِكِ وَسَعَةِ حِلْيِهِ وَجُودِهِ وَكَرَمِ جَوْهَرِهِ وَوَفَاءِ
عَهْدِهِ . وَقَالَ الْمَلِكُ لِإِيلَازَ : مَا أَعْظَمَ يَدَكَ عِنْدِي وَعِنْدَ
إِيرَاخْتَ وَعِنْدَ الْعَامَّةِ : إِذْ قَدْ أَحْيَيْتَهَا بَعْدَ مَا أُمِرْتَ بِقَتْلِهَا :
فَأَنْتَ الَّذِي وَهَبَهَا لِي الْيَوْمَ : فَإِنِّي لَمْ أَزَلْ وَاثِقًا بِنَصِيحَتِكَ
وَتَدْبِيرِكَ . وَقَدْ أَزْدَدْتَ الْيَوْمَ عِنْدِي كَرَامَةً وَتَعْظِيمًا . وَأَنْتَ
مُحْكَمٌ فِي مُلْكِي تَفْعَلُ فِيهِ بِمَا تَرَى ، وَتَحْكُمُ عَلَيْهِ بِمَا تُرِيدُ .
فَقَدْ جَعَلْتُ ذَلِكَ إِلَيْكَ وَوَثِّقْتُ بِكَ . قَالَ إِيلَازُ : أَدَامَ اللَّهُ
لَكَ أَيُّهَا الْمَلِكُ الْمُلْكُ وَالسُّرُورَ . فَلَسْتُ بِمُحْمُودٍ عَلَى ذَلِكَ .
فَإِنَّمَا أَنَا عَبْدُكَ . لَكِنْ حَاجَتِي أَلَّا يَعْجَلَ الْمَلِكُ فِي الْأَمْرِ
الْجَسِيمِ الَّذِي يَنْدُمُ عَلَى فِعْلِهِ ، وَتَكُونَ عَاقِبَتُهُ الْغَمَّ وَالْحُزْنَ ،
وَلَا سِيَّمَا فِي مِثْلِ هَذِهِ الْمَلِكَةِ النَّاصِحَةِ الْمُشْفِقَةِ الَّتِي لَا يُوجَدُ
فِي الْأَرْضِ مِثْلُهَا : فَقَالَ الْمَلِكُ بِحَقٍّ قُلْتَ يَا إِيلَازُ ، وَقَدْ
قَبِلْتُ قَوْلَكَ ، وَلَسْتُ عَامِلًا بَعْدَهَا عَمَلًا صَغِيرًا وَلَا كَبِيرًا ،
فَضْلًا عَنْ مِثْلِ هَذَا الْأَمْرِ الْعَظِيمِ الَّذِي مَا سَلِمْتُ مِنْهُ ، إِلَّا بَعْدَ
الْمُؤَامَرَةِ وَالنَّظَرِ وَالتَّرَدُّدِ إِلَى ذَوِي الْعُقُولِ وَمُشَاوَرَةِ أَهْلِ الْمُوَدَّةِ

وَالرَّأْيِ . ثُمَّ أَحْسَنَ الْمَلِكُ جَائِزَةَ إِيْلَادَ ، وَمَكَّنَهُ مِنْ أَوْلِيكَ
الْبَرَاهِمَةِ الَّذِينَ أَشَارُوا بِقَتْلِ أَحْبَابِهِ ، فَأَطْلَقَ فِيهِمُ السَّيْفَ ،
وَقَرَّتْ عَيْنُ الْمَلِكِ وَعُيُونُ عُظَمَاءِ أَهْلِ مَمْلَكَتِهِ ، وَحَمَدُوا اللَّهَ
وَأَثْنُوا عَلَى كِبَارِيُونِ بِسَعَةِ عَلَيْهِ وَفَضْلِ حَكْمَتِهِ : لِأَنَّهُ بَعْلَهُ
خَلَصَ الْمَلِكُ وَوَزِيرَهُ الصَّالِحَ وَأَمْرَأَتَهُ الصَّالِحَةَ .

(انقضى باب إيلاد وبلاد و إيراخت)

بَابُ اللَّبُوءَةِ وَالْإِسْوَارِ وَالشَّعْبِرِ ^(١) ^(٢)

قَالَ دَبْشَلِيمُ الْمَلِكُ لِبَيْدَبَا الْفَيْلَسُوفِ : قَدْ سَمِعْتُ هَذَا الْمَثَلَ :
فَأَضْرِبْ لِي مَثَلًا فِي شَأْنٍ مَنْ يَدْعُ ضَرَّ غَيْرِهِ إِذَا قَدَرَ عَلَيْهِ لِمَا
يُصِيبُهُ مِنَ الضَّرِّ ، وَيَكُونُ لَهُ فِيمَا يَنْزِلُ بِهِ وَاعِظٌ وَزَاجِرٌ عَنْ
ارْتِكَابِ الظُّلْمِ وَالْعَدَاوَةِ لِغَيْرِهِ . قَالَ الْفَيْلَسُوفُ : إِنَّهُ لَا يُقَدِّمُ
عَلَى طَلَبِ مَا يَضُرُّ بِالنَّاسِ وَمَا يَسُوءُهُمْ إِلَّا أَهْلُ الْجَهَالَةِ وَالسَّفَهَةِ
وَسُوءِ النَّظَرِ فِي الْعَوَاقِبِ مِنْ أُمُورِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، وَقِلَّةِ الْعِلْمِ

بِمَا يَدْخُلُ عَلَيْهِمْ فِي ذَلِكَ مِنْ حُلُولِ النِّقْمَةِ ؛ وَبِمَا يَلْزَمُهُمْ
 مِنْ تَبِعَةِ مَا اكْتَسَبُوا . مِمَّا لَا تُحِيطُ بِهِ الْعُقُولُ . وَإِنْ سَلِمَ بَعْضُهُمْ
 مِنْ ضَرَرِ بَعْضٍ بِمَنْيَةِ عَرَضَتْ لَهُ قَبْلَ أَنْ يَنْزِلَ بِهِ وَبَالَ
 مَا صَنَعَ : فَإِنَّ مَنْ لَمْ يُفَكِّرْ فِي الْعَوَاقِبِ لَمْ يَأْمَنِ الْمَصَائِبَ ،
 وَحَقِيقُ الْأَيْسَلِ مِنَ الْمَعَاطِبِ . وَرُبَّمَا اتَّعَظَ الْجَاهِلُ وَاعْتَبَرَ
 بِمَا يُصِيبُهُ مِنَ الْمَضَرَّةِ مِنْ غَيْرِهِ ، فَارْتَدَّ عَنْ أَنْ يَغْشَى أَحَدًا
 بِمِثْلِ ذَلِكَ مِنَ الظُّلْمِ وَالْعُدْوَانِ ، وَحَصَلَ لَهُ نَفْعٌ مَا كَفَّ عَنْهُ
 مِنْ ضَرَرِهِ لِغَيْرِهِ فِي الْعَاقِبَةِ ؛ فَتَنْظِيرُ ذَلِكَ حَدِيثُ الْأَبُوَّةِ
 وَالْإِسْوَارِ وَالشَّغْبَرِ . قَالَ الْمَلِكُ : وَكَيْفَ كَانَ ذَلِكَ ؟

قَالَ الْفَيْلَسُوفُ : زَعَمُوا أَنَّ لَبُوءَةَ كَانَتْ فِي غَيْضَةٍ ، وَلَهَا
 شِبْلَانِ ؛ وَأَنَّهَا خَرَجَتْ فِي طَلَبِ الصَّيْدِ وَخَلَفَتْهُمَا فِي كَهْفِهِمَا ؛
 فَمَرَّ بِهِمَا إِسْوَارٌ فَحَمَلَ عَلَيْهِمَا وَرَمَاهُمَا فَقَتَلَهُمَا ، وَسَلَخَ جِلْدَهُمَا
 فَاحْتَقَبَهُمَا ، وَأَنْصَرَفَ بِهِمَا إِلَى مَنْزِلِهِ ، ثُمَّ إِنَّهَا رَجَعَتْ . فَلَمَّا رَأَتْ^(٢)
 مَا حَلَّ بِهِمَا مِنَ الْأَمْرِ الْفَظِيعِ اضْطَرَبَتْ ظَهْرًا لِبَطْنٍ وَصَاحَتْ

وَجَحَّتْ . وَكَانَ إِلَى جَنْبِهَا شَجَرٌ . فَلَمَّا سَمِعَ ذَلِكَ مِنْ صِيَاحِهَا
 قَالَ لَهَا : مَا هَذَا الَّذِي تَصْنَعِينَ ؟ وَمَا نَزَلَ بِكَ ؟ فَأَخْبِرْنِي بِهِ .
 قَالَتِ اللَّبُوءَةُ شِبْلَايَ مَرَّ بِهِمَا إِسْوَارٌ فَقَتَلَهُمَا ، وَسَلَخَ جِلْدَهُمَا
 فَاحْتَقَبَهُمَا ، وَنَبَذَهُمَا بِالْعَرَاءِ ^(١) . قَالَ لَهَا الشَّجَرُ : لَا تَضْجِي
 وَأَنْصِفِي مِنْ نَفْسِكَ ، وَأَعْلِي أَنَّ هَذَا الْإِسْوَارَ لَمْ يَأْتِ إِلَيْكَ
 شَيْئًا إِلَّا وَقَدْ كُنْتَ تَفْعَلِينَ بِغَيْرِكَ مِثْلَهُ ، وَتَأْتِينَ إِلَى غَيْرِ وَاحِدٍ
 مِثْلَ ذَلِكَ ، مِمَّنْ كَانَ يَجِدُ بِجَحِيمِهِ وَمَنْ يَعِزُّ عَلَيْهِ مِثْلَ مَا تَجِدِينَ
 بِشِبْلَيْكَ . فَاصْبِرِي عَلَى فِعْلِ غَيْرِكَ كَمَا صَبَرَ غَيْرُكَ عَلَى فِعْلِكَ :
 فَإِنَّهُ قَدْ قِيلَ : كَمَا تَدِينُ تَدَانُ . وَلِكُلِّ عَمَلٍ ثَمَرَةٌ مِنَ الثَّوَابِ
 وَالْعِقَابِ . وَهُمَا عَلَى قَدَرِهِ فِي الْكَثَرَةِ وَالْقِلَّةِ . كَالزَّرْعِ إِذَا
 حَضَرَ الْحَصَادُ أُعْطِيَ عَلَى حَسَبِ بَذَرِهِ . قَالَتِ اللَّبُوءَةُ : بَيْنَ لِي
 مَا تَقُولُ ، وَأَفْصَحَ لِي عَنْ إِشَارَتِهِ . قَالَ الشَّجَرُ : كَمْ أَتَى لَكَ
 مِنَ الْعُمَرِ ؟ قَالَتِ اللَّبُوءَةُ : مِائَةُ سَنَةٍ . قَالَ الشَّجَرُ : مَا كَانَ
 قُوَّتُكَ ؟ قَالَتِ اللَّبُوءَةُ : لَحْمُ الْوَحْشِ . قَالَ الشَّجَرُ : مَنْ كَانَ

يُطْعِمُكَ إِيَّاهُ ؟ قَالَتِ اللَّبْوَةُ : كُنْتُ أَصِيدُ الْوَحْشَ وَأَكُلُهُ .
 قَالَ الشَّغْبَرُ : أَرَأَيْتِ الْوَحْشَ الَّتِي كُنْتَ تَأْكُلِينَ ، أَمَا كَانَ لَهَا
 آبَاءٌ وَأُمَّهَاتٌ ؟ قَالَتْ : بَلَى . قَالَ الشَّغْبَرُ : فَمَا بَالِي لَا أَرَى
 وَلَا أَسْمَعُ لِنَيْلِكَ الْآبَاءِ وَالْأُمَّهَاتِ مِنَ الْجَزَعِ وَالضَّجِيجِ مَا أَرَى
 وَأَسْمَعُ لَكَ ؟ أَمَا إِنَّهُ لَمْ يَنْزِلْ بِكَ مَا نَزَلَ إِلَّا لِسُوءِ نَظَرِي
 فِي الْعَوَاقِبِ وَقِلَّةِ تَفَكُّرِكَ فِيهَا ، وَجَهَالَتِكَ بِمَا يَرْجِعُ عَلَيْكَ
 مِنْ ضُرِّهَا . فَلَمَّا سَمِعَتِ اللَّبْوَةُ ذَلِكَ مِنْ كَلَامِ الشَّغْبَرِ عَرَفَتْ
 أَنَّ ذَلِكَ بِمَا جَنَّتْ عَلَى نَفْسِهَا ، وَأَنَّ عَمَلَهَا كَانَ جَوْرًا وَظُلْمًا ،
 فَتَرَكَتِ الصَّيْدَ ، وَانْصَرَفَتْ عَنْ أَكْلِ اللَّحْمِ إِلَى الثَّمَارِ وَالنُّسْكِ
 وَانْعِبَادِهِ . فَلَمَّا رَأَى ذَلِكَ وَرَشَانُ^(١) (كَانَ صَاحِبَ تِلْكَ الْغِيْضَةِ
 وَكَانَ عَيْشُهُ مِنَ الثَّمَارِ) قَالَ لَهَا : قَدْ كُنْتُ أَظُنُّ أَنَّ الشَّجَرَ
 عَامِنًا هَذَا لَمْ يَحْمِلْ : لِقِلَّةِ الْمَاءِ ، فَلَمَّا أَبْصَرْتُكَ تَأْكُلِينَهَا ،
 وَأَنْتِ آكِلَةُ اللَّحْمِ ، فَتَرَكْتِ رِزْقَكَ وَطَعَامَكَ وَمَا قَسَمَ اللَّهُ لَكَ ،

(١) طائر شبه الحمامة والأنثى ورشانة وجمعه ورشانة ووراشين .

وَتَحَوَّلَتْ إِلَى رِزْقٍ غَيْرِكَ فَانْتَقَضَتْهُ ، وَدَخَلَتْ عَلَيْهِ فِيهِ —
 عَلِمْتُ أَنَّ الشَّجَرَ الْعَامَّ أَثْمَرَتْ كَمَا كَانَتْ تُثْمِرُ قَبْلَ الْيَوْمِ ؛ وَإِنَّمَا
 أَتَتْ قِلَّةُ الثَّمَرِ مِنْ جِهَتِكَ . فَوَيْلٌ لِلشَّجَرِ وَوَيْلٌ لِلثَّمَارِ وَوَيْلٌ
 لِمَنْ عَيْشُهُ مِنْهَا ! مَا أَسْرَعَ هَلَاكُهُمْ إِذَا دَخَلَ عَلَيْهِمْ فِي أَرْزَاقِهِمْ ،
 وَغَلِبَهُمْ عَلَيْهَا مَنْ لَيْسَ لَهُ فِيهَا حِطٌّ وَلَمْ يَكُنْ مُعْتَادًا لِأَكْلِهَا !
 فَلَمَّا سَمِعَتْ اللَّبْوَةُ ذَلِكَ مِنْ كَلَامِ الْوَرِثَانِ تَرَكَتْ أَكْلَ الثَّمَارِ
 وَأَقْبَلَتْ عَلَى أَكْلِ الْحَشِيشِ وَالْعِبَادَةِ . وَإِنَّمَا ضَرَبْتُ لَكَ
 هَذَا الْمَثَلَ لِتَعْلَمَ أَنَّ الْجَاهِلَ رُبَّمَا أَنْصَرَفَ بِضُرِّ يُصِيبُهُ عَنْ ضُرِّ
 النَّاسِ ، كَاللَّبْوَةِ الَّتِي أَنْصَرَفَتْ لِمَا لَقِيتْ فِي شِبَالِهَا عَنْ أَكْلِ
 اللَّحْمِ ثُمَّ عَنْ أَكْلِ الثَّمَارِ بِقَوْلِ الْوَرِثَانِ ، وَأَقْبَلَتْ عَلَى النَّسْكِ
 وَالْعِبَادَةِ . وَالنَّاسُ أَحَقُّ بِحُسْنِ النَّظَرِ فِي ذَلِكَ : فَإِنَّهُ قَدْ قِيلَ
 مَا لَا تَرْضَاهُ لِنَفْسِكَ لَا تَصْنَعُهُ لْغَيْرِكَ : فَإِنَّ فِي ذَلِكَ الْعَدَلَ :
 وَفِي الْعَدْلِ رِضَا اللَّهِ تَعَالَى وَرِضَا النَّاسِ .

بَابُ النَّاسِكِ وَالضَّيْفِ

قَالَ دَبْشَلِيمُ الْمَلِكُ لِبَيْدَبَا الْفَيْلَسُوفِ : قَدْ سَمَعْتُ هَذَا
الْمَثَلَ . فَاضْرِبْ لِي مَثَلَ الَّذِي يَدْعُ صُنْعَهُ الَّذِي يَلِيْقُ بِهِ
وَيُشَاكِلُهُ ، وَيَطْلُبُ غَيْرَهُ فَلَا يَدْرِكُهُ : فَيَبْقَى حَيْرَانَ مُتَرَدِّدًا .
قَالَ الْفَيْلَسُوفُ : زَعَمُوا أَنَّهُ كَانَ بِأَرْضِ الْكَرْخِ نَاسِكٌ عَابِدٌ
مُجْتَهِدٌ . فَنَزَلَ بِهِ ضَيْفٌ ذَاتَ يَوْمٍ ، فَدَعَا النَّاسِكُ لِضَيْفِهِ بِتَمْرٍ :
لِيُطْرِفَهُ بِهِ . فَأَكَلَا مِنْهُ جَمِيعًا . ثُمَّ قَالَ الضَّيْفُ : مَا أَخْلَى
هَذَا التَّمْرَ وَأَطْيَبَهُ ! فَلَيْسَ هُوَ فِي بِلَادِي الَّتِي أَسْكُنُهَا ،
وَلَيْتَهُ كَانَ فِيهَا ! ثُمَّ قَالَ : أَرَى أَنَّ تُسَاعِدَنِي عَلَى أَنْ آخُذَ
مِنْهُ مَا أَغْرِسُهُ فِي أَرْضِنَا : فَإِنِّي لَسْتُ عَارِفًا بِثَمَارِ أَرْضِكُمْ هَذِهِ
وَلَا بِمَوَاضِعِهَا . فَقَالَ لَهُ النَّاسِكُ : لَيْسَ لَكَ فِي ذَلِكَ رَاحَةٌ :
فَإِنَّ ذَلِكَ يَثْقُلُ عَلَيْكَ . وَلَعَلَّ ذَلِكَ لَا يُوَافِقُ أَرْضَكُمْ ، مَعَ أَنَّ
بِلَادَكُمْ كَثِيرَةُ الْأَثْمَارِ فَحَاجَتُهَا مَعَ كَثْرَةِ ثَمَارِهَا إِلَى التَّمْرِ
مَعَ وَخَامَتِهِ وَقِلَّةِ مُوَافَقَتِهِ لِلْجَسَدِ ؟ ثُمَّ قَالَ لَهُ النَّاسِكُ : إِنَّهُ لَا يُعَدُّ
حَكِيمًا مَنْ طَلَبَ مَا لَا يَجِدُ . وَإِنَّكَ سَعِيدُ الْجَدِّ إِذَا قَنَعْتَ
بِالَّذِي تَجِدُ ، وَزَهَدْتَ فِيمَا لَا تَجِدُ . وَكَانَ هَذَا النَّاسِكُ يَتَكَلَّمُ

بِالْعِبْرَانِيَّةِ . فَاسْتَحْسَنَ الضَّيْفُ كَلَامَهُ وَأَعْجَبَهُ ، فَتَكَلَّفَ أَنْ
يَتَعَلَّمَهُ ، وَعَالَجَ فِي ذَلِكَ نَفْسَهُ أَيَّامًا . فَقَالَ النَّاسِكُ لَضَيْفِهِ :
مَا أَخْلَقَكَ أَنْ تَقَعَ مِمَّا تَرَكْتَ مِنْ كَلَامِكَ ، وَتَكَلَّفْتَ مِنْ كَلَامِ
الْعِبْرَانِيَّةِ ، فِي مِثْلِ مَا وَقَعَ فِيهِ الْغُرَابُ ! قَالَ الضَّيْفُ :
وَكَيْفَ كَانَ ذَلِكَ ؟

قَالَ النَّاسِكُ : زَعُمُوا أَنَّ غُرَابًا رَأَى جَمَلَةً تَدْرُجُ وَتَمْشِي ،
فَأَعْجَبَتْهُ مِشْيَتُهَا ، وَطَمَعَ أَنْ يَتَعَلَّمَهَا . فَرَاضَ عَلَى ذَلِكَ
نَفْسَهُ ، فَلَمْ يَقْدِرْ عَلَى إِحْكَامِهَا ، وَأَيْسَ مِنْهَا . وَارَادَ أَنْ يَعُودَ
إِلَى مِشْيَتِهِ الَّتِي كَانَ عَلَيْهَا : فَإِذَا هُوَ قَدْ اخْتَلَطَ وَتَحَلَّعَ فِي مِشْيَتِهِ ،
وَصَارَ أَقْبَحَ الطَّيْرِ مَشْيًا ، وَإِنَّمَا ضَرَبْتُ لَكَ هَذَا الْمَثَلَ لِمَا
رَأَيْتُ مِنْ أَنَّكَ تَرَكْتَ لِسَانَكَ الَّذِي طُبِعَتْ عَلَيْهِ ، وَأَقْبَلْتَ عَلَى
لِسَانِ الْعِبْرَانِيَّةِ ، وَهُوَ لَا يُسَاكِلُكَ ، وَأَخَافُ أَلَّا تُدْرِكَهُ ،
وَتَنْسَى لِسَانَكَ ، وَتَرْجِعَ إِلَى أَهْلِكَ وَأَنْتَ شَرُّهُمْ لِسَانًا : فَإِنَّهُ
قَدْ قِيلَ : إِنَّهُ يُعَدُّ جَاهِلًا مَنْ تَكَلَّفَ مِنَ الْأُمُورِ مَا لَا يُسَاكِلُهُ ،
وَلَيْسَ مِنْ عَمَلِهِ وَلَمْ يُودِبْهُ عَلَيْهِ آبَاؤُهُ وَأَجْدَادُهُ مِنْ قَبْلُ .

(انقضى باب الناسك والضيف)

بَابُ السَّائِحِ وَالصَّائِعِ

قَالَ دَبْسَلِيمُ الْمَلِكُ لِيَسْدَبَا الْفَيْلَسُوفُ : قَدْ سَمِعْتُ هَذَا
الْمَثَلَ . فَاضْرِبْ لِي مَثَلًا فِي شَأْنِ الَّذِي يَضَعُ الْمَعْرُوفَ فِي غَيْرِ
مَوْضِعِهِ ، وَيَرْجُو الشُّكْرَ عَلَيْهِ . قَالَ الْفَيْلَسُوفُ : أَيُّهَا الْمَلِكُ
إِنَّ طَبَائِعَ الْخَلْقِ مُخْتَلِفَةٌ . وَلَيْسَ مِمَّا خَلَقَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا
مِمَّا يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ أَوْ عَلَى رَجُلَيْنِ أَوْ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْنِ شَيْءٌ
هُوَ أَفْضَلُ مِنَ الْإِنْسَانِ ؛ وَلَكِنْ مِنَ النَّاسِ الْبَرُّ وَالْفَاجِرُ .
وَقَدْ يَكُونُ فِي بَعْضِ الْبَهَائِمِ وَالسَّبَاعِ وَالطَّيْرِ مَا هُوَ أَوْفَى مِنْهُ ذِمَّةً ،
وَأَشَدَّ مُحَامَاةً عَلَى حُرْمِهِ ، وَأَشْكُرُ لِلْمَعْرُوفِ ، وَأَقُومُ بِهِ . وَحِينَئِذٍ
يَجِبُ عَلَى ذَوِي الْعَقْلِ مِنَ الْمُلُوكِ وَغَيْرِهِمْ أَنْ يَضَعُوا مَعْرُوفَهُمْ
مَوَاضِعَهُ ؛ وَلَا يَضَعُوهُ عِنْدَ مَنْ لَا يَحْتَمِلُهُ . وَلَا يَقُومُ بِشُكْرِهِ ؛
وَلَا يَضْطَنِعُوا أَحَدًا إِلَّا بَعْدَ الْخَبَرَةِ بِطَرَائِقِهِ ، وَالْمَعْرِفَةِ بِوَفَائِهِ
وَمُودَتِهِ وَشُكْرِهِ . وَلَا يَنْبَغِي أَنْ يُحْتَصَّوْا بِذَلِكَ قَرِيبًا لِقَرَابَتِهِ ،
إِذَا كَانَ غَيْرَ مُحْتَمِلٍ لِلصَّنِيعَةِ ، وَلَا أَنْ يَمْنَعُوا مَعْرُوفَهُمْ وَرَفَدَهُمْ
لِلْبَعِيدِ ، إِذَا كَانَ يَقِيهِمْ بِنَفْسِهِ وَمَا يَقْدَرُ عَلَيْهِ : لِأَنَّهُ يَكُونُ

حِينَئِذٍ عَارِفًا بِحَقِّ مَا اضْطُرَّعَ إِلَيْهِ مُودِّيًّا لِشُكْرِ مَا أَنْعَمَ عَلَيْهِ ،
مَحْمُودًا بِالنُّصْحِ ، مَعْرُوفًا بِالْخَيْرِ ، صَدُوقًا عَارِفًا ، مُؤَثِّرًا
لِحَمِيدِ الْفِعَالِ وَالْقَوْلِ . وَكَذَلِكَ كُلُّ مَنْ عُرِفَ بِالْخِصَالِ
الْمَحْمُودَةِ وَوُثِقَ مِنْهُ بِهَا ، كَانَ لِلْمَعْرُوفِ مَوْضِعًا ، وَلِتَقْرِيبِهِ
وَاضْطِنَاعِهِ أَهْلًا : فَإِنَّ الطَّيِّبَ الرَّفِيقَ الْعَاقِلَ لَا يَقْدِرُ
عَلَى مُدَاوَاةِ الْمَرِيضِ إِلَّا بَعْدَ النَّظَرِ إِلَيْهِ وَالْجَسِّ لِعُرُوقِهِ وَمَعْرِفَةِ
طَبِيعَتِهِ وَسَبَبِ عِلَّتِهِ ، فَإِذَا عَرَفَ ذَلِكَ كُلَّهُ حَقَّ مَعْرِفَتِهِ أَقْدَمَ
عَلَى مُدَاوَاتِهِ . فَكَذَلِكَ الْعَاقِلُ : لَا يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَضْطَظِي
أَحَدًا ، وَلَا يَسْتَخْلَصَهُ إِلَّا بَعْدَ الْخَبَرَةِ : فَإِنَّ مَنْ أَقْدَمَ عَلَى
مَشْهُورِ الْعَدَالَةِ مِنْ غَيْرِ اخْتِبَارٍ كَانَ مُحْاطَرًا فِي ذَلِكَ وَمُشْرِفًا
مِنْهُ عَلَى هَلَاكِ وَفْسَادٍ . وَمَعَ ذَلِكَ رُبَّمَا صَنَعَ الْإِنْسَانُ الْمَعْرُوفَ
مَعَ الضَّعِيفِ الَّذِي لَمْ يُجَرِّبْ شُكْرَهُ ، وَلَمْ يَعْرِفْ حَالَهُ
فِي طَبَائِعِهِ فَيَقُومُ بِشُكْرِ ذَلِكَ وَيُكَفِّيْ عَلَيْهِ أَحْسَنَ الْمُكَافَأَةِ .
وَرُبَّمَا حَذَرَ الْعَاقِلُ النَّاسَ وَلَمْ يَأْمَنْ عَلَى نَفْسِهِ أَحَدًا مِنْهُمْ .

وَقَدْ يَأْخُذُ ابْنَ عَرِسٍ فَيُدْخِلُهُ فِي كُمِهِ وَيُخْرِجُهُ مِنَ الْآخِرِ ، كَالَّذِي
يَحْمِلُ الطَّائِرَ عَلَى يَدَيْهِ ، فَإِذَا صَادَ شَيْئًا انْتَفَعَ بِهِ ، وَمَطْعَمُهُ مِنْهُ .
وَقَدْ قِيلَ : لَا يَنْبَغِي لِذِي الْعَقْلِ أَنْ يَحْتَقِرَ صَغِيرًا وَلَا كَبِيرًا
مِنَ النَّاسِ وَلَا مِنَ الْبَهَائِمِ ، وَلَكِنَّهُ جَدِيرٌ بِأَنْ يَبْلُوَهُمْ ، وَيَكُونَ
مَا يَضْنَعُ إِلَيْهِمْ عَلَى قَدَرٍ مَا يَرَى مِنْهُمْ . وَقَدْ مَضَى فِي ذَلِكَ
مَثَلٌ ضَرَبَهُ بَعْضُ الْحُكَمَاءِ . قَالَ الْمَلِكُ : وَكَيْفَ كَانَ ذَلِكَ ؟
قَالَ الْفَيْلَسُوفُ : زَعَمُوا أَنَّ جَمَاعَةً احْتَفَرُوا رَكِيَّةً ^(١) فَوَقَعَ
فِيهَا رَجُلٌ صَائِغٌ وَحِيَّةٌ وَقِرْدٌ وَبَبْرٌ ، وَمَرَّ بِهِمْ رَجُلٌ سَائِغٌ ،
فَاشْرَفَ عَلَى الرَّكِيَّةِ ، فَبَصَرَ بِالرَّجُلِ وَالْحِيَّةِ وَالْبَبْرِ وَالْقِرْدِ .
فَفَكَّرَ فِي نَفْسِهِ ، وَقَالَ : لَسْتُ أَعْمَلُ لِآخِرَتِي عَمَلًا أَفْضَلَ مِنْ
أَنْ أُخْلَصَ هَذَا الرَّجُلُ مِنْ بَيْنِ هَؤُلَاءِ الْأَعْدَاءِ . فَأَخَذَ حَبَلًا ،
وَأَدْلَاهُ إِلَى الْبَبْرِ فَتَعَلَّقَ بِهِ الْقِرْدُ لِحَفَّتِهِ فَخَرَجَ . ثُمَّ دَلَّاهُ ثَانِيَةً ،
فَالْتَفَتَ بِهِ الْحِيَّةُ فَخَرَجَتْ . ثُمَّ دَلَّاهُ الثَّالِثَةَ ، فَتَعَلَّقَ بِهِ الْبَبْرُ
فَأَخْرَجَهُ . فَشَكَرْنَ لَهُ صَنِيعَهُ . وَقُلْنَا لَهُ : لَا تُخْرِجْ هَذَا الرَّجُلَ

مِنَ الرِّكَبَةِ : فَإِنَّهُ لَيْسَ شَيْءٌ أَقَلَّ شُكْرًا مِنَ الْإِنْسَانِ .
 ثُمَّ هَذَا الرَّجُلُ خَاصَّةٌ . ثُمَّ قَالَ لَهُ الْقِرْدُ : إِنَّ مَنْزِلِي فِي جَبَلٍ
 قَرِيبٍ مِنْ مَدِينَةٍ يُقَالُ لَهَا : نَوَادِرْخَتْ . فَقَالَ لَهُ الْبَبْرُ :
 أَنَا أَيْضًا فِي أَجْمَةٍ إِلَى جَانِبِ تِلْكَ الْمَدِينَةِ . قَالَتِ الْحَيَّةُ :
 أَنَا أَيْضًا فِي سُورِ تِلْكَ الْمَدِينَةِ . فَإِنْ أَنْتَ مَرَرْتَ بِنَا يَوْمًا
 مِنَ الدَّهْرِ ، وَاحْتَجَجْتَ إِلَيْنَا فَصَوِّتْ عَلَيْنَا حَتَّى نَأْتِيكَ فَنَجْزِيكَ
 بِمَا أَسَدَيْتَ إِلَيْنَا مِنَ الْمَعْرُوفِ . فَلَمْ يَلْتَفِتِ السَّائِحُ
 إِلَى مَا ذَكَرُوا لَهُ مِنْ قِلَّةِ شُكْرِ الْإِنْسَانِ ، وَأَدْلَى الْحَبَلِ ،
 فَأَخْرَجَ الصَّائِغَ ، فَسَجَدَ لَهُ ، وَقَالَ لَهُ : لَقَدْ أَوْلَيْتَنِي
 مَعْرُوفًا . فَإِنْ أَتَيْتَ يَوْمًا مِنَ الدَّهْرِ بِمَدِينَةِ نَوَادِرْخَتْ فَاسْأَلْ
 عَنْ مَنْزِلِي : فَأَنَا رَجُلٌ صَائِغٌ لَعَلِّي أَكْفَيْتُكَ بِمَا صَنَعْتَ
 إِلَيَّ مِنَ الْمَعْرُوفِ . فَاَنْطَلَقَ الصَّائِغُ إِلَى مَدِينَتِهِ وَانْطَلَقَ السَّائِحُ
 إِلَى جَانِبِهِ . فَعَرَّضَ بَعْدَ ذَلِكَ أَنَّ السَّائِحَ اتَّفَقَتْ لَهُ حَاجَةٌ إِلَى
 تِلْكَ الْمَدِينَةِ ، فَاَنْطَلَقَ ، فَاسْتَقْبَلَهُ الْقِرْدُ ، فَسَجَدَ لَهُ وَقَبَّلَ
 رِجْلَيْهِ . وَاعْتَذَرَ إِلَيْهِ ، وَقَالَ : إِنَّ الْقُرُودَ لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا ،
 وَلَكِنْ أَقْعُدُ حَتَّى آتِيكَ . وَانْطَلَقَ الْقِرْدُ ، وَاتَّاهُ بِفَاكِهَةٍ

طَيِّبَةً ، فَوَضَعَهَا بَيْنَ يَدَيْهِ ، فَأَكَلَ مِنْهَا حَاجَتَهُ . ثُمَّ إِنَّ السَّائِحَ
 أَنْطَلَقَ حَتَّى دَنَا مِنْ بَابِ الْمَدِينَةِ فَاسْتَقْبَلَهُ الْبَيْرُ ، نَحَرَ لَهُ
 سَاجِدًا وَقَالَ لَهُ : إِنَّكَ قَدْ أَوْلَيْتَنِي مَعْرُوفًا . فَاطْمَنَ
 سَاعَةً حَتَّى آتَيْكَ . فَانْطَلَقَ الْبَيْرُ فَدَخَلَ فِي بَعْضِ الْحِيطَانِ^(١)
 إِلَى بِنْتِ الْمَلِكِ فَقَتَلَهَا ، وَأَخَذَ حَلِيهَا ، فَأَتَاهُ بِهَا ، مِنْ غَيْرِ
 أَنْ يَعْلَمَ السَّائِحُ مَنْ أَيْنَ هُوَ . فَقَالَ فِي نَفْسِهِ : هَذِهِ الْبَهَائِمُ
 قَدْ أَوْلَتْنِي هَذَا الْجَزَاءَ ، فَكَيْفَ لَوْ قَدْ أَتَيْتُ إِلَى الصَّائِغِ
 فَإِنَّهُ إِنْ كَانَ مُعْسِرًا لَا يَمْلِكُ شَيْئًا فَسَيَبِيعُ هَذَا الْحَلِيَّ فَيَسْتَوْفِي
 ثَمَنَهُ . فَيُعْطِينِي بَعْضَهُ ، وَيَأْخُذُ بَعْضَهُ ، وَهُوَ أَعْرِفُ بِثَمَنِهِ .
 فَانْطَلَقَ السَّائِحُ ، فَأَتَى إِلَى الصَّائِغِ . فَلَمَّا رَأَاهُ رَحَّبَ بِهِ وَأَدْخَلَهُ
 إِلَى بَيْتِهِ . فَلَمَّا بَصُرَ بِالْحَلِيِّ مَعَهُ ، عَرَفَهُ وَكَانَ هُوَ الَّذِي
 صَاغَهُ لِابْنَةِ الْمَلِكِ . فَقَالَ لِلْسَّائِحِ : اطْمَئِنَّ حَتَّى آتَيْكَ
 بِطَعَامٍ فَلَسْتُ أَرْضَى لَكَ مَا فِي الْبَيْتِ . ثُمَّ خَرَجَ وَهُوَ يَقُولُ :
 قَدْ أَصَبْتُ فُرْصَتِي : أُرِيدُ أَنْ أَنْطَلِقَ إِلَى الْمَلِكِ وَأَدْلُهُ عَلَى ذَلِكَ ،
 فَتَحْسُنَ مَنَزِلَتِي عِنْدَهُ . فَانْطَلَقَ إِلَى بَابِ الْمَلِكِ ، فَأَرْسَلَ

إِلَيْهِ : إِنَّ الَّذِي قَتَلَ ابْنَتَكَ وَأَخَذَ حَلِيهَا عِنْدِي .
فَأَرْسَلَ الْمَلِكُ وَأَتَى بِالسَّائِحِ فَلَمَّا نَظَرَ الْحَيَّ مَعَهُ لَمْ يُمِهِلْهُ ،
وَأَمَرَ بِهِ أَنْ يُعَذَّبَ وَيُطَافَ بِهِ فِي الْمَدِينَةِ ، وَيُضَلَبَ .
فَلَمَّا فَعَلُوا بِهِ ذَلِكَ جَعَلَ السَّائِحُ يَبْكِي وَيَقُولُ بِأَعْلَى صَوْتِهِ :
لَوْ أَنِّي أَطَعْتُ الْقِرَدَ وَالْحَيَّةَ وَالْبَبْرَ فِيمَا أَمَرَنِي بِهِ وَأَخْبَرَنِي
مِنْ قِلَّةِ شُكْرِ الْإِنْسَانِ لَمْ يَصِرْ أَمْرِي إِلَى هَذَا الْبَلَاءِ ، وَجَعَلَ
يُكْرِرُ هَذَا الْقَوْلَ . فَسَمِعَتْ مَقَالَتَهُ تِلْكَ الْحَيَّةُ فَخَرَجَتْ مِنْ
جُحْرِهَا فَعَرَفَتْهُ ، فَاشْتَدَّ عَلَيْهَا أَمْرُهُ ، فَجَعَلَتْ تَحْتَالُ فِي خَلَاصِهِ .
فَانْطَلَقَتْ حَتَّى لَدَغَتْ ابْنَ الْمَلِكِ ، فَدَعَا الْمَلِكُ أَهْلَ الْعِلْمِ
فَرَقَوْهُ لِيَشْفُوهُ فَلَمْ يَغْنُوا عَنْهُ شَيْئًا . ثُمَّ مَضَتْ الْحَيَّةُ إِلَى أُخْتِ
لَهَا مِنَ الْجَنِّ ، فَأَخْبَرَتْهَا بِمَا صَنَعَ السَّائِحُ إِلَيْهَا مِنَ الْمَعْرُوفِ ،
وَمَا وَقَعَ فِيهِ . فَرَقَّتْ لَهُ ، وَانْطَلَقَتْ إِلَى ابْنِ الْمَلِكِ ، وَتَحَايَلَتْ لَهُ .
وَقَالَتْ لَهُ : إِزْكْ لَا تَبْرَأُ حَتَّى يَرْقِيكَ هَذَا الرَّجُلُ الَّذِي قَدْ
عَاقَبْتُمُوهُ ظُلْمًا . وَانْطَلَقَتِ الْحَيَّةُ إِلَى السَّائِحِ فَدَخَلَتْ عَلَيْهِ
السَّجْنَ ، وَقَالَتْ لَهُ : هَذَا الَّذِي كُنْتُ نَهَيْتُكَ عَنْهُ مِنْ اصْطِنَاعِ
الْمَعْرُوفِ إِلَى هَذَا الْإِنْسَانِ : وَلَمْ تُطْعِنِي . وَأَتَتْهُ بِوَرَقٍ يَنْفَعُ

مِنْ سُمِّهَا . وَقَالَتْ لَهُ : إِذَا جَاءُوا بِكَ لِتَرْقِيَ ابْنَ الْمَلِكِ فَاسْقِهِ
 مِنْ مَاءِ هَذَا الْوَرَقِ : فَإِنَّهُ يَبْرَأُ . وَإِذَا سَأَلَكَ الْمَلِكُ عَنْ حَالِكَ
 فَاصْدُقْهُ : فَإِنَّكَ تَنْجُو إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى . وَإِنَّ ابْنَ الْمَلِكِ
 أَخْبَرَ الْمَلِكَ أَنَّهُ سَمِعَ قَائِلًا يَقُولُ : إِنَّكَ لَنْ تَبْرَأَ حَتَّى يَرْقِيَكَ
 هَذَا السَّائِحُ الَّذِي حُبِسَ ظُلْمًا . فَدَعَا الْمَلِكُ بِالسَّائِحِ ، وَأَمَرَهُ
 أَنْ يَرْقِيَ وَلَدَهُ . فَقَالَ : لَا أَحْسِنُ الرَّقَى ، وَلَكِنْ أَسْقِيهِ مِنْ مَاءِ
 هَذِهِ الشَّجَرَةِ فَيَبْرَأُ بِإِذْنِ اللَّهِ تَعَالَى . فَسَقَاهُ فَبَرَأَ الْغُلَامُ .
 فَفَرِحَ الْمَلِكُ بِذَلِكَ : وَسَأَلَهُ عَنْ قِصَّتِهِ ، فَأَخْبَرَهُ . فَشَكَرَهُ
 الْمَلِكُ ، وَأَعْطَاهُ عَطِيَّةً حَسَنَةً ، وَأَمَرَ بِالصَّائِغِ أَنْ يُصَلَّبَ .
 فَصَلَبُوهُ لِكُذِّبِهِ وَانْحِرَافِهِ عَنِ الشُّكْرِ وَمَجَازَاتِهِ الْفِعْلَ الْجَمِيلَ
 بِالْقَبِيحِ . ثُمَّ قَالَ الْفَيْلَسُوفُ لِلْمَلِكِ : فِي صَنِيعِ الصَّائِغِ
 بِالسَّائِحِ ، وَكُفْرِهِ لَهُ بَعْدَ اسْتِنْقَازِهِ إِيَّاهُ ، وَشُكْرِ الْبَهَائِمِ لَهُ ،
 وَتَخْلِيصِ بَعْضِهَا إِيَّاهُ ، عِبْرَةٌ لِمَنْ اعْتَبَرَ ، وَفِكْرَةٌ لِمَنْ تَفَكَّرَ ،
 وَادَبٌ فِي وَضْعِ الْمَعْرُوفِ وَالْإِحْسَانِ عِنْدَ أَهْلِ الْوَفَاءِ وَالْكَرَمِ ،
 قَرُبُوا أَوْ بَعُدُوا لِمَا فِي ذَلِكَ مِنْ صَوَابِ الرَّأْيِ وَجَلْبِ الْخَيْرِ
 وَصَرَفِ الْمَكْرُوهِ .

بَابُ ابْنِ الْمَلِكِ وَأَصْحَابِهِ

قَالَ دَبْشَلِيمُ الْمَلِكُ لِبَيْدَبَا الْفَيْلَسُوفِ : قَدْ سَمِعْتُ هَذَا
الْمَثَلَ . فَإِنْ كَانَ الرَّجُلُ لَا يُصِيبُ الْخَيْرَ إِلَّا بِعَقْلِهِ وَرَأْيِهِ
وَتَبَيَّنَتْ فِي الْأُمُورِ كَمَا يَزْعُمُونَ ، فَمَا بَالُ الرَّجُلِ الْجَاهِلِ يُصِيبُ
الرَّفْعَةَ وَالْخَيْرَ ، وَالرَّجُلِ الْحَكِيمِ الْعَاقِلِ قَدْ يُصِيبُ الْبَلَاءَ
وَالضَّرَّ ؟ . قَالَ بَيْدَبَا : كَمَا أَنَّ الْإِنْسَانَ لَا يُبْصِرُ إِلَّا بِعَيْنَيْهِ
وَلَا يَسْمَعُ إِلَّا بِأُذُنَيْهِ ، كَذَلِكَ الْعَمَلُ ، إِنَّمَا هُوَ بِالْحِلْمِ
وَالْعَقْلِ وَالتَّثَبُّتِ ، غَيْرَ أَنَّ الْقَضَاءَ وَالْقَدَرَ يَغْلِبَانِ عَلَى ذَلِكَ .
وَمِثْلُ ذَلِكَ مِثْلُ ابْنِ الْمَلِكِ وَأَصْحَابِهِ . قَالَ الْمَلِكُ : وَكَيْفَ
كَانَ ذَلِكَ ؟

قَالَ الْفَيْلَسُوفُ : زَعَمُوا أَنَّ أَرْبَعَةَ نَفَرٍ اضْطَحَبُوا فِي طَرِيقٍ
وَاحِدَةٍ ، أَحَدُهُمْ ابْنُ مَلِكٍ وَالثَّانِي ابْنُ تَاجِرٍ وَالثَّلَاثُ ابْنُ
شَرِيفٍ ذُو جَمَالٍ وَالرَّابِعُ ابْنُ أَكْكَارٍ^(١) . وَكَانُوا جَمِيعًا مُحْتَاجِينَ ،

(١) الْأَكْكَارُ : الْحِرَاتُ وَجَمْعُ أَكْرَةٍ كَأَنَّهُ جَمْعُ أَكْرٍ .

وَقَدْ أَصَابَهُمْ ضَرَرٌ وَجَهْدٌ شَدِيدٌ فِي مَوْضِعٍ غُرْبَةٍ لَا يَمْلِكُونَ إِلَّا مَا عَلَيْهِمْ مِنَ الثِّيَابِ . فَبَيْنَمَا هُمْ يَمْشُونَ إِذْ فَكَّرُوا فِي أَمْرِهِمْ وَكَانَ كُلُّ إِنْسَانٍ مِنْهُمْ رَاجِعًا إِلَى طَبَاعِهِ وَمَا كَانَ يَأْتِيهِ مِنْهُ الْخَيْرُ : قَالَ ابْنُ الْمَلِكِ : إِنَّ أَمْرَ الدُّنْيَا كُلَّهُ بِالْقَضَاءِ وَالْقَدَرِ ، وَالَّذِي قُدِّرَ عَلَى الْإِنْسَانِ يَأْتِيهِ عَلَى كُلِّ حَالٍ ، وَالصَّبْرُ لِلْقَضَاءِ وَالْقَدَرِ وَانْتِظَارُهُمَا أَفْضَلُ الْأُمُورِ . وَقَالَ ابْنُ النَّاجِرِ : الْعَقْلُ أَفْضَلُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ . وَقَالَ ابْنُ الشَّرِيفِ : الْجَمَالُ أَفْضَلُ مِمَّا ذَكَرْتُمْ . ثُمَّ قَالَ ابْنُ الْأَكَّارِ : لَيْسَ فِي الدُّنْيَا أَفْضَلُ مِنَ الْاجْتِهَادِ فِي الْعَمَلِ . فَلَمَّا قَرُبُوا مِنْ مَدِينَةٍ يُقَالُ لَهَا مَطْرُونٌ ، جَلَسُوا فِي نَاحِيَةٍ مِنْهَا يَتَشَاوَرُونَ : فَقَالُوا لِابْنِ الْأَكَّارِ : انْطَلِقْ فَارْتَسِبْ لَنَا بِاجْتِهَادِكَ طَعَامًا لِيَوْمِنَا هَذَا . فَانْطَلَقَ ابْنُ الْأَكَّارِ ، وَسَأَلَ عَنْ عَمَلٍ إِذَا عَمِلَهُ الْإِنْسَانُ يَكْتَسِبُ فِيهِ طَعَامَ أَرْبَعَةِ نَفَرٍ فَعَرَفُوهُ أَنَّهُ لَيْسَ فِي تِلْكَ الْمَدِينَةِ شَيْءٌ أَغْنَى مِنَ الْحَطَبِ ، وَكَانَ الْحَطَبُ مِنْهَا عَلَى فَرْسَخٍ . فَانْطَلَقَ ابْنُ الْأَكَّارِ فَاحْتَطَبَ ^(١) طُنًا مِنَ الْحَطَبِ ، وَاتَّى بِهِ الْمَدِينَةَ

فَبَاعَهُ بِدِرْهَمٍ وَاشْتَرَى بِهِ طَعَامًا وَكَتَبَ عَلَى بَابِ الْمَدِينَةِ :
 عَمَلُ يَوْمٍ وَاحِدٍ إِذَا أَجْهَدَ فِيهِ الرَّجُلُ بَدَنَهُ قِيمَتُهُ دِرْهَمٌ .
 ثُمَّ انْطَلَقَ إِلَى أَصْحَابِهِ بِالطَّعَامِ فَأَكَلُوا . فَلَمَّا كَانَ مِنَ الْغَدِ :
 قَالُوا يَنْبَغِي لِلَّذِي قَالَ إِنَّهُ لَيْسَ شَيْءٌ أَغْرَ مِنْ الْجَمَالِ
 أَنْ تَكُونَ نَوْبَتُهُ . فَانْطَلَقَ ابْنُ الشَّرِيفِ لِيَأْتِيَ الْمَدِينَةَ ،
 فَفَكَّرَ فِي نَفْسِهِ وَقَالَ : أَنَا لَسْتُ أَحْسِنُ عَمَلًا قَدَا يُدْخِلُنِي
 الْمَدِينَةَ ؟ ثُمَّ اسْتَحْيَا أَنْ يَرْجِعَ إِلَى أَصْحَابِهِ بِغَيْرِ طَعَامٍ ، وَهُمْ
 بِمُفَارَقَتِهِمْ . فَانْطَلَقَ حَتَّى أَسْنَدَ ظَهْرَهُ إِلَى شَجَرَةٍ عَظِيمَةٍ ،
 فَغَلِبَهُ النَّوْمُ فَنَامَ . فَمَرَّ بِهِ رَجُلٌ مِنْ عُظَمَاءِ الْمَدِينَةِ فَرَأَاهُ
 جَمَالَهُ وَتَوَسَّمَ فِيهِ شَرَفَ النَّجَارِ ^(١) فَرَقَّ لَهُ وَمَنَحَهُ خَمْسِمِائَةَ دِرْهَمٍ .
 فَكَتَبَ عَلَى بَابِ الْمَدِينَةِ : جَمَالُ يَوْمٍ وَاحِدٍ يُسَاوِي
 خَمْسِمِائَةَ دِرْهَمٍ . وَاتَّى بِالْدَّرَاهِمِ إِلَى أَصْحَابِهِ . فَلَمَّا أَصْبَحُوا
 فِي الْيَوْمِ الثَّالِثِ ، قَالُوا لِابْنِ التَّاجِرِ : انْطَلِقِ أَنْتِ فَاطْلُبِ
 لَنَا بِعَقْلِكَ وَتِجَارَتِكَ لِيَوْمِنَا هَذَا شَيْئًا . فَانْطَلَقَ ابْنُ التَّاجِرِ

فَلَمْ يَزَلْ حَتَّى بَصُرَ بِسَفِينَةٍ مِنْ سُفُنِ الْبَحْرِ كَثِيرَةِ الْمَتَاعِ
 قَدْ قَدِمَتْ إِلَى السَّاحِلِ ، فَخَرَجَ إِلَيْهَا جَمَاعَةٌ مِنَ التُّجَّارِ يُرِيدُونَ
 أَنْ يَتَنَاعَوْا مِمَّا فِيهَا مِنَ الْمَتَاعِ . فَحَلَسُوا يَتَشَاوَرُونَ فِي نَاحِيَةِ
 مِنَ الْمَرْكَبِ ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ : أَرْجِعُوا يَوْمَنَا هَذَا
 لَا نَشْتَرِي مِنْهُمْ شَيْئًا حَتَّى يَكْسُدَ الْمَتَاعُ عَلَيْهِمْ فَيُرْخِصُوهُ
 عَلَيْنَا ، مَعَ أَنَّنَا مُتَحَاجُونَ إِلَيْهِ ، وَسَيَرْخُصُ . فَخَالَفَ الطَّرِيقَ
 وَجَاءَ إِلَى أَصْحَابِ الْمَرْكَبِ ، فَابْتَاعَ مِنْهُمْ مَا فِيهِ بِمِائَةِ أَلْفِ
 دِينَارٍ نَسِيئَةً ^(١) وَأَظْهَرَ أَنَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَنْقُلَ مَتَاعَهُ إِلَى مَدِينَةٍ أُخْرَى .
 فَلَمَّا سَمِعَ التُّجَّارُ ذَلِكَ خَافُوا أَنْ يَذْهَبَ ذَلِكَ الْمَتَاعُ مِنْ أَيْدِيهِمْ ،
 فَأَرْبَحُوهُ عَلَى مَا اشْتَرَاهُ مِائَةُ أَلْفِ دِرْهَمٍ ، وَأَحَالَ عَلَيْهِمْ أَصْحَابُ
 الْمَرْكَبِ بِالْبَاقِي ، وَحَمَلَ رِبْحَهُ إِلَى أَصْحَابِهِ وَكَتَبَ عَلَى بَابِ
 الْمَدِينَةِ : عَقْلُ يَوْمٍ وَاحِدٍ ثَمَنُهُ مِائَةُ أَلْفِ دِرْهَمٍ . فَلَمَّا كَانَ
 الْيَوْمُ الرَّابِعُ قَالُوا لِابْنِ الْمَلِكِ : انْطَلِقِ أَنْتِ وَاكْتَسِبِ لَنَا
 بِقَضَائِكَ وَقَدْرِكَ . فَاَنْطَلَقَ ابْنُ الْمَلِكِ حَتَّى أَتَى إِلَى بَابِ

(١) الى أجل . (٢) أى مأخذ مائة ألف درهم وأحال الخ .

لَمَدِينَةٍ جُلَسَ عَلَى مَتَكًا فِي بَابِ الْمَدِينَةِ ، وَاتَّفَقَ أَنَّ مَلِكَ
تِلْكَ النَّاحِيَةِ مَاتَ وَلَمْ يُخْلَفْ وَلَدًا وَلَا أَحَدًا ذَا قَرَابَةٍ .
فَمَرُّوا عَلَيْهِ بِجَنَازَةِ الْمَلِكِ وَلَمْ يُحْزِنُوهُ وَكُلُّهُمْ يَحْزَنُونَ . فَأَنْكَرُوا
حَالَهُ وَشَتَمَهُ الْبَوَّابُ ، وَقَالَ لَهُ : مَنْ أَنْتَ يَا هَذَا ؟ وَمَا يُجْلِسُكَ
عَلَى بَابِ الْمَدِينَةِ وَلَا نَرَاكَ تَحْزَنُ لِمَوْتِ الْمَلِكِ ؟ وَطَرَدَهُ الْبَوَّابُ
عَنِ الْبَابِ فَلَمَّا ذَهَبُوا عَادَ الْغُلَامُ جُلَسَ مَكَانَهُ . فَلَمَّا
دَفَنُوا الْمَلِكَ وَرَجَعُوا بَصُرَ بِهِ الْبَوَّابُ فَغَضِبَ وَقَالَ لَهُ :
أَلَمْ أَتَيْتُكَ عَنِ الْجُلُوسِ فِي هَذَا الْمَوْضِعِ ؟ وَأَخَذَهُ فَحَبَسَهُ .
فَلَمَّا كَانَ الْغَدُ اجْتَمَعَ أَهْلُ تِلْكَ الْمَدِينَةِ يَتَشَاوَرُونَ فِيمَنْ
يُمْلِكُونَهُ عَلَيْهِمْ ، وَكُلٌّ مِنْهُمْ يَتَطَاوَلُ يَنْظُرُ صَاحِبَهُ ، وَيَخْتَلِفُونَ
بَيْنَهُمْ . فَقَالَ لَهُمُ الْبَوَّابُ : إِنِّي رَأَيْتُ أَمْسَ غُلَامًا جَالِسًا
عَلَى الْبَابِ ، وَلَمْ أَرَهُ يَحْزَنُ لِحُزْنِنَا ، فَكَلَّمْتُهُ فَلَمْ يُجِبْنِي ،
فَطَرَدْتُهُ عَنِ الْبَابِ . فَلَمَّا عُدْتُ رَأَيْتُهُ جَالِسًا ، فَأَدْخَلْتُهُ
السُّجْنَ مَخَافَةَ أَنْ يَكُونَ عَيْنًا . فَبَعَثْتُ أَشْرَافَ أَهْلِ الْمَدِينَةِ
إِلَى الْغُلَامِ بِخُفَاءٍ بِهِ ، وَسَأَلُوهُ عَنْ حَالِهِ ، وَمَا أَقْدَمَهُ

إِلَى مَدِينَتِهِمْ . فَقَالَ : أَنَا ابْنُ مَلِكٍ فَوِيرَانَ ، وَإِنَّهُ لَمَّا مَاتَ
وَالِدِي غَلَبَنِي أَخِي عَلَى الْمُلْكِ ، فَهَرَبْتُ مِنْ يَدِهِ حَذَرًا
عَلَى نَفْسِي حَتَّى انْتَهَيْتُ إِلَى هَذِهِ الْغَايَةِ . فَلَمَّا ذَكَرَ الْغُلَامُ
مَا ذَكَرَ مِنْ أَمْرِهِ عَرَفَهُ مَنْ كَانَ يَغْشَى أَرْضَ أَبِيهِ مِنْهُمْ ،
وَأَتَوْا عَلَى أَبِيهِ خَيْرًا . ثُمَّ إِنَّ الْأَشْرَافَ اخْتَارُوا الْغُلَامَ
أَنْ يُمْلِكُوهُ عَلَيْهِمْ وَرَضُوا بِهِ . وَكَانَ لِأَهْلِ تِلْكَ الْمَدِينَةِ سُنَّةٌ
إِذَا مَلَكَوا عَلَيْهِمْ مَلِكًا حَمَلُوهُ عَلَى فَيْلٍ أَبْيَضَ ، وَطَافُوا بِهِ
حَوْلَ الْمَدِينَةِ . فَلَمَّا فَعَلُوا بِهِ ذَلِكَ مَرَّ بِبَابِ الْمَدِينَةِ فَرَأَى
الْكُتَابَةَ عَلَى الْبَابِ فَأَمَرَ أَنْ يُكْتَبَ : إِنَّ الْإِجْتِهَادَ وَالْجَمَالَ
وَالْعَقْلَ وَمَا أَصَابَ الرَّجُلُ فِي الدُّنْيَا مِنْ خَيْرٍ أَوْ شَرٍّ إِنَّمَا هُوَ
بِقَضَاءِ وَقَدَرٍ مِنَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ . وَقَدْ أزدَدْتُ فِي ذَلِكَ
اعْتِبَارًا بِمَا سَأَلَ اللَّهُ إِلَيَّ مِنَ الْكَرَامَةِ وَالْخَيْرِ .

ثُمَّ انْطَلَقَ إِلَى مَجْلِسِهِ بِفُلَسَّ عَلَى سَرِيرٍ مُلْكِهِ وَأَرْسَلَ
إِلَى أَصْحَابِهِ الَّذِينَ كَانُوا مَعَهُمْ فَأَخَضَرَهُمْ ، فَأَشْرَكَ صَاحِبَ الْعَقْلِ
مَعَ الْوُزَرَاءِ ، وَضَمَّ صَاحِبَ الْإِجْتِهَادِ إِلَى أَصْحَابِ الزَّرْعِ ،

وَأَمَرَ لِصَاحِبِ الْجَمَالِ بِمَالٍ كَثِيرٍ ثُمَّ نَفَاهُ كَيْ لَا يُفْتَنَ بِهِ .
ثُمَّ جَمَعَ عُلَمَاءَ أَرْضِهِ وَذَوِي الرَّأْيِ مِنْهُمْ وَقَالَ لَهُمْ : أَمَّا أَصْحَابِي
فَقَدْ تَيَقَّنُوا أَنَّ الَّذِي رَزَقَهُمُ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مِنَ الْخَيْرِ
إِنَّمَا هُوَ بِقَضَاءِ اللَّهِ وَقَدَرِهِ ؛ وَإِنَّمَا أَحَبُّ أَنْ تَعْلَمُوا ذَلِكَ
وَتَسْتَيَقِّنُوهُ ؛ فَإِنَّ الَّذِي مَنَحَنِي اللَّهُ وَهَيَّأَ لِي إِنَّمَا كَانَ بِقَدَرٍ ،
وَلَمْ يَكُنْ بِجَمَالٍ وَلَا عَقْلٍ وَلَا اجْتِهَادٍ . وَمَا كُنْتُ أَرْجُو إِذْ
طَرَدَنِي أَخِي أَنْ يُصِيبَنِي مَا يُعِيشُنِي مِنَ الْقُوَّةِ فَضْلًا عَنْ أَنْ
أُصِيبَ هَذِهِ الْمَنْزِلَةَ ؛ وَمَا كُنْتُ أَوْمُلُ أَنْ أَكُونَ بِهَا : لِأَنِّي
قَدْ رَأَيْتُ فِي هَذِهِ الْأَرْضِ مَنْ هُوَ أَفْضَلُ مِنِّي حُسْنًا وَجَمَالًا ،
وَأَشَدُّ اجْتِهَادًا وَأَسَدُّ رَأْيًا ، فَسَاقَنِي الْقَضَاءُ إِلَى أَنْ اعْتَزَزْتُ
بِقَدَرٍ مِنَ اللَّهِ ، وَكَانَ فِي ذَلِكَ الْجَمْعِ شَيْخٌ فَهَضَّ حَتَّى اسْتَوَى
قَائِمًا ، وَقَالَ : إِنَّكَ قَدْ تَكَلَّمْتَ بِكَلَامٍ كَامِلٍ عَقْلٍ وَحِكْمَةٍ ،
وَإِنَّ الَّذِي بَلَغَ بِكَ ذَلِكَ وَفُورُ عَقْلِكَ وَحُسْنُ ظَنِّكَ ؛
وَقَدْ حَقَّقْتَ ظَنَّنَا فِيكَ وَرَجَاءَنَا لَكَ . وَقَدْ عَرَفْنَا مَا ذَكَرْتَ ،

وَصَدَّقْنَاكَ فِيمَا وَصَفْتَ . وَالَّذِي سَأَلَ اللَّهَ إِلَيْكَ مِنَ الْمَلِكِ
وَالْكَرَامَةِ كُنْتَ أَهْلًا لَهُ ، لِمَا قَسَمَ اللَّهُ تَعَالَى لَكَ مِنَ الْعَقْلِ
وَالرَّأْيِ . وَإِنْ أَسْعَدَ النَّاسَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ مَنْ رَزَقَهُ اللَّهُ
رَأْيًا وَعَمَلًا . وَقَدْ أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْنَا إِذْ وَفَّقَكَ لَنَا عِنْدَ مَوْتِ
مَلِكِنَا وَكَرَّمَنَا بِكَ . ثُمَّ قَامَ شَيْخٌ آخَرُ سَأَلَ فَحَمِدَ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ
وَأَثْنَى عَلَيْهِ وَقَالَ : إِنِّي كُنْتُ أَخْدُمُ وَأَنَا غُلَامٌ قَبْلَ أَنْ أَكُونَ
سَائِحًا ، رَجُلًا مِنْ أَشْرَافِ النَّاسِ . فَلَمَّا بَدَأَ لِي رَفُضُ الدُّنْيَا
فَارَقْتُ ذَلِكَ الرَّجُلَ ، وَقَدْ كَانَ أَعْطَانِي مِنْ أَجْرِي دِينَارَيْنِ ،
فَارَدْتُ أَنْ أَتَصَدَّقَ بِأَحَدِهِمَا ، وَاسْتَبَقِيَ الْآخَرَ ، فَاتَيْتُ
السُّوقَ ، فَوَجَدْتُ مَعَ رَجُلٍ مِنَ الصَّيَّادِينَ زَوْجَ هُذُودٍ ،
فَسَاوَمْتُهُ فِيهِمَا فَأَبَى الصَّيَّادُ أَنْ يَبِيعَهُمَا إِلَّا بِدِينَارَيْنِ ؛
فَاجْتَهَدْتُ أَنْ يَبِيعَنِيهِمَا بِدِينَارٍ وَاحِدٍ فَأَبَى . فَقُلْتُ فِي نَفْسِي :
أَشْتَرِي أَحَدَهُمَا وَأَتْرُكُ الْآخَرَ . ثُمَّ فَكَّرْتُ وَقُلْتُ لِعَلَّهُمَا
يَكُونَانِ زَوْجَيْنِ ذَكَرًا وَأُنْثَى فَافَرَّقَ بَيْنَهُمَا ، فَادْرَكْنِي لَهَا رَحْمَةٌ

فَتَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ وَابْتَغَيْتُهُمَا بِيَدَيَّارَيْنِ وَأَشْفَقْتُ إِنْ أُرْسَلْتُهُمَا
 فِي أَرْضٍ عَامِرَةٍ أَنْ يُصَادَا ، وَلَا يَسْتَطِيعَا أَنْ يَطِيرَا مِمَّا لَقِيَا
 مِنَ الْجُوعِ وَالْهَزَالِ ، وَلَمْ آمَنْ عَلَيْهِمَا الْآفَاتِ . فَاَنْطَلَقْتُ
 بِهِمَا إِلَى مَكَانٍ كَثِيرِ الْمَرْعَى وَالْأَشْجَارِ بَعِيدٍ عَنِ النَّاسِ
 وَالْعُمَرَانِ ، فَأُرْسَلْتُهُمَا ؛ فَطَارَا وَوَقَعَا عَلَى شَجَرَةٍ مُثْمِرَةٍ .
 فَلَمَّا صَارَا فِي أَعْلَاهَا شَكَرَا لِي ، وَسَمِعْتُ أَحَدَهُمَا يَقُولُ
 لِلْآخَرِ : لَقَدْ خَلَصْنَا هَذَا السَّائِحُ مِنَ الْبَلَاءِ الَّذِي كُنَّا فِيهِ ،
 وَاسْتَنْقَذَنَا وَنَجَّانَا مِنَ الْهَلَكَةِ . وَإِنَّا لَخَلِيقَانِ أَنْ نُكَافِئَهُ
 بِفِعْلِهِ . وَإِنَّ فِي أَصْلِ هَذِهِ الشَّجَرَةِ جَرَّةً مَمْلُوءَةً دَنَانِيرَ .
 أَفَلَا نَذُلُّهُ عَلَيْهَا فَيَأْخُذُهَا ؟ فَقُلْتُ لَهُمَا : كَيْفَ تَدُلَّانِي
 عَلَى كَنْزٍ لَمْ تَرَهُ الْعُيُونُ وَأَنْتُمَا لَمْ تُبْصِرَا الشَّبَكَةَ ؟ فَقَالَا :
 إِنَّ الْقَضَاءَ إِذَا نَزَلَ صَرَفَ الْعُيُونَ عَنْ مَوْضِعِ الشَّيْءِ وَغَشَّى
 الْبَصَرَ . وَإِنَّمَا صَرَفَ الْقَضَاءُ أَعْيُنَنَا عَنِ الشَّرِكِ وَلَمْ يَصْرِفْهَا
 عَنْ هَذَا الْكَنْزِ . فَاحْتَفَرْتُ^(١) وَاسْتَخْرَجْتُ الْبَرْنِيَّةَ وَهِيَ

مَمْلُوءَةٌ دَنَانِيرَ ، فَدَعَوْتُ لَهُمَا بِالْعَافِيَةِ ، وَقُلْتُ لَهُمَا :
 الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي عَلَّمَكُمَا مَا لَمْ تَعْلَمَا ، وَأَنْتُمَا تَطِيرَانِ فِي السَّمَاءِ ،
 وَأَخْبِرْتُمَا بِمَا تَحْتَ الْأَرْضِ . فَقَالَا لِي : أَيُّهَا الْعَاقِلُ ،
 أَمَا تَعْلَمُ أَنَّ الْقَدَرَ غَالِبٌ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ ، لَا يَسْتَطِيعُ أَحَدٌ
 أَنْ يَنْجُوَ مِنْهُ . وَأَنَا أَخْبِرُ الْمَلِكَ بِذَلِكَ الَّذِي رَأَيْتُهُ : فَإِنْ أَمَرَ
 الْمَلِكُ أَتَيْتُهُ بِالْمَالِ فَأَوْدَعْتُهُ فِي خَزَائِنِهِ . فَقَالَ الْمَلِكُ
 ذَلِكَ لَكَ ، وَمَوْفَّرٌ عَلَيْكَ .

(انتهى باب ابن الملك وأصحابه)

• بَابُ الْحَمَامَةِ وَالْتَّغْلِبِ وَمَالِكِ الْحَزِينِ

وَهُوَ بَابٌ مَنْ يَرَى الرَّأْيَ لِغَيْرِهِ وَلَا يَرَاهُ لِنَفْسِهِ . قَالَ الْمَلِكُ
 لِلْفَيْلَسُوفِ : قَدْ سَمِعْتُ هَذَا الْمَثَلَ فَاضْرِبْ لِي مَثَلًا
 فِي شَأْنِ الرَّجُلِ الَّذِي يَرَى الرَّأْيَ لِغَيْرِهِ وَلَا يَرَاهُ لِنَفْسِهِ .
 قَالَ الْفَيْلَسُوفُ : إِنَّ مَثَلَ ذَلِكَ مَثَلُ الْحَمَامَةِ وَالْتَّغْلِبِ وَمَالِكِ
 الْحَزِينِ . قَالَ الْمَلِكُ : وَمَا مَثَلُهُنَّ ؟

قَالَ الْفَيْلَسُوفُ : زَعَمُوا أَنَّ حَمَامَةً كَانَتْ تُفْرِخُ فِي رَأْسِ
 نَخْلَةٍ طَوِيلَةٍ ذَاهِبَةٍ فِي السَّمَاءِ ، فَكَانَتْ الْحَمَامَةُ تَشْرَعُ فِي نَقْلِ
 الْعُشِّ إِلَى رَأْسِ تِلْكَ النَّخْلَةِ ، فَلَا يُمَكِّنُ أَنْ تَنْقُلَ مَا تَنْقُلُ
 مِنْ الْعُشِّ وَتَجْعَلَهُ تَحْتَ الْبَيْضِ إِلَّا بَعْدَ شِدَّةٍ وَتَعَبٍ وَمَشَقَّةٍ :
 لَطُولِ النَّخْلَةِ وَسُخْقِهَا ، فَإِذَا فَرَعَتْ مِنَ النَّقْلِ بَاضَتْ
 ثُمَّ حَضَنْتْ بَيْضَهَا ، فَإِذَا فَقَسَتْ وَأَدْرَكَ فِرَاحُهَا جَاءَهَا ثَعْلَبٌ
 قَدْ تَعَاهَدَ ذَلِكَ مِنْهَا لَوَقْتٍ قَدْ عَلِمَهُ بِقَدْرِ مَا يَنْهَضُ فِرَاحُهَا ،
 فَيَقِفُ بِأَصْلِ النَّخْلَةِ فَيَصِيحُ بِهَا وَيَتَوَعَّدُهَا أَنْ يَرْقَى إِلَيْهَا
 فَنُتْلِقِي إِلَيْهِ فِرَاحُهَا . فَبَيْنَمَا هِيَ ذَاتَ يَوْمٍ قَدْ أَدْرَكَ لَهَا فِرْخَانِ
 إِذْ أَقْبَلَ مَالِكُ الْحَزِينِ فَوَقَعَ عَلَى النَّخْلَةِ . فَلَمَّا رَأَى الْحَمَامَةُ
 كَثِيبَةً حَزِينَةً شَدِيدَةً الْهَمِّ قَالَ لَهَا مَالِكُ الْحَزِينِ : يَا حَمَامَةُ ،
 مَا لِي أَرَاكَ كَاسِفَةً اللَّوْنَ سَيِّئَةَ الْحَالِ ؟ فَقَالَتْ لَهُ : يَا مَالِكُ
 الْحَزِينِ ، إِنَّ ثَعْلَبًا دُهَيْتُ بِهِ كُلَّمَا كَانَ لِي فِرْخَانِ جَاءَنِي يُهْدِدُنِي
 وَيَصِيحُ فِي أَصْلِ النَّخْلَةِ ، فَأَفْرُقُ مِنْهُ فَأَطْرَحُ إِلَيْهِ فَرَنْحَى .
 قَالَ لَهَا مَالِكُ الْحَزِينِ : إِذَا أَتَاكَ لِيَفْعَلَ مَا تَقُولِينَ فَقُولِي لَهُ :

لَا أُلْقِي إِلَيْكَ فَرْنَحِي ، فَارَقَ إِلَى وَغَرَزَ بِنَفْسِكَ . فَإِذَا فَعَلْتَ
ذَلِكَ وَأَكَلْتَ فَرْنَحِي ، طَرْتُ عَنْكَ وَنَجَوْتُ بِنَفْسِي . فَلَمَّا عَلِمَهَا
مَالِكُ الْحَزِينُ هَذِهِ الْحِيلَةَ طَارَ فَوْقَ عَلَى شَاطِئِ نَهْرٍ . فَأَقْبَلَ
الثَّعْلَبُ فِي الْوَقْتِ الَّذِي عَرَفَ ، فَوَقَفَ تَحْتَهَا ، ثُمَّ صَاحَ كَمَا كَانَ
يَفْعَلُ . فَأَجَابَتْهُ الْحَمَامَةُ بِمَا عَلِمَهَا مَالِكُ الْحَزِينُ . فَقَالَ لَهَا
الثَّعْلَبُ : أَخْبِرِيْنِي مَنْ عَلَمَكَ هَذَا ؟ قَالَتْ : عَلَّمَنِي مَالِكُ
الْحَزِينُ . فَتَوَجَّهَ الثَّعْلَبُ حَتَّى أَتَى مَالِكًا الْحَزِينُ عَلَى شَاطِئِ
النَّهْرِ ، فَوَجَدَهُ وَاقِفًا . فَقَالَ لَهُ الثَّعْلَبُ : يَا مَالِكُ الْحَزِينُ :
إِذَا أَتَيْتَكَ الرِّيحُ عَنْ يَمِينِكَ فَأَيْنَ تَجْعَلُ رَأْسَكَ ؟ قَالَ : عَنْ
شِمَالِي . قَالَ : فَإِذَا أَتَيْتَكَ عَنْ شِمَالِكَ فَأَيْنَ تَجْعَلُ رَأْسَكَ ؟
قَالَ : أَجْعَلُهُ عَنْ يَمِينِي أَوْ خَلْفِي . قَالَ : فَإِذَا أَتَيْتَكَ الرِّيحُ مِنْ
كُلِّ مَكَانٍ وَكُلِّ نَاحِيَةٍ فَأَيْنَ تَجْعَلُهُ ؟ قَالَ : أَجْعَلُهُ تَحْتَ جَنَاحِي .
قَالَ : وَكَيْفَ تَسْتَطِيعُ أَنْ تَجْعَلَهُ تَحْتَ جَنَاحِكَ ؟ مَا أَرَاهُ يَتَهَيَّأُ لَكَ .
قَالَ : بَلَى : قَالَ : فَأَرِنِي كَيْفَ تَصْنَعُ ؟ فَلَعَمْرِي يَا مَعْشَرَ
الطَّيْرِ لَقَدْ فَضَلَكُمُ اللَّهُ عَلَيْنَا . إِنَّكَ تَدْرِيْنِ فِي سَاعَةٍ وَاحِدَةٍ مِثْلَ

مَا نَدْرِى فِي سَنَةٍ ، وَتَبْلُغْنَ مَا لَا نَبْلُغُ ، وَتَدْخُلْنَ رُءُوسَكُنَّ تَحْتَ
 أَجْنِحَتِكُنَّ مِنْ الْبَرْدِ وَالرَّيْحِ . فَهَنِيئًا لَكُنَّ فَأَرِنِي كَيْفَ
 تَصْنَعُ . فَأَدْخَلَ الطَّائِرُ رَأْسَهُ تَحْتَ جَنَاحِهِ ، فَوَثَبَ عَلَيْهِ الثَّعْلَبُ
 مَكَانَهُ فَأَخَذَهُ فَهَمَزَهُ هَمْزَةً دَقَّتْ عُنُقُهُ . ثُمَّ قَالَ : يَا عَدُوَّ نَفْسِي ،
 تَرَى الرَّأْيَ لِلْحَمَامَةِ ، وَتُعَلِّمُهَا الْحِيلَةَ لِنَفْسِهَا ، وَتَعْجِزُ عَنْ ذَلِكَ
 لِنَفْسِكَ ، حَتَّى يَسْتَمِكَ مِنْكَ عَدُوُّكَ ، ثُمَّ أَجْهَزَ عَلَيْهِ وَأَكَلَهُ .

فَلَمَّا انْتَهَى الْمَنْطِقُ لِلْمَلِكِ وَالْفِيلَسُوفِ إِلَى هَذَا الْمَكَانِ
 سَكَتَ الْمَلِكُ . فَقَالَ لَهُ الْفِيلَسُوفُ : أَيُّهَا الْمَلِكُ ، عِشْتَ
 أَلْفَ سَنَةٍ ، وَمَلَكَتِ الْأَقَالِيمَ السَّبْعَةَ ، وَأُعْطِيتَ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ
 سَبَبًا ، مَعَ وَفُورِ سُرُورِكَ وَقُوَّةِ عَيْنِ رِعِيَّتِكَ بِكَ ، وَمُسَاعَدَةِ
 الْقَضَاءِ وَالْقَدَرِ لَكَ ، فَإِنَّهُ قَدْ كَمَلَ فِيكَ الْحِلْمُ وَالْعِلْمُ ، وَزَكَ
 مِنْكَ الْعَقْلُ وَالْقَوْلُ وَالنِّيَّةُ ، فَلَا يُوجَدُ فِي رَأْيِكَ نَقْصٌ ،
 وَلَا فِي قَوْلِكَ سَقَطٌ وَلَا عَيْبٌ . وَقَدْ جَمَعْتَ النِّجْدَةَ وَاللِّينَ ،
 فَلَا تُوجَدُ جَبَانًا عِنْدَ الْإِقَاءِ ، وَلَا ضَيْقَ الصَّدْرِ عِنْدَ مَا يَنْبُوكَ
 مِنَ الْأَشْيَاءِ . وَقَدْ جَمَعْتَ لَكَ فِي هَذَا الْحِجَابِ شَمْلَ بَيَانِ

الأمور ، وشرختُ لك جوابَ ما سألتني عنه منها ، فأبْلَغْتُكَ
 فِي ذَلِكَ غَايَةَ نُصْحِي ، وَاجْتَهَدْتُ فِيهِ بِرَأْيِي وَنَظَرِي وَمَبْلَغِ
 فِطْنَتِي ، التِمَاسًا لِقَضَاءِ حَقِّكَ وَحُسْنِ النِّيَّةِ مِنْكَ . بِإِغْمَالِ
 الْفِكْرَةِ وَالْعَقْلِ . بِفَاءٍ كَمَا وَصَفْتُ لَكَ مِنَ النَّصِيحَةِ وَالْمَوْعِظَةِ ،
 مَعَ أَنَّهُ لَيْسَ الْأَمْرُ بِالْخَيْرِ بِأَسْعَدَ مِنَ الْمُطِيعِ لَهُ فِيهِ ،
 وَلَا النَّاصِحُ بِأَوْلَى بِالنَّصِيحَةِ مِنَ الْمَنْصُوحِ ، وَلَا الْمَعْلَمُ لِلْخَيْرِ
 بِأَسْعَدَ مِنَ مُتَعَلِّهِ مِنْهُ . فَافْهَمْ ذَلِكَ أَيُّهَا الْمَلِكُ ، وَلَا حَوْلَ
 وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ الْعَلِيِّ الْعَظِيمِ

(انتهت الطبعة السابعة عشرة)

١٣٥٥ هـ ١٩٣٦ م

تم طبع هذا الكتاب بالمطبعة الأميرية ببولاق
في يوم الأربعاء ٢٠٠ من ربيع الأول سنة ١٣٥٥
(١٠ من يونيو سنة ١٩٣٦) م

مدير المطبعة الأميرية
محمد أمين الجبهجت

